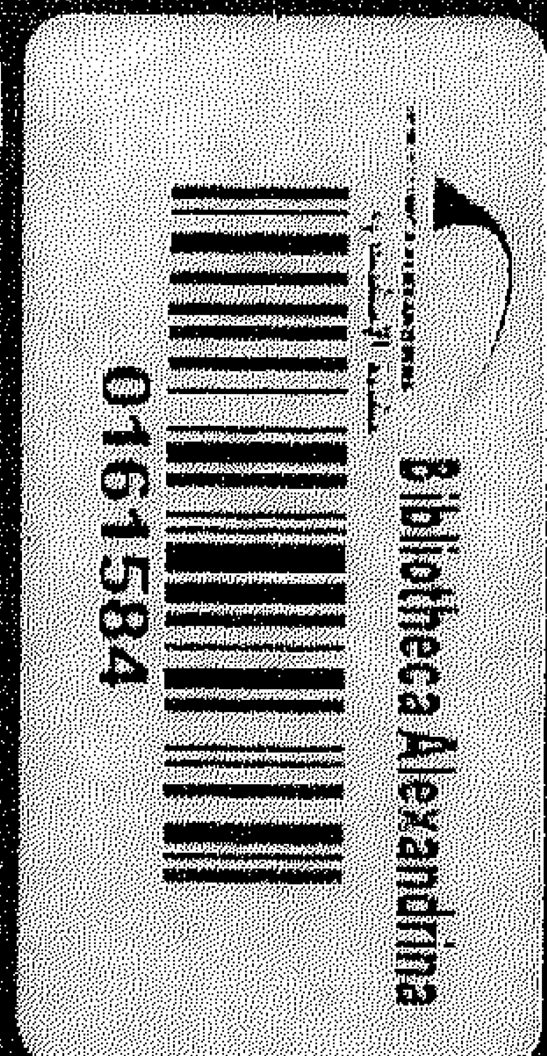
د. رأفت عبد الحميد

الدولة والكنيسة

٣

قيصر والمسيح



دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب

الجزء الثالث

الدولة .. والكنيسة

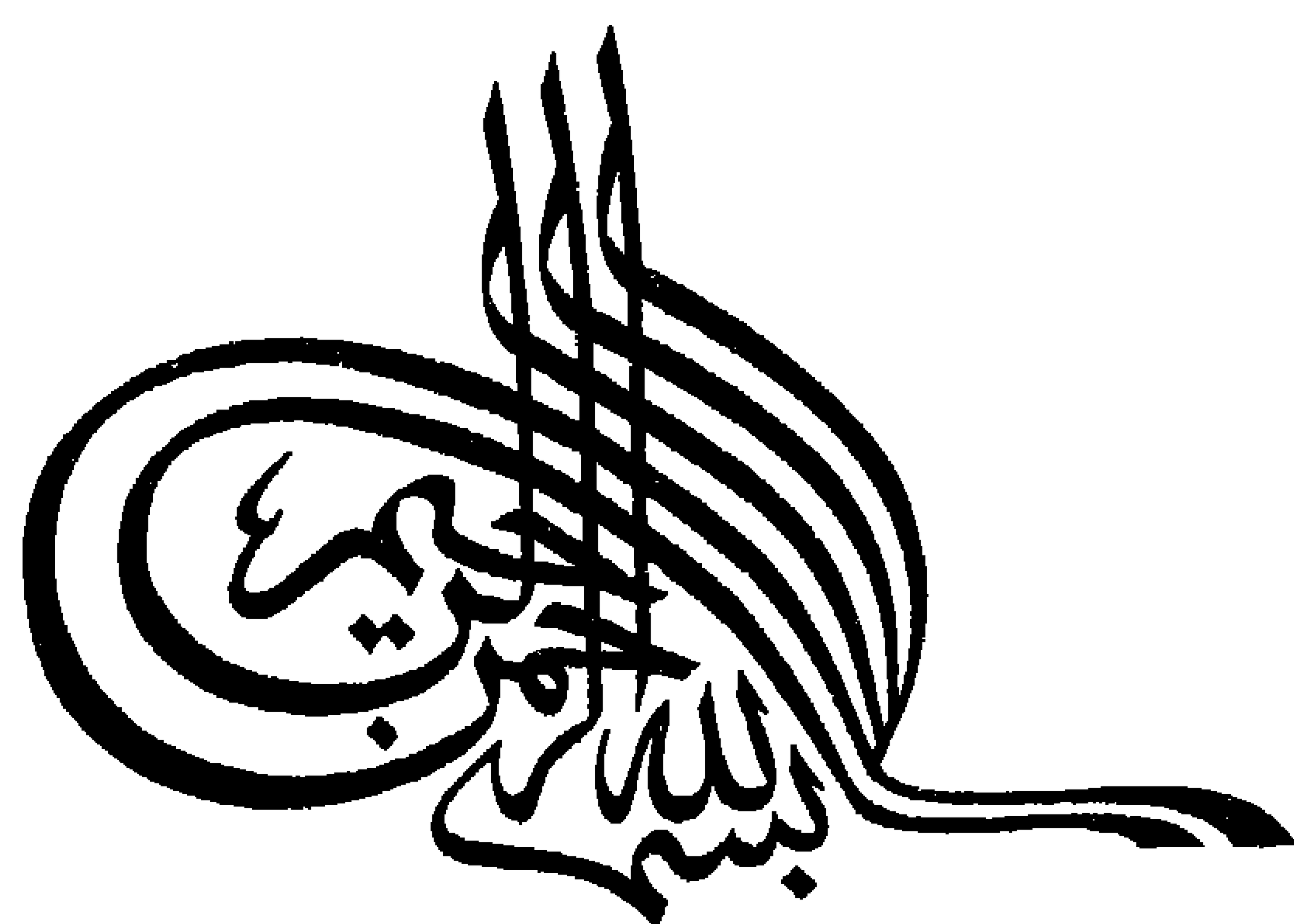
قيصر والمسيح

د. رأفت عبد الحميد

الناشــر
دار قبــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب : الدولة والكنيسة - القيصر والمسيح - (الجزء الثالث)
المـــؤلـــف : أ . د رأفت عبدالحميد
رقـم الإيـداع : ١٩٩٩/١١٩٩٢
الترقيم الدولى : I S B N
977-303-190-X
تاريخ النشـــر: ٢٠٠١ م

النـاشــــــر : **دار قباء للطباعة و النشر والتوزيع (عبده غريب)**
شركة مساهمة مصرية
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج امون - الدور الأول - شقة ٦
☎ ٦٣٦٢٥٦٢ - فاكس / ٦٣٧٤٠٣٨
التـــــوزيع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ : ١٢٢ (الفجالة)
المـــطـــابـــع : مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الطبعة الثالثة

ليس أسعد إلى قلب مؤلف من أن يقدم إلى قرائه كتاباً تلقفته عيونهم وعقولهم بالثناء والتقريظ ، وليس أحب إلى نفسه من أن يضيف إلى ما علموه ما تعلمه هو نفسه فى مجال بحثه ودراسته من هنا تأتى سعادتى غامرة وأنا أقدم إلى قراء العربية ومكتبتها الطبعة الثالثة من الجزء الثالث من موسوعة الدولة والكنيسة .

والفترة التى يتناولها هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن ، فترة هامة وحرجة تمثل منعطفاً خطيراً فى تاريخ العلاقة الطويلة بين الدولة والكنيسة ، نعنى بذلك محاولة كل طرف تحديد الإطار ورسم الخطوط العريضة لهذه العلاقة ، ولما كان الفكر السياسى الرومانى ، كما علمنا من خلال الجزء الثانى من الموسوعة – يرفض قيام دولة داخل دولة ، ولما كانت الكنيسة لا تزال حديثة عهد بالتسامح الذى منحتها الدولة إياه ، وأنعمت بهّا عليه ، لم يكن من السهل ، أو بتعبير أكثر دقة ، من المستساغ أن ترفع الكنيسة رأسها معارضة ، ولا أن تقيم لنفسها كياناً مستقلاً داخل الدولة كما كانت تطمح وتطمع .

وهذا الكتاب يعالج بالتفصيل الدقيق ذلك الخلاف الجوهرى الذى كان قائماً بين طرفى العلاقة ، ومن ثم آثرت أن أستعير من المؤرخ الفيلسوف "ول ديورنت" ومؤلفه الضخم " قصة الحضارة " هذا العنوان الفرعى " قيصر والمسيح " لأضعه عنواناً إضافياً لهذا الجزء الثالث من الموسوعة لأنه يعبر بدقة كاملة عن واقع حال العلاقة بين الدولة والكنيسة ، ويبرز الأمور والسلطات البعيدة التى كان يحرص عليها " القيصر " ، أعنى الإمبراطور الرومانى فى إطار الشرعية والقوانين

الـــرومانية ، والمحاولات التى كانت تبذلها الكنيسة ، ممثلة آنذاك فى شخصية من أهـــم شخصياتها فى القرن الرابع الميلادى ، نعنى أثناسيوس الأسقف السكندرى ، الـــذى عاصــــر عـــدداً ليس بالقليل من الأباطرة ، وكان له مع كل منهم شأن غير الشأن.

ذلك مبلغى من العلم .. فإذا أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمن نفسى .

رأفت عبد الحميد محمد

الفاتحـــة

فى بداية القرن الرابع الميلادى كانت الكنيسة تكابد أشد ويلات الاضطهاد فى آخـــر رحلات العذاب على امتداد القرون الثلاثة الأولى من عمرها، تتلفت عن يمين وشـــمال علها تجد فى النجاة بارقة أمل، حتى إذا اعتلى قسطنطين العرش امبراطورا شريكا ثم فردا، بسط للمسيحية راحتيه لتعلو بهما لا عليهما. وأقبلت إليه الكنيسة تفتح بـــالحب ذراعيهـــا وترفعه بأقلام مؤرخيها إلى عليين. ولكنها فى الوقت ذاته وبنفس الذراعيـــن أطبقت على فكر الإمبراطور وجهده ووقته طيلة حكمه لتغرقه فى جدلها اللاهوتى. وإذا كانت الدولة قد أفلحت فى أن تحتوى الكنيسة زمن قسطنطين سيادة، فإن الكنيسة نجحت فى أن تجر الدولة إلى تيه فكرها العقيدى.

فـــلما ارتحـــل عن الدنيا قسطنطين، وأفاقت الكنيسة، أرادت أن توجد لنفسها كيانـــا، مستغلة فى ذلك فرصة انتصار الدولة لها. ولكن الفكر الرومانى الذى كان يرفض قيام كيان مستقل داخل الدولة زمن الأباطرة الوثنيين، ظل دون تغير بعد أن مـــالت الدولـــة إلى المسيحية. بل إن الكنيسة فقدت فى ظل السيادة المسيحية للدولة شيئا كان يعد أهم خصائصها، وهو بحث أمورها العقيدية والتنظيمية دون تدخل من جانب الدولة، فلا نكاد نجد إمبراطورا واحدا منذ القرن الرابع حتى الخامس عشر، عمـــر الإمـــبراطورية الـــبيزنطية، إلا وأدخـــل أنفـــه وأصـــابعه فى ذلك الجدال الكريستولوجى.

وإذا كان قسطنطين قد استطاع بمقدرته وكفاءته أن يبسط سلطان الدولة على الكنيســـة، فـــإن أبناءه وخلفاءه المباشرين لم يكن لهم شئ من ذكاء سلفهم ومهارته السياســـية، فـــأعطوا بذلك الفرصة للكنيسة على امتداد نصف قرن من الزمان أن تـــرفع الـــرأس معارضة بل متحدية. وتولت كنيسة الإسكندرية فى شخص أسقفها أثناسيوس مهمة قيادة عالم المسيحية خلال هذه الفترة.

ولمـــا كـــنت قـــد خصصت الكتاب الثانى من الدولة والكنيسة للحديث عن

الإمبراطور قسطنطين من خلال العلاقة بين الوثنية والمسيحية ، فقد رأيت أن أُفرد الكـتاب الـثالث هذا للأسقف السكندرى أثناسيوس. وتناولت من خلال شخصيته، وأسقفيته الطويلة، وعقيدته، وفكره، وسياسته، علاقة الدولة بالكنيسة أبان هذه الفترة التى تعد من أهم الفترات فى تاريخ العلاقة بينهما.

فلقد رفض أثناسيوس بعناد قبول الآراء الآريوسية، وأعلن تمسكه منذ البداية بالعقيدة التى وضعها أساقفة مجمع نيقية سنة ٣٢٥ والتى ذاعت باسم العقيدة النيقية، تـلك الـتى أضـحت تشكل مع أثناسيوس جوهرا واحدا. وكانت الآراء الآريوسية محـور جـدال القرن الرابع كله، ومن خلال التصدى لها أخذ الأسقف السكندرى مكانـه إلى الصـفوف الأولى فى زعامة الكنيسة، ومن ثم ليس عجبا أن نقول إن الآريوسية كانت طريق أثناسيوس إلى عالم الشهرة والزعامة.

ذلك أن أسقف الإسكندرية كان لابد له أن يصطدم بأساقفة الآريوسية وأباطرتها، وإذا كـان نفر من رجال هذه العقيدة قد حاربوا أثناسيوس دفاعا عن فكر آمنوا به حقا، فـإن طائفة أخرى نشأت كنمو طبيعى للعلاقة الجديدة بين الدولة والكنيسة أطلقنا عليهم "أسـاقفة الـبلاط" راحوا يصارعون الرجل من أجل الزعامة الكنسية والسلطان وكان هـناك بالمثل عند النيقية أساقفة لعبوا الدور نفسه . ولا شك أن أساقفة القسطنطينية فى القـرن الـرابع الميـلادى، يوسيبيوس النيقوميدى، ويودوكسيوس، وديموفيلوس، الذين عايشـوا عهـد أثناسـيوس، كـانوا ينظرون بعين الحقد والكراهية والغيرة إلى كنيسة الإسكندرية، وكان أولهم أشد لها مقتا ولأسقفها حسدا.

فقد كان هؤلاء الأساقفة يدركون أن "روما الجديدة" لا يمكن أن تقترب مكانة مـن الاسـكندرية، وأن كنيسـتها المحدثة ما زالت فى طور الطفولة أمام حاضرة الفكـر. ولـم يكن للقسطنطينية من سند يدعمها فى هذا الصراع الكنسى من أجل الـزعامة، إلا أنهـا عاصـمة الإمـبراطورية ومستقر الأباطرة، ولذا رأى أساقفة العاصـمة أن يسـتعدوا على كنيسة الإسكندرية، فى شخص أسقفها، الأباطرة من قسطنطين الكبير إلى فالنز، خاصة وأن أثناسيوس كان يشكل حجر عثرة فى سبيل انتصار الآريوسية، لا فى مصر وحدها بل فى الغرب الإمبراطوري أيضا.

ولقـد صـادفت هـذه الـنغمة من جانب الأساقفة السياسيين هوى فى نفوس الأباطـرة، قسـطنطين الكبير، وولده قسطنطيوس، وفالنز. وقد أقاموا جميعا حكمهم عـلى أسـس استبدادية. وتمكن هؤلاء الأساقفة مستغلين سلوك أثناسيوس فى أسقفيته وتجـاههم وتجـاه الأباطـرة، أن يصوروا لهؤلاء أن أثناسيوس يقف عقبة كأداء فى سـبيل إتمـام سـيادة الدولـة عـلى الكنيسة. من أجل هذا، وللخلاف العقيدى بين قسـطنطيوس وجوليان وفالنز من ناحية والأسقف السكندرى من ناحية أخرى، والذى تحول إلى عداء شخصى، تعرض أثناسيوس للطرد من أسقفيته خمس مرات تباعا.

ولكـن أثناسيوس لم يقف مكتوف الأيدى أمام سياسة الأساقفة والأباطرة؛ إذ اتـبع سياسة معينة تحقق له نجاح فكره، وترسم حدود علاقته بالدولة، وأقام دعائم سياسـته هـذه عـلى ركيزتين أساسيتين، الغرب الإمبراطوري بإمبراطوريه على الـتوالى؛ قسـطنطين الثانى وقنسطانز، وأساقفته واكليروسه وعاطفة الجموع من ناحية، وجموع الرهبان فى مصر وشعب الكنيسة فيها، وكتاباته من ناحية أخرى.

ولم يكن أثناسيوس هو الذى اختار فى المرحلة الأولى معالم الطريق، ولكنه القـدر. إذ أبعـده الإمبراطور قسطنطين إلى الغرب طريدا سنة ٣٣٥، وهنا أشار أثناسـيوس لـلقدر أن دوره قـد انتهى، وأمسك هو بخيوط الطريق، حتى أفلح فى الـنهاية أن يخرج لنفسه نسيجا متينا، ذلك أن أثناسيوس شعر بأن أساقفة الآريوسية قد جعلوه وحيدا فى معزل، بعد أن وقف الشرق كله يناصر عقيدة آريوس، وبصفة خاصـة بعـد موت قسطنطين، فى الوقت الذى ظل فيه الغرب بأسره محافظا على الإيمـان النيقى، ولهذا اختار أسقف الإسكندرية بنفسه الغرب مكانا لمهربه فى نفيه الثانى، وساعده على ذلك، وكان فى الوقت ذاته من عوامل نجاحه، أن الغرب نأى بنفسه منذ الوهلة الأولى عن هذا المعترك اللاهوتى الدائر جدالا من حوال المسيح، ورأى فى أثناسـيوس الذى بقى طيلة حياته حريصا على الإيمان النيقى، أسقفا ليس بالغريب عنه فأعطاه ثقته ووقف من ورائه مؤيدا.

عـلى أن الأهميـة الحقيقيـة لهذا التأييد تمثلت فى أن ولدى قسطنطين فى الغـرب، قسـطنطين الثانى وقنسطانز آمنا بما دانت به رعيتهم، وتابعا الاقليم فى

عقيدته، دون أن يدركا من أمر الجدال اللاهوتى شيئا، فلما قتل قسطنطين الصغير، انفـرد قنسطانز بالحكم فى هذه المنطقة الشاسعة من الإمبراطورية بعد أن ضم إليه أملاك أخيه القتيل، ونصّب من نفسه حاميا للنيقية. وتمكن أثناسيوس من أن يحوز ثقة الإمبراطور إلى الحد الذى دفع هذا إلى أن يستل سيفه مهددا باستخدامه ضد أخيه فى الشرق من أجل أثناسيوس!

لقد كان الهدف الحقيقى للأسقف السكندرى فى هذه المرحلة أن يكسب إلى جانب قضيته عالم الغرب كله، الجموع والاكليروس والإمبراطور، ضد الإمبراطور الآريوسى وأساقفة بلاطه. وقد نجح فى ذلك حقا بانعقاد مجمع سرديكا سنة ٣٤٣ وعودته إلى الإسكندرية ظافرا. وكانت دلالة هذا النجاح البالغة أن أثناسيوس كسب إلى صفه أساقفة روما على التوالى يوليوس وليبريوس وداماسوس، والأسقف القرطبى هوسيوس، والذى يلفت النظر حقا هو أنه ضم إلى صفه رجل الغرب الشهير هيلارى أسقف بوانييه، الذى سخر قلمه دفاعا عن أثناسيوس وقضيته، ونفى من أجله، رغم أن أسقف غالة هذا لم يلق الأسقف السكندرى مرة واحدة، ورغم أن أثناسيوس لم يعرف عن هيلارى شيئا، بل ربما لم يسمع عنه مطلقا!!

أما المرحلة الثانية، أو الدعامة الأخرى فهى لا تقل عن الأولى أهمية بل تفوقها، ولكنها تختلف عنها فى أن أثناسيوس أقدم عليها وهو مدرك تماما لما يفعل، بل قصد إلى ذلك بالوعى كله، عندما راح يذرع مصر كلها من فم النيل إلى طيبة، منذ اليوم الأول لاعتلائه كرسى الأسقفية، تدعيما لسيادته.

لقد كانت مصر تشهد آنذاك حركة فريدة فى عالم المسيحية، فقد امتلأت فيافيها والقفار بجماعات عديدة من الرهبان، انتشروا ما بين صحراء وادى النطرون إلى ما بعد طيبة، كان هؤلاء قد خرجوا إلى الصحراء هربا من الاضطهادات التى أنزلها الأباطرة الوثنيون بساحة المسيحيين. فلما انقشعت غمة الاضطهاد، عاد بعض إلى سابق عهدهم بالحياة، بينما آثر عدد كبير منهم البقاء، وقد استهوت هذه الحياة الكثيربن بما أحاط الرهبان به أنفسهم من مسوح الزهد

والتقشف، فتبعهم عدد جم من الجموع المسيحية إلى الصحراء، عاش بعضهم متوحدين فى صوامع متفرقة، وأنشأ الآخرون لأنفسهم أديارا، كان على رأسها زمن أسقفية أثناسيوس الأديرة الباخومية.

وبالايمان البسيط البعيد عن اعمال الفكر، حيا هؤلاء الرهبان، فقد كان معظمهم، إن لم يكن كلهم، قليل الثقافة، فتعصبوا بشدة لعقيدتهم، وبنفس القدر من الكراهية التى حملها هؤلاء لأباطرة الرومان الوثنيين. امتلأت نفوسهم مقتا للآريوسية وأباطرتها، فلم يكونوا بالدرجة التى تمكنهم من فهم آراء آريوس وعقيدته، وكان ذلك هو الباب الذى فتح على مصراعيه ليصل به أثناسيوس إليهم وليكون إليهم قريبا محببا، رأوا فيه صورة إيمانهم، وفى نزاعه مع الأباطرة تجسيدا لآلامهم والآمال. وساعد أثناسيوس على ذلك أنه، على الرغم من عدم إلمامه بالثقافة المصرية، كان على قدر من المعرفة كبير باللغة المصرية القديمة، لسان الرهبان، ومن ثم وضع أسقف الإسكندرية نفسه على رأس هذه الحركة الرهبانية، واتخذ منهم سندا ومعينا، وآوى إليهم من فترات نفيه الخمس ثلاث مرات، ووجد فيهم قوة هائلة يتحدى بها سلطان الأباطرة، وخاصة بذلك التنظيم الدقيق لديهم والسرية التامة التى كان يقتضيها الحفاظ على حياة الأسقف السكندرى. ولهذا كان نجاح أثناسيوس فى هذه الناحية يفوق بكثير نجاحه فى سابقتها.

وكان أنطونيوس أبو الرهبان صديقا للأسقف مخلصا، جاء إلى الإسكندرية ذات مرة ليعلن أمام الجميع وقوف الرهبان إلى جوار الأسقف، بل إن أشد الناس قربا لأثناسيوس كان الراهب سرابيون، وقد جعل منه أثناسيوس سفيرا له فى أخطر المراحل التى تعرض لها الأسقف السكندرى، وملأ جل الأسقفيات بهؤلاء الأنصار. وإذا أدركنا ذلك النفوذ الكبير والتأثير العميق الذى يتركه الرهبان فى جموع المسيحيين عندئذ، علمنا إلى أى حد كان هؤلاء الرهبان يشكلون قوة لا يستهان بها، أو على حد تعبير أحد المؤرخين "جيشا كبيرا".

ووسط هؤلاء الرهبان وفى حماهم كتب أثناسيوس جل أعماله التى خلفها

لـنا، ووجـه معظمها وأهمها إلى ساكنى الأديار والمتوحدين، رمز اعزاز وتقدير، وحـثا عـلى الـتراص وراءه ضد أباطرة بيزنطة والعقيدة الآريوسية. وكان قلم أثناسيوس سلاحا هاما فى معركته هذه ضد الإمبراطورية.

بهذيـن الجـناحين، الغـرب ورهبان مصر، وبقلمه كذلك، نجح أثناسيوس فى سياسـته. لقـد كان الأسقف يعرف تماما قدر مدينته ومكانة كنيسته، لقد كانت من قبل عاصمة إمبراطورية شاسعة، ومركزا لثقافة وفكر عالم الهلنستية، فلما جاءتها المسيحية أخـرجت كنيسـتها لهذا العالم الجديد كلمنت وأوريجن وديونيسيوس. ومن هنا أيقن أن رومـا الجديدة ما تزال حديثة عهد سياسيا وعقيديا، فلم تر الوجود إلا فى القرن الرابع على يد قسطنطين، أما الاسكندرية فقد سبقتها إلى الحياة منذ ستة قرون وينيف، ومن ثم لـم يكن ليسمح لهذه المدينة الجديدة، حتى لو كانت عاصمة الإمبراطورية، التى يعتبر هـو أحـد رعاياهـا، أن تتعالى على مدينته وأسقفيته، وبهذا الواقع وبستار العقيدة من الخصـوم، تحدى أثناسيوس يوسيبيوس النيقوميدى ويودوكسيوس وديموفيلوس، وتحدى فيهم ومعهم قسطنطين وقسطنطيوس وجوليان وفالنز.

لقد رأى فيه الأباطرة منافسا خطيرا، أشد مقتا من مدعيى العرش، كما حدث بذلـك قسـطنطيوس وجوليـان. وعلى الرغم من رحلة النفى المتتابع التى سارها أثناسيوس، إلا أن الأسقف كان مزهوا تماما وهو يرى الاسكندرية، التى ظهر فيها آريوس يبشر بدعوته، ليس للآريوسيين عليها سبيل.

ولقـد اعـتمدت فى هذا الكتاب على كل المصادر التاريخية المعاصرة التى توفـرت لى، وفى مقدمـتها كـتابات أثناسيوس كلها. والتواريخ الكنسية لكل من يوسيبيوس القيسارى وسقراط وسوزومنوس وثيودوريتوس وروفينوس. والمؤلفات العقيديـة والـتاريخية للاهوتى كبادوكيا الثلاثة الشهيرين، جريجورى النازيانزى. وجـريجورى أسـقف نيسا وباسيليوس أسقف قيسارية الكبادوك إلى جانب أعمال كيـرلس الأورشـليمى وجيروم وجناديوس، ورجل الغرب الشهير هيلارى أسقف بواتييـة ومؤرخ غالة سولبكيوس سفروس، والمؤرخ الوثنى أميانوس ماركللينوس.

بالإضـــافة إلى عدد من مخطوطات دير سانت كاترين العربية، ومجموعة ضخمة من المراجع الأوروبية الحديثة التى تعد على جانب كبير من الأهمية.

ورغـــم وفـــرة المـــادة التاريخية فى هذه المصادر الأصلية، إلا أنها تشكل للـــباحث المنصـــف صعوبة بالغة. تتمثل فى كونها تقف كلها إلى جانب أثناسيوس والعقيدة النيقية. تتحدث عن الآريوسية باعتبارها هرطقة يجب القضاء عليها، ومن ثم حاولت جهدى أن أكون موضوعيا بما تفرضه على الأمانة العلمية وحدها، وأن أخـــرج من وسط هذه الحيثيات المنحازة بأحكام محايدة. وأرجو أن أكون قد وفقت فى هذا السبيل.

والآن.. يســـعدنى أن أتقدم بخالص شكرى وتقديرى. عرفانا وإعزازا. إلى أســـاتذتى الأجلاء الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد رئيس قسم التاريخ بآداب عين شـــمس والأســـتاذ الدكتور عمر كمال توفيق رئيس قسم التاريخ بآداب الإسكندرية. والأســـتاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ العصور الوسطى بآداب الإسكندرية. لمـــا أولـــونى من رعاية كاملة وتوجيه. والأب الدكتور جورج قنواتى رئيس دير الآبـــاء الدوميـــنيكان بالقاهـــرة. ونيافـــة الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى والدراسات العليا بالكرازة المرقسية. والدكتور حسن عبد الله رئيس مكتبة المتحف اليونـــانى الرومانى بالإسكندرية. والأستاذ أحمد عيسى مدير المكتبة العامة بجامعة القاهـــرة. والأستاذ يوسف شكرى المراقب العام للمراقبة الفنية بآداب الاسكندرية. لهـــؤلاء جميعـــا ولكـــل العاملين وأمناء مكتبات المعهد العالى للدراسات القبطية. والكـــلية الاكـــليركية. والديـــر. والمتحف القبطى بالقاهرة. وجامعات عين شمس والقاهرة والإسكندرية. كل الثناء.

ومع إن كلمة تقدير غير كافية . . .

إلا أني أحمل لهم جميعا فى نفسى كل التقدير.

القاهرة فى أول أغسطس ١٩٧٧

رأفت عبد الحميد

الفصل الأول



الإسكندرية
الفكر والحياة

الفصل الأول

الإسكندرية: الفكر والحياة

كانت الإسكندرية تعد أهم مراكز الحضارة الهلنستية فى عالم المتوسط. فلقد سادت لغة اليونان والحضارة بلاد الشرق عامة، وكانت مدائن الإسكندر الأكبر التى أقامها فى رحلته الحربية إلى أقصى الشرق، مراكز إشعاع تنقل فكر الإغريق إلى حضارات الأقدمين فى سوريا ومصر وبابل. ولكن منارة العلم والمعرفة فى إسكندرية مصر كسفت ضياء أولاء اللدات، وأضحت قصبة الشرق اليونانى والعالم الهلنستى. يقول تارن Tarn "كانت الإسكندرية أعظم مدينة فى العالم المعروف آنذاك، فقد ظهر فى الممالك الهلنستية العديد من دور الكتب فى أنطاكية Antiochia وبرجامة Pergamum ورودس Rhodos وغيرها، ولكن مكتبة الإسكندرية ذاع صيتها وفاق كل أولاء. وإذا كانت أثينا قد أبت إلا أن تحتفظ لنفسها بالفلسفة منذ زمان، فقد سمت الإسكندرية وحجب سناؤها بريق أثينا، وأضحت قبلة العلوم والآداب يشد إليها الدارسون الرحال(١). ويضيف طومسون Thompson، "هناك فى العالم الهلنستى، مصر وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى وبلاد اليونان، تقف الإسكندرية بمكتبتها العامرة كعبة هذا العالم، يقصدها حجيج العلم والأدب وهى تختلط بهم وتموج زاهرة(٢). لقد كانت الإسكندرية، كما يقول بوركهارت Burckhardt تمتاز بعلو كعب القيم والمثل الإغريقية. وفى تلك الآونة لم يكن هناك مدينة فى العالم الهلنستى يمكن أن تقارن بالإسكندرية روحا ومادة(٣). وكتب فازيلييف Vasiliev " لقد علت فوق الجميع إسكندرية مصر مركزا يفيض بواسع الأثر وأعمقه بهاء وعظمة"(٤). يتقاطر عليها الفلاسفة والمفكرون وعلماء الرياضيات والشعراء والفنانون من كل البقاع(٥).

---

(١) انظر. Hellenistic Civilisation, p269 ، وكذلك.Bardenhewer, Les Pères de L'église,I, p236.

(2) An introduction to Medieval Europe, p. 3.

(3) The age of Constantine the great, p. 110.

(4) A history of the Byzantine Empire. I, p. 117.

(5) Duchesne, Early history of the Christian Church, I, p. 238.

وأيضا المقال الذى كتبه J. Faiver تحت مادة Alexandrie فى

Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclesiastiques, II, col. 290.

وفى عام ٣١ ق. م فقدت مصر استقلالها السياسى كقاعدة لإمبراطورية البطالمة، وذلك على أثر انتصار القنصل الرومانى أوكتافيوس Octavius على خصمه ماركوس انطونيوس Marcus Antonius وملكة مصر كليوباترة Cleopatra فى موقعة أكتيوم Actium على الساحل الغربى لبلاد اليونان، وتخلت الإسكندرية بالتالي كارهة عن مكانتها السياسية كعاصمة لهذه الإمبراطورية، وأضحت مجرد عاصمة ولاية، أعلن أوكتافيوس ضمها إلى سلطان الشعب الرومانى، وإن كانت لها بعض الخصائص التى تفوقت بها عن سائر ولايات الإمبراطورية الرومانية(٦).

وكانت الإسكندرية بالنسبة للرومان بابهم إلى مصر، كما كانت هذه موردهم الأساسى من الغلال، وحتى عندما انتقلت عاصمة الإمبراطورية من روما إلى القسطنطينية على شاطئ البسفور عام ٣٣٠، بقيت لمصر هذه الأهمية التى تجلت بشكل واضح فى قول المؤرخ جونز Jones "لو أنا سألنا أيا من أباطرة الرومان عن العلاقة الوثيقة التى تربط مصر بالإمبراطورية. لأجاب على الفور ، القمح والنقود"(٧). كما أن الإسكندرية على حد قول المؤرخين جونسون Johnson ووست West "لم تنس فى يوم من الأيام أنها كانت عاصمة إمبراطورية البطالمة"(٨).

وطوال عهدها الرومانى، ظلت الإسكندرية على حالها تباهى أثينا الفلسفة، خاصة وأن الرومان منذ استيلائهم على الإسكندرية شجعوا الدراسة بالمتحف، وأضافوا إلى كراسى الأساتذة فيه كراسى خاصة بالفلسفة اليونانية فى مدارسها الأربع: الأفلاطونية والمشائية والرواقية والأبيقورية. هذا علاوة على المدارس الخاصة بتعليم الفلسفة والتى قامت بالإسكندرية قبل العصر الميلادى(٩). وهكذا

(٦) عن هذه الاحداث كلها راجع: دكتور عبد اللطيف أحمد على، التاريخ الرومانى، ص٣٤٢ إلى ص٣٦٢.
وراجع كذلك لنفس المؤلف. مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ص ٢٠ ــ ٥٧.
انظر أيضا: دكتور ابراهيم نصحى، مصر فى عصر البطالمة جـ١: ص ٣٠٧ ــ ٣٣١.

(7) Egypt and Rome (Legacy of Egypt) p. 283.

(8) Byzantine Egypt, p. 4.

(٩) انظر دكتور نجيب بلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها، ص ٨٦.

قدمت فيلسوفها الشهير فيلون Philon (٣٠ ق.م – ٤٠م) الذى عمل على التوفيق بين الفلسفة اليونانية والعهد القديم[١٠]. حيث كان يطالع كتب الفلاسفة بعقل المؤمن، ويغطى – إذا صح القول – أحداث الوحى والإيمان بمعانى الفلاسفة، رابطا بين النوعين من المعانى ربطا عجيبا، مؤلفا بينهما هذا التأليف الذى عرف فيما بعد باسم التأليف أو التأويل الرمزى[١١]. ويقول عنه المؤرخ الكنسى يوسيبيوس Eusebius انه بز كل معاصريه تضلعا من الفلسفة الأفلاطونية[١٢]. وأهدت الإسكندرية إلى روما وأروقة الحكمة فى منتصف القرن الثالث للميلاد، أفلوطين Plotinus (٢٠٥– ٢٧٠) والأفلاطونية المحدثة[١٣] Neo-Platonism. وقد عمل أفلوطين صراحة على إنشاء فلسفة كاملة بعوامل من التفكير الفلسفى اليونانى وحده وبعوامل أفلاطونية أصيلة[١٤]. وذاع باسمه صيت معلمه أمونيوس ساكاس Ammonius Saccas (١٧٤– ٢٤٣) رجل الإسكندرية والفيلسوف المقتدر[١٥].

غير أن الأقدار أخذت تخط للإسكندرية طريقا آخر فى عالم جديد، مذ

---

(10) Copleston, A history of philosophy, I, p. 29.

(١١) انظر دكتور نجيب بلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، ص ٩٢.

(١٢) انظر EVSEB Hist. Eccl. II, 4. وراجع أيضا HIER. Vir. ill II.

(13) Nock, The development of Paganism in the Rom. Emp. (C. A. H.), XII., Pp. 438 – 442.

وعن الفلسفة الأفلاطونية راجع ما كتبه W. R. Enge: فى Encyc. Of Religion and Ethics. IX, p.307، والحقيقة أن الامبراطورية الرومانية كانت فى نهاية القرن الثالث الميلادى قد وصلت إلى حالة من الانهيار تمثلت فى كل جانب من جوانب الحياة، وفقد الرومان الثقة بالأرباب وراحوا يبحثون عن العزاء فى الأسرار التى تتميز بها الديانات الشرقية، ولذا جاءت الأفلاطونية المحدثة محاولة فى هذا السبيل لتخرج الناس من هذا العالم الكئيب الذى تحيط بهم فيه الأخطار من كل مكان، غير أن هذه المحاولة سرعان ما أفسحت مكانها للعقيدة المسيحية. وكانت الإسكندرية هى مهد هذه المدرسة التى تعد الأخيرة للفلسفة الوثنية. وساعد على نشأتها فى الإسكندرية أن هذه المدينة كانت تموج بشتى العقائد من الوثنية واليهودية والمسيحية، ويعتبر أمونيوس ساكاس هو مؤسس هذه المدرسة فى الإسكندرية، وان كانت شهرتها الحقيقة قد ذاعت على يد تلميذه أفلوطين الذى كانت فلسفته تتلخص فى الزهد والتصوف كى تتحرر الروح من سجنها الجسدى.

(١٤) انظر: دكتور نجيب البلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، ص ٩٦.

(15) HIER.Op.cit.55.

راحت تستقبل أول مبشر فيها بالمسيحية، القديس مرقس الإنجيلى مع بداية النصف الثانى من القرن الأول، وأقام بها أسس العقيدة المسيحية والكنيسة[١٦]. ولم يكن للإسكندرية أن تتخلى فى ظل الدين الجديد عن مركزها المرموق ومكانتها فى آفاق الفكر والفلسفة. ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة، ساعدها على ذلك أن سلطان أثينا من الناحية الفلسفية، أخذ يضعف منذ أواخر العصور القديمة، وذلك بعد انتشار الفلسفة وشيوعها فى حوض البحر المتوسط بين آسيا الصغرى وروما. ثم كانت الإسكندرية مركزا لهذا الانتشار والانتقال، وأضافت إلى ذلك ميزة أخرى هى الجمع بين تلك المعانى التى ابتكرها فلاسفة أثينا، والمعانى والقيم الدينية من ناحية أخرى، ميزة الجمع بينهما والتوفيق والتلفيق[١٧]. وقدر لها بذلك أن تؤدى فى المسيحية دورا بارزا. انتشارا وفكرا . إلى الحد الذى دفع المؤرخ كريد[١٨]. Creed إلى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد، أثر فى تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر ، وليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقا، من الإسكندرية.

وليس من المبالغة فى شئ القول إن الإسكندرية كانت تمثل عقل العالم المسيحى[١٩]. الذى قدم له تراثا صبغ كل فترات تاريخه الفكرى، معتمدا اللاهوت العلمى الأفلاطونى [٢٠]. فقد كانت فلسفة الإسكندرية قبل كل شيء فلسفة دينية ترجع إلى أفلاطون الإلهي وبنوع خاص إلى فلسفته الإلهية الدينية. تلك التى عمل

---

(16) Hier.Vir.ill.

وراجع كذلك Evseb. Hist. Eccl. II, 16

(١٧) انظر : دكتور نجيب بلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها، ص ٦١ ــ ٦٢.

(18) Creed, Egypt and Chirstian Church, (Legacy of Egypt) p. 300.

(١٩) راجع ما كتبه Coxe فى تقديمه لأعمال كلمنت السكندرى ضمن مجموعة :

. The Ante-Nicene Fathers, II, Pp 165 – 169.

(٢٠) انظر .Bardenhewer, op. cit. I, p. 236; Creed, op. cit. p300.

وراجع كذلك Copleston, A history of Philosophy, I, p. 29.

على بيانها فى بعض محاوراته خاصة "فيدون" و "طيماوس"[٢١]. وقد تولت الفرق الغنوصية[٢٢]. Gnostics أو ما تعرف بالأدرية، إخضاع العقائد اليهودية والمسيحية للتفكير الحر، تناقش حول طبيعة المسيح، وتنتهى إلى الثنوية فى الألوهية.

وكان لابد من قيام عدد من الآباء المسيحيين للرد على هذه الأفكار، وكان عليهم أن يستخدموا نفس الأسلحة التى يشهرها الفلاسفة الوثنيون. وحمل لواء هذا الاتجاه الجديد مدرسة الإسكندرية المسيحية، أو مدرسة الموعوظين Catechesis التى ذاع صيتها باسم مدرسة المدافعين Schola apologetica وهى تعد دون شك أول معهد علمى ذا أهمية كبرى للدراسات اللاهوتية فى عالم المسيحية الأول، وأضحى آباء هذه المدرسة مسئولين عن صياغة اللاهوت المسيحى[٢٣]. ووضع التفسيرات والشروح والتعريفات المحددة للأرثوذكسية[٢٤]. ومن الخطأ حصر اهتمامات هذه المدرسة فى الجدل اللاهوتى وحده، فقد كانت تقدم عديدا من الدراسات الإنسانية والعلوم والرياضيات، وإن كان اهتمامها الأول فى عصر الإيمان، الإيمان[٢٥]. حتى يمكن أن نشبهها بالجامعة فى احتوائها على فروع المعرفة الإنسانية المختلفة، بل إن أوريجن Origenes (١٨٥ ــ ٢٥٤) نفسه، أشهر أساتذتها على الإطلاق[٢٦]. كان يضمن دروسه محاضرات فى المنطق والجدل والعلم الطبيعى والهندسة والفلك،

(٢١) انظر: دكتور نجيب بلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها. ص٦٢ وما بعدها.
وقارن Neander, History of Christian dogmas, I, p. 37

(٢٢) وهى إحدى الفرق التى ظهرت فى المسيحية فى قرونها الأولى. وهى تعتمد المعرفة (Gnosis) أساسا، لا الإيمان، طريق الخلاص. وإن كان الإنسان بنفسه عاجزا عن إدراك أسمى مراتب المعرفة، ولكنها مع ذلك تصل إليه بواسطة كائن يأتيه من العالم العلوى. وقد أنكرت الغنوصية ما أحاط بشخص المسيح وأعماله من معجزات، وتمثلت حياته الذاتية كنتيجة لفيض أو انبثاق من الكائن الأعلى.
انظر Encyc. of Relig. And Eth. P231.
وأيضا Chadwick, The Early Church, pp. 33 – 41. وكذلك Copleston, op. cit. 34 – 36

(23) Roncaglia, histoire de l'eglise Copte, I, pp. 139 – 149
وراجع أيضا Bardenhewer, op. cit. 236 وكذلك Atiya
A history of Eastern Christianity, p. 33.

(24) Coxe, op. cit. p.166

(25) Atiya, op. cit p. 33

(٢٦) انظر بعده ، وراجع للمؤلف ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، الفصل الثانى.

دعامة لطلاب الأخلاق واللاهوت(٢٧). وهكذا نشأ إلى جوار مدرسة الإسكندرية الشهيرة بفلسفتها وآدابها التى كانت تضارع بها مدارس الفلسفة فى أثينا، مدرسة جديدة للفكر المسيحى، وحرصت على أن تدخل فى برامج دراستها مختلف فروع المعرفة الإنسانية فى العلوم والآداب إلى جوار مهمتها الأصلية فى المسائل اللاهوتية، حتى تجذب إليها فكر الناشئة والدارسين.

ويحدثنا جريجورى النازيانزى Gregorius Nazianzenus عن أخيه قيصر Caesarius قائلا إنه جاء إلى الإسكندرية ليتلقى تعليمه فى مدرستها التى تعد مركزا لكل فرع من فروع المعرفة(٢٨). كما أن جريجورى نفسه قدم إلى الإسكندرية ليستكمل دراسته(٢٩). وكان أهم ما يشغل بال القائمين بأمرها، خاصة فى المسائل اللاهوتية، مجابهة العديد من الديانات السائدة، مثل عبادات الربة كيبيلى Cybele الأم الفريجية العظيمة Magna Mater، وايزيس المصرية، ومثرا الفارسى، وآراء الغنوصيين، وديانات فارس والهند والحبشة، وأفكار أولئك الخارجين على الكنيسة(٣٠).

على أنه مما يسترعى الانتباه أنه رغم أن هذه المدرسة كان يرأسها عادة شيوخ الكنيسة الذين ارتفع بعضهم إلى كرسى الأسقفية، إلا أن الجموع المسيحية لم تتأثر بها مطلقا(٣١). وربما يعود ذلك إلى أن الشكل الرمزى، وحركة التفسير المجازى لنصوص الكتاب المقدس والتى كانت تتبعها المدرسة فى مسائل الجدل اللاهوتى، لم تكن تستهوى الكثيرين آنذاك(٣٢). وليس أدل على ذلك من أنه مع نهاية القرن الرابع للميلاد، دخلت المدرسة فى طور من الغموض، ولم نعد نسمع

(٢٧) انظر المقال الذى كتبه Burkitt تحت عنوان :

The christian church in the East, (C.A.H.XII,p.479).

(28) GREG. NAZ. ORAT, VII, 6, 7

(29) Ibid. XVIII, 31

(30) Zananiri, Histoire de l'église Byzantine, p. 23.

(31) Duchesne, op. cit. I, 358.

(32) Vasiliev, op. cit. I, p. 118.

عنها شيئا بعد ذلك[٣٣]. فى الوقت الذى ظلت فيه مدرسة أنطاكية اللاهوتية زاهرة حتى القرن الخامس، تلك التى كانت تعتمد العقل فى تفسير الكتاب المقدس، حيث ازدهرت على يد رجلها الأشهر يوحنا ذهبى الفم Iohannes Chrysostomos (٣٤٥-٤٠٧) ، تلميذ الفيلسوف الأنطاكى ليبانيوس[٣٤]. Libanius (٣١٤ - ٣٩٣) ومن ثم كان من الطبيعى أن تنتشر الآريوسية فى سوريا عنها فى مصر[٣٥].

ويذكر جيروم[٣٦]. اعتمادا على يوسيبيوس[٣٧]أن تأسيس هذه المدرسة السكندرية يعود إلى زمن القديس مرقس نفسه، رغم أن يوسيبيوس لا يذكر ذلك صراحة وإنما يقول فقط "منذ الأزمنة القديمة". غير أن هذا الرأي لا يمكن التسليم به بداهة، فجيروم نفسه لم يذكر شيئا عن هذه المدرسة من قبل، ولم يحدثنا عن أحد من أساتذتها الأوائل، ويوسيبيوس أيضا، فى الوقت الذى أورد فيه ثبتا متفرقا فى تاريخه الكنسى عن الأساقفة الذين توالوا على كرسى الإسكندرية، لم يشر بشيء عن معلمى هذه المدرسة قبل بانطاينوس[٣٨]. Pantaenus فى أخريات القرن الثانى للميلاد، يضاف إلى ذلك أن القديس مرقس جاء إلى مصر قادما من ليبيا يحمل معه إنجيله الذى كتبه "بناء على رغبة الأخوة الرومان" حسب تعبير يوسيبيوس القيسارى وجيروم، وبه بشر[٣٩]. ولم تكن آراء القديس بولس أو لاهوته قد بدأ

---

(٣٣) راجع ماكتبه McGiffert فى تقديمه لأعمال شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى ضمن مجموعة : Nicene and post Nicene Fathers Vol. I; Soc. Ser, p. 224. N 2. B.

(٣٤) راجع مقدمة B. Jackson لحياة وأعمال باسيليوس أسقف قيسارية كبادوكيا ضمن مجموعة آباء نيقية Vol. VIII, Soc. Ser. p. 54

(35) Romestine, Prolegomena to Ambrosius, (Nicene and p. N. F.) Soc. scr. X, p. 202 n. 2.

وراجع للمؤلف " الدولة والكنيسة ، جزء ٢ ص ١٦٩ وما بعدها.

(36) HIER. Vir. Ill. 36.

(37) EVSEB. Hist. Eccl. V. 10.

(38) EVSEB. Hist.eccl.V. 10.

(39) EVSEB. Hist. eccl. II, 16, III. 39.

وراجع أيضا HIER. Vir. Ill. 8.

يغزوان عقول الطبقة المثقفة آنذاك، بل إن حنانيا Annianus الذى كان أول من التقى به مرقس عند قدومه الإسكندرية، وخلفه فى الأسقفية، لم يكن له أدنى حظ من العلم أو الثقافة(٤٠). وعليه يمكن القول تأكيدا أن بانطاينوس (١٧٩ ـــ ٢١٦) كان أول من ارتبط اسمه بمدرسة الموعوظين فى الإسكندرية رغم ما يذكره بعض المؤرخين(٤١). اعتمادا على المؤرخ ابيفانيوس (٣٦٧ ـــ ٤٠٢) Epiphaneus من أن أثيناجوراس Athenagoras الفيلسوف الأثينى المسيحى فى نهاية القرن الثانى، هو الذى وضع أسس هذه المدرسة.

والحقيقة أن قيام هذه المدرسة قد لا يعود إلى شخصية بذاتها، إذ ربما نهضت بصورة طبيعية كنمو تدريجى لتلك العظات التى ذاعت فى الكنيسة الأولى، والتى تقدم للراغبين فى اعتناق المسيحية شيئاً ما عن مبادئ هذه العقيدة، وفى مدينة تعد عاصمة الفكر والفلسفة كالإسكندرية، فإن مدرسة بدأت أصلا للموعوظين، كان لابد أن تصبح من بعد معهدا للدراسات اللاهوتية ومختلف العلوم الإنسانية(٤٢).

كان بانطاينوس على حد تعبير جيروم(٤٣). فيلسوف المدرسة الرواقية التى تحمل نزعة صوفية نسكية، امتلك ناصية الثقافة بفرعيها: الدينى ممثلا فى الكتاب المقدس، والأدبى بارزا فى التراث والفكر اليونانى، ولعل مما هيأ الفرصة لبانطاينوس أن يرسى دعائم المدرسة السكندرية اللاهوتية، ويدعم ما أسلفناه من أن هذه المدرسة لم تكن لتوجد على عهد القديس مرقس، أن كرسى الإسكندرية الأسقفى، كان يشهد آنذاك بداية عهده الزاهر تحت رعاية الأسقف ديمتريوس(٤٤).

---

(40) HIER. Loc. cit.
وراجع أيضا EVSEB.op. cit. II, 24, III,21
(41) Neale, The partiarchate of Alexandria, I, p. 18
وكذلك Copleston, op. cit. pp. 33-34
(42) McGiffert, op. cit. p. 224 n. 2
(43) HIER. Vir. Ill. 36
(44) Hardy, christian Egypt: Church and people, p. 11.

Demetrius (١٨٩ ــ ٢٣٣)، الذى امتلك مقدرة فائقة فى إدارة شئون الكنيسة، وإن لم يكن على نفس القدر من البراعة الأدبية، وقد أبدى اهتماما بالغا بمدرسة الإسكندرية، ولكنه فيما يبدو لم يقم بالتعليم فيها[٤٥].وقدخلع الخلق الرواقى والاهتمام باللوغوس Logos على بانطاينوس شهرة ذائعة[٤٦].

وكان كلمنت Clemens (حوالى ١٥٠ ــ ٢١٥) أشهر تلامذة بانطاينوس وخلفه فى رئاسة المدرسة[٤٧]. وهو يعترف بذلك صراحة فى عمله المسمى "المناظر" Hypotyposes ويشير إليه ثانية فى مؤلفه الآخر "ستروماتا" Stromata باعتباره واحدا من ذوى المواهب الحقة[٤٨]. أما كلمنت نفسه فيخبر عنه اسكندر أسقف أورشليم فى رسالة بعث بها إلى أهالى أنطاكية بأنه رجل الله الذى دعم كنيسة الرب ومد فى سلطانها[٤٩].

وخلال السنوات الأخيرة من القرن الثانى، كان كلمنت يتولى الأشراف على المدرسة السكندرية، معتمدا الجدل فى مواجهة ميثولوجيا الإغريق[٥٠]. فلما نزل بالإسكندرية الاضطهاد الوثنى على عهد الإمبراطور سبتيميوس سفروس Septimius Severus (١٩٣ ــ ٢١١) أشد وطأة من غيرها [٥١]. تركها كلمنت إلى فلسطين، وصحب أسقف أورشليم[٥٢]. وظل هناك حتى مات[٥٣].

---

(45) McGiffert, op. cit. p. 240. N. 4b.
(46) HIER. Loc.cit.
(47) HIER. op. cit. 38
وأيضا EVSEB. Hist. eccl. VI,6
(48) EVSEB. op. cit. V,
(49) Ibid. VI,11
وانظر HIER. Loc. cit
(50) Burkitt. op. cit. p. 480
(51) EVSEB. Hist eccl. VI, 1
(52) HIER. Vir. Ill. 38 وأيضاً EVSEB. Hist eccl. VI, 1
(53) Burkitt. op. cit. p. 481

وكلمنت، شأن الفيلسوف سقراط، يعتبر الجهل أكثر إثما من الخطيئة، ومن ثم تحمس لدراسة الفلسفة جنبا إلى جنب مع اللاهوت(٥٤). وراح يهاجم صراحة أولئك المخاصمين الذين يخافون الفلسفة(٥٥). وسعى جهده ليبين ضرورة دراسة الفلسفة، فهى سلاح معلمى الكنيسة للرد على أولئك الخصوم، وهى سبيل المسيحية كى تخطو إلى الأمام خطوها فى ثوب علمى(٥٦). إلى الحد الذى أعتبر فيه الفلسفة هدية الإله، وسبيلا لتثقيف العالم الوثنى من أجل المعرفة الحقة للمسيح(٥٧). وليس هذا غريبا على كلمنت فقد كان أصلا مواطنا أثينيا، عايش فلسفات اليونان وجاء إلى الإسكندرية يحمل معه الكثير من الأفكار والآداب اليونانية والفلسفة(٥٨).

على أنه إذا كان كلمنت هو الذى أعطى الدفعة القوية لمدرسة الإسكندرية فى بداية ظهورها فإن تلميذه أوريجن Origenes (حوالى ١٨٥ ــ ٢٥٤) يعد بلا ريب المؤسس الحقيقى لها(٥٩). إذ تولى الإشراف عليها وهو بعد يخطو العام الثامن عشر فى الحياة(٦٠). وقد عشق حياة الزهد(٦١). وفسر الكتاب المقدس لنفسه تفسيرا حرفيا، واستلهم آية الإنجيل " . . . ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت

---

(54) Atiya, op. cit. p. 34

(55) Neander, op. cit. I, p. 63

ويشبه خوف آباء الكنيسة من دراسة الفلسفة بخوف الطفل من القناع.

(56) Id.

(57) Copleston, op. cit. p. 29

(58) Greed, op. cit. p. 302 .

وأيضا Chadwick, op. cit. Pp. 94 - 100.

(59) Neander, op. cit. I, p. 69.

وأيضا Bardenhewer, op. cit. I, p. 250. وكذلك Diehl, op. cit. III, p. 404 وراجع المقال الذى كتبه La Barre عن Alexandrie (écol Chrétienne d') ضمن Dictionnaire de théologie Catheolique I, I, col. 807-815 وراجع أيضا ما كتبه Faivre عن الإسكندرية فى Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclesiastiques, II, col. 295-296.

(60) EVSEB. Hist. Eccl. VI, 3.

وأيضا HIER. Vir. Ill. 54

(61) Atiya, op. cit. p. 3

السماوات من استطاع أن يقبل فليقبل . . . " [٦٢]. وقد قبل أوريجن واستطاع. وشمله ديمتريوس بعطفه والرعاية[٦٣]. غير أن هذا التقارب بين الأسقف وأوريجن لم يعمر طويلا، إذ داخلته نوازع النفس الإنسانية الأمارة، كما يروى يوسيبيوس، بتعبيره هو "غلب على ديمتريوس الضعف البشرى وقد رأى نجم أوريجن إلى صعود، تزداد بين شعب الإسكندرية كل يوم شهرته، فكتب إلى جميع الأساقفة، وحتى خارج مصر، يصف لهم ما امتدحه منه آنفا، بالطيش والسفه"[٦٤].

تنقل أوريجن خارج مصر كثيرا، فزار فى بلاد اليونان آخايا Achaia وأثينا[٦٥]. وارتحل إلى روما على عهد أسقفها زفيرينوس Zephyrinus (٢٠١ – ٢١٨)، وبلغ من شهرته أن فيرميليان Firmilianus أسقف قيسارية الكبادوك وأساقفة الولاية جميعا كانوا يناشدونه الارتحال إليهم، وظل هذا الأمل يراودهم فترة طويلة[٦٦].

وعلى الرغم مما حققه أوريجن من صيت خارج مصر[٦٧]. إلا أنه كان يقاسى من عداء الأسقف السكندرى له، وبلغ هذا الجفاء ذورته عندما قام أوريجن أثناء زيارته لفلسطين(٢١٦) بتفسير الكتاب المقدس بناء على دعوة ثيوكتستوس – Theoctistus أسقف قيسارية واسكندر أسقف أورشليم، رغم أنه لم يكن قد رسم بعد ليدخل ضمن طائفة الاكليروس[٦٨]. وكان من غير المنطقى فى نظم الكنيسة السكندرية أن يتولى علمانى التبشير فى حضرة الأساقفة، ولما كان ديمتريوس الذى

(٦٢) انظر متى ١٩/١٢

(63) EVSEB. op. cit. VI, 8

(64) Id.

وراجع كذلك Chadwick, op. cit. p.109 الذى يذكر أن أصدقاء أوريجن رأوا فى موقف ديمتريوس نوعا من الحقد والحسد لأوريجن .

(65) Ibid.23.

وأيضا HIER. Vir. Ill. 54 وكذلك Chadwick. op. cit.p.110.

(66) HIER. Vir. Ill. 54

(67) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 26

(68) EVSEB. Hist. Eccl.VI, 19

وضع أسس سيادة كرسى الإسكندرية[٦٩]. اكليروسيا متشددا، متعطشا للسلطان، دفع دون وعى السلطة البطريركية إلى حافة السيادة المطلقة، فإنه لم يقبل أبدا أن يقوم أوريجن بما قام به[٧٠]. ومن ثم كتب إليه يستدعيه، ففعل[٧١]. وذلك فى عام ٢١٨، وطوال اثنتى عشرة سنة آتية، عكف أوريجن على الدراسة والكتابة والإشراف الجاد على المدرسة السكندرية، وجعل هرقل Heraclas القس، مساعدا له فى المدرسة، ووكل إليه أمر الناشئة[٧٢].

وفى عام ٢٣٠ استطاع الإفلات من قبضة ديمتريوس[٧٣]. واتجه إلى فلسطين حيث رسم قسا على يد أسقفى قيسارية وأورشليم[٧٤]. ولكن ديمتريوس لم يترك هذه المسألة تمر دون عقاب، فدعا إلى عقد مجمع فى الإسكندرية ضم الأساقفة والقسيسين فور تلقيه نبأ رسامته، وأصدر المجمع قراره بطرد أوريجن من الإسكندرية، وحرمانه من العودة إليها أو الإقامة بها[٧٥]. وثنى ذلك بقرار صدر عن مجمع ثان عقد فى الإسكندرية أيضا جرده من وظائفه[٧٦]. وقطعه من كنيسة الإسكندرية[٧٧]. وهناك فى قيسارية نشأت حول أوريجن مدرسة جديدة، وهكذا انتقل مركز المدرسة السكندرية مؤقتاً إلى فلسطين[٧٨]. وعلى يديه تخرج كثير من تلاميذها النجباء مثل جريجورى الذى حمل فيما بعد اسم العجائى[٧٩]. Thamaturgus بسبب ما أشيع حوله من معجزات.

---

(69) Neale, op. cit. I, p. 29
(70) Atiya, op. cit. p. 36
وكذلك Chadwick. op. cit. p. 109
(71) EVSEB. Loc. cit.
(72) HIER. Vir. Ill 54 .
وأيضا EVSEB. op. cit. VI. 15
(73) Atiya. op. cit. p.
(74) EVSEB. Hist. Eccl.VI, 23 وأيضا HIER. Vir. Ill. 54
(75) McGiffert, op. cit. p. 392
(76) Id.
(77) Ibid. p. 395
وأيضا Atiya.Loc. cit.
(78) Duchesne. op. cit.I, p. 252
(79) SOCRAT. Hist. Eccl. IV. 26
وأيضا Copleston. op. cit. p. 41

على أنه إذا كانت حياة أوريجن وعلاقته بالأسقف السكندرى ديمتريوس مما يلفت النظر، ويثير الاهتمام، فإن فكر أوريجن ولاهوته وكتاباته هى التى أثارت من حولها التساؤلات، بل والصراعات، حتى أن الأوريجنية Origenism أصبحت سمة القرن الرابع، وأضحت آراؤه حجة يستند إليها حتى أشد الفرق المسيحية تباعدا وخصومة، كالآريوسية والنيقية(٨٠). على نحو ما سنبين بعد ذلك، وإلى منتصف القرن السادس كانت المجامع تعقد لمناقشة آراء ذلك اللاهوتى السكندرى، ولعل أبرزها المجمع المسكونى الخامس، الذى عقد فى القسطنطينية سنة ٥٥٣ على عهد الإمبراطور جستنيان Justinianus (٥٢٧ ـ ٥٦٥) وأدان فكر أوريجن(٨١).

أرتقى أوريجن منذ عمره الباكر درج المعرفة بالكتاب المقدس، وأعطى عقله للثقافة اليونانية السائدة(٨٢). والفلسفة الأفلوطونية بصفة خاصة، عارفا بالهندسة والحساب والموسيقى والنحو، وعلى حد قول جيروم، مثابرا على خلاف أهل العصر، كدودا(٨٣). درس الفلسفة على يد فيلسوف الإسكندرية الأشهر آمونيوس ساكاس(٨٤). أبى الأفلاطونية المحدثة(٨٥). وشغل نفسه بكتابات الفلاسفة الفيثاغوريين والرواقيين(٨٦). ووقف من خلالها جميعا على التفسيرات والشروح المجازية للأسرار الإغريقية(٨٧). ويعترف أوريجن نفسه فى عمله "ضد كلسوس" "Contra Celsum" وهو الذى وضعه للرد على الفيلسوف الوثنى Celsus، بأنه قرأ كل

---

(80) B. Jackson, op. cit. p. 18
(81) Atiya, op. cit. p. 37
وكذلك Chadwick, op. cit. p. 112
وراجع كل هذه التفصيلات فى كتابنا ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى، الفصل الثانى
(82) EVSEB. Hist. Eccl.VI.2 ; وأيضا Copleston, op. cit, p. 41
(83) HIER. Vir. Ill. 54
(84) EVSEB. op. cit. VI, 19 ; وكذلك Copleston, op. cit. p. 41
(85) أنظر McGiffert وراجع أيضا المقدمة التى كتبها Crombie لأعمال أوريجن السكندرى ضمن مجموعة The Ante- Nicene Fthers, VI, p. 226
(86) EVSEB. Loc. cit.
(87) Id.

كتب الأقدمين، وبوحى من الأفلاطونية المحدثة وتحت تأثيرهما خرجت فكر أوريجن اللاهوتية(٨٨).

انطلق أوريجن من الفكرة القائلة أن الامتزاج الروحى بالمسيح، هو ينبوع الحياة القدسية والمعرفة، فعنده أن ظهور المسيح على الأرض كان صورة لنشاطه اللاهوتى الأزلى(٨٩). والله عند أوريجن خالق منذ الأزل، وليس فى زمان بعينه وإلا عد ذلك تغيرا فى ذات الله، والتغير ليس من صفات الله، والله الأزلى ولد أو خلق كلمته logos، الابن، الذى على الرغم من كونه ليس إلها بالمعنى الحقيقى، إلا أنه يشارك فى جوهر الآب، والابن فى رأيه العقل الذى ينظم العالم، خلقه الآب وجعله له تابعا ليخلق به كل شىء، ومن ثم فالابن واسطة بين الله وسائر الخلائق. وكذلك الروح القدس يأتى فى مرتبة تالية، شأن الابن(٩٠).

وكان أوريجن يعتقد أن فهم الكتاب المقدس يتوقف على الإنسان، إذ أن وراء هذه العبارات معنيين، أحدهما التفسير أو المعنى الظاهرى الحرفى. ثم المعنى العميق الروحى الذى لا يصل إليه إلا الفئة القليلة، ومن ثم كان أوريجن علما على مدرسة الإسكندرية المجازية، وأضحى بذلك الاعتقاد فعلا صاحب عقيدة الإيمان المزدوج(٩١). ولعل هذا حقا هو الذى جعل من الأوريجنية من بعد، وخاصة فى القرن الرابع، معترك الجدل اللاهوتى العنيف بين الفرق الآريوسية المتعددة وأتباع العقيدة النيقية(٩٢). كل يحاول أن يجعل من أوريجن والأوريجنية، سندا له وبرهانا.

ومما لاشك فيه أنه ليس هناك أحد ترك أثرا واضحا فى اللاهوت المسيحى، بعد بولس، مثلما فعل أوريجن، إلى الحد الذى يصفه شدويك بأنه يقف عملاقا بين

(88) Copleston, op. cit. p. 41
وقارن Chadwick, op. cit. p.101
(89) Neander, Op. cit. I, p. 66
(90) Copleston, op. cit. p. 42
وكذلك Creed, op. cit. p. 307
(91) Cantor, Medieval history, p. 72

(٩٢) راجع الفصل الخامس .

مفكرى المسيحية الأوائل[٩٣]. وحتى فى الوقت الذى رفضت فيه آراؤه، فإن صياغته للمشكلات اللاهوتية بقيت ذات أهمية بالغة، ولقد دل على ذلك موقف كثير من آباء الكنيسة، فأثناسيوس مثلا على الرغم من أنه لم يستخدم كثيرا من أفكار أوريجن، وعلى الرغم من أنه لم يكن راضيا نوعا ما عن آرائه حول طبيعة المسيح، إلا أنه كان يتحدث عنه باحترام[٩٤]. أما بالنسبة للآباء الكبادوكيين[٩٥]. فقد كان أوريجن هو السيد، يتمثل ذلك فيما قام به باسيليوس الكبادوكي ورفيقه جريجورى النازيانزى من جمع أروع ما كتبه أوريجن فيما يعرف بـــ "عشق الجمال" Philocalia فى محاولة لتبيان عقيدته الأرثوذكسية، جاعلين من آرائه صرحا للكاثوليكية[٩٦].

على أن أوريجن لم يعدم معارضين بارزين فى مقدمتهم ابيفانيوس Epiphaneus، (٣٦٧ ــ ٤٠٢) أسقف سلاميس فى قبرص الذى نظر إلى أوريجن باعتباره رجلا أفسد المسيحية. والقديس جيروم، وثيوفيلوس Theophilus الأسقف السكندرى فى نهاية القرن الرابع وبداية الخامس[٩٧]. ولكن الذى لا شك فيه أن أوريجن قد فرض فكره اللاهوتى على مدرسة الإسكندرية، بل وعلى الكنيسة من بعده لفترة طويلة[٩٨]. وظلت مدرسة الإسكندرية على ولائها لسيدها أوريجن بعد ارتحاله إلى فلسطين، وبعد موته عام ٢٥٤[٩٩].

---

(93) The Early Church, p. 100

(94) Creed. op. cit. p. 301

(٩٥) الآباء الكبادوكيون نسبة إلى كبادوكيا فى آسيا الصغرى، وهم جريجورى أسقف نازيانزا، وجريجورى أسقف نيسا وباسيليوس أسقف قيسارية ، وقد اشتهروا باللاهوتيين الكبادوكيين . انظر بعده.

(96) B. Jackson, op. cit. p. 18

(97) Atiya, op. cit. p. 37

أيضا Chadwick, op. cit. p. 112

تناولنا كل هذه الآراء والجدال بين هؤلاء جميعاً فى كتابنا ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، الفصل الثانى

(98) Hard, op. cit. p. 16

راجع أيضا Neale, op. cit. I, p. 37

(99) Macaire, Histoire de l'église d'Alaxandrie pp. 53, 54

على أنه إذا كانت المدرسة قد احتفظت لفترة طويلة باستقلالها الأكاديمي، على الأقل من الوجهة النظرية، إلا أنها أمست منذ تركها أوريجن خاضعة عمليا لسلطان أسقفية الإسكندرية ومرتبطة بالكنيسة ارتباطا تاما، لا تعدو كونها معهدا علميا تابعا للكنيسة السكندرية(١٠٠).

عهد أوريجن عند التجائه إلى فلسطين(١٠١) إلى هرقل(١٠٢) مساعده، برئاسة المدرسة، وكان رجلا نابها يحدث عنه أوريجن نفسه بأنه درس الفلسفة قبل أن يسمع هو عن الموضوعات التى تتناولها بسنوات خمس(١٠٣). شديد الحماس فى البحث وراء مخلدات اليونان(١٠٤). غير أن مدة رئاسته للمدرسة لم تدم فترة طويلة، ذلك أنه ما إن وافى عام ٢٣٢ حتى مات ديمتريوس الأسقف السكندرى، فخلفه هرقل على كرسى الأسقفية(١٠٥). وعهد بالإشراف على المدرسة إلى ديونيسيوس Dionysius أحد تلامذة أوريجن الشهيرين (١٠٦). ورغم الصداقة التى كانت تجمع بين هرقل وأوريجن، إلا أن الأسقف لم يصدر قرارا يمحو الإدانة التى لحقت بالصديق على يد سلفه والاكليروس السكندرى فى مجمعى الإسكندرية(١٠٧).

ولكن هذا لا يعنى شعورا من العداء كان قائما بين الرجلين، ذلك أن ديونيسيوس أسقف الإسكندرية بعد هرقل، والذى كان تلميذا لأوريجن. ومن أشد المتحمسين لآرائه، لم يقم هو الآخر بمثل هذه المحاولة بعد أن غدا أسقفا، كما أنه ليس هناك ما يؤكد أن هرقل كان من بين رجال الاكليروس الذين أدانوا أوريجن،

(100) Duchesne, op. cit. I. p. 242 وأيضا Atiya, op. cit. Pp. 37, 38.

(101) EVSEB. Hist. Eccl. VI, 26

(١٠٢) ليس لدينا أيه معلومات عن هرقل هذا سوى ما يمدنا به يوسيبيوس ، وليس هناك أى تاريخ حول مولده أو وفاته.

(103) EVESB. Hist. Eccl. VI, 19

(104) Ibid. 31

(105) Ibid. 26

(106) Ibid. 29

(107) McGiffert. op. cit. 251 n. 2

كل ما هنالك على ما يبدو أن هرقل لم يكن راضيا عن كل ما كتبه صديقه. وربما اعتقد أن بعضا من كتاباته داخل فى عداد الهرطقة(١٠٨). وقد يعود ذلك أيضا إلى أن رغبة أوريجن فى البقاء فى فلسطين حيث ذاع صيته، وأصبح له أتباع ومريدون، ولقى التقدير الذى أسبغه عليه أساقفة الشرق، وقيسارية وأورشليم بخاصة، وهو ما لم يجده بين الاكليروس السكندرى.

وفى رسالة بعث بها ديونيسيوس إلى فيلمونوس Philemonus أحد رجال كنيسة روما، يخلع على هرقل لقب "البابا" (١٠٩) واستناداً إلى ذلك يتفق بعض المؤرخين المحدثين(١١٠) على أن هرقل كان فعلا أول من حمل لقب بابا الإسكندرية، معللين ذلك بأنه وسع دائرة سيادة الكنيسة السكندرية، عندما رفع عدد الأسقفيات المحلية التابعة لها إلى عشرين أسقفية(١١١). ولاشك أن هذا يدل على مدى ما وصلت إليه كنيسة الإسكندرية فى منتصف القرن الثالث الميلادى من نفوذ، غير أن هذا النفوذ تأكد بصورة حقيقية على عهد خلفه ديونيسيوس، الذى أدخل المدن الخمس(١١٢) Pentapolis تحت سلطان الكرسى السكندرى(١١٣)،وتجلى ذلك فى رسائله التى بعث بها إلى أساقفة هذه المنطقة(١١٤).

---

(108) Id.

(١٠٩) انظر EVSEB. Hist. Eccl. VII, 7 ويذكر القلقشندى أن بطريرك الإسكندرية كان أول من حمل لقب " بابا " بين سائر أساقفة الكراسى الرسولية قبل أن يختص أسقف روما وحده بهذا اللقب . راجع صبح الأعشى ج٥ ص ٤٧٢ وج ٨ ص ٤٢.

(110) Neale, op. cit. I, p. 32
وأيضا Atiya, op. cit. p.38

(111) Atiya, Loc. cit

(١١٢) وهذه المدن الخمس هى شحات Cyrene وطلميثة Ptolmais وبرنيق Berenice وسوسة Abollonia وتوكر (توخيرا Arsinee راجع Duchesne, op. cit. I, p. 350 – 351 (وهى برقة حاليا)

(113) ATHANAS, De S. Dion. 5; Hardy, op. cit. p. 29

(114) ATHANAS. op. cit. 9, 10, 13, 26 وأيضا EVSEB. Hist. Eccl. VII, 26

كان ديونيسيوس أشهر من تولى عرش أسقفية الإسكندرية حتى زمانه (٢٤٦ - ٢٦٥)[115]، لاهوتيا قديرا، شارك فى الجدل العقيدى الذى ظهر فى عهده وخاصة حول إعادة التعميد والنوفاتية[116] Novatianism والسابللية[117] Sabellianism وآراء بولس السميسطائى[118] Poulus of Samosata ، وكتب عددا من الرسائل الفصحية[119] على غرارها نهج أثناسيوس . وقد جمع فى يده أسقفية الإسكندرية ورئاسة المدرسة اللاهوتية، ومن ثم أضحت المدرسة واقعا تحت سيادة الكنيسة كما أسلفنا، وإن كانت قد احتفظت بتعاليم أوريجن وعقائده[120].

على أن شهرة ديونيسيوس قد ذاعت فى أرجاء العالم المسيحى، وخاصة عندما اشتد الجدل الكريستولوجى فى القرن الرابع، وأقر مجمع نيقية سنة ٣٢٥م اصطلاح الهوموسية " مساواة الابن فى الجوهر مع الأب "[121]، حيث كان ديونيسيوس قد وافق عرضا على استخدام هذا التعبير الذى ورد فى رسالة سميه أسقف روما، عندما كتب الأخير يخبره بالاتهامات التى سيقت ضده، حول تطرفه فى الرد على آراء سابليوس[122] Sabellius أحد مواطنى طلميثة Ptolemais ، والذى نادى بأن الأقانيم الثلاثة ليست منفصلة، ولكنها صور مختلفة للأقنوم الأول فى الثالوث[123]، مما دفع ديونيسيوس السكندرى إلى أن يكتب عدة رسائل إلى

(115) Neale, op. cit. I, p. 42 ; Roncaglia, op. cit.; Faivre op. cit. II, p. 217 – 228; Diehl, op. cit. III, p. 405 ; Ourkitt, op. cit. p. 487

وانظر كذلك ما كتبه Musset فى كتابه Histoire du Christianisme specialement en Orient I, p. 30

(116) EVSEB. Hist. Ecc. VI, 46, VII. 4, 5

(117) Ibid. VII, 6

(118) Ibid, 27 وراجع للمؤلف الدولة والكنيسة ج ٢ ص ١٧٤.

(119) Ibid, 20, 22, 23 وراجع أيضا HIER, Vir. Ill. 69

(120) Duchesne, op. cit. I, p. 356

(١٢١) انظر بعده .

(122) ATHANAS, DE S. Dion. 14, 18

(123) ATHANAS, Orat. C. Arian. IV 19

رجال الكنيسة فى المدن الخمس الغربية[١٢٤]. يؤكد فيها التمييز بين الآب والابن[١٢٥]، ويستخدم فى ذلك تعبيرات تشبه لغة أوريجن عن تبعية الابن .

وقد لقيت هذه التعبيرات معارضة من بعض رجال الكنيسة[١٢٦] ولاشك أن هذا هو الذى حدا بأثناسيوس أن يكتب دفاعا عن سلفه ديونيسيوس De Sententia Dionysii يحاول فيه تبرير موقفه، ويصفه بالتقوى والورع، وإن كان وجد فى ذلك على حد تعبير المؤرخ هاردى Hardy صعوبة وألما بالغين[١٢٧].

ولعل مما يفسر قول هذا المؤرخ، أنه على الرغم من أن الهوموسية، أصبحت من بعد عقيدة الأرثوذكسية، بعد أن أقرها المجمع المسكونى الأول، فى محاولة لوضع قانون للإيمان بعد ما لقيت فكرة آريوس عن خلق المسيح رواجا كبيرا، على الرغم من ذلك فإن بعض آباء الكنيسة، راح ينظر إلى ديونيسيوس، باعتباره السبب الرئيسى فى غرس بذور العقيدة الأنوموية[١٢٨] ـــ وهى إنكار الشبه بين الابن والأب ـــ وهى التى سوف نتناولها بالدراسة فيما بعد، إذ باستخدامه تعبيرات غير مألوفة، دفع بطائفة من الآريوسيين إلى الاتجاه المضاد المتطرف تماما، وهذا هو ما يراه باسيليوس الكبير أسقف قيسارية كبادوكيا الذى يذكر فى إحدى رسائله[١٢٩] أنه قرأ كتابات ديونيسيوس كلها ولم يستحسن منها شيئا، إذ أمسى الأسقف السكندرى ـــ فى نظره ـــ وراء ما تعانى منه الكنيسة فى القرن الرابع، ويفسر ذلك بقوله، إن هذا جاء لرغبة ديونيسيوس الجامحة فى مقاومة السابللية، ويقارنه بمن أراد أن يقوم اعوجاج شجيرة ضعيفة النمو، فجذبها فى

---

(124) EVSEB, Hist, eccl. VII, 26
(125) ATHANAS, de S. Dion, 9 - 13
(126) Ibid, 13
وراجع لأثناسيوس أيضا De Syn. 44
(127) Hardy, op. cit. p. 29
(128) BASIL. Ep. CLXXXVIII, 1
(129) BASIL. Ep. IX, 2

عنف إلى الاتجاه المضاد تماما، وإن كان هذا كله لم يمنع باسيليوس من أن يخلع عليه لقب الكبير(١٣٠)، وهو نفس اللقب الذى أضفاه عليه يوسيبيوس القيسارى(١٣١).

وإذا كان ديونيسيوس قد بسط سلطان أسقفيته على مصر كلها وأضاف إليها المدن الخمس، فقد ارتقى كرس الإسكندرية فى عهده مرتبة سامية فى العالم المسيحى، يعبر عنها ذلك الرجاء الذى أرسله أساقفة الشرق يلتمسون منه المجىء إلى أنطاكية لحضور المجمع الذى عقده سنة ٢٦٢، لبحث آراء بولس أسقف ساموساط(١٣٢) غير أن ديونيسيوس كان قد بلغ من الكبر عتيا، فلم يتمكن من تلبية رغبتهم، وإن كان قد أرسل إلى المجمع رأيه كتابة فى رسالته الشهيرة حول نقاط الجدال(١٣٣) والتى حملها يوسيبيوس أحد شمامسة الإسكندرية(١٣٤).

ولما قام الخلاف فى الكنيسة حول إعادة معمودية الخارجين عن الكنيسة زمن الاضطهاد، وبلغ أشده فى روما بين كورنليوس Cornelius المعتدل، الذى غدا أسقفا سنة ٢٥١، ونوفاتيان Novatianus المتطرف الذى يرفض إعادة قبول هؤلاء فى الكنيسة ثانية، وأصر الفريق المؤيد له على رسمه أسقفا لروما مضادا فى نفس العام، وراح الأخير يبعث بخطاباته إلى الكرسى الأسقفى السكندرى مبينا آراءه، كتب إليه ديونيسيوس رادا " إذا كنت رغم إرادتك رسمت، فسوف تبرهن على ذلك عندما تنسحب بإرادتك"(١٣٥) كما بعث برسائل التأييد إلى أسقف روما كورنليوس، وأظهر اتفاقه معه فى الرأي فى الرسائل التى بعث بها إلى كل من

(130) BASIL. Ep. CLXXXVIII, 1
(131) EVSEB. Hist. Eccl. VII, praef. وراجع أيضا
Evetts, History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, II, pp. 80 - 93
(132) EVSEB, op. cit. VII, 27
(133) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 27 ; HEIR. Vir. Ill. 69
(134) Duchesne, op. cit. I, p. 354
(135) HIER. Loc. cit
EVSEB. Hist. Eccl. VI, 45

كونون[١٣٦] Conon أسقف الأشمونين Hermopolis magna ، وشعب الكنيسة السكندرية، وتليميدرس Thelymidres أسقف اللاذقية Laodicea، و" الإخوة الأرمن " وعلى رأسهم الأسقف مروزانس Merozanes و " إخوة " روما[١٣٧].

ولقد توطدت العلاقات بين كنيستى الإسكندرية وروما على عهد ديونيسيوس، وزاد من أواصرها ذلك الصدع الذى وقع فى كنيسة روما، ومن الرسالة التى بعث بها الأسقف السكندرى إلى كورنليوس، نعلم مدى المودة التى كانت قائمة بالفعل بين الكنيستين، إذ يخبره أنه تلقى الدعوة من هلنوس Helenus أسقف طرسوس Tarsus وزملائه، للالتقاء فى أنطاكية، حيث كان البعض يميل إلى جانب نوفاتيان وآرائه التى ذاعت باسمه[١٣٨]، تأثرا بالأسقف الأنطاكى فابيوس Fabius الذى يؤيد المبادئ النوفاتية[١٣٩].

ولما ارتقى ديونيسيوس الرومانى أسقفية روما (٢٥٩ - ٢٦٨)، أضحت العلاقات وثيقة بينه وسميه السكندرى، وخاصة وأن هذا الأخير كان قد بعث بعدد من الرسائل إلى ديونيسيوس وهو بعد قسا فى الكنيسة الرومانية[١٤٠]، فلما ذاعت دعوة سابليوس، وشحذ أسقف الإسكندرية فكره معارضا ومحاجا، ولجأ إلى تعبيرات جريئة لم ترد فى الكتاب المقدس، ولم يرض عنها عدد من الأساقفة، كما أسلفنا، واتخذوا سبيلهم إلى أسقف روما، كتب هذا إلى سميه السكندرى منبها، مما حدا بالأخير إلى وضع دفاعه الشهير (Refutation and Defence) فى كتب أربعة بعث بها إلى ديونيسيوس روما[١٤١].

---

(136) HIER . loc . cit.
EVSEB. Hist. Eccl. VI, 46
(137) EVSEB. Loc. cit.
(138) Id.
(139) McGiffert, op. cit. p. 286 n. I
(140) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 7, 9
(141) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 26

وكان من الطبيعى أن تسير العلاقات قدما بين مركزى العالم الرومانى السياسى والفكرى، روما بماضيها والسيادة، والإسكندرية بحضارتها والفكر، بل لقد كان من الضرورى أن يتواد كرسيا العالم المسيحى، امتدادا لتلك الصلة الوثيقة التى كانت قائمة بين القديسين بطرس ومرقس، والتى بلغت درجة التبنى، كما أخبر عن ذلك بطرس نفسه فى رسالته الأولى(١٤٢)، وكما حدث يوسيبيوس(١٤٣) وجيروم(١٤٤) من أن مرقس كان تلميذا لبطرس فى روما، ولاشك أن راعيى البيعتين تمثلا هذه الصلة، وعملا على تدعيمها فى مواجهة تحديات الإمبراطورية الوثنية، ومجابهة ذوى الآراء الخارجة على الكنيسة نظما أو عقيدة.

وقد تعرض ديونيسيوس خلال فترة أسقفيته الطويلة للاضطهاد الذى عاناه المسيحيون على عهد الإمبراطور دكيوس(١٤٥) Decius (٢٤٩ - ٢٥١) ثم فاليريان Valerianus (٢٥٧ - ٢٦٠) دون أن ينزل على إرادة الإمبراطور(١٤٦) ولأن هذه كانت حياة ديونيسيوس، ولأن ذلك كان فكره، افتتح يوسيبيوس الكتاب السابع من تاريخه الكنسى، وقدم للأسقف السكندرى لقب " الكبير" . ومن أجل هذا وتلك أيضا كتب أثناسيوس دفاعه عن سلفه وأستاذه، ذلك أن أثناسيوس ترسم خطى ديونيسيوس جهادا وحياة، وظل طيلة أسقفيته مخلصا أمينا وحاميا للهوموسية التى ارتضاها ديونيسيوس، حتى جاز لأحد المؤرخين(١٤٧) أن يقول " إن من حق أثناسيوس دون غيره الادعاء بأن ديونيسيوس وآراءه له وحده وهو رائده والولى" .

وطوال فترة الاضطهاد العام الذى بدأ منذ عهد دكيوس، حتى ضراوته زمان دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ - ٣٠٥) لقى المسيحيون فى الإمبراطورية

(١٤٢) رسالة بطرس الأولى : اصحاح ٥/١٣

(143) EVSEB. hist. eccl. III, 19, V, 8

(144) HIER. Vir, ill. 1, 8, 11

(145) EVSEB. op. cit. VI, 39 - 40

(146) Ibid. VII, 11

(١٤٧) راجع المقدمة التى كتبها Robertson لدفاع أثناسيوس عن ديونيسيوس ضمن مجموعة آباء نيقية.. المجلد الرابع ص ١٧٤ .

كلها ألوانا من العذاب، إذا استثنينا ذلك العهد القصير للامبراطور جاللينوس[١٤٨] Gallienus (٢٦٠ - ٢٦٨) . وكان الأساقفة ومن دونهم من رجال الاكليروس، أكثر الجماعات إيلاما وتعذيبا، مما تمتلئ به صفحات تلك الرسالة الطويلة، التى خلفها لنا الكتاب الأفريقى اللاتينى المعاصر لاكتانتيوس Lactantius (٢٦٠ - ٣٤٠) " عن موت المضطهدين " De mortibus Persecutorum والكتابان السابع والتاسع من التاريخ الكنسى ليوسيبيوس القيسارى، وكتابه الثامن الذى عقده للحديث عن شهداء فلسطين خاصة.

ووقعت الكنيسة بين شقى الرحى، فقد كان عليها أن تتصدى لهذا التيار العنيف الذى يتهدد كيانها، وفى الوقت ذاته، وجدت لزاماً عليها أيضا أن تجابه هذه الفرق التى ظهرت تنادى بكنيسة للأطهار والقديسين الذين لم يصب إيمانهم من جراء الاضطهاد دنس، النوفاتيون فى روما والدوناتيون[١٤٩] فى شمال أفريقيا، والمليتية[١٥٠] Meletianism فى مصر، وكان من الضرورى أيضا أن يشمل الاضطراب مدرسة الإسكندرية، ومن ثم ظللت سحابة من الغموض تاريخ المدرسة فى هذه الفترة، ولم يحدثنا يوسيبيوس أو جيروم بشيء عنها طيلة نصف القرن الثالث الأخير، وإن كنا نستطيع أن نستخلص من حديث يوسيبيوس عن أساقفة

(١٤٨) راجع للمؤلف الدولة والكنيسة ، ج٢ . . الفصلين الأول والثانى.

(١٤٩) الدوناتية Donatism تنسب إلى دوناتوس Donatus الكبير الذى خلع على الطائفة اسمها. وقد تولى أسقفية قرطاجة حوالى عام ٣١٣ منافسا للأسقف الكاثوليكى كايكليانوس Caecilianus وتقوم فكرة الدوناتيين على أساس أن الأساقفة ورجال الاكليروس الذين ارتضوا زمن الاضطهاد الأعظم (٣٠٣ - ٣١١) أن يقربوا للأرباب أو يقدموا الكتب المقدسة قربانا للنيران، مارقون عن الدين . وعلى حين ارتضت الكنيسة الكاثوليكية سياسة الاعتدال وسمحت بإعادة تعميد هؤلاء الخطاة وقبولهم ثانية فى شركة الكنيسة، رفض جماعة من أساقفة نوميديا ذلك، ونادوا بكنيسة للأطهار ورفضوا قبول المارقين ثانية . وأصروا على أن صلاحية الطقوس الكنسية تعتمد على أخلاق شخصية رجل الاكليروس القائم . وهم فى ذلك يشبهون النوفاتيين فى روما، ويشبههم المليتيون فى مصر.

راجع Encyc. Of Relig. And Eth. Col. IV, pp. 884 – 885.

وراجع كذلك Latourette; Expansion of Chirstianity, I, p. 348.

وانظر للمؤلف : الدولة والكنيسة، ج ٢ الفصل الرابع.

(١٥٠) انظر للمؤلف : الدولة والكنيسة ، ج ٢ الفصلين الخامس والسادس.

العالم المسيحى آنئذ، أن المدرسة كانت رغم الاضطرابات تمارس بعضا من رسالتها، فيوسيبيوس السكندرى، أحد قساوسة الإسكندرية، والذى سبق لنا ذكره، وتحدث عنه ديونيسيوس ممتدحا(١٥١)، وكان ممثلا فى المجمع الأنطاكى سنة ٢٦٢ لأسقف الإسكندرية، رسم أسقفا لكنيسة اللاذقية، ونال شهرة واسعة فى مجال العقيدة ودراسة الكتاب المقدس كواحد من أبناء مدرسة الإسكندرية(١٥٢)فلما قضى، خلفه سكندرى آخر يدعى أناطوليوس Anatolius، يصفه شيخ مؤرخى الكنيسة بأنه جمع إلى البراعة فى الآداب والفلسفة والبيان، حذق العلوم الرياضية والهندسة والفلك والطبيعة والجدل(١٥٣)، ثم يقول عنه ": إنه بين أقرانه أول زماننا"(١٥٤) ويضيف " لأجل ذلك كله دعاه مواطنو الإسكندرية للعودة لتأسيس مدرسة للفلسفة الأرسطية(١٥٥) وفروع المعرفة الإنسانية التى جمعها أناطوليوس، تشير دون ريب إلى أنه تلقى تعليمه فى مدرسة الإسكندرية، وهذا بدوره يؤكد أنها بقيت إلى حد تؤدى دورها .

على أنه مع أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الميلاديين، تتقشع هذه الغيوم قليلا، ويصل جيروم ما انقطع من حديث، فيخبرنا أن مفكرا يدعى بيريوس Pierius هو الذى يقوم فى نهاية القرن الثالث بالتدريس فى الإسكندرية(١٥٦) وإن كان يوسيبيوس لا يذكر عنه شيئا أكثر من كونه أحد قساوسة الكنيسة السكندرية(١٥٧) ويناقش ماكجفرت(١٥٨) MeGiffert أحد المؤرخين المحدثين هذه المسألة تفصيلا، ويميل إلى الأخذ برأى يوسيبيوس، غير أن ما يذكره جيروم من

(151) EVSEB. Hist. Eccl. VII. II
(152) EVSEB. hist. eccl. VII. 11. 32
(153) HIER. Vir. Ill. 73. EVSEB. Hist. Eccl. 32
(154) EVSEB. Loc. cit.
(155) Id.
(156) HIER. Vir.ill 76
(157) EVSEB. Loc. cit.
(158) McGiffert, op. cit. p. 321 n. 42

أن بيريوس نشر عددا كبيرا من الرسائل فى مختلف الموضوعات، مما أضفى عليه لقب " أوريجين الصغير" بالإضافة إلى الحياة النسكية التى كان يعيشها، ومعرفته الواسعة بفن الجدال(١٥٩)، كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه ليس من المستبعد أن يكون بيريوس قد باشر بصورة ما التدريس فى مدرسة الإسكندرية(١٦٠) .

وطوال مدة الاضطهاد الأخير (٣٠٥ – ٣١٣) على عهد جاليريوس Galerius (٣٠٥ – ٣١١) وماكسمين دازا Maximinus Dasa (٣٠٧ – ٣١٤)، تولى آشيلاس Achillas (+ ٣١١) الإشراف على المدرسة(١٦١)، وكان مسلكه الذى يتصف بالتقوى سندا لتوليه الأسقفية بعد موت بطرس سنة ٣١١ الذى يعد آخر الشهداء فى الكنيسة المصرية(١٦٢)، وإن لم يمكث بها إلا فترة قصيرة جدا، حيث خلفه اسكندر(١٦٣) Alexandrius (٣١١ – ٣٢٨).

وخلال أسقفية اسكندر وأثناسيوس من بعده (٣٢٨ – ٣٧٣)، عهد بإدارة المدرسة إلى ديديموس(١٦٤) Didymus (+ ٣٩٦) ورغم أنه افتقد بصره صبيا(١٦٥)، إلا أنه تمكن من النبوغ فى نواحى المعرفة العديدة، محدثا بالشعر، متضلعا من البيان، عالما بالفلك والهندسة والحساب، للنظريات الفلسفية المختلفة دارسا(١٦٦)، وقد ترك لنا مؤلفات عديدة معظمها تعليقات على المزامير وشروح

---

(159) HIER. Loc. cit.

(١٦٠) ويذكر Duchesne, op. cit. I. P356. أن ثيوجنستوس قام بإدارة المدرسة بعد وفاة ديونيسيوس وأنه السلف المباشر لبيريوس .

(161) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 32

(162) EVSEB. Loc. cit
وراجع THEOD Hist. Eccl. 1, 2

(163) THEOD. Loc. cit.

(164) Ibid. IV, 26
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Ecc. III, 15

(165) HIER. Vir. Ill. 109

(166) THEOD. Loc. cit
وراجع SOZOM. Loc. cit.

لإنجيلى متى ويوحنا، وخلف كتابا عن الروح القدس قام جيروم بنقله إلى اللاتينية(١٦٧) وذاعت فى الكنيسة الكاثوليكية شهرته، وأثنى عليه رهبان مصر وعلى راسهم أنطونيوس الذى قام بزيارة ديديموس عندما قدم الإسكندرية لتأييد أثناسيوس سنة ٣٣٨ فى صراعه من الآريوسيين(١٦٨)، وكان من أشهر تلاميذ المدرسة انذاك جريجورى النازيانزى وأخوه قيصر، كما أسلفنا، بالإضافة إلى جيروم (٣٤٠ - ٣٣٠) وروفينوس (٣٤٥ - ٣٨٠)(١٦٩).

وفى عام ٣٩٦ مات ديديموس بعد أن ظل فى منصبه فترة طويلة، تبلغ ثلاثة أرباع القرن تقريبا، وهى الحقبة التى شهدت أخطر صراع عقيدى عرفته الكنيسة، وانتهى بانتصار الإمبراطورية النيقية على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius (٣٧٨ -- ٣٩٥) . وبموت ديديموس دخل تاريخ المدرسة السكندرية فى طور من الغموض يشبه ذلك الذى صحب وجودها، ولم نعد نسمع عنها من بعد شيئا . ولكن الذى لا شك فيه أن المدرسة قامت بدور كبير خلال قرنين من الزمان وينيف، قدمت خلالهما للكنيسة المسيحية والعقيدة، أعلاما يعتز بهم الفكر المسيحى واللاهوت، كلمنت وأوريجين وديونيسيوس وجريجورى النازيانزى وجيروم ثم أثناسيوس.

وفى الإسكندرية المدنية، والفكر، كانت حياة أثناسيوس، ووسط هذا الجو الفلسفى اللاهوتى، عرفناه صبيا يلقى الرعاية الكاملة فكرا وحياة من اسكندر الأسقف السكندرى، وأيا كانت صحة الرواية التى يحكيها روفينوس(١٧٠)، ويتابعه

---

(167) HIER. Loc. cit.

(168) SOZOM. Hist. Eccl. III, 15 . وانظر بعده الفصل الثانى

(169) Atiya, op. cit. p. 39

(١٧٠) يخبرنا روفينوس أنه أثناء الاحتفال بذكرى بطرس آخر الشهداء، كان أسكندر ينتظر قدوم رجال الاكليروس فى مكان قريب من البحر، وقد وقع بصره على بعض الصبية يلهون عند الشاطئ، فلما تأملهم إذا بهم يؤدون طقس العماد، فاستدعاهم وطمأن خاطرهم، ثم علم منهم أن أحدهم وهو أثناسيوس كان يقوم بدور الأسقف، ويناول الآخرين المعمودية. ولقد صدق هو واكليروسه على ما أقدم عليه الصبية، وقرب إليه أثناسيوس، وتعهده بالرعاية والتعليم . وكانت هذه الحادثة بداية الصلة الوثيقة بين اسكندر وأثناسيوس .

وراجع L. XXI 486).RUFIN. Hist. Eccl. I, 14 (p

عليها سقراط[١٧١] وسوزومنوس[١٧٢]، فأن أثناسيوس تلقى منذ البداية تعليما لاهوتيا تحت أشراف أسقف الإسكندرية، وكان مقربا إليه موقرا منه[١٧٣].

ولابد أن تكون أسرته التى لا نعلم من أمرها شيئا[١٧٤] قد دفعته إلى دراسة الآداب اليونانية والفلسفة، لغة العصر والطبقة المثقفة والراقية آنذاك، ولابد أيضا أن يكون أثناسيوس قد تعلم هذا وذاك فى مدرسة الإسكندرية منارة اللاهوت والفلسفة فى ذلك الزمان، وهذا كله تعكسه كتاباته الباكرة[١٧٥].

فقبل أن يبلغ أثناسيوس الحادية والعشرين من عمره، كان قد وضع عمله الشهير عن تجسد الكلمة[١٧٦] De Incarnatione Verbi Dei ومؤلفه ضد الوثنيين Contra Gentes، وفيهما نرى أن الفلسفة الأفلاطونية وفكر أفلاطون، خاصة محاوراته، فى كثير من المواضع عند حديثه عن النفس، القوة المتحركة بنفسها، الموجودة فى الإنسان ، باعتبارها جزءا من النفس المتحركة بنفسها، الموجودة خارج الجسد متمثلة فى كل شيء[١٧٧]. وفى تاريخه عن الآريوسيين . Historia Arianorum يصف الإمبراطور قسطنطيوس (٣٣٧ - ٣٦١) بأنه أشد فسقا من

---

(171) SOCRAT. Hist. Ecc. I, 17

(172) SOZOM, Hist. Eccl. II, 17

(173) ATHANAS. Apol. C.Arian.6

وراجع أيضا 18.SOCART. op. cit

(174)Gwatkin, Arian Controversy, p. 48

وانظر Stanley, Lectures on the history og the Eastern Church, p. 224

(١٧٥) ليس هناك تاريخ محدد لمولد أثناسيوس، وإن كان المؤرخون جميعا يتفقون على أنه ولد بين عامى ٢٩٦ - ٢٩٨ ، راجع Gwatkin op. cit. 49 وراجع أيضا Robertson, op. cit. 14 وانظر المقال الذى كتبه Gifford فى تقديمه لأعمال كيرلس Cyrillus أسقف أورشليم ضمن مجموعة آباء نيقية Vol. VII, p. 35 ، وما كتبه Clifford عن أثناسيوس فى The Catholic Encyclopedia vol. II, p. 707 . راجع ايضا المقال الذى كتبه عنه X. Le Bachelet فى قاموس اللاهوت الكاثوليكى Dictionnaire de théologio Catholique, I, 2, Col 2143 - 21287

(176) Wand, A history of the early Churcrh, p. 155

(177) ATHANAS. Con. Gen. 5, 33, I, De incarn. 43 (PLATO, phaed. 246, 245, Tima. 29)

وراجع كذلك 49.Gwatikin, op. cit. p

وقارن : دكتور نجيب بلدى : تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ، ص ٧١.

شاول Saul وآحاب Ahab وبيلاطس Pilates ، ويقول إنه " الشر الأبدى"[١٧٨]، وهو يقتبس هذا التعبير الأخير من شاعر الإغريق الخالد هوميروس[١٧٩]، ولعل هذا يعد شيئا طبيعيا فى وقت ساد فيه فكر اليونان ولغتهم[١٨٠] كما أن الارتباط بين دراسة الكتاب المقدس والتعليم اليونانى، كان شيئا متوقعا لأى تلميذ فى مدرسة الإسكندرية، بل إن معرفة أثناسيوس بالكتاب المقدس كانت قاصرة على الترجمة السبعينية[١٨١] Septuaginta .

على أنه إذا كانت الآداب اليونانية والفلسفة، قد أخذت جانبا من فكر أثناسيوس، فإن الحضارة المصرية وتاريخها، أو ديانتها وأسرارها، والماضى العريق والآثار الزاهرة لمصر وأصالتها لم تحظ بنفس القدر من الاهتمام، كما يجمع عدد كبير من المؤرخين. وربما يميلون بذلك أيضا إلى العودة بنسبه إلى أسرة يونانية[١٨٢]. ولكن أثناسيوس كان قادرا على الحديث باللغة المصرية القديمة، ولعل هذا يعود إلى صلته الوثيقة منذ صباه بالقديس أنطونيوس أبى الرهبان[١٨٣]. ويدل على ذلك أيضا علاقات المودة والصداقة التى كانت قائمة بينه وبين رهبان مصر مما قدم له أعظم النفع كما سنبينه فيما بعد . وإن كان أثناسيوس رغم ذلك لم

---

(178) ATHANAS. Hist. Arian. 68

(١٧٩) من تحذير الربة كيركى Cyrce لأوديسيوس Odysseus ليتجنب المقدسة Charybdis" الأذى الخالد " HOMER. Odyss. XII 118

(١٨٠) راجع المقال الذى كتبه Bardy عن أثناسيوس فى Dict. D'hist. et geog. IV, col. 1316

(١٨١) انظر Robertson, op. cit. p. 14 ويذكر المؤرخ اليهودى يوسف Josephus أن بطليموس الثانى فيلادلفوس أراد أن يترجم إلى الإغريقية كتب اليهود المقدسة فأرسل إلى كبير الكهنة بأورشليم يطلب إليه أن يرسل إلى مصر بعض علماء اليهود وفقهاءهم لهذا الغرض . وقد أرسل كبير الكهنة إلى مصر سبعين شيخا من خيرة اليهود ، وقد قام كل منهم منفردا بالترجمة ، واستغرق كل منهم سبعين يوما فى ذلك العمل . وبمقارنة التراجم السبعين وجد أنها تطابق بعضها تماما . هذا هو ما يقوله المؤرخ اليهودى يوسف ، ولاشك أنها قصة مخترعة"
راجع : دكتور إبراهيم نصحى ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٥.

(182) Stanley, op. cit. p. 233
وأيضا Robertson, Loc. cit.

(183) ATHANAS. Vita Ant. Pref.

يخلف لنا من أسفاره الضخمة عملا واحدا بهذه اللغة، ولكن هذا فى حد ذاته لا ينهض دليلا على كون أثناسيوس كان يونانى المولد.

والذى يمكن أن نقوله فى هذا المجال على سبيل الاحتمال، خاصة فى حالة الافتقار الكامل إلى المعلومات التاريخية عن أصل أثناسيوس، وخلو الكتب التاريخية المعاصرة له من أى حديث عنه سوى رواية روفينوس التى سبق لنا ذكرها. هو أن أثناسيوس ربما كان ابنا لأحد الأسر المصرية التى نزحت إلى ضواحى الإسكندرية(١٨٤) ويقوى من هذا الاحتمال صلته المبكرة، كما ذكرنا، بالراهب المصرى أنطونيوس، وأجادته الحديث باللغة المصرية القديمة، وعلى عادة أهل ذلك العصر، فقد دفعت به أسرته إلى تعلم اللغة اليونانية، لسان ذلك العصر، ودراسة الآداب والفلسفة الإغريقية السائدة آنذاك، والتى تعد علما على الطبقة المثقفة فى تلك الفترة، ومن ثم ترك باللغة اليونانية كل ما كتبه حتى يمكن لمعاصريه فى العالم الرومانى كله سهولة الاطلاع عليها، خاصة وأنها تتصل فى معظمها بأمر الدفاع عن نفسه والعقيدة التى يؤمن بها(١٨٥).

---

(١٨٤) يذكر بوليبوس أن الإسكندرية كانت تضم المصرين إلى عناصر سكانها الآخرين من الأغريق واليهود . يضاف إلى ذلك أن قرية راكوتيس أو رقوده المصرية القديمة كانت الأساس الذى بنى عليه الإسكندر مدينته ثم ازداد عدد المصرين فى الإسكندرية نتيجة لنقل سكان مدينة كانوب إلى الإسكندرية عندما كان كليومينيوس حاكما بأمره فى وادى النيل على عهد الإسكندر .
راجع نصحى ، المصدر السابق ، ج ١ ص٢٠ج ٢ ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٧ كما أن العصر الرومانى شهد أيضا زيادة أعداد المصرين فى الإسكندرية وضواحيها.
انظر Johnson & West, Byzantine Egypt, pp. 100 - 107

(١٨٥) يذكر الأب متى المسكين مقدم دير أنبا مقار، فى العدد رقم ١٥٠ مايو ١٩٧٣ من مجلة " مرقس " من ص ٣ إلى ص ٩ أنه " عثر شخصيا فى أرضية المكتبة القديمة بحصن دير القديس أنبا مقار تحت التراب، على ورقة مخطوطة برقم ١٩٩ (أ ، ب) " تلقى الضوء على عدة أمور فيما يتعلق بنشأة أثناسيوس ، تتركز فى نقطتين : أولاهما أن أثناسيوس كان يعيش طفولته فى كورة بجوار أخميم وأنه كان يتردد على هذه المدينة مع رفاقه من الأطفال . والثانية أنه ينتمى لأسرة مسيحية كان عائلها يعمل كاهنا لإحدى الكنائس . وعلى الرغم من أن هذه الورقة المخطوطة هى " من أصل مخطوط يحوى أخبارا تاريخية باللغة العربية، وبخط يشير إلى أن المخطوطة ترقى إلى القرن الحادى عشر – الثانى عشر ربما كانت أول ترجمة عربية لأصل قبطى " كما يفترض الأب متى المسكين . فليس من العسير التوفيق بين ما جاء فيها ورواية روفينوس ، حيث يمكن القول إن أثناسيوس قضى طفولته فى إحدى كور أخميم ثم نزح فى صباه مع أسرته إلى ضواحى الإسكندرية ، حيث التقى بالأسقف اسكندر على النحو الذى يرويه روفينوس ، خاصة وأن المخطوطة تشير أيضا إلى أن أثناسيوس كان يمارس نوعا من التناول قبل تكريسه.

غير أن فكر أثناسيوس ارتبط تماما بالكتاب المقدس(١٨٦) وكان هذا نتيجة طبيعية لمعرفته المبكرة بالأسقف السكندرى اسكندر، وفتح أثناسيوس عينيه وعقله على تراث أعلام اللاهوت فى مدينته : كلمنت وأوريجن وديونيسيوس، وراح يدرس فكرهم بعمق الإنسان النابه والباحث المدقق . فى وقت كانت الأوريجنية تصبغ المدرسة السكندرية، وكان اسكندر أستاذه وراعيه أوريجنيا بالقلب والقالب(١٨٧) وقد ترك ذلك أثره الواضح فى كتابات أثناسيوس الأولى خاصة رسالته عن تجسد الكلمة، ولعلنا نلمس فى هذه الأعمال بالذات أن أثناسيوس لم يكن قد استطاع بعد أن يتخلص من تلك المؤثرات سواء الآداب الإغريقية منها أو الفكر الأوريجنى، بل لقد ظل تحت هذه التأثيرات إلى حد بعيد عندما كتب حياة الراهب أنطونيوس Vita S. Antonii فى خمسينيات القرن الرابع.

غير أن أثناسيوس لم يبق واقفا عندما خلفه الأقدمون، بل سرعان ما أخذ يخط لنفسه طريقا وسط هذه الفكر المتباينة، ومن ثم فإنه أخذ يميل مؤخرا عن الأوريجنية، نتيجة للتيارات اللاهوتية السائدة عندئذ(١٨٨)،التى تمثلت خير تمثيل فى انفجار الجدل الآريوسى العنيف، وتصاعده طيلة حياة أثناسيوس، وهو ما سوف نبحثه تفصيلا طيلة مسارنا فى هذا الكتاب. ولاشك أن العقائد الآريوسية لعبت دورا ليس بالقليل فى تحديد مساره اللاهوتى ، وأدى إنكار الآريوسية للمبادئ الأولى للخلاص فى المسيحية، إلى تبلور فكر أثناسيوس اللاهوتى الكامن فى نظريته الثابتة عن عقيدة الخلاص Soteriology تلك التى عاد فيها القهقرى من لوغوس Logos الفلاسفة، إلى " الكلمة" عند القديس يوحنا . ومن اله الفلسفة إلى الله فى المسيحية(١٨٩). وارتبط أثناسيوس بالكتاب المقدس ارتباطا كاملا، واستخدمه ببراعة فى كل كتاباته التى لا يخلو أى منها من فقرات عديدة منه مقتبسة . وإن كان قد

---

(186) Gwatkin. op. cit. p. 49

وراجع Robertson. Loc. cit.

(١٨٧) انظر للمؤلف ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، الفصل الثانى

(188) Robertson, op. cit. p. 68

(189) Robertson, op. cit. p.. 68 – 69

ظل حتى آخر عمره مدافعا عن مصطلح لم يرد فى الكتاب المقدس، استخدمه عرضا، سلفه ومثله ديونيسيوس. وأضحى من بعد قانون الإيمان النيقى الأرثوذكسي . وسببا فى الجدل اللاهوتى العنيف فى القرن الرابع، أعنى " الهوموسية" .

ورغم أن أثناسيوس يلقب بأبي الأرثوذكسية، ورغم أنه، على حد تعبير جيبون Gibbon ، إذا ما طلب إليه أن يزكى عقائده، فإن عباراته وأسلوبه المرتجل، خطابة كان أم كتابة، يأتي واضحا باعثا على الإقناع(١٩٠). إلا أنه لم يختلف لنا عملا عقائديا خالصا، بل جاءت أعماله العقيدية إما بدافع الجدل اللاهوتى أو بحكم عمله كراع مسيحى(١٩١).ومن ثم فاقه فى هذا المجال نفر من معاصريه مثل يوسيبيوس القيسارى(١٩٢). وجريجورى النازيانزى وباسيليوس الكبير(١٩٣) ولكن أثناسيوس مع ذلك كان أبرز أولئك الذين ساهموا فى إرساء دعائم عالم جديد(١٩٤).

(190) Gibbon, Decline and fall of the Roman Empire, II, p. 384 .

(191) Rebertson, op. cit. p66.

(192) Gwatkin, op. cit. p. 49

(193) Gibbon, Loc. cit.

(194) Rostovtzeff, A history of the Ancient world II, p. 357.

الفصل الثاني



التجربة الأولى
أثناسيوس وقسطنطين

الفصل الثانى

التجربة الأولى
أثناسيوس وقسطنطين

فى عام ٣٢٥ وجد أثناسيوس نفسه وقد سلطت عليه أضواء الشهرة والإعجاب. ففى العام ذاك وجه الإمبراطور قسطنطين Constantinus (٣٠٦ – ٣٣٧) الدعوة إلى الأساقفة لعقد مجمع عام فى نيقية Nicaea سنة ٣٢٥ فى بيثينيا Bithynia بآسيا الصغرى) لتقرير الإيمان، وكان أول مجمع مسكونى شهدته الكنيسة، بعد أن ذاعت فى مصر وأسقفيات الشرق الرومانى بعامة، دعوى العقيدة الآريوسية، وانقسم الاكليروس المسيحى إزاءها، وأضحى هذا الانقسام يهدد السلام فى الإمبراطورية. وكانت الآريوسية فى جوهرها تبغى إرساء المسيحية على أسس عقلانية، متأثرة فى ذلك بالمدرسة الأنطاكية وأستاذها لوقيان *.

وكان آريوس Arius القس السكندرى أحد تلامذة أنطاكية[1]، قد جهر سنة ٣١٨، على أثر حوار بين اسكندر أسقف الإسكندرية واكليروسه عن " الكلمة " بأن الآب هو الإله الحق فى مقابل الابن الذى ليس إلها حقا. فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق، ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين، إلهان لا متناهيان، وعلى ذلك فالله لم يكن دوما أبا، وكلمة الله لم تكن دواما، ولكنها من العدم نشأت . فالله قد جعل هذا الذى لم يكن من ذلك الذى لا وجود له . وعليه فقد كان هناك زمان لم يكن هذا .. ذلك أن الابن مخلوق . لا يساوى الآب فى الجوهر، ليس الكلمة الحق الطبيعية للآب، ليس حكمته الحقة، إنما هو أحد الخلائق، دعى " الكلمة" خطأ و " الحكمة " . فهو نشأ بذات كلمة الله، وبالحكمة الكامنة فيه، التى بها سوّاه الله وسوّاه، ومن ثم فهو بطبيعته عرضة

* للمزيد من التفاصيل عن الوقائع التى تضمنها هذا الفصل ، راجع للمؤلف الدولة والكنيسة ، جـ٢ ، الفصول من الثالث إلى السادس

(1) EVSEB. Hist. Eccl VIII, 13
وراجع أيضا HIER. Vir. Ill. 7
وكذلك THEOD, Hist. Ecc. I, 4

للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق. " والكلمة" غريبة عن جوهر الآب، بعيدة ومنفصلة. والآب كيف يصفه الابن ؟ إن "الكلمة " لا تعرف الآب كنهه، والابن لا يعاين الآب يقينا. والابن لا يعرف ذات الجوهر هو ! وهو فى علاقته بالمخلوقات خالق، وبالله مخلوق، وآلة للخلق وأداة. الآريوسية بذلك تتصور مسافة بين الله والمخلوقات، الأمر الذى يلزم منه أن الخالق المباشر محال. والابن فى رأى آريوس قمة الخلائق، غير متغير وثابت، وإن كان هذا لا يعنى الثبات فى ماهية الابن ذاتها، لكنه ثابت بحكم الواقع حسب إرادة الله، فقد جبل وخلق، فطبيعته للتحول قابلة(٢).

ومن رسالة(٣) بعث بها يوسيبيوس القيسارى إلى شعب بيعته فى فلسطين، يروى شيخ المؤرخين الكنسيين، قصة أول مجمع مسكونى شهدته الكنيسة، والمناقشات الجدلية حول العقيدة وغيرها فى جلسات المجمع وخارجه، والدور الكبير الذى اضطلع به قسطنطين فى محاولة لكى ينجح المجمع فى رسالته على أية صورة، وكان أهم ما جاء فى الرسالة على الإطلاق أنه كان زمان لم يكن الابن. فالابن مخلوق، لا يساوى الآب فى الجوهر . ولكن الجدير بالذكر أن الإمبراطور أدخل فى أمر العقيدة ما بدا أول الأمر غريبا مستغربا مثل عبارتي " المساواة فى الجوهر " أو الهوموسية Homoousios، وهى التى ذكرنا أنها وردت فى المراسلات التى دارت من قبل بين ديونيسيوس أسقف روما وسميه الأسقف السكندرى فى القرن الثالث، وكان هدف الإمبراطور واضحا من ذلك وهو إيجاد صيغة للإيمان ملائمة يلتقى عندها شطرا الإمبراطورية، وقد وجد هذه الصيغة تبعا

(٢) انظر ATHANAS. Depos; Arii. وراجع لأثناسيوس أيضا De decr. III, 6 أنظر كذلك THEOD. Hist.ecc. I, 3-5 والمقال الذى كتبه X. Le Bachelet عن Arianisme ضمن Dict. De théol. Cath. I, I راجع أيضا ما كتبه Gwatkin تحت عنوان Arianism ضمن مجموعة Cam. Med. Hist. Vol. I وكتاب Arian Controversy للمؤلف نفسه بالإضافة إلى ما جاء فى Encyclopeadia of religion and ethics, I, pp. 775-786 تحت مادة Arianism بقلم F. Jackson عن الآريوسية راجع أيضا ما كتبه W. Barry فى The Catholic Encyclopedia I ومقال F. Cavallera فى D. H. G. E. Vol. IV

(٣) انظر عن رسالة يوسيبيوس ATHANAS. Ep. Eusebii وراجع أيضا SOCRAT. Hist. Eccl. I,8 وكذلك THEOD. Hist. I, II

ارتضاه قبلا زعيما العالم المسيحى فى روما والإسكندرية. أما العبارة الأخرى فهى " مولود غير مخلوق " ويخبرنا يوسيبيوس أن الإمبراطور استخدم وسائل الإغراء والقهر لحمل الأساقفة على التوقيع على قرارات المجمع وقانون إيمانه الذى غدا من بعد قاعدة الإيمان المسيحى(٤).

وتفيد التقارير الواردة من المجمع أن أثناسيوس قد حاز إعجاب الحضور بثقافته وبراعته الخطابية وفهمه العميق للكتاب المقدس، فالمؤرخ الكنسى سقراط(٥) مثلا، بعد أن يحدثنا عن زعماء الفريق الآريوسى، يوسيبيوس أسقف نيقوميديا وماريس Maris أسقف خلقيدونية، وثيوجنس Theognis أسقف نيقية، يقول إن هذا الفريق جابه معارضة قوية من قبل أثناسيوس شماس الإسكندرية، ذى الحظوة لدى أسكندر أسقفه. أما سوزومنوس(٦) فيقول إن عديدا من الأساقفة الذين وفدوا إلى نيقية، ونفرا من الاكليروس الذين صحبوهم، استمالوا القلوب بمهارة فائقة فى الجدال، وغدوا على السبق قادرين، فشملتهم بالحدب والانتباه عيون الإمبراطور والبلاط ومن بين هؤلاء جميعا لفت أثناسيوس، الذى لم يزل شماسا جاء فى صحبة أسقفه، أنظار الجمع بذلك الجهد الضخم الذى بذله فى نقاط الجدل مشاركا . ويبدو مما كتبه أثناسيوس(٧) نفسه بعد ذلك، وأيده فيه سقراط(٨)، أن الفريق الآريوسى وأثناسيوس حملا لبعضهما منذ تلك اللحظة عداء مريرا دام قرابة نصف قرن آت.

إذ لم يكد يمضى على هذه الأحداث ثلاث سنوات سويا، حتى مات إسكندر (٣٢٨) بعد أن أوصى باختيار أثناسيوس خلفا له(٩)، وأدرك الآريوسيون أن اعتلاء أثناسيوس عرش الأسقفية، كفيل بأن يقف عقبة كأداء فى سبيل تحقيق الانتصار

(4) SOCRAT. Hist. Eccl. I. 8
(5) Id.
(6) SOZOM. Hist. Eccl. I. 17.
(7) ATHANAS. Apol. C. Arian 6.
(8) SOCRAT. Loc. cit.
(9) ATHANAS. Apol. C. Arian. 6
أيضا SOCRAT. Hist. Eccl.I, 17.
وكذلك SOZOM. Hist. Eccl. II. 17

للعقيدة الآريوسية وسيادتها على الكنيسة، ولم يكن قد ذهب من ذاكرتهم بعد، تلك الحملة التى شنها عليهم فى المجمع النيقى. وتلاقت ظنونهم مع المليتيين(١٠) فى مصر، وكان مجمع نيقية قد جرد زعيمهم ملتيوس من سلطاته وأمر برد كل الكنائس التابعة للمليتيين إلى سيادة أسقف الإسكندرية، وبدأ الفريقان مرحلة من التشكيك المستمر فى شرعية رسامته بغية التخلص منه قبل أن يستفحل أمره(١١).

لقد تسلم أثناسيوس أزمة كرسي يعلم تماما ثقله فى عالم المسيحية، وأمور أسقفية يدرك مكانتها، والهيبة التى أحرزتها بين كنائس الشرق والغرب، فى مدينة تحتل سمتا ممتازا تفوق به القرينات. فهو خليفة مرقس وديمتريوس وديونيسيوس وبطرس، وهو تلميذ بانطاينوس وكلمنت وأوريجن، ولاشك أن أثناسيوس وهو يقرأ لهؤلاء، قرأ عنهم، ووعت ذاكرته جهاد أوريجن وديونيسيوس وبطرس ضد أباطرة الوثن، وتفتح عقله على دائرة المعارف الإنسانية التى تضمها مدرسة الإسكندرية الشهيرة، وانبسطت أساريره وهو يتابع رحلة ديونيسيوس فى تأييد أسقف روما ضد النوفاتية، وصراعه ضد بولس السميسطائى وأتباع السابللية. ونجاحه فى بسط سلطان أسقفية الإسكندرية على كل أنحاء مصر والمدن الخمس الغربية وليبيا . وإذا كانت الأسقفيات الثلاث الكبيرة آنذاك، روما وأنطاكية والإسكندرية، تباهى بأن القديس بطرس هو الذى أسسها، سواء بطريقة شخصية كما فى روما وأنطاكية، أو

---

(١٠) الميليتيون هم أتباع ملتيوس Meletius أسقف أسيوط Lycopolis، وكان قد انشق على كنيسة الإسكندرية سنة ٣١١ أثناء وجود بطرس الأسقف السكندرى فى السجن . . وادعى لنفسه حق رسم الأساقفة على الأسقفيات الشاغرة. فلما انقشعت غمة الاضطهاد اتخذ لنفسه نهجا مستقلا ورفض قبول المارقين فى معمودية الكنيسة ثانية، وأسس بذلك كنيسة القديسين أو الشهداء . . وهم من هذه الناحية يشبهون دوناتيى شمال أفريقيا . . حتى أن المؤرخين يطلقون عليهم دوناتيى مصر . راجع للمؤلف " الدولة والكنيسة " . الجزء الثانى . الفصل الخامس والفصل السادس.

أنظر أيضا ما كتبه F. Jackson تحت عنوان Meletianism فى Encycl. of rel. and eth. Vol. VIII وكذلك ما كتبه عنها E. Amann ضمن Dict. De théol. Cath. Vol. X, I, col. 531-536

(١١) نظر ATHANAS. Apol. C. Arian. 6 وراجع أيضا SOCRAT. Hist. Eccl. I, 17 وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. II, 17

بالنيابة عن مرقس فى الإسكندرية، وإذا كانت أنطاكية تفاخر بأنها حاضرة الشرق، وروما لأنها عاصمة الإمبراطورية تتعالى، فأن الإسكندرية تسمو باعتبارها مركز الثقافة والفكر فى العالم الهلنستى(١٢)، وحق للإسكندرية أن تعلو فوق الجميع لا بالمركز والموقع، دنيا المادة فحسب ولكن بالثقافة والآداب وتراث الإنسانية، عالم الفكر ، وهناك من وراء، الإسكندرية، وعلى الامتداد الطويل للنهر الخالد حتى طيبة، تزخر صحراء مصر بحياة جديدة، أهلوها الرهبان حصن المسيحية وعضد أثناسيوس .

لقد كان أثناسيوس حريصا الحرص كله على أن يبقى للإسكندرية مسيحية الأسلاف، وأن تظل لأسقفيته السيادة الكاملة، التى مارسها من قبل ديمتريوس وديونيسيوس، وأضحت أمرا واقعا أقره المجمع النيقى فى قانونه السادس : " طبقا للتقليد الثابت، يمارس أسقف الإسكندرية سيادته على مصر وليبيا والمدن الخمس شأن أسقف روما فى الأقاليم التابعة له وأسقف أنطاكية فى المناطق الخاضعة لسيادته(١٣).

وقد دل سلوك أثناسيوس منذ البداية على ما نذهب إليه من عزمه على أن يجعل من اللقب الذى يحمله واقعا عمليا، فنعلم من دليل رسائله الفصحية، أنه لم يكد يمضى عام على خلافته لإسكندر، حتى راح يباشر صلاحيات الأسقفية، فقام فى سنة ٣٢٩ بزيارة لمصر العليا وطيبة(١٤) ثم نجده يتفقد أمور الكنيسة والجموع فى المدن الخمس وأمونياكا Ammoniaca عام ٣٣١/٣٣٢(١٥)، ولم يأت عام ٣٣٤ حتى كان قد استكمل رحلته بالذهاب إلى كنائس الدلتا(١٦).ولاشك أن أثناسيوس كان يدرك تماما مرارة الصراع الدائر حتما بينه وبين خصومه من الآريوسيين

(12) Davis, A history of Medieval Europe, pp. 7, 73.
(13) Percival, The Seven ecumenical Councils, p. 15.
(14) FEST. IND. I
(15) Ibid. IV.
(16) FEST. IND. IV.
وراجع Cavallera, Saint Athanase, p. 9

والمليتيين، ومن ثم أراد أن يوطد دعائم أسقفيته فى كل الكنائس الخاضعة له، ويقول جيبون " لقد كان أثناسيوس يقوم بزياراته الأسقفية لكنائس مصر كلها من فم النيل إلى تخوم أثيوبيا، يحادث جموع المسيحيين بألفة ويحترم قديسى الصحراء وناسكيها(١٧).

وقد آتت هذه السياسة على الفور أكلها، كما ستخبرنا الأحداث من بعد طوال عهد أثناسيوس، ولو شئنا أن نقدم لذلك مثلاً، لأسعفتنا الأيام بذلك الجمع الحاشد من الاكليروس الذى صحب أثناسيوس فى رحلته إلى صور لحضور المجمع الذى عقده الآريوسيون هناك سنة ٣٣٥ لمحاكمة الأسقف السكندرى، حتى لقد اتخذ المؤتمرون من هذه " المظاهرة " اتهاما جديدا أضيف إلى قائمة الاتهامات العديدة الموجهة ضد أثناسيوس، والمدرجة ضمن جدول أعمال المجمع(١٨)، ولم يحدث أن تقلصت على الامتداد الطويل لأسقفية أثناسيوس سيادة كرسى الإسكندرية، وحتى السنوات الأخيرة من حياته، كان الأكليروس المصرى جميعه وليبيا والمدن الخمس، على قلب رجل واحد هو أثناسيوس، أو بتعبير أثناسيوس نفسه، على عقل وفكر رجل واحد " ويحصيهم عدا تسعين أسقفا(١٩).

وكان من الطبيعى إذن خلال فترة أسقفيته الطويلة أن تشغل كل الأسقفيات فى مصر بأتباعه المخلصين(٢٠)، وليس أدل على ذلك من أنه قام بعزل عدد كبير من الأساقفة ورجال الاكليروس الذين لا يتفقون وإياه، وقد جاء هذا صراحة فى الاتهامات التى وجهت إليه أثناء المجمع الذى عقد فى صور سنة ٣٣٥ لمحاكمته، فقد أذاع كالينيكوس Callinicus أسقف بلوزيوم Pelusium أنه حرمه من منصبه الكهنوتى وولى بدلا منه آخر يدعى مرقس(٢١)، كما أن الرسائل الفصحية

(17) Gibbon, op. cit. 11, p. 385.
(18) ATHANAS. Apol. C. Arian. 78.
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. 11, 25.
(19) ATHANAS. Ad. Afros, 10
(20) Robertson, op. cit. p. 76.
(21) SOZOM. Hist. Eccl. 11, 25

التى كان يبعث بها أثناسيوس، حتى فى فترات نفيه المتتالية(٢٢)، كانت تتضمن أوامر بسيامة عدد من الأساقفة، ويذكرهم أثناسيوس بأسمائهم(٢٣)، ولاشك أن هذه السياسة التى جرى عليها أثناسيوس كان لها أكبر الأثر فى القضاء على خصومه خاصة من الآريوسيين والمليتيين فى مصر . يقول روبرتسون Robertson أن السيادة السريعة التى حققها أثناسيوس على كل مصر والمدن الخمس وليبيا، والضم العملى للكنائس المنشقة وإخضاعها لسلطانه، والولاء الشخصى الكامل من جانب اكليروسه والرهبان، يبرز فى جلاء شخصية أسقف الإسكندرية(٢٤).

وفى هذه الأثناء كان قسطنطين العظيم قد استطاع عبر ثمان عشرة سنة (٣٠٦ – ٣٢٣) أن يتخلص من كل منافسيه على عرش الإمبراطورية، وتمكن فى سنة ٣٢٣ وفى معركة خريسوبوليس Chrysopolis من الانتصار على آخر الخصوم ليكينيوس Licinius، وأصبح بذلك الحاكم الفرد للإمبراطورية بعد فترة الحرب الأهلية الطاحنة(٢٥). وكان فى الوقت ذاته قد قطع شوطا بعيدا فى جذب المسيحيين واستمالتهم إلى جانبه(٢٦).

ولكن يبدو أن قسطنطين كان متفائلا أكثر مما يجب، لأن السياسة الجديدة التى اتبعتها الدولة إزاء المسيحية، والتى بدأت أولا فى صيغة اعتراف حكومى بشرعية وجودها سنة ٣١٣ فيما يسمى خطأ مرسوم ميلانو، وحتى استولى العثمانيون على القسطنطينية، قد ورطت الأباطرة جميعهم فى مشاكل لاهوتية لا قبل لهم بها، وكان قسطنطين ذاته أول من اصطلى بنارها.

ذلك أن الكنيسة ما إن بدأت تتذوق طعم سلام حرمت منه ثلاثة قرون، حتى

---

(٢٢) انظر بعده . . .

(23) ATHANAS. Ep. Ad Serap. A. D. 340. Ep. Fest, XIX 347

(24) Robertson, op. cit. P. 66

(٢٥) راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، ج٢، الفصل الثانى .

(٢٦) أفاض يوسيبيوس القيسارى فى ذكر الوسائل التى استخدمها قسطنطين فى سبيل تقريب المسيحيين إليه.. والهبات والخيرات التى أغدقها على الكنيسة .
أنظر EVSEB. Vita Const. 11, 30-47.

راحت تنبش خبئ العقيدة وغوامض الكلم. ولا يعنى هذا أن الخلافات اللاهوتية حول طبيعة المسيح كانت وليدة القرن الرابع، بل إنها تمتد إلى القرن الأول الميلادى منذ أخذت المسيحية تخرج من النطاق اليهودى وتمضى إلى طريق أمم، وتخالط الفلسفات والعقائد السائدة ، وتهجر كارهة أسلوب التبشير بمعجزات المسيح، إلى الإقناع عن طريق العقل . ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف . ويكفى أن نقرأ تاريخ الكنيسة ليوسيبيوس لنعلم منه، رغم تحفظه الشديد، هذه الحقيقة والفرق العديدة التى نشأت تجادل حول طبيعة المسيح. ولم تكن الدولة الوثنية تعير هذه الخلافات أى اهتمام، إذ كانت تنظر إلى المسيحية نظرة شاملة، فلم يكن يعنيها فى شيء أمر الصراع الداخلى بين المسيحيين وأنفسهم، ومن ثم لم تفرق فى اضطهادها بين فرقة وأخرى ، أما الآن وقد انقشعت غمة الاضطهاد الوثنى وساد السلام، ظهرت على السطح كل هذه الصراعات الكامنة، واستحدث إعمال الفكر فرقا أشد أثرا . ويقول المؤرخ إينز Innes " لم يكن يدور بذهن أحد عندما غدا العالم مسيحيا أن تختلط أمور الكنيسة بالدولة وأمورها، ذلك أن هذا الاختلاط قد تم عن طريق الصدفة البحتة، فقد كانت العلاقة بين الدولة والكنيسة فى الإمبراطورية الوثنية علاقة انفصال، لكل من النظامين المدنى والكنسى شكله المتميز [٢٧].

وقد واجه قسطنطين وهو بعد سيد القسم الغربى من الإمبراطورية، المسألة الدوناتية [٢٨]، فى أفريقيا واغتبط إذ رأى الكنيسة تسعى إليه، وعليه تعرض خلافاتها، وأعطى للأمر كل اهتمامه وهو يرى أعاصير الخراب توشك أن تهدد أغنى ولايات الغرب الإمبراطوري ومصدر تموين روما بالغلال، وذلك بعد أن لجا الدوناتيون إلى العنف ، فراح يعقد المجامع الكنيسة فى روما ٣١٣ وآرل Arles

(27) Innes, Church and State, p. 38

(٢٨) للمزيد من التفصيلات عن مسألة العماد عند الدوناتيين والخلاف بينهم وبين الكاثوليك راجع Latourette, expansion of Christianity, I, وأنظر AVG. de bap. Donat, I, 3-4 p. 348. وما كتبه Hefele فى موسوعته عن المجامع Histoire des Conciles I, I, pp. 273-297 وعن رسائل قسطنطين فى هذه الناحية ، راجع EVSEB. Hist. Eccl. X, 6

٣١٤، وجهد حتى يمثل الأخير عالمية عالمه عندئذ، على حد تعبير القديس أوغسطين (+ ٤٢٩) Augustinus، ثم يفصل فى الأمر بنفسه فى ميلانو سنة ٣١٦، ويدين كما أدانت المجامع من قبل الدوناتيين، ويعفو عن الجميع سنة ٣٢١، ثم يترك المشكلة دون حل عندما أخذ يسعى نحو الشرق أمله ومبتغاه !! .

غير أن ما لقيه قسطنطين فى الشرق كان أشد ضراوة، ذلك أن خطر الدوناتية كان رأسيا، فلم يتعد أفريقيا ونوميديا، أما المشكلة الآريوسية فقد اتسعت عرضا لتشمل كنائس مصر وليبيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى . وقد قطع الإمبراطور آلاف الأميال فى رحلة السلطة، من هناك فى أقصى الغرب عند بريطانيا، إلى الشرق، وقد عبر قسطنطين عن ذلك بقوله فى رسالته إلى أهالى فلسطين :

" لقد كنت عدة الرب التى اختارها وقدر صلاحها لإنفاذ مشيئته "
" وعليه فإنه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد، والأقاليم "
" التى وفقا لقانون الطبيعة تستتر الشمس فيها بالأفق، وبمدد"
" إلهي، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشر سادت، أملا "
" وأداتيتى للرب تنير خطوى، أن يرعى البشر ناموس الإله"
" المقدس، ويزدهر بهدى يديه المقتدرة معتقدنا الطوباوى..."
" ها أنذا إلى أقاليم الشرق أسعى حيث أمست تحت نير الكوارث"
" الجسام تتحرق لطباب شاف على يدى "(٢٩).

وهكذا اعتبر الإمبراطور نفسه " مبعوث العناية الإلهية" و " محبوب الرب " وهللت الكنيسة لذلك كما جرى به قلم شيخ مؤرخيها يوسيبيوس القيسارى . غير أن الشرق الإمبراطوري فجأ قسطنطين بذلك الصدع الكبير الذى هدد وحدة الكنيسة والإمبراطورية، أعنى المشكلة الآريوسية . وحسب الإمبراطور نفسه، بما له من دالة على الكنيسة، وبزهو عسكرى لا تزال تتردد أصداؤه، بقادر على أن يحسم هذا الخلاف فى مهده، فأوفد مستشاره الدينى هوسيوس Hosius أسقف قرطبة،

(29) EVSEB. Vita Const. II, 28, 29

إلى اسكندر وآريوس سنة ٣٢٤ وحمله رسالة تفصح عن ثقافة قاحلة، وباللاهوت جهالة، وتحمل الرجلين بالوعيد تبعة الأحداث ونتيجة الشقاق(٣٠). غير أن قطبى النزاع أصر كل منهما على رأيه فى المسيح.

ولما حملت الأنباء خبر فشل هوسيوس فى مهمته طار صواب الإمبراطور وأعمل الفكر ، ولم يجد أمامه إلا أن يدعو أساقفة المسكونة إلى اجتماع عام لبحث هذه القضية التى تهدد كنائس الشرق بعامة . وفى نيقية سنة ٣٢٥، التقى ٣١٨ أسقفا يمثلون كنائس الإمبراطورية، وطرحت على الحضور آراء آريوس، غير أن المؤتمرين أدانوا ما نادى به آريوس، وآريوس وصحبه، وصدر قرار الإمبراطور بنفى زعماء الآريوسية الثلاثة، آريوس قس الإسكندرية، ويوسيبيوس أسقف نيقوميديا، وثيوجنس أسقف مدينة المجمع(٣١). وانتهى المجمع إلى إصدار صيغة للعقيدة، عرفت بقانون الإيمان النيقى، وأضحت قاعدة الإيمان الأرثوذكسي للكنيسة الكاثوليكية، وتضمنت كما أسلفنا عبارتى أن " الابن مساو للآب فى الجوهر " أو " الهوموسية " وأيضا " مولود غير مخلوق " . وهكذا توهم الإمبراطور أنه قد كسب الجولة الثانية " على أعداء الرب " حسب تعبيره ودعائيته، وحسبما يروى يوسيبيوس(٣٢)، ويقول نورمان بينز Norman Baynes معلقا " لقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته تتمة ضرورية لنصر خريسوبوليس(٣٣)، ولعب بخيال الإمبراطور عندها أنه قد أطبق على النصر فى الميدان والعقيدة.

---

(٣٠) يصف الإمبراطور مسائل الجدل حول طبيعة المسيح ولاهوته فى رسالته هذه بأنها " مسائل تافهة " و"عقيمة" و " خلة حمق صبيانى " . وإنه لا يجب على إسكندر أو آريوس أن يشغلا نفسيهما بمثل هذا الجدل العقيم . ويحملها مسؤلية انتقال الشقاق من الكنيسة إلى الجموع . عن الرسالة راجع EVSEB. Vita Const, II, 69

(31) SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 8-13
وانظر SOZOM. Hist. Eccl. 1, 17-22
وكذلك THEOD. Hist. Eccl. 1, 7, 8
وراجع ما كتبه أثناسيوس حول الخلاف العقائدى والمجمع فى De decr وكذلك Orat. C. Arian. 1, 4.

(32) EVSEB. Vita. Const. 111, 14.

(33) Baynes, Constantine (Cam. Anc. Hist.) XII,p. 697.

غير أنه طوال ثلاث سنوات آتية (٣٢٥ – ٣٢٨) لم يشهد الإمبراطور فى الكنيسة ذلك السلام الذى حسب أنه حققه بمقتضى قرارات هذا المجمع المسكونى. فقد حملت إليه التقارير أنباء الاضطرابات التى يثيرها المليتيون فى مصر ضد الأسقف السكندرى خلافا لما قرره مجمع نيقية(٣٤)، كما أن الآريوسيين فى مصر وخارجها راحوا يذيعون فى الجموع أن مجمع نيقية لم يتوخ العدالة فى بحث الآراء الآريوسية، وأن آريوس وصحبه قد تم نفيهم دون وجه حق، حتى استمالوا إليهم عددا كبيرا ، ووجدها الآريوسيون فرصة سانحة لجذب الأنظار إلى قضيتهم ثانية، وفى الوقت الذى كانت المليتية تقدم للمسيحية تنظيما كنسيا، كانت الآريوسية تحمل لها فكر عقيدة ، وكلتاهما تستنكر تعاليم الأخرى، ألا أن التذمر المشترك ضد مجمع نيقية وصيغة الإيمان التى صنفها، والقوانين التى أصدرها، والقرارات التى صادق عليها، جمع على درب الثورة جهدهما، وانصب ذلك فى قالب عداء تجاه أسقف الإسكندرية لا لشخصه كأثناسيوس فحسب، بل بقدر كونه تجسيدا لمجمع يمقتون كل ما يذكرهم به . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله يقول يوسيبيوس، فى أسلوب ماكر مراوغ سخر منه سقراط(٣٥) ساد السلام فى كل مكان إلا مصر وحدها، لا زال يتأجج فيها أوار جدل مستعر، أفسد على الإمبراطور سكينة مسرته"(٣٦).

ودار بخلد الإمبراطور أن إعادة زعماء الآريوسية الذين سبق له أن نفاهم، ربما خفف من حدة هذه الاضطرابات . لقد أرضى الكنيسة كلها بقرار مجمع عام، فلا ضير أن يسترضى طائفة، كان من قبل أدانها، فيعيد إليها زعماءها ليأتلف الجمع، يدفعه إلى ذلك عدم فهم تام للخلافات العقيدية، ورغبة صادقة فى السلام، ومن ثم استدعى إليه يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس النيقى وأعادهما ثانية إلى

(٣٤) كـان من بين ما قرره مجمع نيقية فيما يختص بالمسألة المليتية. حرمان مليتيوس من رسم أى من رجال الأكـليروس . ولكن مليتيوس لما أحس بدنو أجله خالف ذلك واختار خلفا يدعى حنا Iohannmes أسقفا على أسيوط . وكان هذا تحديا صريحا لسيادة أسقف الإسكندرية وخروجا على سلطانه .
أنظر ATHANAS. Apol. G. Arian 71 وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. 11, 21

(35) SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 23.

(36) EVSEB. Vita. Const. 111, 23.

أسقفيتيهما، بل وحظى الشيخان لدى الإمبراطور بمكانة مرموقة، لاشك أراد بها قسطنطين أن يخفف من غلواء أتباع نيقية وأن يحفظ التوازن فى دولته . ثم عفا عن آريوس وأعاده من منفاه(٣٧)، وقبل على مسئوليته الخاصة وثيقة إيمان غامضة قدمها الرجل، تعترف بإيمان الآباء ولكنها جاءت خلوا من عبارتى " مساو للآب فى الجوهر " و " مولد غير مخلوق "(٣٨) . ولم يحاول أن يقف على رأى الكنيسة فى ذلك، فقد أخذ لنفسه ذلك الحق مذ جعلت منه الكنيسة قاضيها، وسمحت له بترأس مجامعها الدينية، بل والتدخل فى أمر العقيدة، ولم يكن الإمبراطور ينظر إلى نفسه باعتباره الحاكم الأعلى والقائد العسكرى فحسب، ولا القاضى الأول والمشرع الوحيد فقط، بل حامى الكنيسة " مبعوث الرب "، كما عبر عن ذلك بنفسه(٣٩)، ويقول أوستروجورسكى Ostrogorsky إن الإمبراطور كان المثل والرمز الحى المتجسد للإمبراطورية، التى عهد بها الرب إلى ثقته، وما على رعاياه إلا أن يكونوا طوع أمره(٤٠) وانطلاقا من هذا التصور كتب إلى الأسقف السكندرى أثناسيوس، ولما يمضى على توليه منصبه إلا أشهر قليلة، يأمره بقبول آريوس فى شركة الكنيسة ثانية، والسماح له بالعودة إلى الإسكندرية(٤١) وبلهجة أشد صرامة تحمل فى طياتها نغمة التهديد، كتب يوسيبيوس النيقوميدى أيضا إلى أثناسيوس حول هذا المعنى(٤٢) ولشد ما كان فزع قسطنطين عندما أرسل إليه الأسقف السكندرى ما يفيد عدم تنفيذ رغبته(٤٣).

كان لابد إذن أن يلتقى الرجلان، الإمبراطور والأسقف، ولكن على طريق الخلاف، بالتراث الماثل وراء كل منهما، وبالحاضر الذى يخب فيه كلاهما اتسعت

(37) SOCRAT. op. cit. I, 25

(38) Id.

(٣٩) أنظر قبله . ص ٥٧-٥٨ .

(40) Ostrogorsky, History of the Byzantine State p. 29

(41) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 27.

(42) SOZOM. Hist. Eccl. II, 18

(43) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60

هوة الخلاف. ويقول ستانلى معلقا " إذا كانت حياة قسطنطين يمكن أن تعد المفهوم الزمنى والإمبراطورى لكنيسة القرن الرابع فإن المفهوم الكنسى اللاهوتى لذات القرن يتمثل فى حياة أثناسيوس"(٤٤).

يخبرنا سوزمنوس أن الغضب قد استبد بالإمبراطور، إزاء رفض أثناسيوس قبول عودة آريوس، ونتيجة للأنباء التى حملت إليه نذر الاضطرابات بين المليتيين والأسقف السكندرى(٤٥)، كما ذكرنا ، فكتب إلى أثناسيوس هذه الرسالة:

" ليكن بينا لديك، أنه إذا ما ورد إلى علمنا أن أحدا ممن "
" يرغبون فى العودة إلى الكنيسة قد حيل بينه وبين ما يشتهى"
" لأبعثن على التو من يتولى عزلك إنفاذا لمشيئتي، ويقذف بكم "
" إلى المنفى"(٤٦).

ولكن الأقدار شاءت أن يتغافل قسطنطين عن هذا التهديد إلى حين، فقد وقع صراع فى سوريا، جذب إليه انتباه الإمبراطور، وتمثل فى الجدل اللاهوتى بين يوسيبيوس القيسارى، ويوستاتيوس Eustathius أسقف أنطاكية وأحد رجال النيقية الشهيرين، وذلك حول " الهوموسية " التى أقحمت على العقيدة . وكان هذا النزاع بداية طريق طويل، يسجل على كل ذراع منه معركة حامية بسبب هذا التعبير. فقد اتهم يوستاتيوس الأسقف الأنطاكى يوسيبيوس أسقف قيسارية بالمروق عن قانون الإيمان النيقى، ورد الأسقف القيسارى جاعلا من يوستاتيوس سابلليا، ونتيجة لذلك أو "لسوء الفهم المتبادل" حسبما يروى سقراط،كتب كل منهما كما لو كان يناضل عدوا لدودا(٤٧).

ولحسم هذا الجدال، وجهت الدعوة لعقد مجمع تم إلتآمه فى أنطاكية سنة ٣٣٠ انتهى بإدانة أسقف أنطاكية وعزله(٤٨) وبعدها أسرع الأساقفة للقاء

(44) Stanley, op. cit. p. 222.
(45) SOZOM. op. cit. 11, 22.
(46) Id.
(47) SOCRAT. Hist. Eccl.1, 23.
(48) EVSEB. Vita Const. 111, 59.
وراجع كذلك SOCRAT. Hist.eccl. 1, 24.

الإمبراطور الذى صادق على قرارهم وأصدر أوامره على الفور بنفى يوستاتيوس(٤٩)، وهكذا أحرز الأريوسيون أول انتصار لهم بعد لطمة نيقية، وأذل الإمبراطور شيئا ما كبرياء الجماعة النيقية، ولعل مما يدعم ذلك ما يقوله سقراط معلقا : " لقد كان هذا أمرا شائع الحدوث، يأتيه الأساقفة متى عنَّ لهم ذلك، يسوقون الدعوى ضد الخصوم متهمين، يعلنون أنهم قد ضلوا سواء السبيل، أما وقائع الدعوى، أما الأدلة فلا موجب لها، وليس إليها من سبيل(٥٠).

ويؤرخ مجمع أنطاكية تحول الجدل عن مساره اللاهوتى، إلى الصراع الشخصى السياسى متخذا من اللاهوت ستارا حينا وسافرا أحايين . وتزعم يوسيبيوس النيقوميدى الجماعة الاريوسية حتى خلع عليها اسمه لفترة من الزمن قبل أن تنقسم الآريوسية على نفسها.

والآن، خلا مسرح الشرق الدينى من شخصية قوية يمكن أن تؤدى دورا فى صالح النيقية. ومن ثم اطمأن اليوسابيون إلى قوة جانبهم هناك، ولكن بقى فى الميدان أثناسيوس، رجل الإسكندرية العنيد، وكلما زاد نشاطه جيئة وذهابا مشرفا على الكنائس التابعة له، يجمع من حوله القلوب استعدادا للقاء الخصوم، استحث اليوسيبيوسيون الخطو جادين، لدى قسطنطين يبينون له أن وحدة الكنيسة وبالتالى السلام، رهن بأن يجرى على أثناسيوس ما جرى ليوستاتيوس، ولقد وجد ذلك هوى فى نفس قسطنطين خاصة بعد رفض أثناسيوس قبول عودة آريوس، وكان كل ما يشغل بال الإمبراطور أن يكون السيد الأول فى إمبراطورية موحدة . وكان يوسيبيوس النيقوميدى وصحبه أذكى من أن يصوروا القضية نزاعا بين الإمبراطور والأسقف، وإلا غدا أثناسيوس فى نظر شعب الكنيسة بطلا، ومن ثم عولوا على أن يغلف النزاع دائما فى صورة كنسية، يأتى دور الإمبراطور فيها فى اللحظة الأخيرة . من أجل هذا راحوا يؤلبون الأساقفة جميعا ضد أثناسيوس، ويقدمون للإمبراطور كل يوم دليلا جديدا على ولائهم وتعالى الأسقف السكندرى.

(49) HIER. Vir. Ill. 85.
(50) SOCRAT. Loc. cit.

وقد يسر أثناسيوس السبيل لنجاحهم بسلوكه العام تجاه الأساقفة، ومسلكه إزاء الإمبراطور. ولعل أثناسيوس قد اقتنع أن الشهرة التى حازها فى المجمع النيقى وقرار المجمع، ومكانة الكرسى الذى يعتليه فى عالم المسيحية، سند كاف لإحباط مسعى الخصوم لدى الإمبراطور، ولكن الحقيقة التى بينتها الأحداث تدل على أن أسقف الإسكندرية ظل حتى وفاة قسطنطين لا يعرف قسطنطين.

وصل الفريق اليوسيبيوسى بالمليتيين فى مصر خطوطه، وراحوا يبحثون عن كل ما يعكر صفو السلام بين الإمبراطور والأسقف السكندرى، فأذاعوا ضده عدة اتهامات، استدعاه الإمبراطور على أثرها إلى القسطنطينية . ولكن أثناسيوس تمكّن من أن يبرئ ساحته، بالإضافة إلى أن قسطنطين أراد أن يفوت الفرصة على اليوسابيين ، حتى لا يحقق لهم نصرا ثانيا ساحقا بعد الذى أحرزوه فى أنطاكية، خاصة وأن الإمبراطور كان قد رسم سياسته على عدم الانتصار كلية لفريق دون الآخر ، ومن ثم أدرك أن وجود أثناسيوس الآن فى أسقفيته ضرورى لتحقيق التوازن مع الفريق اليوسابيين الذى تزداد قوته يوما بعد يوم، ويكفيه أنه حد ولو قليلا من صلابة أثناسيوس باستدعائه إلى البلاط . ولكن لم يغب عن ذهن الإمبراطور فى الوقت ذاته، أن وجود الأسقف السكندرى فى كنيسته، والعداء الكامن مع اليوسابيين خطر حقيقى . أما الآن فقد رفض الإمبراطور كل هذه الاتهامات، بعد أن حقق ما يسعى إليه من إثبات سيادته على الكنيسة مرة أخرى، وكأن المرات العديدة السابقة لم تشبع رغائبه ، فسمح أثناسيوس بالعودة إلى أسقفيته، وحمله إلى رعيته رسالة يستحثهم فيها على نبذ دواعى الشقاق العقيدى والتمسك بأهداب المحبة، ويحمل حملة شعواء على مثيرى الفوضى" ثم يمتدح أسقفهم معلنا أنه قد " لقيه بما يجب أن يلقى به رجل الله "(٥١).

أدرك اليوسابيون أنهم قد أحيط بهم بعد أن خذل الإمبراطور مسعاهم هذه المرة، ولو تأملوا سياسة قسطنطين تجاه الفريقين منذ البداية، لما رأوه قد حاد

(51) ATHANAS. Apol. C. Arian.60

عنها. فهو يراسل فى البدء إسكندر وآريوس يدعوهما إلى المصالحة، وفضّ الخلاف " التافه "، " العقيم " وترك هذا " الحمق الصبيانى "[٥٢]، ثم هو ينتصر لمجمع نيقية وينفى زعماء الآريوسية ثم لا يلبث أن يعيدهم و يقربهم، ثم ينتصر لليوسابيين ويعزل يوستاتيوس، ثم ها هو الآن يتصدى لهم ويطلق أثناسيوس. لهذا راح اليوسابيون يعيدون رسم خططهم من جديد عن طريق عزل أثناسيوس، لا عن أسقفيته هذه المرة ولكن تمهيداً لها، عن بقية أساقفة الكنيسة فى الشرق، بأن يصموه متعجرفا بتعالى، وساعدهم أثناسيوس بسلوكه على ذلك.

وقد ساعدت بعض الأحداث التى وقعت فى مريوط على تحقيق أهداف الفريق اليوسيبيوسى، والذى يعنينا من هذه الأحداث أن اليوسيبيوسيين والمليتيين قد استغلا ذلك فى الدعاية ضد الأسقف السكندرى، ولما وصلت هذه الأنباء إلى قسطنطين، سارع يكتب إلى الرقيب دلماتيوس Dalmatius فى أنطاكية يأمره بالتحقيق فى تلك الوقائع، ومنحه سلطة استدعاء الأطراف المختلفة لتمثل أمامه، وطلب إليه توقيع أقصى العقوبة على من تسبب فى إشاعة هذه الفوضى بالقول أو العمل، وأمر كلا من يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس بالذهاب أيضا إلى أنطاكية لمتابعة التحقيق[٥٣]. غير أن أثناسيوس تمكن بجهود رجاله من كشف هذه الادعاءات[٥٤]، وكتب إلى الإمبراطور يخبره بذلك، ويقدم الأدلة على صدق دعواه[٥٥]، فأمر قسطنطين بإيقاف إجراءات التحقيق مباشرة[٥٦]، وكتب إلى أثناسيوس رسالة دعاه فيها إلى عدم الالتفات إلى مثل هذه الشائعات، وأنحى باللائمة على المليتيين باعتبارهم سبب هذه الفوضى[٥٧].

(52) EVSEB. Vita Const. II, 69
(53) SOCRAT. Hist.ecc. I, 27
(54) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65
وراجع كذلك SOCRAT. Hsit. Eccl. II, 23
(55) ATHANAS. Loc. cit.
(56) SOCRAT. Loc. Cit.
عن أحداث مريوط راجع المؤلف : الدولة والكنيسة – الجزء الثانى – الفصلين الخامس والسادس.
(57) ATHANAS. op. cit. 68

هكذا وللمرة الثانية على التوالى، فوت قسطنطين على اليوسابيين فرصة النيل من أثناسيوس، ليس لميله إلى جانب الأسقف السكندرى، ولكن لعله أخر ذلك إلى حين، عملا بسياسة التوازن بين الفرق العقيدية المتصارعة، ولعلنا نتساءل، كيف يقف الإمبراطور من أسقف الإسكندرية هذا الموقف، فى الوقت الذى رفض فيه أثناسيوس قبلا أوامره بقبول آريوس فى شركة الكنيسة؟! الحقيقة أن آريوس منذ عاد من منفاه لم يجر ذكره بعد ذلك على أقلام مؤرخى الكنيسة إلا فى مناسبتين فقط، مجمع أورشليم سنة ٣٣٥، حيث وافق الأساقفة على عودته إلى الكنيسة، ثم وفاته عام ٣٣٦ فى القسطنطينية ، ولا شىء غير ذلك . ويبدو أن آريوس كان قد تقدم به العمر، ولم يكن له منذ البداية أى مطمح إلى جاه أو رغبة فى سلطان : فقد قام يناقش عقيدته بالعقل والمنطق دون إكراه أو تهديد، ولذا آثر حياة الهدوء فى العاصمة إلى جوار الإمبراطور، ولم يحاول مطلقا أن يتدخل فى أمر من أمور الصراع الدائر فى الكنيسة آنذاك . وقد يكون قسطنطين نفسه هو الذى أراد له هذا الهدوء، فقد كان يعلم تماما مدى ما تحدثه عودة آريوس إلى الإسكندرية من فوضى عنيفة بين أنصاره والنيقيين وعلى رأسهم أثناسيوس، ومن ثم لم يحاول الإمبراطور ثانية أن يستثير شعور الأسقف السكندرى وأهل بيعته بهذا الأمر، ولكن أتباعه الذين انضووا تحت لواء رفيق فكره يوسيبيوس النيقوميدى ظلوا مخلصين له يحاولون جهدهم لإعادته إلى الإسكندرية.

ويبدو أن قسطنطين قد آثر أن يبرئ أثناسيوس نفسه أمام مجمع كنسى، حتى يمتنع خصومه عن إثارة العقبات فى وجهه ثانية، وتأكد لديه هذا الرأى عندما تلقى رسالة من حنا، الذى خلف ملتيوس فى أسيوط فى رئاسة جماعة المليتيين يخبره أنه قد آثر السلام مع أثناسيوس، مما دفع قسطنطين إلى دعوته لزيارة العاصمة(٥٨). وحسب الإمبراطور أنه بهذا المجمع يضع نهاية لكل هذا الصراع، وكان اختياره لمكان لقاء الأساقفة دليلا على سياسة التوازن التى ارتضاها، فأمر سنة (٣٣٣) بأن تكون قيسارية هى الملتقى، خاصة وأن على رأسها يوسيبيوس

(58) ATHANAS. Apol. C. Arian. 69

صاحب الميول المعتدلة. غير أن أثناسيوس كان يرى غير ذلك تماما، إذ أدرك أن يوسيبيوس لن يكون صاحب الكلمة الأولى فى مجمع يحضره سميه النيقوميدى وثيوجنس النيقى، وهم فى الحقيقة خصومه وقضاته، يضاف إلى هذا أنه بذهابه إلى المجمع ووقوفه أمام الأساقفة موقف المدافع عن نفسه، يضع نفسه موضع الاتهام الصحيح . وفوق هذا وذاك فقد كان أثناسيوس يرى أنه أعلى من كل خصومه قدرا بتربعه على كرسى كنيسة الإسكندرية، ومن ثم فليس من حق أحد من هؤلاء أن يقاضى أسقف الإسكندرية. ولم يكن يخفى على أثناسيوس أن ذهابه إلى قيسارية ربما كانت محاولة جديدة من جانب الخصوم لإبعاده عن بيعته وأنصاره كما حدث قبل ذلك عند استدعائه إلى القسطنطينية ، وهو فى قيسارية سوف يجد نفسه وحيدا ضد كل الخصوم ، لهذا كله رفض أثناسيوس حضور المجمع وظل على عناده هذا كما يقول سوزومنوس[٥٩]، طيلة ثلاثين شهرا، رغم الإلحاح المستمر فى طلبه، وأقدم أثناسيوس فى شىء من الثقة الكاملة والتحدى للجمع، على القيام بزيارة كنائس الدلتا[٦٠] فى جولة من جولات الإشراف الكامل على شئون بيعته.

أدى أثناسيوس بمسلكه هذا إلى أن يحقق اليوسيبيوسيون فى جولة واحدة، ما خسروه من قبل فى جولات، فقد عد الأساقفة هذا السلوك من جانب زميلهم السكندرى تعاليا عليهم وسخرية، فى الوقت الذى تأكد لدى الإمبراطور صدق حدسه، وصدق دعوى اليوسابيين أن سلام الكنيسة رهن بإبعاد ذلك الأسقف العنيد. ففى الوقت الذى قبل فيه آريوس وصحبه قبل ذلك بخمس سنوات (٣٢٨) أن يقدموا وثيقة إيمان عدها الإمبراطور قويمة تتفق والإيمان النيقى، لا يزال أثناسيوس حتى الآن يرفض أى تقارب مع الفريق المضاد، وبدا هذا لعينى إمبراطور لا يدرك من أمر اللاهوت شيئا، مكابرة من أثناسيوس وعجرفة. لقد كان الخلاف بين الرجلين كبيرا؛ قسطنطين اتخذ من سياسة التوازن منهاجا، والأسقف السكندرى يقف موقفا متشددا لا يبغى عنه حولا، معتمدا على تلك الأغلبية الساحقة التى صدر بها قانون الإيمان النيقى.

---

(59) SOZOM. Hist. Eccl. II, 25
(60) FEST. IND. VI.

ولكن غاب عن ذهنه أن الأمور قد أضحت على غير ما كانت عليه منذ عقد أول مجمع مسكونى منذ عشر سنوات (٣٢٥)، وأنه فى خلال هذا العقد أخذ ميزان القوى يتأرجح بين اليوسيبيوسيين والنيقيين، بل أخذ يميل إلى جانب عقيدة آريوس، فالغرب الإمبراطوري كله لم يكن له من ممثلين فى نيقية سوى ثمانية أساقفة فقط(٦١)، أما النصف الشرقى فقد كان الجميع يؤيدون الفريق اليوسيبيوسى وعلى رأسهم جميعا زعيمهم يوسيبيوس النيقوميدى، أما قيسارية فلا يخشى أمر أسقفها، هذا إلى أنهم قد نجحوا قبلا فى عزل يوستاثيوس أسقف أنطاكية، كما أن أثناسيوس أضاف بمسلكه الأخير إلى هؤلاء جميعا قوة يحسب لها الجميع كل تقدير، هى جانب الإمبراطور.

استبد الغضب بالإمبراطور، فدعا من جديد إلى عقد مجمع كنسى فى مدينة صور سنة ٣٣٥، وأرسل الكونت ديونيسيوس Dionysius إلى هناك بغية " ضبط أعمال المجمع والحفاظ على نظامه "(٦٢)، وكتب إلى أثناسيوس يأمره بالذهاب إلى صور. ويخبرنا الأسقف السكندرى أنه لم يكن راغبا فى ذلك ولكنه امتثل لأوامر الإمبراطور على كره منه(٦٣)، ولعل هذا هو ما يعنيه سقراط بقوله إن أسقف الإسكندرية أرغم على الحضور تحت وابل من خطابات التهديد التى بعث بها الإمبراطور متوعّدا إياه بحمله إلى صور عنوة إذا لم يأتها طائعا(٦٤). ولما التأم عقد المجمع تلقى الأساقفة رسالة من قسطنطين يحثهم فيها على التزام جادة الحق والصواب، واختتمها بتهديد صريح جاء فيه :

" ... ولئن تجاسر أحد، مع اعتقادي بأن ذلك لن يكون، على عصيان أمرى ورفض الحضور إلى المجمع، فلأرسلن إليه من يطرده بواقع مرسوم إمبراطورى،

---

(61) SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 13
وراجع أيضا SOZOM. hist. eccl. I, 17
(62) EVSEB. Vita Const. IV, 42
(63) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71
(64) SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 28

ويلقنه أنه لا يليق بمثله أن يعترض قرارات الإمبراطورى، حين يكون عن الحق دفاعه "[٦٥].

ولاشك أن أثناسيوس كان المقصود واقعا بهذا التهديد بعد أن نفد صبر الإمبراطور من جراء هذه المكابرة من جانب أحد رعاياه مهما كان شأنه.

وفى المجمع كان خصوم أثناسيوس هم قضاته، ومن ثم فقد أحاطت به كل الاتهامات التى سيقت من قبل ضده، وأضيف إليها قيامه بعزل بعض الأساقفة فى مصر ممن يعارضونه الرأي، وقذفه بالأحجار تماثيل الإمبراطور[٦٦]، وإثارة الشكوك حول شرعية رسامته[٦٧]. وقد استطاع أثناسيوس أن يرد عن نفسه كثيرا من هذه الاتهامات[٦٨]. غير أن الحضور كانوا قد حزبوا أمرهم على أن لا يفلت من أيديهم أثناسيوس هذه المرة، ولم يكن قد ذهب من ذاكرتهم بعد تعالى أثناسيوس عليهم طيلة ثلاثين شهرا، ومن ثم تعالت صيحات المعارضين تطالب بعزل أسقف الإسكندرية، وأمام هذه الفوضى باشر ديونيسيوس المهمة التى من أجلها جاء[٦٩]، وقر رأى المجمع على تشكيل لجنة تحقيق وإرسالها إلى مريوط، وضمت هذه اللجنة ثيوجنس النيقى وماريس أسقف خلقدونية وفالنز أسقف مورسا وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم (بلغراد)[٧٠] ولم تجد نفعا احتجاجات أثناسيوس على هذا التشكيل باعتبارهم جميعا من الخصوم[٧١]، وتم تزويد اللجنة بالعون العسكرى اللازم لحمايتها[٧٢]. ولما جاءت إلى الإسكندرية اصطحبها حاكم مصر فيلاجريوس[٧٣]

(65) EVSEB. Loc. cit.
(66) SOZOM. Hist. Eccl. 11, 25
(67) Id.
(68) Id.
وأيضا SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 29 وراجع THEOD. Hist. Eccl. 1, 28
(69) SOZOM. Loc. cit.
(70) SOCRAT. hist. eccl. 1, 31
(71) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72
(72) Id.
(73) FEST. IND. VIII.

Philagrius ويسر لها سبل الحصول على المعلومات اللازمة والبيانات التى يصفها الأساقفة المصريون بأنها تمت بطريقة غير قانونية(٧٤).

أما أساقفة مصر الذين صحبوا أثناسيوس إلى المجمع فقد كتبوا رسالة إلى ديونيسيوس أوضحوا له فيها أن المسألة ليست سوى مؤامرة من جانب اليوسابيين للتخلص من أثناسيوس(٧٥)، غير أن ديونيسيوس لم يلق بالا إلى هذه الرسالة، فما كان منهم إلا أن وجهوا إليه احتجاجا شديد اللهجة، حملوه فيه تبعة هذه الأحداث وطلبوا إليه أن يرفع شكايتهم إلى الإمبراطور(٧٦)، ولكن ديونيسيوس لم يعرهم التفاتا. وعندما أدرك أثناسيوس أن الجميع عازمون على تحطيمه، تركهم وسط الفوضى التى سيطرت على المجمع، وشخص إلى القسطنطينية ليعرض الأمر بنفسه على الإمبراطور(٧٧) ولعل الأسقف السكندرى فى اقدامه على ذلك كان يعتقد أن الإمبراطور، كما استخلص أثناسيوس لنفسه من رسائل قسطنطين إليه سلفا، يقف إلى جانبه، يعلم حقيقية هذه الاتهامات كلها من تجربتيه السابقتين مع اليوسابيين. ولكنه الآن سلك سبيل اليوسيبيوسيين أنفسهم فى الالتجاء إلى الإمبراطور.

والآن وجد الفريق اليوسيبيوسى النهزة التى يبحث عنها، فها هو أثناسيوس قد أثبت للمرة الثانية عدم ثقته بالأساقفة، وبدلا من أن ينتظر ما يسفر عنه تقرير لجنة مريوط ويبرئ نفسه أمام المجمع تركهم فى صخبهم وارتحل إلى الإمبراطور. وعليه وبعد الاطلاع على ما قدمته لجنه التحقيق، وقد عادت، أصدر الأساقفة المجتمعون فى صور قرارهم بإدانة أثناسيوس وعزله من أسقفيته وحرمانه من الإقامة فى الإسكندرية إيثاراً للسلام، وأعيد حنا، الأسقف المليتى وتابعيه إلى الكنيسة، ورد على كل منهم منصبه الاكليروسى(٧٨) وجاء فى حيثيات الحكم أن

(74) ATHANAS. Loc. cit
(75) Ibid. 78
(76) ATHANAS. Apol. C. Arian. 79
(77) SOZOM. Hist. Eccl. 11, 25
(78) Id.
وراجع أيضا SOCRAT.Hist. eccl., 32

أثناسيوس رفض الامتثال لأوامر الإمبراطور بحضور مجمع قيسارية، مستخفا بالأساقفة، متحديا لقسطنطين، كما أنه اصطحب معه إلى صور نفرا كبيرا من اكليروسه بغية إثارة الاضطراب والفوضى فى المجمع، ورفض فى كثير من الأحيان الإجابة عن الاتهامات الموجهة إليه، وأهان عددا من الأساقفة، وسمح بتحطيم الأوانى المقدسة فى مريوط كما أفاد تقرير اللجنة[٧٩] وضمنوا هذا كله فى تقرير بعثوا به إلى الإمبراطور، ورسالة مجمعية أرسلوها إلى سائر الأساقفة[٨٠].

ولو تأملنا فى هذه الأسباب التى قدمها مجمع صور حجة لعزل أثناسيوس، لما وجدنا فيها شيئا يتصل بالناحية العقيدية، رغم أن الجدل حول " الكلمة " وعلاقته " بالآب " كان الباعث لكل هذه الأحداث . على أنه يمكن أن نميز مرحلتين فى مسار الصراع حول العقيدة، يفصل بينهما مجمع نيقية سنة ٣٢٥، فمنذ بدأ الخلاف فى الرأى وظهور العقيدة الأريوسية سنة ٣١٨، والمجامع المكانية التى عقدت فى الإسكندرية عامى ٣١٩[٨١]و ٣٢١[٨٢]، وبيثينيا Bythinia سنة ٣٢٢[٨٣] ولقاء أساقفة فلسطين سنة ٣٢٣[٨٤] ثم الإسكندرية ثانية سنة ٣٢٤ برئاسة هوسيوس مبعوث الإمبراطور[٨٥]، وأنطاكية فى نفس العام وتحت رعاية الأسقف القرطبى[٨٦] وهذه كلها أما فى جانب آريوس أو فى صف إسكندر أسقف الإسكندرية، ثم المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥، كانت هذه المرحلة فعلا تتسم بالجدال من أجل العقيدة، فلما أنست الكنيسة الكاثوليكية إلى الإيمان الأرثوذكسي فى نيقية واستندت إلى هذه الدعامة واتخذت منها سلاحا شهرته فى

(79) SOCRAT. Hist. Eccl, 32
(80) Id.
(81) SOZOM. Hist. Eccl. I, 51
(82) ATHANAS. Depos. Arii
وراجع أيضا THEOD. Hist. Eccl. I,3
(83) SOZOM. Loc. cit.
(84) Id.
(85) EVSEB. Vita. Const, II,73
(86) Downey, op. cit.321

وجه خصومها مؤيدة من الإمبراطور، بدأت المرحلة الثانية من الصراع العقيدى وهى تختلف تماما عن سابقتها، إذ اصطبغت بصبغة سياسية منذ وضع الإمبراطور نفسه على رأس الكنيسة، وجعل من نفسه مدافعا عن العقيدة، ومن ثم راحت هذه تلهث وراء الإمبراطور وتتبعه أنى رغب منه الهوى. فالأباطرة طوال نصف قرن آت، وشأن قسطنطين، لا معرفة لهم باللاهوت ولا ثقافة، فلما شذ عن هذه القاعدة أحدهم، وشغل نفسه بالفلسفة، كان وثنيا، وهو جوليان Iulianus (٣٦١ –٣٦٣)، وكان أورع ما قيل تعليقا، تلك السخرية اللاذعة التى سجلها قلم المؤرخ الناقد سقراط حيث يقول :

" الأباطرة يروحون ويجيئون، والأساقفة من حولهم يتحلقون يطوفون"[٨٧]
وقد أسلفنا أن مجمع أنطاكية الذى عقد سنة ٣٣٠ لبحث النزاع بين يوسيبيوس ويوستاتيوس الأسقف الأنطاكى، يحدد بداية هذه المرحلة الثانية.

لم يكن أثناسيوس قد التقى بعد بالإمبراطور، عندما وصلت رسائل قسطنطين إلى المجتمعين فى صور تدعوهم للذهاب إلى أورشليم لتدشين الكنيسة الفخمة التى أقامها الإمبراطور هناك، وللمشاركة فى الاحتفال بالعيد الثلاثيني لارتقائه العرش[٨٨] وخف الجمع إلى حيث أراد الإمبراطور، الذى أيقن أنها خاتمة المطاف فى رحلة الجدال، دون أن يدرى أن فى الطريق أثناسيوس، ولذا أرسل بآريوس إلى الأساقفة فى أورشليم، مشيرا إلى أنه قبل منه وثيقة إيمانه التى قدمها، وحثهم على أن يحذوا حذوه[٨٩] ولم يكن هؤلاء فى حاجة إلى تزكية من الإمبراطور فى صالح آريوس، فقد كان الجميع من مؤيديه، فأصدروا على الفور قرارهم بقبوله فى شركة الكنيسة وعودته إلى الإسكندرية، وكتبوا إلى الإمبراطور يخبرونه بكل ما حدث، وإلى عموم الكنائس فى الإسكندرية، وطيبة وليبيا ومختلف رجال الاكليروس فى مصر، حاثين إياهم على قبول آريوس وأنصاره بعد أن وقفوا

(87) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 24
(88) EVSEB. Vita Const, IV, 43
(89) Ibid. 43-45

على صدق إيمانهم، وشفعوا ذلك بالقول " . . . وتلك رغبة الإمبراطور "[٩٠]، حتى يصبح قرارهم ملزما.

وفى هذه الأثناء وصل أثناسيوس إلى القسطنطينية، ويبدو من رسالة قسطنطين إلى الأساقفة فى أورشليم، أن الأسقف السكندرى لم يتمكن من لقاء الإمبراطور إلا بعد محاولات يائسة، فقد جاء فيها أن أثناسيوس " . . . راح يلح طالبا الأذن له بلقائنا، وقد رفضنا ذلك مرارا، وأمرنا بإبعاده عن حضرتنا[٩١]، وهذه العبارة تحمل فى طياتها عددا من الدلائل الهامة، فأثناسيوس يعلق أهمية كبرى على هذا اللقاء مع الإمبراطور، حتى بلغ حد " الإلحاح "، وكأنه يستجير بقسطنطين أن يرد عليه حقا سلبه إياه زملاؤه الأساقفة، ويشعر فى قرارة نفسه أنه قادر على أن يوضح للإمبراطور عدالة قضيته، أما قسطنطين فيبدو أنه كان قد سئم الإصغاء إلى هذه القصة المملة، وأيقن أنه قد حان الوقت ليستغني عن أثناسيوس ولو إلى حين، وهذه نعلمها من الرسالة التى بعث بها ابنه قسطنطين الثانى بعد وفاة أبيه، إلى السكندريين سنة ٣٣٧[٩٢]، تمشيا مع سياسته العامة تجاه الفرق المتنازعة.

وقد تضمنت رسالة قسطنطين إلى الأساقفة فى أورشليم، الأمر بالتوجه إلى القسطنطينية لبحث قضية أثناسيوس تفصيلا فى حضرة الإمبراطور، حيث نجح أثناسيوس فى الحصول مؤخرا على الإذن له بلقاء الإمبراطور[٩٣]، ويخلع أثناسيوس[٩٤] وسقراط[٩٥] وسوزمنوس[٩٦] حالة من الهلع على الأساقفة عندما تلقوا رسالة الإمبراطور هذه حتى أن من أجابوا أمره بالذهاب إلى القسطنطينية، لا يمثل

(90) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 34
(91) Id.
(٩٢) انظر الفصل الثالث .
(93) SOCRAT. Loc. cit.
(94) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87
(95) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 35
(96) SOZOM. Hist. Eccl. II, 82

إلا عددا يسيرا بالنسبة لمن كانوا للمجمع حضورا . وقد تكون رسالة الإمبراطور جاءت بعد أن انفض الاحتفال وأخذ الأساقفة يعودون إلى ديارهم، وكان يوسيبيوس النيقوميدى على رأس الفريق الذى ارتحل إلى العاصمة، ومن بينهم ثيوجنس وماريس وباتروفيلوس أسقف بيسان Scythopolis وفالنز وأورساكيوس .

كان هؤلاء يعتقدون أنهم الآن أمام معركة فاصلة مع أثناسيوس، ومن ثم عزموا على أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم كاملة، مستخدمين إياها بمنتهى الحذق والمهارة، ولذلك لم يدخلوا مع أثناسيوس فى مناقشة، بل راحوا يلقون أمام الإمبراطور بيانا مفصلا عما تم اتخاذه فى مجمع صور، وأعادوا على مسمعه مرة أخرى كل تلك الاتهامات التى أدين بمقتضاها أثناسيوس(٩٧)، وحرصوا على أن يبرزوا من بينها تلك التى تمس شخص الإمبراطور وتنتقص من سيادته، وخاصة رفض الأسقف السكندرى حضور مجمع قيسارية، وحينما اثاقل فى المجيء إلى صور، ثم ألقوا فى النهاية بالورقة الرابحة فأعلنوا أن أثناسيوس هدد بعرقلة إرسال القمح من الإسكندرية إلى القسطنطينية(٩٨). وشهد على ذلك أدامنتيوس Adamantius وأنوبيون Anubien وأرباثيون Arbathion وبطرس، من أساقفة المليتية(٩٩) ولسنا أقدر من أثناسيوس نفسه على وصف حال الإمبراطور آنذاك، يقول " اشتعل على الفور غيظ الإمبراطور واشتد حنقه، وبدلا من أن يسمع إلّى أمر بى فنفيت إلى غالة"(١٠٠) ويعلق سقراط " لقد أراد الإمبراطور بقراره هذا توحيد الكنيسة، حيث إن أثناسيوس رفض المصالحة مع آريوس "(١٠١) والحق أن المؤرخ جونز لم يعد الحقيقة حين قال " لو سألنا أى إمبراطور رومانى عما يربط مصر بالإمبراطورية لأجاب . . القمح والنقود " .

---

(97) Ibid. II, 82
(98) ATHANAS. op. cit. 87
(99) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 35
(100) ATHANAS. Loc. cit.
(101) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 35

ولنا أن نستخلص من عبارة سقراط هذه ما نشاء من الأدلة على ما أبديناه سلفًا، من أن أثناسيوس والإمبراطور كانا يقفان على طرفى نقيض، وكان أثناسيوس صلبا عنيدا، يدفعه إلى ذلك إيمان بالولاء الكامل لشخصه من جانب أساقفة مصر واكليروسها والرهبان، أما هؤلاء الأخيرون بالذات فسوف يكونون عدة أثناسيوس من بعد فى صراع طويل طول أسقفيته التى بلغت قرابة نصف قرن، ولقد علمنا أنه خلال فترة وجيزة فى أول عهده بالأسقفية تمكن من توطيد نفوذه وسيادة بيعته على مصر والمدن الخمس وليبيا، ولفظ خارج الكنيسة خصومه جميعا، ولئن ظلت هناك بعض الجيوب مناوئة، إلا أنها كانت صرخات فى واد، يبرهن على ذلك الأحداث التى وقعت بعدئذ مباشرة.

فالى تريز (Augusta Treverorum (Triev – Trier فى غالة أبعد أثناسيوس، وجاء آريوس إلى الإسكندرية يحمل قرار مجمع أورشليم بعودته إلى الكنيسة، إلا أن الاكليروس السكندرى رفض هذا الأمر، ووقعت الاضطرابات من جديد فى الإسكندرية[١٠٢]، ولما كان الإمبراطور لا يسمح بوقوع فوضى جديدة تعكر صفو سلام ظل يبحث عنه حتى مات، فقد أرسل على الفور يستدعى آريوس إلى القسطنطينية، فارتحل الرجل[١٠٣].

وفى القسطنطينية، مات آريوس فجأة بعد وصوله إليها بقليل سنة ٣٣٦، فى نفس اليوم الذى حدده الإمبراطور ليقبله اسكندر أسقف القسطنطينية فى شركة الكنيسة هناك، ولاشك أن خصومه، بل والإمبراطور أيضا قد تلقوا جميعا نبأ وفاته بارتياح كبير . وما تزال مسألة وفاته المفاجئة لغزا محيرا !! خاصة وأنها لم تكن ميتة طبيعية كما وصفها مؤرخو الكنيسة.

ولم يحاول قسطنطين بعد نفى أثناسيوس أن يعين أسقفا جديدا للإسكندرية

(102) Ibid. I, 37
(103) Id.

على الرغم من أنه أقدم على ذلك مرارا من قبل فى بيع أخرى(١٠٤). ولكنه الآن آثر أن يترك كرسى الإسكندرية شاغرا، والذى لاشك فيه أن قسطنطين كان يدرك تماما أن الاكليروس السكندرى والرهبان والجموع لن ترضى عن أثناسيوس بديلا . وإذا كانت الفتنة قد حدثت فى أنطاكية بعد الإطاحة بيوستاثيوس، فلابد أن الإسكندرية كانت ستشهد أحداثا مروعة إذا ما تصارع على كرسيها النيقيون أنصار أثناسيوس والآريوسيين والمليتيون. ولم يكلف الإمبراطور نفسه تبعة هذه المهالك الجسام، وسوف نرى مصداق ذلك فعلا عندما يعتلى كرسى الإسكندرية الكبادوكيان جريجورى وجورج على عهد قسطنطيوس .

وهكذا أدرك الإمبراطور أن الإسكندرية لم تكن فى حاجة الآن إلى أسقف جديد لتزداد النار فيها ضراما، فحتى بعد أن تركها آريوس ومات رفع شعب الكنيسة عقيرته بالشكوى يطلب إلى الإمبراطور إعادة أثناسيوس(١٠٥). وشارك رهبان مصر فى ذلك أيضا، وينفرد سوزومنوس دون باقى المصادر بالقول أن أنطونيوس أبا الرهبان، كتب صراحة إلى الإمبراطور يرجوه عودة أسقف الإسكندرية، حتى لا يفتح بذلك بابا لأى لمز من جانب المليتيين(١٠٦)، ونعلم من سيرة أنطونيوس التى كتبها أثناسيوس، أن الأسقف السكندرى كان على صلة قوية وصداقة مع الراهب المصرى(١٠٧) وسوف نرى الدور الكبير الذى سيقوم به أنطونيوس وساكنو الأديار فيما بعد جهادا من أجل نصرة قضية أثناسيوس.

---

(١٠٤) بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ وعزل يوسيبيوس من أسقفية نيقوميديا وثيوجنس من أسقفية نيقية، عين بدلا منهما أمفيون Amphion وكرستوس Chrestus على التوالى . ثم عاد فعزل هذين وأعاد يوسيبيوس ورفيقه . ولما خلع مجمع أنطاكية سنة ٣٣٠ أسقف المدينة يوستاثيوس، اقترح قسطنطين على المجمع امر سيامة أحد رجلين، يوفرونيوس Euphronius الكاهن أحد مواطنى قيسارية كبادوكيا، وجورج كاهن الرستن Arethusa واختار المجمع مطيعا يوفرونيوس

راجع SOZOM. Hist.eccl. I, II, 19

وأيضا EVSEB. Vita Const. III, 62

(105) SOZOM. Hist.eccl. II, 31

(106) Id.

(107) ATHANAS. Vita Antonii, praef.

غير أن الإمبراطور لم يلق بالا لأى من هذه الالتماسات، وكتب فى أسلوب مغيظ إلى السكندريين يتهمهم بالحماقة والعبث، ويصف مسلكهم فى الإصرار على عودة أثناسيوس بالفوضى والخروج عن جادة الصواب، ثم يوجه أوامره إلى الاكليروس والرهبان أن يخلدوا جميعا إلى الكنيسة والسلام(١٠٨)، وحتى لا يعطى قسطنطين الفرصة لمزيد من الإلحاح فى طلب العفو عن الأسقف المنفى، أعلن فى لهجة صارمة أن قراره الذى اتخذه بشأن أثناسيوس لا رجعة فيه وأنه لن يستدعى ثانية ذلك " المكابر "(١٠٩). ويتساءل " ألم يك داعية كل هذا الشقاق "(١١٠).

وقد قرن قسطنطين هذه الرسالة بأخرى إلى أنطونيوس، لا تقل عنها حنقا، صرح فيها أنه لا ينبغي مطلقا شجب قرار جاء عن مجمع كنسى، " لأنه لو فرضنا جدلا أن نفرا يسيرا من الأساقفة قد صدروا فى دعواهم عن إرادة سقيمة، أو إرضاء لآخرين، فإنه نادرا ما يقع العقل على جمع من الأساقفة حصيفى الرأي حذرين، يتصرفون بمثل هذا(١١١)، وعلى هذا النحو أبان الإمبراطور للراهب أنه لا موجب لإثارة الشكوك حول ما قر عليه رأى عدد كبير من رجال الكنيسة، واختتم قسطنطين رسالته إلى أنطونيوس قائلا : " لقد كان أثناسيوس صلفا مكابرا، مشت به عجرفته إلى ما نحن فيه من فتنة وشقاق "(١١٢).

ومهما بلغت سورة الغضب التى تملكت نفس قسطنطين، وتبدت فى رسالتيه، إلا أنا لا ندعها تصرفنا عن الخط الواضح الذى رسمه الإمبراطور لسياسته إزاء الفرق المسيحية المتصارعة. وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة التى بعث بها قبلا إلى أهالى نيقوميديا عقب عزل أسقفهم يوسيبيوس . فهو يقول فيها :

" من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد ؟ من الواضح أنه "

---

(108) SOZOM. Loc. cit.
(109) Id.
(110) Id.
(111) SOZOM. Hist. Eccl. II.31
(112) Id.

" يوسيبيوس شريك الطغاة جبروتهم . ولقد تأثرتم بعقيدة هذا الأسقف "
" فضللتم بذلك طريق الصواب . كنتم بلا ريب تمنون انتهاج "
" الحق لولا أن صرفكم عنه ذلك اليوسيبيوس، وعصبة عاتية "
" تؤيده، استغلت السلطان فضاع، إن فتنة آريوس "
" السكندرى ما تأجج لهيبها إلا بفعال يوسيبيوس الحمقى "
" ذلكم الذى امتلأ عقله بسئ الشرور والآثام(١١٣) "

ولم تكد تمضى على هذه الرسالة ثلاث سنوات إلا وكان يوسيبيوس يعتلى من جديد عرش أسقفيته، ويزداد قربا من الإمبراطور كما أسلفنا .

ولعله مما يدعم ما نذهب إليه ما جاء فى مقدمة رسالة قسطنطين الصغير إلى السكندريين(١١٤)، يضاف إلى هذا أنه فى الوقت الذى أبعد فيه إلى ترير أثناسيوس، أصدر الإمبراطور، ونفسه تكاد تميز من الغيظ، كما يروى سوزومنوس(١١٥) أوامره بنفى حنا رئيس كنيسة الشهداء المليتى هو الآخر، ولم يشفع له عند الإمبراطور قربه من اليوسابيين وصداقته لهم، ويضيف سوزمنوس ساخرا"... ولا قرارات مجمع صور نفعته "(١١٦) والحقيقة أن الإمبراطور لم يقم وزنا لأى من قرارات المجامع الكنيسة التى تتعارض وسياسته، فأساقفة المسكونة فى نيقية أدانوا آريوس وصحبه وأعادهم الإمبراطور، ومجمع صور رد إلى البيعة حنا، ونفاه الإمبراطور، وقد عبر سوزمنوس عن كل ذلك فى أسلوبه الخاص حيث قال"... لقد علا الإمبراطور فوق أكف الضراعة والابتهال، ولم تأخذه رحمة بأىٍّ أذاق الجموع مرارة الخوف والشقاق "(١١٧).

---

(113) THEOD. Hist. Eccl. I, 19

(١١٤) راجع هذه الرسالة فى أول الفصل الثالث .

(115) SOZOM. Hist. Eccl. II,

(116) Id.

(117) Id.

الفصل الثالث



الزحف إلى الغرب

الفصل الثالث

الزحف إلى الغرب

كان قسطنطين الأول قبل أن يموت فى سنة ٣٣٧ قد أنعم على أبنائه الثلاثة بألقاب القياصرة[(١)]، وخص كلا منهم بواحد من أقاليم الإمبراطورية فأعطى لأكبرهم قسطنطين الثانى Constantinus II (٣٣٧-٣٤٠) بريطانيا وغالة وأسبانيا، ومنح قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) تراقيا وبونطس وآسيا والشرق، على حين احتفظ لأصغر البنين قنسطانز Constans (٣٣٧-٣٥١) بداشيا ومقدونيا وبانونيا وأفريقيا[(٢)] . ولما أحس الإمبراطور دنور أجله أودع وصيته أحد خاصته، مؤكدا فيها ثانية هذا التقسيم الإدارى للإمبراطورية، وأمر بأن تسلم الوصية إلى ولده أمير القسم الشرقى قسطنطيوس[(٣)]. ويبدو من حديث يوسيبيوس القيسارى أنه ربما كانت هناك بعض العناصر التى أخذت تتطلع إلى العرش، وإن لم يشر إلى ذلك بصراحة، ولكنه يخبرنا أن الجيش أصر على أن لا يلى هذا الأمر أحد دون القياصرة الثلاثة[(٤)]، ومن ثم رحل نفر من القادة إلى أولاء الأبناء يحملون إليهم نبأ وفاة أبيهم ويعلنونهم أباطرة[(٥)]، وتولى الجيش فى الوقت ذاته القضاء على الباقين من بيت الإمبراطور الراحل؛ دلماتيوس Dalmatius القيصر، وهانيباليان Hannibalinus الذى كان قسطنطين الأول قد توجه ملكا على أرمينيا بعد أن قبض الملك الفارسى سابور الثانى Sapor II على تيجرانس Tigranes ملك أرمينيا المسيحى، ودلماتيوس المسن، ويوليوس قسطنطيوس Iulius Constantius الأخوين غير الشقيقين لقسطنطين، وعدد

---

(1) EVSEB. Vita Cosnt, IV, 40
(2) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 38
وراجع SOZOM.. Hist. Eccl. II, 34
وكذلك Gibbon, op. cit. II p. 226
وأيضا Jones, Later Roman Empire, I p. 112
(3) SOCRAT. op. cit. I, 39 ; SOZOM. Loc. cit.
وراجع أيضا THEOD. Hist.eccl. I, 30
(4) EVSEB. Vita Const. IV, 68
(5) Id.

من الساسة الضالعين منهم: أوبتاتيوس Optatius النبيل، وابلابيوس Ababius المحافظ البريتورى(٦).

كان قسطنطيوس أسرع الأبناء وصولا إلى العاصمة(٧) مما حمل على الاعتقاد بأنه كان وراء هذه المذبحة المروعة(٨)، التى راح ضحيتها أفراد أسرة قسطنطين عدا صبيين صغيرين، جاللوس Gallus وجوليان Iulianus (٩). ويشير مؤرخو الكنيسة(١٠) من طرف خفى إلى ذلك القس المجهول، الاريوسى العقيدة، صاحب الحظوة لدى الإمبراطور قسطنطين الكبير والذى زين له أمر عودة آريوس من منفاه فى رأيهم(١١)، ويذكرون أن يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس أسقف نيقية سعيا لدى ذلك القس لينالا العطف من الإمبراطور الجديد قسطنطيوس عن طريق تسليمه وصية أبيه، وكأنه بذلك آثره على أخويه، والغريب أنهم يقدمون ذلك، فى الوقت الذى يذكرون فيه جميعا أن تلك كانت رغبة قسطنطين نفسه، كما بينا، والتى لم يكن لها من سبب سوى ما يذكره أحدهم وهو المؤرخ الكنسى ثيودوريت(١٢)، من أن الأب أقدم على هذا لأن قسطنطيوس سوف يكون أسرع من أخويه وصولا إلى القسطنطينية لقربه منها، ولاشك أن قسطنطين قصد إلى ذلك فعلا حتى لا يدع لأحد الفرصة فى الاستيلاء على العرش قبل أن يتمكن بنوه من الوقوف على حقيقة الأمر، ولعل هذا يتضح مما أقدم عليه الجيش بعد موته، هذا إلى أن الوصية لم تحتو على شىء أكثر مما كان أمرا واقعا، ومن ثم لم تقدم جديدا إلى قسطنطيوس يحسده عليه

---

(6) Jones, op. cit. I, pp. 85, 112
وراجع Gibbon, op. cit. II, p. 236

(7) EVSEB. Vita const. VI, 70
وراجع SOCRAT. Hist. Eccl. I, 40
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. II, 34

(8) Gibbon, op. cit. II pp. 235-236

(٩) راجع الفصل السادس .

(10) THEOD. Hist. Eccl. II, 2; SOZOM. hist. eccl. III, 1; SOCRAT. op. cit. II, 2

(١١) راجع الفصل السادس من الدولة والكنيسة . ج ٢ للمؤلف، حيث أثبتنا بالوثائق خطأ هذا الزعم.

(12) THEOD. Hist. Eccl. II, 2

اخوته، ويحسبه هو خيرا جاء به إليه نصير الآريوسيين فى البلاط . وفوق هذا وذاك فلم يكن يوسيبيوس، الأسقف النيقوميدى، فى حاجة لقس القصر الإمبراطورى، كى يرضى عنه قسطنطيوس، فمكانة أسقف نيقوميديا عند قسطنطين الأب لم تكن تخفى على أحد فى ذلك الوقت، وإلى نيقوميديا جاء هذا يقضى أيامه الأخيرة، وفيها تلقى سر المعمودية(١٣)، ولا يبعد أن يكون ذلك قد تم على يد يوسيبيوس النيقوميدى نفسه(١٤). فهو أسقف المدينة وربما يدعم ذلك ما يورده ثيودوريت من أن قسطنطين ذكر كل ما أوصى به فى حضرة يوسيبيوس(١٥).

بل إن حديث ثيودوريت هذا يعطينا الثقة فى القول بأنه ليس سوى يوسيبيوس نفسه هو الذى حمل الوصية إلى الإمبراطور الجديد فى القسم الشرقى. ومن ثم لا يمكن أن نتفق مع المؤرخين سقراط(١٦) وسوزومنوس(١٧) فيما يرددانه من أن قس البلاط المجهول ذاك نجح فى التأثير على الإمبراطورة ورجال البلاط واستمالهم جميعا وقسطنطيوس إلى العقيدة الآريوسية، بل إن أثره تخطى القصر إلى العاصمة ومنها إلى الاقاليم، مما أدى إلى إثارة الفتنة والاضطراب فى هذا القسم من الإمبراطورية حسب قولهما.

والحقيقة، كما أسلفنا، أن الآريوسية كانت قد أفاقت من اللطمة التى وجهت إليها فى نيقية سنة ٣٢٥ ، واستطاعت فى السنوات الأخيرة لعهد قسطنطين أن تحرز نجاحا ملحوظا تمثل فى عطف الإمبراطور، على رجالها، وبلغ ذروته باقتلاع رجلى النيقية فى أنطاكية والإسكندرية، يوستاثيوس وأثناسيوس . ومع صحوة الآريوسية كان قسطنطيوس قد أتى الشرق قيصرا، وذلك فى العيد

---

(13) EVSEB. Vita Const. IV, 61
وراجع SOCRAT. Hist. Eccl. I, 39
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. II, 34
(14) Robortson, op. cit. P. 41
(15) THEOD. Hist. Eccl. I, 30
(16) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 2
(17) SOZOM. Hist. Eccl. III, 1

العشرينى Vicennalia لاعتلاء أبيه العرش[18]، وطوال ما يزيد على عشر سنوات وقسطنطيوس يراقب عن كثب مسار الفريق يوسيبيوس والعقيدة الآريوسية، ويختلط بزعمائها، ويقف على آرائهم، ولذا كان من الطبيعى أن يأخذ عنهم لاهوته، وأن يشاركهم عداءهم المفرط لأثناسيوس[19] بعدما رآه من عناد هذا الأسقف وتحديه، لا للأساقفة وحدهم، بل للسلطة الإمبراطورية ذاتها، بعدم إجابة الإمبراطور إلى طلبه بقبول آريوس فى الكنيسة ثانية ورفضه الانصياع لأوامر قسطنطين بالذهاب إلى مجمع قيسارية. وهكذا وجد قسطنطيوس نفسه غارقا فى الجدل اللاهوتى حول العقيدة على حين نجا أخواه من أهواله، إذ آوى الغرب الإمبراطوري إلى الهدوء بعد مجمع نيقية، وابتعد بنفسه عن مزالق هذا الصراع قائما بالايمان النيقى، ولاشك سره أن يرى بين ظهرانيه أثناسيوس، فرعاه وقدم له فى شخص ماكسيمين Maximinus أسقف ترير كل تقدير[20] . وكان لهذه الرحلة الاجبارية التى قام بها الأسقف السكندرى إلى الغرب الإمبراطوري أكبر الأثر فى انفتاح هذا الميدان الجديد أمام صراعات الجدل اللاهوتى وأن كان قد قبله قهرا عندما فرضها عليه الإمبراطور قسطنطيوس، بعد عام ٣٥٣ ، ولم يرض عنها فكرا، كما كانت بداية لمرحلة جديدة من المواجهة بين الدولة والكنيسة.

ويمثل عهد قسطنطين فترة فريدة فى تاريخ العلاقات بين الدولة والكنيسة تميزت بسياسة التوازن والإمبراطور يسير دفة الأمور بكل الحذق والمهارة مسيحيا فى سياسته، وثنيا فى نظرته، نيقيا مع الجموع، فإذا حزب الأمر، آريوسيا. يضم بلاطه مستشارين من كل هؤلاء الأضداد، ويموج عقله بشتى الفكر. فلما مات انفرط هذا العقد وراحت هذه الطوائف جميعها تتلاقى متلاطمة، ومن هنا ندرك قول المؤرخ سوزومنوس وهو يستهل الكتاب الثالث من تاريخه الكنسى " ها نحن قد عاينا كم من حادثات الزمان جرى بها الزمان على الكنيسة وقسطنطين باق، وغداة موته راح الإيمان الذى أقره الآباء فى نيقية يدخل فى تجربة" ، ذلك أن هذه

(18) EVSEB. Vita Const. IV, 40
راجع SOCRAT. hist. eccl. I, 39
(19) Jones. op. cit. I, p. 114
(20) ATHASNAS. Apol. Ad Const. 3

العقيدة رغم أنها لم تلق الرضى من دنيا المسيحية جمعاء، إلا أن أحدا لم يجرؤ على نبذها وقسطنطين فيه الحياة(٢١). والعبارة الأخيرة وحدها تعطينا، لا ريب، الأبعاد الحقيقية لسياسة الإمبراطور الراحل تجاه فرق المسيحية المتنافرة، وتكشف عما يحمله القدر فى طياته للعقيدة والكنيسة ينبئ به سقراط حين يقول "... ومع الايام، وعبر مدائن الشرق كلها، راجت الفتن والمهاترة، وأمسى النظام إلى فوضى، وكل شأن إلى السيئ سار(٢٢). ولئن كان هذا القول يعبر عن وجهة نظر معينة للمؤرخ الكنسى إلا أنها تحمل فى نفس الوقت صورة لأحداث الفترة التالية.

استقر أبناء قسطنطين كل فى إقليمه، وراح يباشر بسلطة الحاكم المستقل ضمن دائرة الإمبراطورية الواحدة، شئون سياسته، وكان أول شيء أقدم عليه قسطنطين الثانى أن سمح للأسقف السكندرى بالعودة إلى بيعته، وشيعه برسالة قال فيها :

" قسطنطين القيصر إلى شعب الكنيسة الكاثوليكية السكندرى إنى أدرك تماما أن أفئدتكم التقية الورعة، لم تنس أن أثناسيوس شارح القانون الاعظم، قد أرسل لزمن إلى غالة، خشية أن يكابد ضرارا لا ترم، يرومه بها خصوم طبعت على الزيغ نفوسهم، واغتسلت بالدماء الايادى "

" يحاولون بشراسة الفحش أن يدنسوا قدس الرجل والحياة ."
" وحتى يطهر من اللئام أثناسيوس، انتزع من بين أنيابهم "
" وجيء به إلى مدينة ضمن بلادي، ما كان يشعر طيلة "
" مقامه أن شيئا هو إليه فى حاجة . والفضيلة المزجاة "
" فى الرجل أضاءت بقبس نور السماوات ظلماء قدر عنيد . وكان "
" مليكنا قسطنطين العظيم ، أبى ، عبق الذكر ، قد قارب الأمر "
" يبوئ الأسقف كرسيه ، ولكن الموت أقعده ."

---

(21) SOZOM. Hist. Eccl. III, 1
(22) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 22
وانظر ما كتبه Sansterre تحت عنوان Eusebe de Cesaree et la naissance de la theorie Cesaropapiste, Byzantion XLII – 1 (1972) fi XLII, 2 (1973)

" أيها الأطهار ، أليس من الأفضل أن أحقق هدفه ؟ ! ذلك "
" ما ارتأيت ، وكم من التوقير والإعزاز لقيه منا ، وسترون فى "
" مقدمه ، دون أن تعقد الدهشة لسان أحدكم، أى آى المجد ."
" عليه خلعنا . والآن فلترعاكم عناية الرب إخوتى الأحبة(٢٣) "

وأول ما يلفت النظر فى هذه الرسالة لقب " القيصر " الذى قرن به قسطنطين نفسه، فقد أدى ذلك إلى خلاف فى الرأى بين عدد من الدارسين(٢٤)، حول العام الذى أعيد فيه أثناسيوس إلى الإسكندرية، وهل كان نفس السنة التى مات فيها قسطنطين الأب (٣٣٧) أم (٣٣٨) .

والحقيقة أن قسطنطين الأول مات فى ٢٢ مايو ٣٣٧(٢٥) ووصلت أنباء وفاته إلى ترير فى يونيه من نفس العام(٢٦)، وحمل الاخوة الثلاثة لقب الأوغسطس Augustus فى سبتمبر من السنة(٢٧). ولاشك أن هذه الرسالة قد كتبت قبل أن يعلن أبناء قسطنطين أنفسهم أباطرة، أو على وجه التحديد فى ١٧ يونية عقب وصول نبأ موت قسطنطين إلى ولده وسميه فى غالة(٢٨). وهذا الإجراء من جانب قسطنطين الثانى يفسر ما تضمنته رسالته من العطف الواضح على قضية أثناسيوس، مما مهد السبيل لوقوف عالم الغرب معه بعد ذلك .

وتشير الرسالة صراحة إلى أن قسطنطين الأول، كان قد قرر بالفعل إعادة

(33) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87 ; SOCRAT. Hist. Eccl. II, 3
لأثناسيوس أيضا راجع hist. Arian. 8
وراجع كذلك THEOD. Hist. Eccl. III, 2

(٢٤) انظر ماكتبه زينوس Zenos حول هذا الموضوع فى مقدمته لأعمال المؤرخ سقراط ضمن مجموعة Nicene and P. N. F. II, p. 37 v. 1

(25) FEST. IND. X
وراجع Gibbon, op. cit. II, p. 233

(26) Robertson, op. cit. p. 41

(27) Jones, op. cit. I, p. 122
وراجع Gibbon, op. cit. II, p. 237

(28) Robertson, Loc. cit
وراجع أيضا Klidd, A history of the church, II, p. 71

أثناسيوس إلى أسقفيته، ولكن المنية عاجلته، ولقد أوضحنا ذلك آنفا، وذكرنا أن هذا ليس مما يتعارض مع سياسة قسطنطين الأول فى تحقيق التوازن بين الفرق المسيحية، ونضيف ما يقوله سوزمنوس من أن قسطنطين كان قد اعتزم إعادة أثناسيوس من منفاه ولكن موته حال دون ذلك، غير أنه يقدم لعبارته هذه بكلمة " يقال " ، مما ينقل الرأى عنده إلى مرتبة الاحتمال[٢٩]، أما ثيودوريت[٣٠] فيؤكد أنه جاء ضمن قرارات قسطنطين الأخيرة، وهو يعالج سكرات الموت فى نيقوميديا، الأمر بإعادة أثناسيوس إلى الإسكندرية، ويردف ذلك قائلا " لقد صدر هذا القرار بالذات فى حضرة يوسيبيوس "، ولما كان ثيودوريت ينفرد وحده دون مؤرخى الكنيسة الآخرين، بهذا القول فمن البديهى أن يكون قد اعتمد على ما جاء بهذه الرسالة.

أما ما تشير إليه الرسالة من أن أبعاد أثناسيوس إلى غالة، لم يكن نفيا للأسقف، بقدر ما كان تخليصا له من أعدائه، وبعدا به عن أذاهم ، فلا يمكن التسليم به مطلقا وذلك لأن قسطنطين الأول كان قد ضاق ذرعا بعناد أثناسيوس وأراد أن يعيد السلام إلى منطقة يحسب لأهلها وثرواتها كل حساب، وأدرك أن أساقفة الشرق يكنون العداء الكامل لأثناسيوس، للخلاف العقيدى بينهم وبينه، ولما حسبوه تعاليا منه عليهم عندما رفض حضور مجمع قيسارية، بالإضافة إلى نظرة الحقد الكاملة تجاه مكانة كنيسة الإسكندرية ، وإلا فلو سلمنا بما جاء فى الرسالة لصدق ذلك أيضا على يوستاثيوس الانطاكى، وحنا المليتى، ومن قبل يوسيبيوس نيقوميديا وثيوجنس نيقية وآريوس.

غير أن قرار استدعاء أثناسيوس والسماح له بالعودة إلى الإسكندرية لم يكن استثناء دون غيره، إذ إن الأخوة الثلاثة أبناء قسطنطين الأول حسبما جرى به قلم أثناسيوس نفسه، فى مؤلفه عن تاريخ الآريوسيين[٣١] اجتمعوا بعد وفاة أبيهم واتفقوا

(29) SOZOM. Hist. Eccl. III,2
(30) THEOD. Hist. Eccl. I, 30
(31) ATHANAS. Hist. Arian. 8

فيما بينهم على إعادة جميع الأساقفة المنفيين إلى كنائسهم والديار تمشيا مع السياسة الجديدة للدولة فى الميل تجاه المسيحيين، بل إن هذه الرسالة التى بعث بها قسطنطين الثانى إلى شعب الكنيسة السكندرى، كانت ضمن رسائل عديدة أخرى حملت هذه الروح إلى كنائس الأساقفة العائدين(٣٢).

ارتحل أثناسيوس قاصدا الشرق فى معية قسطنطين الثانى(٣٣)، حيث التقى بقسطنطيوس فى مدينة فيميناكوم(٣٤) Viminacium فى موئيزيا Moesia ، وكان هذا هو اللقاء الأول بخصم الغد، حسب تعبير المؤرخ روبرتسون(٣٥)، ثم اتخذ سبيله حتى إذا أتى القسطنطينية وجد أسقفها بولس، الذى خلف إسكندر، قد عاد ثانية إلى كرسيه(٣٦) بناء على اتفاق أبناء قسطنطين، وفى قيسارية كبادوكيا لقى أسقف الإسكندرية قسطنطيوس مرة أخرى(٣٧) و الإمبراطور يستحدث الخطى فى الطريق إلى الجبهة الشرقية(٣٨) ليتصدى للحشود الفارسية التى كانت تتحرش بالإمبراطورية. ويعلق Duchesne (٣٩) على هذه اللقاءات بقوله ، إن قسطنطيوس لم يكن يسعده أبدا أن يلتقى بشخص كانت له طوال عشر سنوات مضت سمعة عريضة فى الشرق، جلبت الكثير من المتاعب، ونضيف إلى قول هذا المؤرخ تلك المكانة الفكرية وقوة الشخصية التى أحرزها أثناسيوس فى مجمع نيقية وفى صراعه مع قسطنطين الأول وتصديه للعقيدة الآريوسية، ويبدو من حديث أثناسيوس(٤٠) أنه لم يجر بينه وبين الإمبراطور أية مناقشات حول قضيته ومخاصميه.

---

(32) ATHANAS. hist. Arian. 8
(33) Kidd, op. cit. II, p. 71
وراجع أيضا Robertson, op. cit. P. 41
(٣٤) وهى حالياً Widin فى بلغاريا انظر THANAS. Apol, ad Const.
(35) Robertson, Loc. cit.
(36) ATHANAS. Hist. Arian. 7
(37) ATHANAS. Apol. Ad Const. 5
(38) Robertson. Loc. cit. ; Kidd, Loc. cit.
(39) Duchesne, op. cit. p. 150
(40) ATHANAS. Apol. Ad Const.5

وفى الثالث والعشرين من نوفمبر ٣٣٧ ، دخل أثناسيوس الإسكندرية[٤١] بعد أن غاب عنها قرابة عامين، وسط مظاهر الترحاب والبهجة من جانب الاكليروس وشعب الكنيسة، حتى لقد عد أساقفة مصر هذا فى رسالتهم المجمعية Epistola Encyclica سنة (٣٣٨) أسعد أيامهم[٤٢]. غير أنه بعودة الأسقف إلى بيعته عاد معه الصراع من جديد،إذ أيقن اليوسيبيوسيون أنه إذا بقى أثناسيوس على كرسيه، فلن يصلوا إلى تحقيق مسعاهم[٤٣]، وكانت الحالة السياسية مواتية لكى يحاول كل الفرق المتنافرة بلوغ مآربه . فقد أدى تقسيم الحكم فى الإمبراطورية بين الاخوة الثلاثة، إلى تعميق هوة الشقاق بين فرق المسيحية المتباغضة، بل أيضا بين شطرى الإمبراطورية، إذ جهد اليوسيبيوسيون لاستمالة قسطنطيوس إلى فكرهم، على حين أفلح النيقيون فى الغرب وأثناسيوس فى اجتذاب قسطنطين الثانى وقنسطانز إلى معتقدهم. وكان للفترة التى أمضاها الأسقف السكندرى فى غالة أوضح الأثر فى هذا السبيل .

ولم يكن الآريوسيون فى الإسكندرية على استعداد لقبول عودة أثناسيوس ثانية[٤٤]، ومن ثم حدثت بعض الاضطرابات فى المدينة[٤٥] لم تفصح المصادر عن طبيعتها، وإن كان يبدو أنها لا تخرج عن الصدام بين أنصار أثناسيوس والآريوسيين، وراح هؤلاء يحاجون بأن أثناسيوس قد تم عزله بقرار مجمع الأساقفة المنعقد فى صور، ولا يحق له اعتلاء كرسى الأسقفية من جديد إلا بمجمع كنسى ثان[٤٦]، وعليه يصبح قرار السلطة المدنية بإعادته باطلا.

---

(41) FEST, IND. X
(42) ATHANAS. Apol. C. Arian 7

(٤٣) انظر المخطوط رقم ٣٩٠ ورقة ٥٢ب.

(44) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 3
وراجع SOZOM. Hist. Eccl. III, 2
(45) FEST, IND. XI
(46) ATHANAS. Apol. C. Arian 7 ; SOCRAT. Loc. cit.

ولكن أثناسيوس لم يعدم وسيلة فى التصدى دفاعا، وساق مثلا يوسيبيوس نيقوميديا وثيوجنس نيقية اللذين عاد بهما قسطنطين الكبير(٤٧).

غير أن خصومه عادوا سيرتهم الأولى فى اتهامه بما يثير السلطة الإمبراطورية فأذاعوا أنه قام ببيع كمية القمح التى كان الإمبراطور الراحل قد أمر بأن تجرى سنويا على الأرامل فى مصر وليبيا، واستغل أرباحها لنفعه(٤٨)، وكتبوا إلى قسطنطيوس يخبرونه بحقيقية الأمر، ولم يتوان هذا عن لوم أثناسيوس وإدانته(٤٩). بل إن المؤرخ الكنسى سقراط يرفع هذا الزجر إلى حد التهديد بالموت عقابا(٥٠).

لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الآريوسيين كانوا قد انتهزوا فرصة نفى أثناسيوس واختاروا للأسقفية بدلا منه بستوس(٥١) Pistus أحد القسيسين الذين قطعهم إسكندر سلف أثناسيوس من قبل عند بدء المسألة الآريوسية(٥٢) وتم رسمه على يد سكوندوس Secundus أسقف طلميثة إحدى المدن الخمس الغربية، الآريوسى المتحمس الذى شمله قرار الإدانة الصادر فى نيقية(٥٣).غير أن قسطنطين الكبير لم يسمح لهم برفعه إلى كرسى الإسكندرية، وقد جرى الإمبراطور هنا على خلاف ما سار عليه عند عزل يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس أسقف نيقية ويوستاتيوس الأنطاكى، إذ وافق على سيامة غيرهم بدلا منهم، ومن ثم ظل كرسى الإسكندرية الأسقفى شاغرا حتى اعتلاء أثناسيوس ثانية فى نوفمبر سنة ٣٣٧ . ولاشك أن قسطنطين كان يحرص على إقرار السلام فى منطقة يعتبرها الضمان الأساسى لإطعام مدينته الجديدة، ولذا لم يكن فى حاجة إلى إثارة الاكليروس وشعب الكنيسة فيها، متخذا من شعب أنطاكية عبرة، وليس أدل

---

(47) ATHANAS. Apol. C. Arian. 7-32
(48) Ibid. 18
(49) Id.
(50) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 17
(51) ATHANAS. Ep. Encycl. 6 وراجع أيضا أثناسيوس Apol. C. Arian 19
(52) ATHANAS. Dep. Arii, praef.
(53) ATHANAS. Apol. C. Arian, 24

على ذلك من أنه قام باستدعاء فيلاجريوس الكبادوكى نائبه فى مصر والذى يتعاطف مع الآريوسيين، ويرتبط اسمه فى ذهن أنصار أثناسيوس بلجنة مريوط، وولى خلفا له ثيودور[٥٤] Theodorus خير من يمثل سياسة سيده.

غير أن هذا الاتجاه سرعان ما تبدل، فما إن قضى قسطنطين، حتى أدرك ولده قسطنطيوس، أن نائبا عنه مثل ثيودور لا يستطيع أن يحد من نفوذ الأسقف السكندرى، وقد عاد بزهو الانتصار، وبماضى السنين والعناد يعلمه قسطنطيوس عن أثناسيوس، وبرغبة جامحة إلى السلطة وسيادة غير منتقصة، استدعى الإمبراطور إليه ثيودور وأعاد إلى الإسكندرية نائبا عنه فيلاجريوس مواطن كبادوكيا[٥٥]، يدفعه إلى ذلك صدق حدسه بتلك الاضطرابات العنيفة التى شهدتها المدينة عقب مجيء الأسقف إليها بعد غياب، أخذ منها ثيودور موقفا حازما وإن كان إلى جانب رجل نيقية[٥٦]، ومن ثم أدرك قسطنطيوس أن موقف ممثله فى مصر على هذا النحو ربما عده فريق نيقية تساهلاً أو حتى ضعفا من جانب السلطة المدنية، وهو ما لم يكن يسمح به أبدا قسطنطيوس.

وزاد من ريبته تلك الزيارة التى قام بها أبو الرهبان أنطونيوس إلى الإسكندرية تدعيما واحتفاء بالأسقف السكندرى[٥٧]، بعد ما شاع فى المدينة أن رهبان مصر يؤيدون العقيدة الآريوسية[٥٨]، ورغم أن أنطونيوس لم يمكث فى الإسكندرية سوى يومين[٥٩] فقط (٢٥-٢٧ يولية ٣٣٨)، إلا أن هذه الزيارة كانت لها أهميتها الكبيرة بما للرجل من شخصية قوية، وتأثير شعبى عميق، وبما أعطته للنيقيين وزعيمهم من شعور الأمان والتأييد[٦٠].

كان كلا الفريقين يحرص على أن يحظى بتأييد هذه الجموع المنتشرة فى

(54) FEST. IND. X
(55) FEST. IND. XI
(56) ATHANAS. Apol. C. Arian. 5
(57) FEST. IND. X
وراجع أيضا ATHANAS. Vita Ant. 69
(58) ATHANAS. Vita Ant. 69
(59) FEST. IND. X
(60) Le Bachelet, S. Athan. Col. 2146

صحراء مصر وفيافيها، تلك التى فرت بدينها تحت وطأة قساوات الاضطهاد الوثنى وآثرت حياة الحرمان، وفى عصر ساد فيه الإيمان القائم على العاطفة دون العقل وتصديق المعجزات لدى الجموع، تعلقت أفئدة المسيحيين إعجابا وتقديرا بأولاء النفر، ومن هنا تأتى أهمية الرهبان بما لهم فى نفوس الجموع المسيحية من عظيم الأثر والولاء، ومن هنا أيضا نقدر استباق الفريقين المتصارعين ابتغاء مرضاة المتوحدين ورهبان الاديار، وندرك القيمة الحقيقية لقدوم أبى الرهبان أنطونيوس ليعلن فى الملأ أنه يدحض عقيدة آريوس، ويقف بالحزم كله يشد من أزر أثناسيوس ويطلب إلى الجموع أن لا تبغى عن أسقفها حولا . هذه الصورة من التأييد الجارف جرى بها قلم أثناسيوس وهو يكتب حياة أنطونيوس(٦١) وكان للسياسة التى رسمها أثناسيوس لنفسه وكرسيه، مذ تولى كرسى الأسقفية السكندرية، ورحلاته التى يذرع فيها البلاد من طيبة إلى فم النيل، أثرها الواضح فيما لقيه طوال عهده بالأسقفية من تأييد وولاء.

وتلاقت وجهات نظر الآريوسيين فى مصر واليوسيبيوسيين بعامة مع سياسة الإمبراطور قسطنطيوس، خاصة بعد تغيير النائب الإمبراطوري فى مصر، حتى لقد اعتبرت عودة فيلاجريوس الكبادوكى، من جانب ثيودوريت(٦٢) نصرا للآريوسيين فى الإسكندرية . ولما كان خصومه يدركون مدى الصداقة التى تربط بين أثناسيوس وأساقفة النصف الغربى من الإمبراطورية، فقد رأوا أن أى إجراء عنيف وفجائى يتخذ ضد الأسقف السكندرى، سوف يثير غضب الغرب كله(٦٣) ومن ثم سعوا لاجتذاب الأساقفة جميعا إلى صفوفهم، فكتبوا رسائل بعثوا بها إلى مختلف الكنائس والأباطرة الثلاثة، ضمنوها الاتهامات السابقة ضد أثناسيوس، مضيفين إليها اتجاره بقمح الأرامل وعودته إلى كرسيه بطريقة غير شرعية(٦٤).

---

(٦١) يقول أثناسيوس " شعب الكنيسة كله من أجل رؤية القديس يركض، والرعية من حوله تتحلق ، وهو يهدى إلى المسيحية كثيرين ربما قدر من يدخلوها فى عام راجع ATHANAS. Vita Ant. 70

(62) THEOD. Hist. Eccl. II, 3

(63) Neander. Christian religion and Church, IV, p. 43

(64) ATHANAS. Apol. C. Arian. 19, 24; hist. Arian. 9

محاولين في الوقت ذاته التقرب إلى الغرب[٦٥]، بعد أن أفلح أثناسيوس من قبل في ضمان تأييده. فاستقبل يوليوس أسقف روما (٣٣٧ - ٣٥٢) الذى لعب دورا كبيرا في القرن الرابع الميلادى من أجل سمو كرسي روما وعلو قدره[٦٦] سفارة على رأسها مقار Macarius القس، وتضم الشماسين مارتيروس Martyrius وهزيكيوس[٦٧] Hesychius ويتضح من رسالة يوليوس بعد ذلك إلى اليوسابيين أن يوسيبيوس النيقوميدى كان المحرك الرئيسى وراء هذه السفارة[٦٨]. وقد حمل الوفد معه رسالة إلى أسقف روما تضع أمامه " مثالب " أثناسيوس وماركللوس Marcellus أسقف أنقرة، وبولس أسقف القسطنطينية واسكليبوس Asclepius أسقف غزة وغيرهم، وأرفق بها تقرير لجنة مريوط سنة ٣٣٥، وقائمة بالاتهامات السابقة والحالية ضد أسقف الإسكندرية، واعتبار الكرسى السكندرى شاغرا منذ صدور قرار مجمع أثناسيوس، وذلك في محاولة للحصول على تأييد أسقف روما للمرشح الاريوسى بستوس لكرسى الإسكندرية، والذى لم ينجح حتى الآن في اعتلاء عرش الأسقفية[٦٩]. وكان من بين ما أوصى به اليوسابيون رسلهم، أن يطلبوا إلى يوليوس أن يدعو إلى عقد مجمع كنسى يضم أطراف النزاع ليفصل بينهم، وأنه يسرهم لو تفضل هو برئاسة هذا المجمع[٧٠]، ولم يكن ذلك إقرارا من أساقفة الشرق بعلو كعب أسقف روما على بقية الكراسى الأسقفية خاصة وأن زعامتهم تنحصر الآن في رعاية يوسيبيوس الطموح، ولكنه في حقيقية الأمر مجرد محاولة للتقرب إلى يوليوس وصرفه عن تأييد أثناسيوس .

تسربت هذه الأنباء إلى الإسكندرية، فأدرك أثناسيوس أنه حيال جهد جاد يقوم به اليوسيبيوسيون لتطويقه في بيعته وعزله عن العالم المسيحى وهو نفس الأسلوب

(65) Kidd, op. cit. II, p. 72
(66) Kuhner, encycl. of the Papacy, p. 15
(67) ATHANAS. Apol. C. Arian. 22
(68) Id.
(69) Ibid. 24.
وكذلك Neal, Patriar. of Alex. I, p. 193
(70) ATHANAS. Apol. C. Arian. 20

الذى لجأ إليه خصومه منذ عام ٣٣٣ فى مجمعى قيسارية وصور، ولذا عزم أثناسيوس أن يحارب هؤلاء بنفس سلاحهم مضيفا إليه تلك القاعدة العريضة الممتدة عبر مصر كلها. فدعا أساقفة بيعته إلى مجمع عام فى شتاء ٣٣٨/٣٣٩، ويخبرنا أن عدد الحضور كان مائة[٧١] يمثلون أساقفة مصر وطيبة والمدن الخمس وليبيا[٧٢]، وإلى جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية، وبوجه خاص يوليوس، كتب هذا الجمع رسالة مجمعية[٧٣]، تعد فى مضمونها والمجمع مظاهرة كنسية لتأييد أثناسيوس وردا على رسائل اليوسابيين ، وعمد الأساقفة إلى نفس الاسلوب الذى سار عليه الخصوم فى إثارة السلطة المدنية، فقد جاء فى رسالتهم " . . . لقد تجاسر يوسيبيوس ورفاقه على أن يكتبوا للأباطرة فى قحة وصفاقة، ساقوا حديثا لا يجرؤ على إتيانه إنسان أمام من هم أقل من أولاء مرتبة[٧٤]. وتمضى الرسالة من بعد تفند اتهامات الآريوسيين والمليتيين السابقة، مذ ولى أثناسيوس كرسى الإسكندرية إلى أن بعث به منفيا إلى غالة[٧٥]، وتؤكد أنه لا صحة مطلقا لما أذيع من استيلاء أثناسيوس على قمح الأرامل، واختتم مجمع الإسكندرية رسالته بدعوة صريحة إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية بهجران جانب يوسيبيوس ورفاقه والالتفاف حول أثناسيوس[٧٦].

---

(71) ATTHANAS. Apol. C. Arian.1
(72) Ibid. 3
(73) Ibid. 3-19
(74) Ibid. 6-17
(75) Ibid. 18

(٧٦) جـاء فى ختام هذه الرسالة : " ها نحن قد التقينا وتلاقت منا الفكر، على أن نكتب إلى نيافتكم بكل الامل، وحكمـة المسـيح فيكـم تتمثل، أن تقبلوا منا هذا الايضاح معطين أثناسيوس أخانا العطف كله والحنو، مـبدين الغضـب كلـه عـلى ذلـك اليوساب ورفاقه، أولاء الذين دنسوا قدس ديار الرب بزيف القول والخطايـا... نهيـب بعدالتكم أن تقتصوا للحق، أنى الحق كان، وبوصايا الرسول مهتدين حين قال " أما الذيـن مـن خـارج فالله يدينهم" فاعزلوا الخبيث من بينكم، (كورنث ١- ١٣/٥) آثام مسعاهم بشركة التـناول معكـم غير جديرين. لأجل هذا صموا عن دعواهم الآذان فلسوف يكتبون إليكم ضد أثناسيوس، سـوف يرسلون، لا تصدقوهم حتى لو نيلوها بتوقيعات أساقفة مصريين، فلسنا نحن أولاء، بل المليتيون الذين لا زالوا إلى اليوم يعكرون فى الكنيسة صفو السلام ويوسعون الصدع فيها ودعوى الشقاق " .
راجع ATTHANAS. Apol. C. Arian.19

على هذا النحو كتب أساقفة مجمع الإسكندرية دفاعا عن أثناسيوس، وراحوا بوحى منه ينهجون نفس السبيل الذى رسم الخطى منه يوسيبيوس النيقوميدى وصحبه. والى روما جاء وفد من أساقفة مصر يحملون هذه الرسالة ووجهة نظر الاكليروس(٧٧) حتى لا يدع أثناسيوس الفريق اليوسابى يقتحم عليه ميدانا كان قد أرسى فيه الدعائم . ويبين من الرسالة التى بعث بها يوليوس فيما بعد إلى اليوسابيين فى أنطاكية(٧٨)، أن جدالا عنيفا نشب بين رسل الفريقين حول اعتبار كرسى الإسكندرية الأسقفى شاغرا، ومحاولة اليوسابيين الحصول على تأييد يوليوس لتنصيب بستوس المرشح الاريوسى(٧٩) .

ولكن الأدلة التى قدمها قسيسو أثناسيوس لم تسمح لأسقف روما إلا بتأييد وجهة نظر الإسكندرية . فبستوس هذا أدانه إسكندر الأسقف السكندرى السابق ثم المجمع النيقى، كما أن سكوندوس الذى قام برسمه، شمله قرار الحرم كذلك على يد المجمع المسكونى الأول(٨٠)، ويعترف يوليوس بذلك بصراحة، ثم يخبرنا أن رسل الفريق اليوسيبيوسى عندما أدركوا أنهم لن يستطيعوا اجتذابه إليهم، عرضوا عليه مقترحهم بالدعوة لعقد مجمع لمناقشة القضية مثار النزاع(٨١)، وفى الوقت ذاته ارتحل رئيس الوفد مقار عائدا، رغم أن المرض كان يلح عليه، ويعلل يوليوس ذلك بالعار الذى جلل رسل اليوسيبيوسيين بعد أن دمغتهم بالزيف حجج رجال أثناسيوس(٨٢).

غير أنه لو كان " الخزى " دافع مقار لهذا العود غير المتوقع، كما يقول يوليوس، لكان من الحرى أن يعود الوفد كله إلى الشرق خاسئا وهو حسير، لفشله فى مهمته، أو لعاد على الاقل مغيظا محنقا، ولكننا نرى أن مقار استحث خطاه إلى زعمائه فى أنطاكية يطلعهم على حقيقة الأمر وضرورة الاستغناء عن بستوس،

---

(77) ATHANAS. Apol. C. Arian. 22
(78) Ibid. 20-36
(79) Ibid. 24
(80) Id.
(81) Ibid. 22
(82) Id.

ذلك الذى لا يلقى فى الغرب قبولا لماضيه الآريوسى، ويشكل بهذا عقبة فى طريق تعاطف أساقفة هذا الجزء من الإمبراطورية مع اليوسيبيوسيين، وحتى لا يثير الشكوك حول الرحيل المفاجئ، أو يمهد السبيل، باصطحاب رفيقيه، أمام رسل الخصم السكندرى لإظهار الشماتة أو إحراز نصر كامل ، فقد ودع المدينة فى هدوء وترك صحبه هناك لمناقشة أسقف روما أمر الإعداد لعقد المجمع الكنسى المقترح، وهاهى مجريات الأحداث تدعم الرأى.

ففى ديسمبر ٣٣٨ كان الإمبراطور قسطنطيوس فى أنطاكية[٨٣] يعد جيشه لملاقاة الفرس[٨٤]، ووجدها اليوسابيون فرصة سانحة، بعد أن جاءتهم الانباء بتعثر جهود وفدهم فى روما، للتقدم خطوة أخرى، فعقدوا مجمعا هناك تحت رعاية الإمبراطور جددوا فيه قرارهم بعزل أثناسيوس واعتبار كرسى الإسكندرية شاغرا، واستطاعوا كما يقول ثيودوريت، الاستيلاء على أذن الإمبراطور مؤكدين أن عودة أثناسيوس من منفاه قد أدت إلى وقوع الاضطرابات والفتنة فى مصر وفلسطين[٨٥]، وقد قرر الفريق اليوسيبيوسى الاستغناء الآن عن بستوس المرشح الذى لم يفلح فى اعتلاء الكرسى السكندرى، ووقع اختيارهم على يوسيبيوس أسقف حمص Emesa وظنوه قريبا من أهل الإسكندرية، حيث قضى فى المدينة فترة يدرس الفلسفة[٨٦]. ويصفه جيروم بموهبة خطابية رائعة وبيان[٨٧] لكن يوسيبيوس كان حصيفا عندما رفض قبول هذه المغامرة المثيرة[٨٨] . لما يعلمه عن ولاء كنيسة الإسكندرية لأسقفها أثناسيوس ، عندها وقع الاختيار علي كبادوكى يدعى جريجورى[٨٩] Gregorius فى يناير سنة ٣٣٩ [٩٠]، كان أيضا أحد تلامذة مدرسة الإسكندرية المسيحية[٩١]، وأعطى الإمبراطور تصديقه على ذلك. وهذا واضح من رسالة

(83) Kidd, op. cit. II, p. 72
(84) Downey, op. cit. p. 356
(85) THEOD. Hist. Eccl. II, 2
(86) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 9 ; SOZOM. Hist .Eccl. III, 6
(87) HIER. Vir. Ill. 91
(88) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 9
(89) Id.; ATHANAS. Hist. Arian.9
(90) Kidd, op. cit. P. 73
(91) Robertson. op. cit. P. 43

أثناسيوس إلى عموم الأساقفة – Epistola Encyclica حيث يذكر أن حاكم مصر أذاع خطابا عاما يحمل طابع المرسوم، يعلن أن فى الطريق جريجورى آت ليعتلى عرش الإسكندرية الأسقفى بأوامر البلاط(٩٢).

ولاشك أن الإمبراطور قد اقتنع، أو أقنعه اليوسيبيوسيون، أن أثناسيوس مغتصب للبيعة بعد عزله فى مجمع صور ونفيه، وأنه يثير عالم الإمبراطورية من أجل نصرة قضيته، وأنه رغم وقوعه ضمن دائرة السيادة الإمبراطورية فى الشرق، يبعث برسائله ومندوبيه إلى أساقفة الغرب وأخويه الإمبراطورين.ومنذ هذه اللحظة دخل قسطنطيوس فى صراع فكرى، مسوقا إليه، وشخصى عنيف مع الأسقف السكندرى لم ينته إلا بموت الإمبراطور سنة٣٦١. وقد لقى هذا المرسوم الذى نشر فى الناس يوم ١٨ مارس ٣٣٩ ردود فعل عنيفة من الاكليروس والجموع(٩٣).

وحوالى ذلك الوقت حقق الفريق اليوسيبيوسى كسبا هائلا، فقد نجح فى إيغار صدر الإمبراطور على بولس أسقف القسطنطينية(٩٤)، فأصدر قرارا بعزله، ورفع خلفا له زعيم الفريق يوسيبيوس النيقوميدى(٩٥)، وهكذا أدرك يوسيبيوس فى النهاية غاية طموحه(٩٦)، لقد كان الرجل فى بدء عمله أسقفا لبيروت(٩٧)، فسعى جهده حتى أصبح راعيا لكنيسة مقام الأباطرة فى الشرق، نيقوميديا، وصادق ليكينوس Licinius (٩٨) ثم نال الحظوة لدى قسطنطين، فلما كان عهد قسطنطيوس وأصبح لديه مقربا، علا عرش الدين فى العاصمة الإمبراطورية.

وكان يوسيبيوس حريصا على سمو مركزه الحرص كله، فإذا كان قد نظر

---

(92) ATHANAS. Ep. Encycl. 2
(93) Id
(٩٤) انظر مخطوط رقم ٣٩٠ ورقة ٥٢.
(95) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 7 ; SOZOM. Hist. Eccl. III, 4
(96) Hefele, Histoire des Concils. 1, 2, p. 688
وراجع أيضا Mourret, Histoire generale de L'église II, p. 97
Chadwick, op .cit. P. 137
(97) SOCRAT. op. cit. I, 3
(98) THEOD. Hist. Eccl. I, 19

وهو بعد فى نيقوميديا بعين الحقد إلى الإسكندرية، يعلو نجم أسقفها، شماس نيقية الشهير، وراح يحاول بكافة الوسائل تحطيمه، فها هو الآن أسقف روما الجديدة عاصمة الرومان . وإذا كانت روما تحاج بأن القديس بطرس هو الذى رفع القواعد من كنيستها، والإسكندرية بمرقس والفكر تتعالى، فالقسطنطينية مستقر الأباطرة، تفضل لذاتها بنشأة على المسيحية، وهى لن تقبل فى شخص أسقفها الجديد يوسيبيوس أن ترتفع عليها أسقفية الإسكندرية،التى لا تعدو مجرد ولاية ضمن دائرة إمبراطورية عاصمتها القسطنطينية. وانطلاقا من هذا الواقع، وبالفكر ذاك، عاش يوسيبيوس عمره الباقى فى حساب الزمن يرنو الإسكندرية وأسقفها بنظرة من علٍ، مليئة بالحقد والكراهية.

ويبدو أن الأقدار قد ابتسمت ثانية للآريوسية، فلم يكد يمضى على اعتلاء يوسيبيوس كرسى العاصمة الأسقفى بضعة أشهر حتى مات سميه القيسارى (حوالى سنة (٣٣٩ أو ٣٤٠)[٩٩] بعد حياة بالهدوء حافلة، وعلى الرغم من أن يوسيبيوس أسقف قيسارية لم يكن خصما عنيدا للآريوسية، إلا أن وفاته ساعدت على أن يضع الآريوسيون أيديهم على البيعة، ولذا فقد خلفه تلميذه أكاكيوس[١٠٠] Acacius الذى كان متحمسا للآريوسية قدر إفادته منها، وشارك بإيجابية سوف نعلمها فى أحداث هذه الفترة.

أحدث قرار الإمبراطور بتولى جريجورى الكبادوكى أسقفية الإسكندرية دويا هائلا، إذ لم يكن قد مضى على عودة أثناسيوس من المنفى أكثر من خمسة عشر شهرا فقط، وحتى طيلة هذه الفترة فإن كنائس الشرق الإمبراطوري بعامة لم تعترف بعودته، وفوق هذا فإن السلطة الإمبراطورية اعتبرته مغتصبا ، رغم أنه جاء الإسكندرية بقرار من الأخ الكبير قسطنطين الصغير ، وتعرضت المدينة لحالة من الهياج والفوضى حيث راح شعب الكنيسة المؤيد لأثناسيوس يعبر عن سخطه فى هذه الاجتماعات الغاضبة فى الكنائس[١٠١]، والآريوسيون والمليتيون يظهرون فرحتهم

(99) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 4
(100) Id. ; SOZOM. Hist. Eccl. III, 2
(101) ATHANAS. Ep. Encycl. 2

بالأسقف الجديد وبالاجراءات التى اتخذها فيلاجريوس لنقل رعاية الكنائس إليهم(١٠٢). ويبدو أن التعليمات التى بعث بها الإمبراطور إلى نائبه فى مصر كانت تقضى بإنزال أقصى العقوبة بالمعارضين جميعا ومن بينهم أثناسيوس نفسه(١٠٣)، ولذلك جدت السلطات المدنية فى البحث عنه(١٠٤) وفى نفس اليوم الذى أذاع فيه فيلاجريوس مرسوم الإمبراطور، تمت مهاجمة كنيسة كويرينوس(١٠٥) Quirinus وقد يكون ذلك من أجل مباغتة الأسقف السكندرى ظنا منهم أن أثناسيوس يقيم فيها، أو لتفريق تلك المظاهرات التى قامت لتأييده(١٠٦) وفى اليوم التالى ١٩ مارس ٣٣٩ كان أثناسيوس قد علم أن حاكم مصر والآريوسيين سوف يقومون بالهجوم على الكنيسة التى اعتاد أن يقضى فيها الصوم الكبير، وهى كنيسة ثيوناس(١٠٧) Theonas ومن ثم آثر الانسحاب منها(١٠٨) وهو يتمثل، كما يحدثنا(١٠٩)، قول المسيح " ومتى طردوكم إلى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى " (متى ١٠/٢٣) .

وطوال ثلاث ليال، والبحث عن أثناسيوس جار، ومحاولات أنصاره تذهب عبثا عندما يقتحم جريجورى الإسكندرية أسقفا إمبراطوريا، تصحبه قوة عسكرية(١١٠) قوامها خمسة الاف جندى(١١١) وهكذا شهدت الإسكندرية للمرة الأولى فى تاريخها أسقفين على كرسيها فى وقت واحد، أثناسيوس الأسقف الشرعى يؤيده الاكليروس وشعب الكنيسة وأسقف روما وإمبراطورا الغرب، وجريجورى أسقف البلاط يناصره الاريوسيون والمليتيون عقيدة، واليهود حقدا والوثنيون انتقاما، والفريق اليوسيبيوسى وإمبراطور الشرق . وأصبحت المشكلة أعمق من محاولة

---

(102) ATHANAS. Hist. Arian. 10
(103) Id.
(104) FEST. IND. XI
(105) ATHANAS. Hist. Arian. 10
(106) ATHANAS. Ep. Encycl. 5
(107) Id.
(108) FEST. IND. XI
(109) ATHANAS. Ep. Encycl. 5
(110) ATHANAS. Hist. Arian . 10, 14
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. III, 6
(111) SOCRAT . Hist .eccl. II, 11

لعزل أسقف واستبداله بآخر فأضحت صراعا من أجل الزعامة كنسيا، وصراعا أشد هولا بين الاخوة الأباطرة سياسيا.

وإلى الإسكندرية كانت رسل يوليوس قد جاءت فى نهاية عام ٣٣٨[١١٢] تدعو أثناسيوس للذهاب إلى روما لحضور المجمع الذى اقترحه مندوبو الفريقين[١١٣]، غير أن أثناسيوس لم يشأ أن يترك المدينة فى هذا الجو العاصف، وآثر أن يتريث حتى تتضح الأمور، وهو يدرك أن أعين فيلاجريوس وجريجورى ترقبه فى كل خطو، ولذا فقد ظل مختفيا حتى تسنح الفرصة، وشغل نفسه خلال ذلك بكتابة رسالة عامة Epistola Encyclica إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية فى مختلف الأسقفيات جاء فى مقدمتها " إن ما وقع من الضرار لم يكن ليصيبنى وحدى، بل هو إلى الكنيسة كلها موجه "[١١٤]، " ... . وبينما السلام على الارض سائدا، إذا بمرسوم حاكم مصر يعكر الصفو وينبئ بمقدم الغازى لرعية ليس لديها الرغبة فى لقياه أو الدخول فى شركته "[١١٥]، ثم يصور أثناسيوس بعد ذلك السخط الذى عم الجموع واحتواها، والأحداث التى صحبت دخول جريجورى الإسكندرية وما كان من قيام فيلاجريوس بمساعدته وحمل الشعب على الانضواء تحت رعايته، وتسليم الكنائس إلى الآريوسيين[١١٦]، ويعيد إلى الأذهان ثانية ما كان من أمر بستوس الذى فشل اليوسيبيوسيون فى نصرته، فقد " أخذ لنفسه دينونة "[١١٧] ولم ينس أثناسيوس أن يخلع على قسطنطيوس وهو يحدث عنه صفات التقى والورع[١١٨] فى الوقت الذى يصب فيه جام الغضب ويستمطر على فيلاجريوس " صنيعة اليوسابيين "[١١٩] اللعنات، فلم يكن الأسقف السكندرى يرغب فى أن يدخل

(112) ATHANAS. Ep. Encycl. 7
(113) ATHANAS. Hist. Arian, 9 ; Apol. C. Arian. 20
(114) ATHANAS. Ep. Encycl. 1
(115) Ibid. 2
(116) Ibid. 3-5
(117) Ibid. 6
(118) Ibid. 5
(119) Ibid. 6

فى خصومة مع إمبراطور الشرق، وربما لم يكن قد عرف خبيئة نفس الإمبراطور، وهو ما لم يفطن إليه أبدا ، أو لعله أفاد من مواقفه مع قسطنطين الكبير، فعزم على أن لا يترك الميدان للفريق اليوسابى يستأثر بالإمبراطور وحده وبسهولة، فأورد قسطنطيوس بالصلاح يتسم . على أن نهاية هذه الرسالة جاءت دعوة صريحة للأساقفة لتأييده ونبذ مخاصميه(١٢٠).

هذه هى الرسالة الثانية التى خرجت خلال أشهر قلائل من الإسكندرية إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية، الأولى خطها الاكليروس برأى المجمع فى أثناسيوس وعنه دفاعا، والأخيرة صنفها بيمينه، فإذا كان اليوسيبيوسيون قد أفلحوا من قبل زمن قسطنطين فى إثارة غيظ الأساقفة ضد الإسكندرية وأسقفها، حتى عادوه جميعا فى صور، فقد صمم أثناسيوس واكليروسه على أن لا تكون الجولة الثانية شأن سابقتها، ولاشك أن هذه الرسالة تصور كما يقول المؤرخ دوشين(١٢١) Duchesne مدى القلق والغضب والحالة النفسية التى كان يعانى منها الأسقف السكندرى آنذاك.

---

(١٢٠) يقول أثناسيوس فى ختام رسالته :

" هبوا أحدكم فى المذبح يعظ، والجموع من حوله خاشعة، وإذا "
" بمرسوم يقتحم عليه الهدوء ويعلنه بخليفة له، وإذا بهذا يقدم "
" ويأتي من الامور شائنها، ألن يتملكه الحنق مغيظا ؟ ألن يهرع "
" يرجو للحق إنصافا ؟
" لا ريب عندى وقد اضطرمت نفوسكم بالمقت وكرها لشرور قصصتها"
" عليكم، أتاها أولئك البلهاء، أنكم سوف تدينون قرناء الاثم "
" والخطايا . أنى لأضرع إليكم أن لا تدعوا الدنس يصيب البيعة "
" السكندرية تلك التى ذاع صيتها . وإذا ما سولت لجريجورى "
" نفسه أن يكتب لنيافتكم، أو من أجله كتب أحد ، إخوتي ، لا تلقوا "
" لتلك الرسائل بالا، مزقوها، وبالعار جللوا حامليها دعاة الرذيلة "
"والكفران. من أجل ما قدمت تعطفوا وأجيبونى . أما هم فالعنوا "
" وأدينوا، فلسوف يطرب هنا فى الديار شعب الكنيسة والرعيان "
" بفعالكم هذى وقوامة الإيمان "

راجع ATHANAS. Ep. Encycl. 7

(121) Duchesne op. cit. II, p. 160

وعلى امتداد أربعة وعشرين يوما، عاشت أسقفية الإسكندرية يحمل كرسيها أسقفين، حتى إذا جاء يوم ١٦ إبريل سنة ٣٣٩[١٢٢]، كان أثناسيوس قد اتخذ سبيله في البحر هربا، قاصدا روما، بادئا بذلك رحلة نفيه الثاني التي قدر لها أن تطول هذه المرة ستة أشهر وسبع حجج.

أما اليوسابيون فقد أرسل إليهم يوليوس من لدنه قسيسين، البيديوس Elpidius وفيلوكسنوس Philoxenus يحملان دعوته لهم للذهاب إلى روما[١٢٣] لحضور المجمع المقترح، ويبدو من حديث أثناسيوس[١٢٤] أن هذه السفارة ربما وصلت أنطاكية بعد قدومه إلى الغرب، إذ يخبرنا أن اليوسيبيوسيين حالما علموا ارتحاله، تملكتهم الحيرة وشملهم الارتباك كما لو كانوا لا يتوقعون، حسب تعبيره، حدوث ذلك، ولذا عدلوا عن رأيهم ونبذوا فكرة المجمع بعد أن خشوا افتضاح أمرهم ضده. هذا ما يقول أثناسيوس .

غير أن الحقيقة لا تدعم هذا الرأي، فقد كان معلوما لدى أساقفة الشرق مقدما أن يوليوس سوف يدعو إليه الفريقين الخصمين، بل إن أثناسيوس نفسه يذكر أن الشماسين مارتيروس وهسيكيوس اقترحا على أسقف روما عقد مجمع كنسي يدعى إليه الطرفان[١٢٥]، يضاف إلى هذا أن يوليوس يذكر في رسالته[١٢٦] التي بعث بها إلى اليوسيبيوسيين بعد مجمع روما ما نصه " . . . طلبا (يعني مارتيريوس وهسيكيوس) إلى أن أوجه الدعوة لعقد مجمع يضم طرفي النزاع، وأن أكتب للإسكندرية إلى الأسقف أثناسيوس، وكذلك إلى اليوسيبيوس ورفاقه، حتى يبين الحق وتتضح أمام الجميع العدالة ". ويورد أثناسيوس هذه الرسالة كاملة في دفاعه ضد الآريوسيين، دليلا على سلامة موقفه وتبرئته مما نسب إليه على يد الخصوم، فكيف إذن يمكننا أن نتفق معه في القول، بالحيرة تتملك اليوسابيون عند معرفتهم بهروبه إلى روما " ؟! .

---

(122) FEST. IND, XII
(123) ATHANAS. Apol. C. Arian. 20 وراجع له أيضا
Hist. Arian. 11
(124) ATHANAS. Apol. C. Arian. 29
(125) ATHANAS. Hist. Arian.9
(126) ATHANAS. Apol. C. Arian. 22

أما العدول عن تلبية نداء يوليوس وشجب فكرة المجمع، فذلك شيء لابد أن يكون قد استقر عليه رأيهم منذ عودة مقار من روما، كما أسلفنا، ولم يكن بقاء الشماسين من بعده هناك وما قدموه من اقتراحات إلا مناورة قصد بها كسب الوقت تمهيدا لاتباع أسلوب آخر فى معاملة أساقفة الغرب هؤلاء، وكانت أول خطوة أقدموا عليها هى تجديد عزل أثناسيوس وسيامة جريجورى الكبادوكى على البيعة السكندرية راعيا، فليس هناك داع إذن لحضور مثل هذا المجمع خاصة وأن أسقف الإسكندرية الجديد قد حصل على تأييد الإمبراطور قسطنطيوس.

ولاشك أن أساقفة الشرق أدركوا يقينا أنهم فى الغرب سوف يجدون أنفسهم يواجهون أغلبية تناصر أثناسيوس، فإذا ما أدخلنا فى اعتبارنا أنه أخذ يتقاطر على روما عدد من الأساقفة الذين طردوا من كراسيهم على يد اليوسيبيوسيين، بولس أسقف القسطنطينية، ماركللوس أسقف أنقرة، أسكلبيوس أسقف غزة[١٢٧] يحملون شكاياتهم إلى الاكليروس فى الغرب وعلى رأسه الأسقف الرومانى، أيقنا أن مدار بحث القضية. لن يكون فى صالح اليوسابيين ، خاصة أن إمبراطوري الغرب يعطفان على العقيدة النيقية واتباعها ، ولهذا راح الفريق اليوسابى يسوف فى إعطاء رده لرجلى يوليوس فترة طويلة، ولم يسمح لهما بمغادرة أنطاكية إلا فى أوائل يناير سنة ٣٤٠[١٢٨] وقدم اليوسيبيوسيون اعتذارهم عن عدم قدرتهم على إجابة دعوة أسقف روما، محاجين بأنه لم يرسل لهم قبل الموعد المقترح للمجمع بوقت كاف[١٢٩] كما أن الأحوال السياسية والعسكرية لا تسمح لهم بمغادرة بيعهم الآن، حيث " أن جيش الشرق يحارب الفرس، والإمبراطور بهذه الحرب مشغول، والواجب يدفعهم إلى أن يكونوا إلى جواره فى هذه الظروف العصيبة "[١٣٠] .

ولعل هذه الفترة الطويلة التى مضت قبل أن يسمح أساقفة الشرق لقسيسى

---

(127) SOCRAT, Hist. Eccl. II, 15; ATHANAS. Apol. C. Arian 23, 33
وأيضا : SOZOM. Hist. eccl. III, 5

(128) ATHANAS. Apol. C. Arian. 52

(129) Id.

(130) ATHANAS. Hist. Arian.11

يوليوس بالعودة، قضاها اليوسيبيوسيون يستجمعون القوى لتدعيم مركزهم، ويبحثون عن سبيل آخر يسلكونه تجاه الغرب بعد أن فشلت سياسة الاستمالة والترضية. وتمثل هذا الاتجاه الجديد فى رسالة عنيفة بعثوا بها إلى أسقف روما صحبة سفارته(١٣١)، ولم يحفظ لنا الزمان نص ما قالوا، ولكن القدر شاء أن يدخر بعضا منها فى شذرات متفرقة تضمنها رد يوليوس عليهم، وما أورده المؤرخ الكنسى سوزومنوس عما احتوته .

فقد جاء فيها أنهم " مع تقديرهم لروما مكانتها المرموقة باعتبارها مدرسة الرسل وقصبة الأرثوذكسية منذ البداية، إلا أنه لا يخفى على أسقفها أن العقيدة التى تدين بها روما، من الشرق جاءت "(١٣٢)، وهم لا يرضون لأنفسهم البتة بالمرتبة الثانية، فهم أهل الفضيلة يفوقون بها الرومان(١٣٣)، ومن ثم للأساقفة سلطان وليس لأحد أن يتعالى دون الآخرين ويتباهى بقدر مدينة هو قاطنها(١٣٤) فكيف إذن يستبيح يوليوس لنفسه حتى دعوة الأخوة إلى مدينته لمجمع يترأسه ويقيم من نفسه بين الخصوم قاضيا(١٣٥). ثم يسألونه " باسم من يتحدث ؟ أباسمه وحده، أم نيابة عن الآخرين ؟ ومن الذى خوله حق الحديث عن هؤلاء "(١٣٦).

وراح اليوسيبيوسيون يدفعون أيضا بأن للمجامع الكنيسة سلطة لا يمكن لأحد أن ينقضها أو يخرج عنها، ولهذا فليس ليوليوس ومجمع روما أن يشجب قرارت أصدرها الأساقفة فى صور سنة ٣٣٥ بشأن أثناسيوس(١٣٧) وسوف نرى أن يوليوس فى رده عليهم يضغط هو الآخر على هذه الناحية باعتبارهم لم يقيموا وزنا لقرارات مجمع نيقية، ويعدونه فى النهاية وعدا حسنا " إن هو أصاخ لهم السمع

---

(131) ATHANAS. Apol. C. Arian21

(132) SOZOM. Hist. eccl. III, 8

(133) Id. يقصدون بذلك أن المسيحية نشأت فى الشرق بين ظهرانيهم و أنهم أولى الناس بزعامة الكنيسة المسيحية.

(134) ATHANAS. Apol. C. Arian. 25

(135) Ibid. 22

(136) Ibid. 26

(137) Ibid. 22, 25

ووافق على عزل الأساقفة الذين تم نفيهم على أيديهم من قبل، وارتضى سيامة أولاء الذين رسموا بدلا منهم واعتلوا كراسيهم " فلئن فعل ذلك ساد السلام الكنيسة وسعت بينهما الصداقة، وإن أبى فلسوف يملأون الدنيا بالاعتراض ضجيجا(١٣٨). ويعلق سوزومنوس على الرسالة فى جملتها بقوله " ظاهرها براق، وباطنها سخرية لاذعة وصرامة "(١٣٩).

استشاط يوليوس غضبا لهذا الذى يقرأ، وزاد الأمر ضراما ما قصه عليه رجلاه من المعاملة غير الودية التى قوبلا بها فى الشرق(١٤٠)، بالإضافة إلى كل هذا التأخير الذى أرغما عليه، ولكن الأسقف الرومانى كظم غيظا كاد يخرجه عن وقاره لبعض الوقت، وكتم أمر الرسالة عن الرفاق أملا أن يستجيب اليوسيبيوسيون لندائه ويخف منهم نفر إلى روما(١٤١) فلما أعياه الانتظار أظهر الرسالة وقرأها على الجمع المحتشد فى بيعته، فتملك الحنق أفئدة الحضور(١٤٢)، واتضح على الفور بصورة جلية فى البرود الذى قوبل به كاربونس Carpones وصحبه من جانب الأساقفة جميعا فى روما، وكان جريجورى الكبادوكى قد بعث به إليهم رسولا(١٤٣) كما أن جريجورى لم يوفق فى اختياره هذا، إذ أن مبعوثه كان من بين من حَرَمَتْهُمْ الكنيسة السكندرية على عهد أسقفها إسكندر لانتمائه للعقيدة الآريوسية(١٤٤)، على حين استقبل أثناسيوس لدى وصوله بالترحاب والتقدير(١٤٥).

وقد كتب أثناسيوس(١٤٦) بعد ذلك أن الإسكندرية قد شهدت حالة من الفوضى

(138) SOZOM. Hist. eccl. III, 8
(139) Id.
(140) ATHANAS. Apol. C. Arian.21
(141) Id.
(142) Id.
(143) Ibid. 24
(144) ATHANAS. Dep. Arii.2
(145) SOCRAT. Hist. eccl. 11,15
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. 111, 8
(146) ATHANAS. Hist. Arian. 12-14

التى تعود إلى المقاومة العنيدة التى أبداها شعب الكنيسة ضد رغبة الإمبراطور بالدخول فى طاعة جريجورى، ومحاولة فرض سيطرة الآريوسيين على الكنائس، ويذكر أن بعض نفر من الأساقفة ورجال الاكليروس فى مصر قتلوا من جراء هذا العنف، وظل رهبان مصر على ولائهم لأثناسيوس، فأعطوا بذلك المثل للجموع يحتذى، وكتب أبو الرهبان أنطونيوس إلى جريجورى حانقا غاضبا، ولكن الأسقف الجديد لم يعر ذلك اهتماما(١٤٧) .

ومن روما كتب أثناسيوس إلى " الأخ المحبوب " و" الصديق " سرابيون Serapion أسقف تمى (الامديد) Thmius (فى الدلتا) فى فصح عام ٣٤٠، رسالة يقول فيها إنه " رأى أن يبعث برسالة الفصح هذه إليه دون غيره، فعن طريقه يستطيع الاخوة جميعا معرفة ما ذكره أسقفهم ويوم عيدهم(١٤٨) ولاشك أن ما دفعه إلى اختيار سرابيون بالذات قرب هذا إليه واعتزازه به، كما واضح من عبارات المحبة والتقدير التى يحوطه بها فى الرسالة، هذا بالإضافة إلى أن كنيسة الإسكندرية الآن كانت تحت سيادة جريجورى الآريوسى، وأثناسيوس يذكر ذلك صراحة عندما يقول إن نفرا من المليتيين قدموا إلى روما وراحوا يتباهون بادعاء ما ليس من حقهم، وهو أنهم أضحوا فى عداد الكنيسة الكاثوليكية(١٤٩) ويطلب أثناسيوس من سرابيون أن يوافيه بالأحداث حيث إنه " مشوق إلى معرفة ذلك(١٥٠) ويختتم رسالته بتعيين ثلاثة عشر أسقفا بدلا ممن عزل أو قضى(١٥١).

ولا ريب أن أثناسيوس بهذه الرسالة وخاصة بقراره الأخير ، أراد أن يثبت للجميع أنه الأسقف الشرعى للإسكندرية حتى ولو كان بعيدا عن الأسقفية، وأن كل هذه الأحداث التى وقعت، ودخول جريجورى الإسكندرية وتسليم الكنائس إلى

(147) ATHANAS. Hist. Arian. 12-14.
(148) ATHANAS. Ad Serap.
(149) Id.
(150) Id.
(151) Ibid. 2

الآريوسيين، لا يغير ، فى رأيه، من الحقيقة شيئا. والرسالة فى حد ذاتها، حتى ولو لم تفصح جهارا، دعوة إلى أنصاره بالتصدى لكل ما يتهدد الكنيسة السكندرية.

وفى خريف عام ٣٤٠ التأم عقد الأساقفة فى روما تحت رئاسة يوليوس[١٥٢]، وبلغ عددهم قرابة الخمسين[١٥٣]، لمناقشات الاتهامات الموجهة ضد أثناسيوس، الذى كان قد مضى على وجوده فى الغرب الآن حوالى ثمانية عشر شهرا[١٥٤] . وقد ضم المجمع الأساقفة الذين وفدوا على روما من تراقيا وسوريا وفينيقيا وفلسطين[١٥٥] ، بالإضافة إلى أساقفة إيطاليا والغرب، وأثناسيوس وماركللوس وبولس وأسكلبيوس.

وتفيد الرسالة التى بعث بها يوليوس إلى اليوسيبيوسيين، أن السلطات الرومانية فى مصر قد حالت دون سفر عدد من رجال الاكليروس السكندرى لحضور المجمع[١٥٦] .

وقد بحث الأساقفة التقارير الواردة من الشرق ضد أثناسيوس متضمنة تقرير لجنة مريوط، ونظروا فيما قدمه الأسقف السكندرى دفاعا عن نفسه والاحتجاجات التى بعث بها أساقفة مصر وليبيا، وما جاء فى رسالتهم المجمعية إلى عموم الأساقفة[١٥٧] .

وفى النهاية أصدر المجمع قراره بتبرئة ساحة أثناسيوس من كل التهم الموجهة إليه[١٥٨] .

وفيما يختص بماركللوس أسقف أنقرة، ارتضى الجميع منه وثيقة إيمان قدمها لا تخرج عما تدين به الكنيسة الكاثوليكية، وأعلن نتيجة لذلك قوامة

(152) Hefele, op. cit. 1, 2 pp. 699-702
(153) ATHANAS. Apol. C. Arian .20
(154) ATHANAS. op. cit. 29
(155) Ibid. 33
(156) Id.
(157) Ibid. 27-31
(158) Ibid. 29

إيمانه(١٥٩) وعلى النهج ذاته سلك المجتمعون إزاء باقى الأساقفة وأصدر المجمع قراراته بعدم شرعية إدانتهم وأقر بعودتهم إلى كنائسهم(١٦٠).

بقى إذن أن يقف أساقفة الشرق، أصحاب الدعوى، على هذه القرارات ومن أجل ذلك عهد المجمع إلى يوليوس بهذه المهمة(١٦١). فكتب الأسقف الرومانى رسالة مستفيضة(١٦٢) تعد على جانب كبير من الاهمية، افتتح بها أثناسيوس الجزء الثانى من " دفاعه ضد الآريوسيين " ويعتبرها المؤرخ كيد Kidd عتابا رزينا ثقيل الوطء(١٦٣) ويصفها المؤرخ جواتكين Gwatkin بالقسوة التى تخلو من دهاء اليوسيبيوسيين ومكرهم(١٦٤) وقد استهلها الأسقف الرومانى بتوجيه اللوم العنيف والتوبيخ إلى اليوسيبيوسيين لروح " الكبر " التى تسيطر عليهم، والتى تتضح بها، حسب تعبيره كل كلمة من رسالتهم إليه، ففى خيرية يدعوهم، فإذا هم بالشر يجيبون(١٦٥) ثم تمضى الرسالة بعد ذلك تحدث عن نقاط معينة، الرد على ما جاء فى رسالة اليوسابيين حول حق يوليوس فى الدعوة لعقد مجمع الأساقفة فى روما، أو بتعبير أكثر دقة، مدى سلطته فى الفصل بين الأساقفة، وسلطة المجامع الكنيسة والالتزام بقراراتها والا أصبح من اليسير شجب بعضها بعضا. ثم يفند الاتهامات التى سيقت ضد أثناسيوس منذ ولى أمر بيعة الإسكندرية، وبصفة خاصة ما جاء فى تقرير لجنة مريوط، ويعلن بطلان الدعوى وبراءة أثناسيوس، وكذا ماركللورس والأخوة الآخرين .

(159) ATHANAS. Apol. C. Arian 32.
(160) Ibid. 35
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 15
وكذلك SOZOM. Hist. eccl. III, 8
(161) ATHANAS. Apol. C. Arian
(162) Ibid. 20-35
(163) Kidd, op. cit. P. 77
(164) Arian controversy, p. 67
(165) ATHANAS. op. cit. 21

وفى النهاية يدين الأسقف الرومانى الإجراءات غير القانونية التى أقدم عليها اليوسيبيوسيون بترشيح بستوس أولا، ثم سيامة جريجورى من أنطاكية وإرساله إلى الإسكندرية أسقفا .

ورغم أن يوليوس قد قبل من اليوسيبيوسيين ما ذكروه عن المساواة الكاملة بين أساقفة الكنيسة جميعا، إلا أنه لم ينس أن يختتم رسالته بإشارة عابرة عن علو كرسيه الأسقفى، يقول : " أتراكم قد جهلتم ما سرى به العرف من أنه إلينا يجب أن يكتب أولا، ومن عندنا تكتسب القرارات شرعيتها والأحكام" ويومئ بعد ذلك إلى إلى أنه يحتل المركز التقليدى للقديسين بطرس وبولس[١٦٦].

ومع أن بعض المؤرخين يرى أن هذه العبارات الغامضة لا تفصح عن سمو أسقفية روما[١٦٧]، ولا تعنى أكثر من أنه دون موافقته الشخصية، فإن الأحكام التى تصدر فى شأن الأساقفة والكنيسة تفتقر إلى وزنها العالمى[١٦٨] إلا أن مؤرخئ الكنيسة سقراط[١٦٩] وسوزومنوس[١٧٠] يريان غير ذلك، إذ يتهمان أساقفة الشرق بالتغاضي عن القوانين الكنيسة، التى تجعل شرعية أى قرار مرتبطة بإرادة الأسقف الرومانى، وصحة أى مجمع معلقة بحضوره أو ممثليه، ويذكر كلاهما كذلك أن يوليوس كتب هذا فى رسالته . غير أنه لما كان خطاب يوليوس يخلو من عبارة " القوانين الكنيسة " وكل ما ورد فيه قوله " ما جرى به العرف، أو التقليد " فلاشك أن كليهما قد فسر هذا بما يحمله فى نفسه من تقدير عميق لمكانة روما المدينة والكنيسة، وهذا يتبدى على صفحات تاريخهما الكنسى، ولم يعدم مؤرخا الكنيسة مؤيدين لهما من كبار الدارسين المحدثين وفى مقدمتهم جواتكين[١٧١]

(166) ATHANAS. Apol. C. Arian
(136) Kidd. op. cit. 11, p. 77
(168) Robertson, op. cit. P. 44
(169) SOCRAT. Hist. eccl. II,17
(170) SOZOM. Hist. eccl. III,10
(171) Gwatkin, op. cit. P. 67

Gwatkin ونياندر[١٧٢] Neander يؤكدان محاولة الأسقف الرومانى إقرار رفعة شأن أسقفيته وعلو مكانتها.

الحقيقة التى نلمسها من خلال هذه الأحداث، أن أسقف روما لاشك كان يشعر بالزهو إذ يرى أساقفة الشرق، والإسكندرية بالذات، يسعى مندوبوهم بين يديه، يطلبون إليه أن يستدعى زعماء الفريقين ليفصل بينهم، ويسارع يوليوس دون توان يكتب إليهم، وتزداد خيلاؤه وهو يرى أثناسيوس أسقف الإسكندرية قبلة الفكر، وبولس أسقف القسطنطينية، روما الجديدة، مقام الأباطرة التى اختطفت أضواء البلاط من ضفاف التيبر إلى شطآن البسفور، ورجال كنائس أخرى عديدين، يحجون إلى روما يعرضون عليه شكاياتهم والقضايا، ينتظرون قراره ومراسيم العدالة، وعلى رأس خمسين من الأساقفة انعقد جمعهم، يدير يوليوس دفة الحوار، يبرئ أولاء، ويدين أولئك، ويعلق المؤرخ جاكسون Jackson على ذلك بقوله " ان روما هبطت بعد انتقال العاصمة إلى القسطنطينية إلى المرتبة الثانية من الواجهة السياسية كمدينة عادية داخل ولاية، ومن ثم راحت تتمهل قليلا قبل أن تعى هذا الهوان، وأخذت تنتظر المذلة الأخيرة على يد الجرمان، ومن هذا الواقع بدأت تبذل جهودا متصلة لتعوض كنسيا بعض ما فقدت من مكانة إمبراطورية "[١٧٣].

هذا المظهر العام للنشاط الذى أبداه يوليوس، قد يوحى للوهلة الأولى بالمكانة السامية التى نالها خليفة القديس بطرس غير أن هذه الصورة لم ترد مطلقا فى مخيلة أساقفة الشرق عندما لجأوا إليه، وقد سجلوا ذلك صراحة فى رسالتهم التى أوردنا من قبل فحواها. وإذا كانت هذه هى نظرة اليوسيبيوسيين وفكرهم عن السيادة الكنيسة، فإن أثناسيوس وبولس وغيرهما لم يكن أمامهم من سبيل غير ما سلكوه فعلا، فالشرق كله يخضع الآن للآريوسيين يقود خطاهم يوسيبيوس ورفاقه، ويتمتعون بعطف الإمبراطور قسطنطيوس وحدبه، أما روما، أو الغرب فكان بمنجاة من هذه

(172) Neander, Christian religion and Church, IV. p. 43

وراجع أيضا ما كتبه Carry تحت مادة Arianism فى The Catholic Encyclopedia, I, p. 14

(173) B. Jackson. op. cit. P. 14

السيادة، وعاهلاه يشايعان النيقية ويقدران أسقف الإسكندرية، ولذا كان ارتحاله إلى الغرب مشفوعا بدعوة يوليوس احتماء بالسلطة الإمبراطورية فيه، وأملا فى تدعيم عطف كان من قبل قد حباه به الاكليروس هناك وشعب الكنيسة .

أما فكرة أثناسيوس عن سمو الكرسى الأسقفى فى روما، فلم تكن تختلف كثيرا عن رأى أساقفة الشرق اليوسابيين، ونجد ذلك واضحا فى كتاباته، فهو ينظر إلى روما بالتقدير إذ كانت " عاصمة الإمبراطورية "(١٧٤) وإلى أسقفيتها باعتبارها " كرسيا رسوليا "(١٧٥)، ويقدم لأساقفتها التبجيل والاعتزاز، فهم "الاخوة الأحبة"(١٧٦)، وهذا هو كل ما جاء فى أعمال أثناسيوس العديدة عن أسقفية روما . وهو حتى فى هذا القليل لا يحمل أفكارا تخلع الزعامة على الكنيسة الممثلة فى الأسقف الرومانى، أو تشير إلى هذه السيادة . لقد كان ، كما يقول روبرتسون(١٧٧) Robertson ، يجل الأسقف لذات الأسقف دون العرش، غير أن هذا كله لم يمنع أسقف روما من أن يسر فى جمع بأن عدالة القرار وشرعيته يجب أن تبدأ بروما، وبها تنتهى.

(174) ATHANAS. Hist. Arian. 35

(175) Id.

(176) ATHANAS. Ad Afros. 1

(177) Robertson, op. cit. P. 76.

الفصل الرابع



انتصار النيقية الغارب

الفصل الرابع

انتصار النيقية الغارب

فى عام ٣٤٠، ولم يكد يمضى على وفاة قسطنطين الأول ثلاث سنوات، نبذ ولده وسميه قسطنطين الثانى دعائم الوفاق مع أخيه الأصغر قنسطانز[١]، وأخذ يطالبه فى لجاجة بالولاية الأفريقية عوضا عن فقر إقليمه، ومقابل رخاء مقدونيا وبلاد اليونان[٢]، فلما فشلت المفاوضات أصغى قسطنطين الثانى لنصائح مستشاريه[٣]، وغزا على الفور أقاليم قنسطانز حيث دخل فى القتال مع جند أخيه[٤]، غير أن الدائرة دارت عليه فى أكويليا Aquileia عام ٣٤٠ حيث لقى مصرعه[٥] وهكذا ألقت الأقدار بثقلها فى كفة قنسطانز، وغدا أصغر الإخوة بذلك يسيطر على كل أقاليم النصف الغربى للإمبراطورية . وإذا كانت قضية النيقية قد خسرت بمقتل قسطنطين الثانى أحد المدافعين عنها ، فقد وجدت فى قنسطانز خير حام، وفى أرضه الوسيعة وتحت سيادته كل مدد .

وكانت رسالة يوليوس أسقف روما قد أتت الآن اليوسابيين فى الشرق، وتلقفها هؤلاء على مضض ، وهم يطالعون فى فقراتها اتهامات عنيفة صبها عليهم أسقف روما[٦] ، فأجمعوا أمرهم، وانتهزوا فرصة الانتهاء من بناء الكنيسة الذهبية أو تلك التى تعرف بالكنيسة المثمنة Octangula Ecdesiastica فى أنطاكية، تلك التى رفع القواعد منها قسطنطين الكبير[٧]، وحان الآن موعد افتتاحها . وفى حفل

(1) Jones, Later Roman empire, I. p. 112
(2) Gibbon. op. cit. II, p. 245
(3) Id.
(4) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 5
(5) SOZOM. Hist. Eccl. III.2
(6) Kelly, Early Christian Creeds, p. 264
(7) EVSEB. Vita Const. II,50

التدشين، صيف سنة ٣٤١، تقاطر على المدينة تسعون أسقفا حسب رواية سقراط[٨] وأثناسيوس[٩]، وسبعة وتسعون كما يرى سوزمنوس[١٠] وهيلارى[١١] يمثلون كنائس الشرق عامة، لم يكن من بين الحضور أسقف للغرب واحد[١٢]، ولم يشارك فيه يوليوس بأى من رجاله[١٣]، ورفض ماكسيموس Maximus أسقف أورشليم الجديد، خلف مقار، الذهاب إلى أنطاكية معلنا أنه خدع مرة قبل ذلك بالتوقيع على عزل أثناسيوس ، ولن يسمح الآن بخديعة أخرى[١٤].

وفى حضرة إمبراطور الشرق قسطنطيوس التأم عقد هؤلاء الأساقفة فى مجمع حمل اسم المناسبة التى وافقها فعرف باسم " مجمع التدشين "[١٥] Concilium-dedicationis ويخبرنا سقراط[١٦]وسوزمنوس[١٧] أن يوسيبيوس النيقوميدى أسقف القسطنطينية الان، هو الباعث الرئيسى وراء هذا اللقاء، رغم ما أذاعه من أن هذا الاجتماع قصد به الاحتفال بافتتاح كنيسة أنطاكية ، إلا أن هدفه الرئيسى كان " الإطاحة بالعقيدة الهوموسية " وعلى أية حال فان هذا المجمع الأنطاكى كان ردا طبيعيا على مجمع روما ٣٤٠ ورسالة أسقفها يوليوس.

ويخلط كل من سقراط[١٨] وسوزمنوس[١٩] بين مجمع التدشين هذا (٣٤١)

(8) SOCRAT. Hist. Eccl. II,8
(9) ATHANAS. De Syn. 25
(10) SOZOM. Hist. Eccl. III,5
(11) HILAR. De Syn. 28
(12) Percival, The Seven Ecumenical Councils, p. 105
(13) SOZOM. Loc. cit
وراجع أيضا SOCRAT. Loc. cit
(14) SOCRAT. Loc. cit
(15) ATHANAS. De Syn. 22
وراجع أيضا Hefele, op. cit. I, 2. Pp. 702-33
(16) SOZOM. Hist. Eccl. II,8
(17) SOZOM. Hist. Eccl. III, 5
(18) SOCRAT. Loc. cit.
(19) SOZOM. Loc. cit.

وذلك الذى عقده أساقفة الشرق أيضا فى أنطاكية فى نهاية ٣٣٨ وتم فيه تجديد وعزل أثناسيوس ورسامة جريجورى الكبادوكى أسقفا للإسكندرية على النحو الذى أسلفنا، ويجعلان منهما مجمعا واحدا، غير أن الحقيقة أن هناك ما يزيد عن العامين يفصل بينهما، يضاف إلى ذلك أن مجمع سنة ٣٣٨، اكتفى باختيار أسقف جديد للإسكندرية دون أن يتعرض لمسألة العقيدة، على حين ذاع فى عالم المسيحية صيت مجمع التدشين بتلك الصور المتتالية للعقيدة، والتى سوف نعرض لها الآن .

ولعلنا ندرك بوضوح حقيقية ما ذكرناه على لسان سوزمنوس آنفا، من القول بأن أحدا لم يجرؤ طيلة حياة قسطنطين الأول على تحدى عقيدة نيقية، وكان موته إشارة البدء لأنصار الآريوسية لمحاولة إقرار معتقدهم، ومن هنا يعد مجمع التدشين بما تمخض عنه، نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الآريوسية(٢٠)، ذلك أنه يمثل بداية المراسيم المضادة أو رد الفعل تجاه صيغة الإيمان النيقى، وكلها محاولات جرت لرفع بعض الصيغ الأخرى إلى مرتبة واحدة مع صيغة نيقية، حتى يمكن فى النهاية التخلص من الهوموسية باعتبارها عقيدة مسكونية(٢١)، لصدورها عن مجمع نيقية، ولقد مضت فترة طويلة قاربت العشرين سنة قبل أن يفلح الآريوسيون فى الاهتداء إلى صيغة للإيمان ملائمة.

كان من أبرز أساقفة مجمع التدشيين، يوسيبيوس النيقوميدى أسقف القسطنطينية وفلاكيللوس Flacillus أسقف أنطاكية، وأكاكيوس أسقف قيسارية، وباتروفيلوس أسقف بيسان، وتيودور أسقف هرقلة Heraclea ويودوكسيوس Eudoxius أسقف مرعش Germanicia وديانيوس Dianius أسقف قيسارية كبادوكيا، وجورج أسقف اللاذقية(٢٢). وقد سيطر على الجمع اتجاه عام دلت عليه فاتحة أول مرسوم للإيمان يصدره المجمع جاء فيها :

(20) Gwatkin, op. cit. p. 68
(21) Robertson, op. cit. p. 44
وراجع أيضا Kidd, op. cit. II, pp. 78-79
(22) SOZOM. Hist. eccl. III, 5

" لم نكن فى يوم ما أتباع آريوس، إذ كيف يعقل ونحن الأساقفة "

" نهتدى برشد قسيس ؟ ! لم نبدل الإيمان منذ الإيمان فى البدء "

" كان ، ولقد وضعتنا المقادير قضاة فكره، فراقنا الصدق فيها "

" ولكن أيعنى ذلك أنا عنه أخذنا ؟ ! "(٢٣) .

لاشك أن هذا التصدير الذى بدأ به المرسوم يدعو إلى الدهشة حقا، فلقد ناصر هؤلاء الأساقفة وأتباعهم آريوس منذ البداية، وحرص زعيماهم يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس أسقف نيقية على إعادته إلى الكنيسة ثانية، وخاضا فى سبيل ذلك صراعا مريرا ضد الأسقف السكندرى أثناسيوس، بل أنه لولا يوسيبيوس النيقوميدى على حد قول دوشين(٢٤) Duchesne لظللت الآريوسية جدلا سكندريا خالصا، ولأمكن القضاء عليها بسهولة، ولكن يوسيبيوس هو الذى نقل هذا الصراع إلى الإمبراطورية كلها . كيف إذن يتبرأ هؤلاء الآن من التبعية له ؟ ! .

غير أن المسألة فى تصورنا ليست بهذا الشكل من التعقيد، فهى لا تعنى نبذ العقيدة الآريوسية لان أساقفة الشرق الذين سبق ذكرهم، وآريوس من بينهم، كانوا أبناء مدرسة واحدة هى المدرسة الأنطاكية الشهيرة لتفسير الكتاب المقدس، واختلفوا إلى أستاذ واحد هو لوقيانوس الأنطاكى توفى سنة (٣١٢)، وتشربوا جميعا فكره ومبادئه، ومن ثم فليس القول ذلك طرحا لما آمن به آريوس وإليه دعا ، لكن الفريق اليوسابى أدرك أن لفظة الآريوسية التى أطلقها عليهم الخصوم، أضحت لا تعنى لدى الكنيسة غير " بدعة " أو " هرطقة " لفظها آباء الكنيسة فى نيقية سنة ٣٢٥، وسعى أتباعها للتخلص من زعماء الإيمان النيقى فى أنطاكية والإسكندرية، وأيقنوا أنهم بهذه الصفة لن يستطيعوا أن يحققوا أى انتصار لمعتقدهم . وهاقد مات آريوس، واعتلى يوسيبيوس النيقوميدى كرسى القسطنطينية الأسقفى، ولا ضير إذن فى التخلى عن

---

(23) Id. و ATHANAS. De Syn 22
وكذلك SOCRAT. Hist. eccl. II, 10
(24) Duchesne, op. cit. II, p. 169

هذه اللفظة التى تمقتها الكنيسة بعامة . واليوسابيون بذلك لن يخسروا شيئا، بل ربما ضموا إليهم نفرا من أساقفة الغرب ممن ليسوا ذوى قدرة على فهم طبيعة هذا الجدل اللاهوتى، وهذا هو ما كانوا يسعون إليه . ولعل هذه المراوغة كامنة فى مقدمة المرسوم ذاتها، إذ انهم لم ينكروا فكر آريوس لإيمانهم الكامل به، وعلى حد تعبيرهم بعد ان، راقهم الصدق فيه . بل إن بقية المرسوم ذاته تكاد تنطق تماما بما جاء فى الوثيقة التى قدمها آريوس وصحبه يوزيوس Euzios إلى قسطنطين سنة ٣٢٨ بعد عودتهما من المنفى(٢٥)، ويقول سقراط مدعما ما نذهب إليه :

" لم يكن هدفهم أبدا إدانة إيمان نيقية، بل سعيا لإقرار العقيدة الآريوسية(٢٦) .

ويتفق المؤرخون على أن المرسوم الأنطاكى الأول كان صيغة مبهمة مراوغة(٢٧) قصد به أن يكون ممرا للتفاهم مع النيقيين، فقد اختيرت عباراته بعناية من الكتاب المقدس(٢٨)، ولم يشتمل كما أشار سقراط على أى هجوم تجاه العقيدة النيقية، وإن كان المرسوم كما نلاحظ جاء خلوا من عبارة " من نفس جوهر الآب " التى تعد دعامة الإيمان النيقى .

---

(٢٥) يقول المرسوم الأنطاكي الأول : " نؤمن بإله واحد . . . وبمولود وحيد، الابن، وجد قبل كل الدهور مع الآب الذى ولد . كل شيء به كان، هبط بمحبة الآب من السماوات، وتجسد من العذراء، ونفذ مشيئة الآب، وقام ثانية وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب وسيأتي ليدين الأحياء والأموات " . انظر ATHANAS. De Syn. 22

وجاء فى الوثيقة : " . . . نؤمن بإله واحد . . . والرب يسوع المسيح ابنه المولود منه قبل كل الدهور، الله . كل شيء فى السماء وعلى الأرض، الذى نزل وتجسد . تألم وقام ثانية وصعد إلى السماء وسوف يأتي ليدين الأحياء والأموات " .

انظر SOCRAT. Hist. eccl. I, 26

(26) SOCRAT. Hist eccl. II, 10

(27) Duchesne, op. cit. II, p. 166

وراجع Gwatkin, op. cit. 68; Kidd, op. cit. II, p. 80

وراجع Robertson, op. cit. p. 44

وكذلك Neander, History of Christian dogmas, II, p. 292

وأيضا Chadwik, op. cit. p. 138

(28) Neale, Holy Eastern Church, p. 102

ويبدو أن المرسوم الأنطاكى الأول فشل فى أن يفرض نفسه على أغلب الأساقفة الحضور(٢٩) فعّول بعضهم على تقديم مرسوم للإيمان جديد، عزوه إلى لوقيانوس الأنطاكى ، حتى لقد حمل اسمه فدعى المرسوم اللوقياني(٣٠) وقد جاء هذا المرسوم اقترابا من النيقية، وكانت خاتمته خطوة واسعة فى هذه الناحية فقد جاء فيها :

" . . . الآب حقا آب، وكذا الابن . والروح القدس حقا هو . . . "

" ثلاثة في واحد . نؤمن بهذا ونلعن كل مراسيم الهرطقة والزيغ . "

" فإذا ما سول لأحد شيطانه، وراح يعلم ضد الإيمان الحق الوارد "

" فى الكتاب المقدس، ويؤكد أن هناك زماناً لم يكن الآب أبا حيث"

" الابن لم يكن، فليكن أناثيما، وكذلك من يقول الابن مخلوق شأن سائر "

" الخلائق المائتة (٣١) " .

لاشك أن هذا المرسوم، وبعباراته الأخيرة بالذات، التى قصد بها تعاليم آريوس، حاول أن يقدم صيغة جديدة لا يتسنى للخصوم رفضها(٣٢)فعلى الرغم من

---

(29) Robertson, op. cit. p. 44

(٣٠) يقول المرسوم : تناغما مع آى الانجيل وعظات الرسل، نؤمن باله واحد الآب القدير، خالق العالم، وبرب واحد . يسوع المسيح، الابن، الإله المولود الوحيد، كل شئ به كان، ولد من الآب قبل كل الدهور . إله من إله . كل من كل . وحيد من واحد. . . الكلمة المتجسدة . الحكمة . الحياة . الصورة غير المتغيرة للآب . فى البدء كان عند الله . وكان الكلمة الله، كما علم الانجيل (يوحنا ١/ ١) . . . نزل فى آخر الزمان، وولد من العذراء حسب الكتاب المقدس وصار جسدا، وسيطا بين الله والناس، رسول إيماننا، فقد قال : لأنى قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى، (يوحنا ٣٨/٦). الذى من أجلنا قاسى، ولأجلنا قام ثانية فى اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب . وسوف يأتى بالمجد والسلطان ليدين الأحياء والأموات . (ونؤمن) بالروح القدس ".
انظر ATHANAS. De Syn. 23
وراجع SOCRAT. Hist. eccl .II, 10 وأيضا HILAR. De Syn. II -10

(31) ATHANAS. op. cit. 23

(32) Neale, Holy Eastern church, p. 102

أن واضعيه تعمدوا إغفال مصطلح " الهوموسية " أو " مساواة الابن بالآب في الجوهر "(٣٣). كما أن عبارة " الصورة غير المتغيرة للآب " تعنى بلا شك أنه ليس هناك تغير في الجوهر بين الآب والابن وانهما متساويان منطقيا في الجوهر إلا أنهم كانوا لا يعنون بها أكثر من " الشبه " فقط وليس " المساواة "(٣٤).

والحقيقة كما يقول واطسون Watson أن هذا المرسوم لم يكن كافيا لشجب الآريوسية، ولكنه في الوقت ذاته كان قادرا على أن يصبح وسيلة ناجحة في منافحتها(٣٥) غير أن رجل الكنيسة في الغرب، هيلارى أسقف بواتييه، يدافع عن هذا المرسوم بقوله : " إذا كان لم يتضمن مصطلح "الهوموسية " فلأنه لم يأت ردا على ما أذاعه الآريوسيون المتطرفون فيما بعد(٣٦) من إنكار الشبه كلية بين الابن والآب(٣٧) . بل لقد دعا هيلارى إلى عدم تأويله بمفهوم آريوس، وذهب إلى حد اتخاذه مقدمة للاهوت النيقى(٣٨) .

ويعد المرسوم وسطا بين المراسيم الأنطاكية الأربعة، ولذا حمل من بينها اسم المجمع، وصار يعرف إلى جوار نعته بالمرسوم اللوقيانى، مرسوم التدشين(٣٩). Edictum dedicationis، وهو يمثل من ناحية، الاندفاع الكامل الذى يمكن أن يصل إليه الآريوسيون تجاه النيقية، ومن ناحية أخرى نقطة التجمع اللاهوتى للصيغ اللاحقة

---

(33) Robertson, op. cit. p. 44

(34) Gwatkin, op. cit. p. 69
وراجع أيضا Neander, Hist. of christ. Dogmas, II,p. 292

(٣٥) راجع ما كتبه Watson في تقديمه لأعمال هيلارى أسقف بواتييه ضمن مجموعة Nicene and p. N. F. IX, p. 12n.9

(٣٦) انظر الفصل السادس .

(37) HILAR. De Syn. 32

(38) Ibid. 33
وراجع Watson, op. cit. 12 n. 9

(39) ATHANAS. De Syn. Gwatkin. op. cit. p. 69
وراجع ما كتبه F. Jackson في مادة Arianism ضمن Encycl. Of Religion and Ethics, I. p778

لوجهة النظر المحافظة التى غدت تحت اسم " أنصاف الآريوسيين "[٤٠] Semi-Arians تسير سعيا نحو الاعتراف بصيغة الإيمان النيقى[٤١].

غير أن هذا الاندفاع نحو النيقية جاء سابقا لحينه، ولهذا رأى نفر من أساقفة المجمع الأنطاكى على رأسهم ثيوفرونيوس Theophroniuh أسقف طوانة Tyana ضرورة التريث لمراجعة حساباتهم، والتثبت من مواقع الخطى، ولقيت هذه الدعوة الرضى من عدد كبير من أساقفة المجمع[٤٢] . وتمثل هذا فى وثيقة إيمان قدمها يوفرونيوس للمجمع، وذاعت باسم المرسوم الأنطاكى الثالث[٤٣] . وهو لا يضم بين ثناياه جديدا، وبينما يحرم الابن من كثير مما خلعه المرسوم اللوقيانى إلا أنه يضيف إليه أزلية مملكته، ولكن نهاية المرسوم تفصح إلى حد كبير عن اتجاه صاحبه ورفاقه :

" ... فإذا ما علم أحد إلى جانب ذلك شيئا أو اعتنق، فليكن أناثيما، سواء بسواء مع ماركللوس أسقف انقرة، وسابيليوس وبولس السميسطائى، ليكن اناثيما" .

وهذه الفقرة الأخيرة دليل واضح على التحدى الصريح لا لماركللوس أسقف أنقرة، ولكن لأولئك المؤيدين له وفى مقدمتهم يوليوس أسقف روما وأثناسيوس . ونحن نعلم أن مجمع روما سنة ٣٤٠ قد برأ ساحة ماركللوس وشهد بقوامة إيمانه

(٤٠) انظر الفصل السادس

(41) Robertson, op. cit. p. 44

(42) Neale, Holy Eastern church, p. 104

(43) ATHANAS. De Syn. 24

جاء فى هذا المرسوم :

" أومن بالإله الآب القدير . خالق العالم والصانع . كل شئ منه كان . وبابنه المولود الوحيد . الكلمة . القوة . الحكمة . ربنا يسوع المسيح، كل شئ به كان . الذى ولد من الآب قبل كل الدهور . إله كامل من إله كامل . فى الوجود مع الآب كان، وهبط فى آخر الزمان، وولد من العذراء حسب الناموس وتجسد وتألم، وقام ثانية من بين الأموات وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب، وسوف يأتى ثانية فى مجده والسلطان ليدين الأحياء والأموات . ليس لملكه انقضاء".

بناء على الوثيقة التى قدمها تلبية لرغبة الأساقفة آنذاك، ويقول جواتكين : يبدو من هذه الخاتمة للمرسوم أن ثيوفرونيوس وجماعته لا يريدون التفاهم مع الغرب[٤٤] .

لقد كان ماركللوس أسقف انقرة يمثل للكنيسة الكاثوليكية مشكلة مزمنة ظلت تعانى منها حتى مات، ذلك أنه كتب عدة كتابات ضد الآريوسية[٤٥]، ردا على رسالة كان أستريوس Asterius رجل البيان الشهير فى كبادوكيا قد وضعها تظهر انحيازه لتعاليم آريوس[٤٦]، واندفع ماركللوس فى تفنيده لما نادى به آستريوس إلى الجانب المضاد، وقاده ذلك بالوعى أو دون أن يدرى إلى ترديد الآراء السابللية[٤٧]. وقد عده اليوسابيون خصما لهم، فاتهموه بأنه رفض قرارات مجمع أورشليم سنة ٣٣٥ بخصوص قبول آريوس ثانية فى شركة الكنيسة، وأنه أبى حضور حفل تدشين أورشليم حتى لا يشترك مع الأساقفة فى اتخاذ قرارات هو عنها غير راض، ومن ثم فقد تم عزله فى القسطنطينية على يد جماعة اليوسابيين الذين ارتحلوا إلى هناك، كما علمنا، تلبية لدعوة قسطنطين الكبير[٤٨] . غير أن ماركللوس ظل يردد حتى أيام عمره الأخيرة أنه فى شركة الكنيسة الكاثوليكية، وأن يوليوس وأثناسيوس يقبلانه ويعترفان بقوامة إيمانه[٤٩]، ويعلق " جيبون " بأسلوبه الساخر على ذلك بقوله " لقد ظل أثناسيوس طيلة عشرين سنة يدافع عن

---

(44) Gwatkin, op. cit. p. 70
(45) HIER. Vir. Ill, 86
(46) SOCRAT. Hist. eccl . I, 36
(47) Id.
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. II, 23
وقارن : SEVER. Hist. Sac. II, 37 .SVLp
وكذلك HIER. Loc. cit.
(48) SOCRAT. Hist. eccl. I, 36
وراجع SOZOM. Hist. eccl. II, 39
(49) BASIL. Ep. CXIV 1.
وراجع HIER. Vir. Ill, 86

سابللية ماركللوس، وعندما اضطر في النهاية أن ينسحب من شركته، فإنه كان يذكر دائما بابتسامة غامضة تلك الهنات التي يمكن التجاوز عنها " لصديقه المحبوب "(٥٠) .

وليس هناك في تاريخ المجامع الكنيسة ما اختلفت حوله الآراء شأن هذا المجمع الأنطاكي(٥١)، ولاشك أن ذلك التضارب يعود إلى هذه المراسيم العقيدية المتتالية والتي تبدو في بعض نواحيها متنافرة، خاصة المرسوم اليوفروني، أما الأول واللوقياني بصفة خاصة فإنهما يدنوان من النيقية باستخدام عبارات تؤكد التشابه في الجوهر بين الابن والأب، حتى لقد دفع ذلك هيلاري أسقف بواتييه إلى أن يطلق على هذا اللقاء الأنطاكي " مجمع القديسين"(٥٢) Synodus Sanctorum ويدافع عن مرسوم التدشين، ويطلب إلى قارئيه " أن لا يسيئوا الظن به، وأن لا يتعجلوا في إصدار حكمهم قبل أن يطالعوا بإمعان كل ما كتبه حول هذه الجماعة وما هم به يؤمنون"(٥٣)، وفي الوقت الذي ساورت فيه الشكوك الغرب، ولم ير أسقافته في كل هذه المحاورات العقيدية إلا هجوما مستترا أحايين على الإيمان النيقي، وحينا علانية(٥٤) . إذ أن اليوسابيين ظلوا طوال عهد قسطنطين الأول يحاولون تقويض الإيمان النيقي عن طريق الهجوم على زعماء هذا المعتقد، أما الآن فقد اتجهوا للعقيدة ذاتها(٥٥)، ومن ثم فان أثناسيوس لا يرى في المجمع ومراسيمه إلا شراكا نصب بمهارة ليتصيد بشباكه الكنيسة الكاثوليكية(٥٦) .

---

(50) Gibbon, op. cit. II, p. 370
(51) Percival. op. cit. p. 105
وراجع أيضا
Tixeront, Histoire des dogmas dans l'antiquité Chrétienne, II, pp. 44-45
(52) HILAR. De Syn. 32
(53) HILAR. De Syn. 32
(54) Gwatkin, op. cit. p. 70
وراجع أيضا Neander, Hist. of Christ. Dogmas II, p. 239
(55) Kidd, op. cit. II, p. 78
(56) Hefele, op. cit. I, 2 p. 731

ولا ريب أن هذه المراسيم الأنطاكية تعتبر انعكاسا طبيعيا للفترة التى كانت تمر بها الآريوسية انذاك، إذ بدأت هذه العقيدة بعد وفاة آريوس تتحسس طريقها وسط اتجاهات مختلفة يمثلها الآريوسيون الأصليون، وجيل الآريوسية الجديد الذى خلف آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى، واختلف معهما بعض الشيء فى أصول المعتقد الآريوسى، كما سنوضح فيما بعد، بحثا عن الصيغة التى تستطيع أن تقف على قدم المساواة مع " الهوموسية " تمهيدا للخلاص منها ، وكان لابد من حدوث مثل هذه التيارات . ولقد طالت بالعقيدة الآريوسية هذه المحاولات قرابة ربع قرن، وتولدت فى النهاية عن صورة للإيمان تقف وسطا بين كل هذه الصراعات الجدلية، ما ظهر منها وما هو فى طى الغيب آت.

ولم تكن العقيدة هى كل ما شغل أذهان أساقفة أنطاكية فى مجمع التدشين، بل حظى التنظيم الكنسى بنصيب كبير أيضا، فأصدروا عددا من القوانين بلغت خمسة وعشرين(٥٧)، ويخاطب بعضها أحداث الساعة وقصد به عمدا شخص الأسقف السكندرى أثناسيوس، فقد جاء فى القانون الرابع(٥٨) .

" إذا ما تجاسر أسقف . . . تم من قبل عزله على يد مجمع كنسى، على ممارسة طقوس كهانته فليس من حقه غشيان ذلك . . . وكل من يدخل فى شركته سوف يطرد خارج البيعة " .

وهذا يعنى رفض الإجراءات التى قام بها أثناسيوس منذ تم نفيه عام ٣٣٥، وخاصة فيما يتعلق برسم الأساقفة والقسوس فى الكنائس الشاغرة التابعة لأسقفية الإسكندرية، كما أنه يمنح التأييد لجريجورى الكبادوكى فيما أقدم عليه بعد ذلك من

---

(57) Hefele, op. cit. pp. 714-722

(58) Percival. op. cit. p. 110 و Hefele, op. cit. 2, 2, 715
وراجع Mourret op. cit. II, p. 100
وكذلك Lamber, The cânons of the frist four Council and those of the early local Greeek Synods p. 127

تعقب مخالفيه انصار أثناسيوس، أما القوانين السادس[٥٩] والرابع عشر[٦٠] والخامس عشر[٦١] فهى تعلن صراحة عدم موافقتها على قرارات مجمع روما (٣٤٠) لأنه لا يحق لأساقفة إقليم أن يناقشوا شيئا من صميم إقليم آخر "، على حين جاء القانون الثانى عشر نقدا صريحا لما أقدم أثناسيوس وأساقفة النيقية، بولس وماركللوس وأسكليبوس وغيرهم، بالالتجاء إلى السلطة المدنية ممثلة فى الإمبراطور ، يقول القانون[٦٢].

" إذا اجترأ أسقف عزل بواسطة مجمع، على أن يصك مسامع الإمبراطور بشكايته، فلن يخول للصفح حقا ولن يسمح له بتقديم دفاعه وسوف يفقد فى العودة أى أمل " .

بهذه الصورة سعى اليوسابيون للتضييق على أثناسيوس بكافة السبل، بصرف شعب الكنيسة عن نصرته، وشجب قرارات مجمع روما، وتبيان عدم جدوى اللجوء إلى إمبراطور الغرب، بل وما فيه من ضرار، وتمشيا مع السياسية التى درج عليها الفريق اليوسابى منذ البداية، فقد ضمن هذه القوانين رسالة بعث بها إلى عموم الأساقفة، وجاءت مقدمتها دعوة صريحة للوقوف إلى جانبهم ومساندتهم والإيمان بمعتقدهم[٦٣].

غير أن اليوسابيين تعرضوا آنئذ لخسارة فادحة، فقد مات يوسيبيوس أسقف القسطنطينية[٦٤] والزعيم السياسى والعقل المفكر لهذه الجماعة، ولكنه كان قد دفع

---

(59) Percival, op. cit. p. 111
(60) Ibid. p. 115
وكذلك Lambert, op. cit. p135
(62) Percival, op. cit. p. 111
وأيضا Lambert, op. cit. p135
(62) Percival, op. cit. p. 114 و Lambert, op. cit. p. 133
وراجع Hefele, op. cit. p716
وأيضا Mourret, op. cit. II,p. 101
(63) Percival, op. cit. p. 107.
(64) Tixeront, op. cit. II, p. 46

بالآريوسية إلى الأمام خطوات على الطريق، ويكفى أنه أفلح فى إبعاد أثناسيوس عن أسقفية الإسكندرية مرتين فى مدى أربعة أعوام فقط . وقد أدى موته إلى وقوع الاضطرابات فى العاصمة، فقد كان المسيحيون هناك يتنازعهم اتجاهان، أحدهما يؤيد بولس الذى عزله اليوسابيون من قبل، وخلفه يوسيبيوس سنة ٣٣٩، والآخر يشايع ماكيدونيوس[٦٥] Macedonius الذى كان منافسا لبولس وممالئا للآريوسية[٦٦] وعلى الفور عاد بولس إلى القسطنطينية وكان مقيما فى تريز، فى ضيافة أسقفها ماكسيمين[٦٧]، حيث نادى به انصاره ثانية أسقفا[٦٨]، فى الوقت الذى رسم فيه الفريق اليوسابى ماكيدونيوس ليعتلى نفس الكرسى[٦٩] .

ولابد أن صراعا نشب بين الفريقين، لان الإمبراطور قسطنطيوس الذى كان مقيما انئذ فى أنطاكية، أمر قائده هرموجنوس Hermogenus وهو فى طريقه إلى تراقيا، أن يعرج على القسطنطينية لإخماد الفتنة الحادثة[٧٠]، وأحس رعية بولس أن القائد يحمل وراءه نذر الشر لأسقفهم فاندفعوا لا يلوون على شيء فى هجوم يائس، وأضرموا النار فى بيت هرموجنوس، ثم انقذوه من الحريق ليجروه فى شوارع العاصمة ولينتهى به المطاف إلى الموت[٧١] وحمل البريد إلى قسطنطيوس فى أنطاكية نبأ مقتل قائده على يد الجموع، فاستبد به الغضب . ولكن يبدو أن بولس آثر السلامة، فنجا بنفسه وارتحل إلى الغرب تاركا الأسقفية ليتولاها ماكيدونيوس[٧٢] .

علمنا أن قنسطانز منذ أصبح سيد القسم الغربى من الإمبراطورية بلا منازع يعتبر نفسه مسئولا عن حماية النيقية فى أقاليمه، بل وفى إقليم أخيه قسطنطيوس

(65) Duchesne, op. cit. II. p. 170
(66) SOCRAT. Hist. eccl. II, 6
(67) Duchesne, Loc. cit.
(68) SOCRAT. hist. eccl. II, 12
(69) SOCRAT. Hist. eccl. II, 13
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 7
(70) SOCRAT. Hist. eccl. III.7
(71) Id.
وأيضا SOZOM. Loc. cit
(72) SOCRAT. hist. eccl. II,16
وأيضاً SOZOM. hist. eccl. III, 9

أيضا، يشد أزره فى ذلك مركز مدعم وإرث عريض، واشتباكات لا تنقطع عند جبهة الفرات تشغل ذهن أخيه وتستنفد قواه . وما دام أساقفة الشرق قد تملكوا سمع قسطنطيوس، فلابد إذن من احتماء اكليروس الغرب وأولاء الفارين، بسلطان قنسطانز، ومن هنا ندرك المغزى الحقيقى لما يذكره سوزومنوس (٧٣) من أن أسقف روما يوليوس وقد اقتنع أن مراسلاته مع أساقفة الشرق لن تجدى نفعا، عرض الأمر على إمبراطور الغرب، ولم يتوان هذا عند إطلاعه على مجريات الأحداث، فكتب على الفور إلى قسطنطيوس يطلب إليه أن يرسل من لدنه أساقفة ثلاثة ليوضحوا له الدوافع الكاملة وراء الإصرار على عزل أثناسيوس وصحبه(٧٤).

ولم يكن فى وسع قسطنطيوس أن يتردد فى تلبية رغبة أخيه . فالجبهة الفارسية لا تدع له الآن مجالا للتحدى ، وعليه فقد التقى عقد الأساقفة فى أنطاكية ثانية، بعد أشهر قليلة من مجمع التدشين(٧٥)، حوالى خريف ٣٤١، للاتفاق على صيغة للإيمان جديدة يتقدمون بها إلى إمبراطور الغرب ورجال الكنيسة هناك(٧٦)، وقد تم إصدار مرسوم للإيمان عرف بالمرسوم الأنطاكى الرابع(٧٧).

---

(73) SOZOM. hist. eccl. III, 10
(74) SOCRAT. Hist. eccl. II, 18
(75) ATHANAS. De Syn. 25
(76) Id

(٧٧) يقول المرسوم :
" نؤمن باله واحد . الآب القدير . خالق كل شيء والصانع . الذى منه تسمى كل عشيرة فى السماوات وعلى الأرض . وبابنه المولود الوحيد، ربنا يسوع المسيح الذى ولد من الآب قبل كل الدهور . إله من إله . نور من نور . كل شيء به كان، فى السماء وعلى الأرض، ما يرى وما لا يرى . الكلمة . الحكمة . القوة . الحياة . نور الحق، الذى من أجلنا فى آخر الزمان صار جسدا، وولد من مريم العذراء، وصلب ومات وقبر وقام ثانية فى اليوم الثالث من بين الأموات، ثم صعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب . وسوف يأتى فى نهاية العالم ليدين الأحياء والأموات وليجزى كلا بما عمل . . . أما أولئك الذين يقولون أن الابن من العدم، أو من مادة أخرى وليس من الآب جاء، وان هناك زمان الابن لم يكن . فهم فى عرف الكنيسة الجامعة مارقون " .
راجع ATHANAS. De Syn. 25 وأيضا SOCRAT. Hist . eccl . II, 18

وهذا المرسوم كما يبدو للوهلة الأولى، يعد تخفيفا لحدة المرسوم الثالث اليوفرونى، ولذا نجده قد خلا من الاناثيما التى وجهت إلى ماركللوس فى قرينه السالف، لان أسقف انقرة كان من بين اللاجئين إلى الغرب، الداخلين فى شركة كنيسته، المحتمين بسلطان إمبراطوره . وكان من اللياقة والفطنة أن يتحاشى اليوسابيون إثارة غضب قنسطانز بعد ما جلبوه على انفسهم من الاستياء العام من جانب أساقفة الغرب، يضاف إلى ذلك أن صيغة الإيمان هذه قد خطت، أو على الأقل أظهر فيها أصحابها اتجاها مظهريا إلى النيقية، إلا أنها على الرغم من ذلك لم تتضمن أساس الإيمان النيقى وهو " الهوموسية "، وبذا عدها بعض المؤرخين[٧٨] صورة من العقيدة غامضة .

ويأتى هذا المرسوم الأنطاكى الرابع فى ختام صيغ الإيمان التى تنسب إلى مجمع التدشين، وقد أصبح القاعدة الأساسية التى ارتكزت عليها مراسيم فيلبوبوليس Philippopolis (فى تراقيا) سنة ٣٤٣، وأنطاكية عام ٣٤٤ وسيرميوم Sirmium سنة ٣٥١[٧٩] . ويجمع المؤرخون على أن هذه السلسة المتلاحقة من المراسيم العقيدية تحدد المرحلة المستقرة للعقيدة الآريوسية، بين نهاية الجيل الأول آريوس وآستريوس ويوسيبيوس النيقوميدى، وبداية التفكك بين الفرق المتصارعة[٨٠] التى شغلت عهد قسطنطيوس وفكره .

حمل هذا المرسوم أربعة من أساقفة الشرق منهم نارقيسوس Narcisus أسقف بانياس Neronias وتيودور أسقف الرستن (ارسوز)[٨١] Arethusa إلى

(78) Duchesne, op. cit. 171
(79) Robertson, op. cit. p. 44
وراجع Gwatkin, op. cit. p.69 وانظر بعده .
(80) Kidd, op. cit. II, p. 82
وراجع Neander, history of Christin dogmas II, p. 293
وأيضا Gwatkin, Loc. cit.
وانظر كذلك Robertson, Loc. cit
(81) ATHANAS. DE Syn. 25
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 18
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 40

الإمبراطور قنسطانز حسب رغبته ، فلما كانوا فى إيطاليا، دخلوا فى جدال مع الأساقفة هناك حول شرعية إجراءات المجمع الأنطاكى وقوامة إيمانهم(٨٢)، ورفضوا المصالحة مع أثناسيوس والأساقفة اللاجئين بروما، أو الدخول فى شركتهم(٨٣)، ثم ارتحلوا إلى غالة حيث التقوا بالإمبراطور قنسطانز فى ترير أوائل سنة ٣٤٢، وقدموا إليه وثيقة الإيمان التى جاءوا بها(٨٤) ويخطئ سوزومنوس فى القول بان هذه السفارة قد وجدت الإمبراطور فى إيطاليا(٨٥)، وذلك أن أثناسيوس، وكان هناك عندئذ، يخبرنا أن هذا اللقاء تم فى غالة(٨٦).

ولما لم يكن قنسطانز يدرك من أمر اللاهوت شيئا، ولا الجدال الدائر، كان من البديهى أن يسترشد بهدى أسقف المدينة ماكسيمينوس، وهو كما علمنا، صديق حميم لأثناسيوس، ولذا لم تكن النتيجة وهى تأييد أثناسيوس على أحد بخافية، فقد رفضت وثيقة الإيمان التى حملها أساقفة الشرق، ولم يقبل منهم إيمان(٨٧). ويذكر سوزومنوس أن الإمبراطور أدرك ما ينطوى عليه قرار عزل أثناسيوس وبولس وغيرهما من مجافاة للعدالة، وتبين لديه أن الخلاف العقيدى وليس مسلك الأسقف السكندرى فقط، سبب العداء(٨٨) . وهذا القول يؤكد ثانية مدى الدور الذى قام به ماكسيمينوس وصحبه حتى أفلحوا فى إيغار صدر إمبراطور الغرب، فأمر بطرد الأساقفة الأربعة بعد أن سحب الثقة مما جاءوا من أجله(٨٩) .

مضى الآن على وجود أثناسيوس فى روما منذ هروبه من الإسكندرية ثلاث

---

(82) SOZOM. Hist. eccl. III, 19
(83) SOCRAT. Hist. eccl. II, 8
(84) ATHANAS. De Syn. 25
وراجع أيضا SOCRAT. Loc. cit.
وكذلك SOZOM. Loc. cit.
(85) SOZOM. Loc. cit.
(86) ATHANAS. De Syn. 27
(87) SOCRAT. Loc. cit.
(88) SOCRAT. Loc. cit.
(89) Id.

سنوات[٩٠] قضاها على حد قوله فى العبادة والضراعة[٩١] وانقضت هى فى مراسلات بين روما وأنطاكية، وصراع عقيدى وتنظيمى بين أساقفة الغرب والشرق، واستطاع أثناسيوس خلالها أن يحوز إعجاب قنسطانز وثقته، وقد أهدى أثناسيوس إلى الإمبراطور مجموعة مجلدات ضخمة تضم الكتاب المقدس[٩٢]، ودعا قنسطانز الأسقف للقائه فى ميلانو[٩٣]، ولابد أن تكون هذه المقابلة قد تمت فعلا قبل وصول الأساقفة الأربعة رسل الشرق إلى إيطاليا[٩٤].

ولابد أيضا أن يكون أثناسيوس قد اعترف بآلامه لسيد الغرب، فثيودوريت يذكر أن أسقف الإسكندرية عندما التقى بقنسطانز راح يشكو إليه ظلامته[٩٥] وربما أيضا، على حد تعبير جيبون، رثا وناح على خطايا قسطنطيوس ولكن لاشك أنه لام بجسارة آثام رجال بلاطه وأساقفة الآريوسية، وذرف الدمع بين يديه لما تتعرض له الكنيسة الكاثوليكية[٩٦] مستحثا إياه الاقتداء بمجد أبيه[٩٧] وهذا بالتالى يفسر الفتور الذى قوبلت به سفارة الشرق عندما جاءت إلى غالة فى أعقاب قنسطانز، بعد أن ترك ميلانو فى طريقه لمجابهة الفرنجة على الراين[٩٨] ولم يطل مقام أثناسيوس فى ميلانو، فهناك تلقى رسالة من الإمبراطور يطلب موافاته فى ترير[٩٩] وعلى الفور ارتحل أثناسيوس حيث التقى هناك بالأسقف القرطبى هوسيوس وغيره من رجال الكنيسة الغربية[١٠٠] .

---

(90) ATHANAS. Apol. Ad Const. 4
(91) Id.
(92) Id.
(93) Id.
(94) Kidd, op. cit. II, p. 82
وراجع Robertson, op. cit. p 45
(95) THEOD. Hist. eccl. II, 3
(96) Gibbon, op. cit. II, p. 391
(97) THEOD. Loc. cit.
(98) Martin, Histoire de France, I, p. 302
(99) ATHANAS. Apol. Ad Const. 4
(100) Id.

دخلت المشكلة مرحلة التعقيد، فأثناسيوس وبولس وماركللوس ورفاقهم، صدر فى صالحهم قرار بالعودة إلى بيعهم، ومضى عامان دون أن يوضع موضع التنفيذ وذلك لمعارضة أساقفة الشرق، وإمبراطوره، بالإضافة إلى أن قرار أساقفة الغرب ليس ملزما لأساقفة الشرق، وأساقفة الغرب يؤمنون بما تم إقراره فى نيقية سنة ٣٢٥، ويتشبثون بما أقدموا عليه فى روما سنة ٣٤٠، وأكليروس الشرق يرى صحة معتقدة، ويتمسك بكل ما اتخذه فى صور سنة ٣٣٥، وما استقر عليه فى أنطاكية سنة ٣٣٨، وما أعلنه فيها عام ٣٤١ . وهكذا أصبحت المسألة فى شكلها العام خلافا فى الرأى واقعا بين رجال الدين المسيحى فى الشرق والغرب، سعى كلا الفريقين ليجر الدولة إليه، ووقف الإمبراطوران الأخوان يناصر كل منهما فريقا دون الآخر، وفكرة بعينها، دون أن يعى أحدهما حقيقة ما يدافع عنه، ولا جوهر ما نصب من نفسه له حاميا!

أدرك أساقفة الغرب وفى مقدمتهم يوليوس أسقف روما أن الأمور تجرى بسرعة فى طريق الشقاق، وأن مجمعا عاما يضمهم وأساقفة الشرق كفيل برأب هذا الصدع من ناحية، وإضفاء صفة الشرعية على القرارات التى اتخذها مجمع روما، والزام كنائس الشرق وإمبراطوره بتنفيذها، والسماح لأثناسيوس ورفاقه بالعودة إلى كراسيهم الأسقفية، وعليه ألح الأساقفة على قنسطانز يطلبون إليه دعوة أساقفة الكنيسة فى الإمبراطورية لمجمع عام، بغية إقرار أمر العقيدة ونظر قضية أثناسيوس وصحبه(١٠١)، ويقول سقراط أن أثناسيوس وبولس هما اللذان تقدما إلى قنسطانز بهذا العرض(١٠٢)، على حين يقصر ثيودوريت هذا الأمر على الأسقف السكندرى(١٠٣)، ولا يبعد أن يكون أثناسيوس قد أسر بذلك إلى يوليوس وغيره من رفاقه أساقفة الغرب الذين ضمن الآن بسياسته وقوفهم إلى جانبه.

---

(101) ATHANS. Apol. Ad Const. 4
وله أيضا Hist. Arian 15
وراجع SOZOM. Hist. eccl. II, 11
(102) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20
(103) THEOD. Hist. eccl. II, 3

وعلى الفور كتب قنسطانز إلى أخيه الإمبراطور فى الشرق يخبره بعزمه[١٠٤]، وأذعن هذا دون تردد أو مساومة[١٠٥]، إذ لم يكن فى وسعه أن يرفض دعوة أخيه الأصغر قنسطانز إمبراطور الغرب[١٠٦]، فقد كان يعانى أوجاع الحرب الفارسية المستعرة[١٠٧] وقد تم الاتفاق على أن تكون سرديكا Sardica ملتقى الأساقفة[١٠٨] وهى مدينة على الحدود بين شطرى الإمبراطورية[١٠٩]، وان كانت واقعة ضمن سيادة إمبراطور الغرب[١١٠]، وكان لهذا فى حد ذاته أهمية خاصة[١١١]، يفسرها جيبون بقوله انها كانت داخلة فى ممتلكات نصير أثناسيوس[١١٢]. ولا مجال للشك فى أن اختيار مكان المجمع على هذا النحو قصد إليه عمدا لضمان تأييد قنسطانز، وبث الهلع فى نفس أساقفة الشرق[١١٣].

وفى أواخر صيف عام ٣٤٣، توافد على سرديكا جمهور كبير من الأساقفة، أتوا من مختلف أنحاء الإمبراطورية، يمثلون الشرق والغرب على السواء[١١٤]، اختلف المؤرخون فى عددهم . فيخبرنا سقراط[١١٥] أنهم كانوا ثلاثمائة أسقف، ويقول

---

(104) Id.
وراجع ATHANAS. Apol. Ad Const. 4
وانظر لأثناسيوس أيضا Hist. Arian. 15
(105) SOCRAT. hist. Eccl II, 20.
(106) Gwatkin, op. cit. p. 70
(107) Kidd, op. cit. II, p. 93
(108) SOCRAT. hist. Eccl II,20.
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 1
(109) SOCRAT. Loc. cit.
(110) Kidd, op. cit. II, p. 275
(111) Kelly, op. cit. 275
(112) Gibbon, op. cit. p. 390
(113) Gibbon, op. cit. p. 70
(114) ATHANAS. Apol. C. Arian 63
وراجع أيضا FEST. IND. XV
(115) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20

أن مصدره فى ذلك أثناسيوس، ويتابعه على ذلك سوزومنوس [١١٦]، أما أثناسيوس فيذكر أن هذا العدد يمثل جميع الأساقفة الذين صدقوا على قرارات مجمع سرديكا وارتضوها[١١٧] . ويكاد ثيودوريت يقترب من رأى سقراط عندما يصل بهم إلى مائتين وخمسين، اعتمادا على مصادر قديمة حسب تعبيره[١١٨] وان كان أثناسيوس يذكر فى موضع آخر أن حضور مجمع سرديكا كانوا قرابة مائة وسبعين أسقفا من الشرق والغرب[١١٩] كان من بينهم كما يروى سقراط ما يزيد على السبعين من الكنائس الشرقية[١٢٠]، على حين يمثل الباقون وهم نيف وتسعون أساقفة الغرب[١٢١]، ولم يشارك أسقف روما يوليوس فى جلسات المجمع، وأرسل من لدنه اثنين من القساوسة هما أرخيداموس Archidamus وفيلوكسنوس[١٢٢] Philoxonus .

توجس أساقفة الشرق فى أنفسهم خيفة منذ البداية، لأنه لم يغب عنهم أن التقاءهم بأساقفة الغرب فى مدينة هى من أملاك الإمبراطور قنسطانز، الذى ينتصر للهوموسية، لن يكون فى صالح عقيدتهم، ويرى أثناسيوس أنهم من أجل ذلك قدموا إلى سرديكا فى حماية القائد موزونيانوس Musonianus وهسيكيوس Hesychius رئيس الديوان[١٢٣]، وتضيف إليهما الحوليات (دليل رسائل أثناسيوس الفصحية) فيلاجريوس حاكم مصر[١٢٤] . بقصد تحقيق أهدافهم عن

(116) SOZOM. Hist. eccl. III, 12
(117) ATHANAS. Apol. C. Arian. 1
(118) THEOD. Hist. eccl. II, 6
(119) ATHANAS. Hist. Arian. 15
(120) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20
(121) Kidd, op. cit. II, p. 83
وراجع Duchesne, op. cit. II, p. 172
وأيضا Gibbon, op. cit. II, p. 390
(122) ATHANAS. Apol. C. Arian. 5 .
(123) ATHANAS. Apol. C. Arian. 36
وراجع له أيضا Hist. Arian. 15
(124) FEST. IND. XV

طريق السلطة المخولة لهؤلاء(١٢٥) . ولما كان من غير المنطقى أن يثير هؤلاء شغبا مقصودا فى أرض ليست تحت سيادة مليكهم كما دلت على ذلك الأحداث من بعد، فلا يستبعد أن يكون قسطنطيوس قد أرسل ثلاثتهم ممثلين له شهودا على هذا اللقاء . ويعلق دوشين على ذلك بقوله " أنه لا الأساقفة ولا قسطنطيوس كانت لديهم الرغبة فى عقد هذا المجمع . وانما جاء أساقفة الشرق إلى سرديكا إطاعة لأوامر الإمبراطور الذى كان هو الآخر يسعى لإرضاء أخيه"(١٢٦).

وتشير الروايات التى يقصها أثناسيوس إلى أن أساقفة الشرق كانوا قد بيتوا النية، وهو فى الطريق إلى مدينة المجمع، على عدم المشاركة فى جلساته(١٢٧) . اعتمادا على ما أفصح عنه اثنان من إكليروس الشرق هجرا جانب الآريوسية وانضما إلى الإيمان النيقى وهما آريوس أسقف البتراء Petra وأستريوس أسقف العربية Arabia (128) . ولاشك أن أساقفة الشرق كانوا يوقنون حق اليقين أن جهودهم لابد ضائعة وسط تيار الأغلبية الهوموسية المدعمة بسلطان قنسطانز .

وقد بدا فعلا للوهلة الأولى أن شيئا من التقارب بين الفريقين لن يحدث ، فقد أعتصم الأساقفة الشرقيون فى القصر الإمبراطورى(١٢٩) تحت زعامة تيودور أسقف هرقلة ونارقيسوس البانياسى واسطفانوس Stephanus الأنطاكى ، وجورج أسقف اللاذقية، وأكاكيوس القيسارى، ومنوفانتوس Menophantus أسقف افسوس Ephesus وأورساكيوس Ursacius أسقف سينجيدونوم Singidunum وفالنز Valens أسقف مورسا Mursa فى بانونيا(١٣٠)، ورفضوا الانضمام إلى أساقفة الغرب الذين عقدوا اجتماعاتهم فى الكاتدرائية(١٣١)

(125) ATHANAS. Apol. C. Arian
(126) Duchesne, op. cit. II, p. 172
(127) ATHANAS. Apol. C. Arian. 48
(128) ATHANAS. Hist. Arian. 18
(129) Ibid. 15
(130) ATHANAS. Apol, C. Arian. 48
(131) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20

يقود خطاهم الأسقف القرطبى هوسيوس(١٣٢)، محاجين بأنه لا يحق لأثناسيوس ورفاقه الذين تم عزلهم من قبل، المشاركة فى أعمال المجمع حيث أنه لم يصدر قرار بالعفو عنهم(١٣٣) .

غير أن أساقفة الغرب وعلى رأسهم هوسيوس وبروتوجنس Protogenes أسقف سرديكا، أصروا على ضرورة بقاء أثناسيوس وصحبه(١٣٤)، فقد برأ مجمع روما سنة ٣٤٠ ساحتهم(١٣٥)، وهم الآن على استعداد للدفاع عن أنفسهم أمام أساقفة الكنيسة جميعا ، وما على أساقفة الشرق إلا أن يتقدموا باتهاماتهم التى تدين هؤلاء المبعدين، ليتسنى بهذا النحو نظر القضية على مرأى من الجميع ومسمع(١٣٦) . ويبدو أن هوسيوس قد بذل محاولات جادة لإصلاح ذات البين والتوفيق بين كلا الفريقين دون جدوى(١٣٧)، وبلغت به الرغبة فى نجاح المجمع إلى الحد الذى أعطى لأساقفة الشرق موثقا، برضاء أثناسيوس، لئن جاء قرار المجمع يحمل أى إدانة لأثناسيوس، لفظته على الفور الكنيسة الجامعة، أما إذا أقر المجمع براءته، ورفض أساقفة الشرق مع ذلك الدخول فى شركته، فلسوف يسعى جاهدا كى يصطحبه معه إلى أسبانيا(١٣٨)ولكن هذه الجهود ذهبت سدى أمام إصرار الأساقفة الشرقيين على موقفهم، وأصبحت المسألة فى جوهرها صراعا حقيقيا حول سلطة المجامع الكنيسة وشرعية قراراتها ، فالاكليروس الشرقى يرى أن من حقه وحده نظر قضية أثناسيوس وماركللوس وأسكلبيوس وبولس وغيرهم، باعتبارهم

(132) ATHANAS. Hist. Arian. 15
(133) ATHANAS. Apol. C. Arian. 37
وراجع SOCRAT. Loc. cit.
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 11
(134) SOCRAT. Loc. cit.
وانظر أيضا SOZOM. Loc. cit.
(135) SOZOM. Loc. cit.
(137) ATHANAS. Apol. C. Arian. 36
(138) Id.
(138) ATHANAS. Hist. Arian. 44

جميعا ضمن دائرة الجزء الشرقى من الإمبراطورية، وان قرارات مجامع صور وأنطاكية يجب احترامها، وليس من حق أساقفة الغرب وروما الخوض فى جدال هو من صميم الشرق ذاته . وعليه أضحى مجمع روما فى نظرهم متعديا جائرا وليس لأحكامه شرعية، فى الوقت الذى آوى فيه رجال الكنيسة فى الغرب إلى اليقين بصحة وقانونية ما صدر عن مجمع روما من قرارات فى جانب أثناسيوس وصحبه .

أقدم الشرقيون دون توان على العمل، فحزبوا أمرهم وولوا وجوههم شطر الديار عائدين بعد أن رفض أساقفة الغرب الاستجابة لمقترحاتهم بأبعاد أثناسيوس ورفاقه المعزولين عن حضور المجمع، حتى إذا دخلوا القسم الشرقى من الإمبراطورية حطوا رحالهم عند مدينة فيليب Phlilippopolis فى تراقيا(١٣٩) . بعد أن أودعوا يوستاتيوس Eustatius قسيس كنيسة سرديكا اعتذارهم لانصرافهم قبل أن ينفض عقد المجمع، يعلنون فيه أنهم قد تلقوا رسالة من الإمبراطور قسطنطيوس تنبئهم بانتصاره على الجبهة الفارسية(١٤٠) فى هذه الحرب التقليدية بين فارس والإمبراطورية الرومانية، وأن اللباقة والواجب يدفعانهم إلى أن يكونوا بجوار الإمبراطور يشاركونه بالنصر فرحته(١٤١)، غير أن صاحب الحوليات يخبرنا انهم انسحبوا من سرديكا بناء على نصيحة فيلاجريوس(١٤٢)، وأيا كان السبب، فالحقيقة كما أسلفنا، أن أساقفة الشرق آمنوا يقينا انهم يجدفون فى سرديكا ضد التيار، وإذا كان الغربيون قد حرصوا على أن تكون مدينة المجمع ضمن دائرة نفوذ قنسطانز، فلا غرو إذا كان أكليروس الشرق أشد منهم حرصا وذكاء .

وفى فيليبوبوليس سنة ٣٤٣ عقد أساقفة الشرق مجمعا منفصلا ، وراحوا يتصرفون بملء إرادتهم، فأكدوا من جديد سابق أحكامهم بإدانة أثناسيوس وبولس

(139) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20
(140) ATHANAS. Hist. Arian. 16
(141) Id.
(142) FEST. IND. XV

وماركللوس واسكليبوس، وأصدروا قرارهم بإدانة وعزل يوليوس أسقف روما، فقد كان أول من فتح للفارين بابه، وأعادهم إلى أحضان الكنيسة[١٤٣] .وهوسيوس إذ شارك يوليوس أثمه، ولأنه من قبل كان صديقا ليوستاتيوس أسقف أنطاكية النيقى[١٤٤]، وماكسيمينوس أسقف ترير، الذى آوى إليه بولس وجهد لعودته إلى بيعته، وقطع من شركة الكنيسة رسل الشرق الأربعة إلى غاليا[١٤٥] . وبروتوجنس أسقف سرديكا، وجاودنتيوس Gaudentius أسقف نيش Naisus لأنه نكص وعطف على ماركللوس بعد أن كان قد أدانه، ولانحرافه عن جادة الطريق التى سلكها سلفه قرياقوس[١٤٦] Cyriacus بأتباع المعنفد الآريوسى. وقد جاء ذلك كله فى رسالة بعثوا بها إلى عموم الأساقفة وحفظها للتاريخ هيلارى أسقف بواتييه[١٤٧]، طلبوا إليهم فيها عدم الدخول فى شركة أولاء الأساقفة، وان لا يكاتبوهم أو يتلقوا منهم، وان يؤمنوا بعقيدتهم التى أرفقت بالرسالة، وهى المرسوم الأنطاكى الرابع الذى أرسل قبلا إلى قنسطانز وأساقفة الغرب، مضافا إليه عددا من الأناثيما لحقت بماركللوس. ومن ديباجة هذه الوثيقة نعرف أن كنائس نصف الإمبراطورية كلها، شاركت فى هذا المجمع[١٤٨] .

وقد جاء فى نهاية المرسوم :

" كل من يقول بآلهة ثلاثة، أو إن المسيح ليس إلها، وإنه قبل كل الدهور لم يكن مسيحا، ولا أبن الله كان . أو أنه هو نفسه الآب والابن والروح القدس، أو أن الابن بالميلاد عاجز، والآب ولد الابن دون قصد أو إرادة، فليكن من الكنيسة الكاثوليكية أنائيما "[١٤٩] .

---

(143) SOZOM. Hist. eccl. III, 11
(144) Id.
(145) Id.
(146) Id.
(147) HILAR. Fragm. III, 23-29 (p. L. X. 671-675)
(148) HILAR. De Syn. 34
(149) Id. SOZOM. Hist. Eccl. III, 11

ولم يضف أساقفة الشرق بهذا المرسوم جديدا إلى الإيمان المسيحى وإنما جاءت هذه الخاتمة ردا على عدد من الآراء كالسابللية وآراء بولس السميسطائى وماركللوس . وخلت الصيغة من أى ذكر للهوموسية(١٥٠) . بل إن سقراط يضيف أن " المساواة فى الجوهر" هذه لقيت فى فيلبوبوليس اللعنة(١٥١)، وهكذا فتح باب الصراع كاملا بين الشرق والغرب.

أما أساقفة سرديكا فعقدوا هم الآخرون مجمعا مستقلا ترأسه هوسيوس القرطبى(١٥٢)، باعتباره أكبر الحضور عمرا(١٥٣)، وكان أول عمل أقدموا عليه إدانة انسحاب أساقفة الشرق دون أن يشاركوا فى أعمال المجمع الذى من أجله أتوا(١٥٤) ثم استمع الحضور إلى قضية أثناسيوس وماركللوس وبولس وأسكلبيوس وغيرهم من المبعدين، وسمح لهم بتقديم دفاعاتهم، وأبدى الجميع امتعاضهم لما حل بهؤلاء الأخوة(١٥٥)،وأصدروا قرارهم بتبرئة أساقفة الإسكندرية وانقرة والقسطنطينية وغزة وإعادتهم إلى الكنيسة(١٥٦) . وكما فعل بهم أساقفة الشرق، قرروا أيضا إدانة وعزل ثيودور أسقف هرقلة ونارقيسوس أسقف بانياس وأكاكيوس القيسارى وأسطفانوس الأنطاكى ، وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم، وفالنز أسقف مورسا ومنوفانتوس الأفسوسى، وجورج أسقف اللاذقية(١٥٧) على الرغم من أن هذا الأخير لم يكن بين أولاء الأساقفة شهود مجمع فيليبوبولس(١٥٨) . أما جريجورى الكبادوكى أسقف الإسكندرية، وباسل أسقف انقرة، خلف ماركللوس وكوينتيانوس Quintianus

(150) SOZOM. Loc. cit.
(151) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20
(152) ATHANAS. Hist. Arian. 16
وراجع أيضا Hefele, op. cit. I, 2 pp. 837-838.
(153) ATHANAS. Apol. C. Arian. 44
(154) Ibid. 36
(155) Id. SOZOM. Hist. eccl. III, 12
(156) Id.
(157) ATHANAS. Apol. C. Arian. 36
(158) Ibid. 49
وراجع كذلك SOZOM. Loc. cit.
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 6

الذى اعتلى كرسى غزة بدلا من اسكلبيوس، فقد تم تجريدهم من ألقابهم الكهنوتية وعزلهم وقطعهم من شركة الكنيسة بعد أن اعتبرهم المجمع مغتصبين لكراسى البيع الثلاث(١٥٩) .

ولما طرحت للبحث مسألة العقيدة، وأثيرت المقترحات حول إضافات جديدة يمكن إدخالها على مرسوم الإيمان النيقى، أو البحث عن صيغة أخرى أكثر إيضاحا للإيمان وشمولا، نتيجة لان قانون الإيمان النيقى لم يكن كما يبين الواقع التاريخى قانونا للإيمان جامعا مانعا، ولكنه وضع للرد على آراء آريوس، ومن ثم ترك الباب مفتوحا للقول بقوانين الإيمان المحلية(١٦٠) . وانطلاقا من هذا النقصان الذى يعتوره راح الآريوسيون علىالنحو الذى رأيناه فى أنطاكية سنة ٣٤١ يحاولون وضع صيغة منافسة وملائمة للإيمان، ومن هنا أيضا كانت دعوة بعض أساقفة الغرب لتلافى هذه المثالب .

إلا أن هذا الاتجاه لقى معارضة من جانب أثناسيوس وعدد ليس بالقليل من الأساقفة(١٦١) يمثلون الجماعة التقليدية المحافظة، ولذا فقد عدل الآخرون أمام ذلك عن رأيهم، وقد حفظ ثيودوريت مسودة تمخض عنها هذا الجدل فى سرديكا تعطى تصورا عاما للآراء العقيدية التى جرت من حول إيمان نيقية آنذاك(١٦٢)، ولعل هوسيوس وبروتجنس قد شعرا بشيء من الحرج إزاء هذه المحاولات، فكتبا إلى أسقف روما رسالة يوضحان فيها التمسك بالعقيدة النيقية، وإن ما دار حولها من جدال دفعت إليه الرغبة فى وضع تفسيرات وشروح للعقيدة ذاتها ، حتى لا يجد الاريوسيون في غموض بعض فقراتها ثغرة ينفذون منها إلى أولئك الذين ليس لهم على المحاورة طاقة، وليس لهم باللاهوت معرفة(١٦٣) .

(159) ATHANAS. Apol. C. Arian. 43, 47, 49
SOZOM. Loc. cit. وراجع

(١٦٠) انظر أسد رستم : كنيسة انطاكية ج٢ ص٢١٩

(161) ATHANAS. Tom. Ad Ant. 5

(162) THEOD. Hist. eccl. II,6

(163) SOZOM. Hist. eccl. III, 12

ولقد ضمن المجمع أعماله هذه كلها فى رسالة عامة بعث بها إلى مختلف الأساقفة(١٦٤)، وكتب إلى كنيسة الإسكندرية رسالة أخرى تتحدث عن أثناسيوس وبراءته وتحث الجموع على الوفاء لأسقفهم، واستقباله بما يليق من التكريم حالة عودته(١٦٥)، على أن الرسالة تضمنت معنى هاما إذ جاء فيها :

" . . . ولقد كتبنا إلى إمبراطورينا التقيين الورعين، نتوسل إلى رحمتهما أن يتعطفا بالعفو عن أولئك الذين لا يزالون يكتوون بلظى الكرب، وان يتفضلا بالتنبيه على الموظفين المدنيين بعدم النظر فى مسائل الأكليروس أو إيقاع الأذى بأى من الأخوة فى الغد الآت، تحت زعم أنهم يعينون الكنيسة، بل من حق كل إنسان أن يحيى كما يرجو، كما يحب حرا من الاضطهاد طليقا، متحررا من العسف من الخداع مبرءا. وبالهدوء والأمن، بالسلام يدين بالإيمان الكاثوليكى(١٦٦).

وهذا القول يشير من طرف خفى إلى تلك الإجراءات التى أقدم عليها فيلاجربوس فى الإسكندرية وهرموجنوس فى القسطنطينية وغيرهما من نواب الإمبراطور قسطنطيوس فى الشرق، من مناصرته فريقاً دون آخر، وتسليم الكنائس إلى يد الآريوسيين وتشتيت انصار أثناسيوس، وبولس واستبدال هذين بغيرهما.

لقد كان هذا أقصى ما تستطيع الكنيسة أن تقوله آنذاك، فلم يكن فى مقدورها أن تطلب إلى الأباطرة أنفسهم عدم التدخل فى مسائل الكنيسة، وحتى ولو استطاعت فإنها لم تكن تريد، إذ أنه لم يكن قد مضى على رفع الاضطهاد الوثنى عنها أكثر من ثلاثين عاما فقط، منذ صدرت رسالة نيقوميديا سنة ٣١٣ . وهذا الخلاص نفسه تم على يد الدولة ممثلة فى قسطنطين وليكينيوس ثم أولهما منفردا،

(164) ATHANAS. Apol. C. Arian. 44-49
وراجع أيضا THEOD. Hist. eccl. II, 6
(165) ATHANAS. op. cit. 37-40 .
(166) Ibid. 39 .

حتى لقد سمحت الكنيسة لقسطنطين أن يترأس مجمع آبائها فى نيقية، وأن يدير دفة الجدال دون أن يتناول بعد سر العماد، بل وفوق هذا وذاك أعطته حق التدخل فى المسألة اللاهوتية، وان يضيف إلى العقيدة ما ليس منها، مما غدا بابا لآتون الصراع المتقد الدائر من حول المسيح، بل وحافظت الكنيسة على هذه العقيدة وعدتها قانون إيمانها القويم، هذا كله على الرغم من أن قسطنطين لم يكن لديه أقل قدر من المعرفة الكريستولوجية، كما وضح ذلك بينا فى رسالته إلى إسكندر وآريوس، رجلى الإسكندرية، فى بدء ظهور العقيدة الآريوسية . وفعلت الكنيسة ذلك عن طيب خاطر راضية، وما كان لها أن ترفع الرأس معارضة وهو ولى نعمتها، فلما مات بدأت تتحسس خطاها فى حذر، وساعدتها الأقدار بوجود أكثر من إمبراطور. يحكمون فى نفس الآن . فسعى كل فريق يلوذ بالجالس على العرش فى الشرق والغرب، يطلب نصرته ويتدثر بحماه .

لقد كانت الكنيسة تمر آنذاك بطور من الطفولة متأخرة . حقيقة تضمنت كتابات زعماء هذه الفترة، هوسيوس(١٦٧) وأثناسيوس(١٦٨) وليبريوس(١٦٩) الذى خلف يوليوس أسقفا لروما، شيئا عن سلطة الأباطرة إزاء الكنيسة، ولكنها فى جوهرها لم تكن تعبر عن خط واضح فى علاقة الدولة بالكنيسة، بل تعد فقط نوعا من الاستياء والسخط إزاء تصرف إمبراطور بعينه، وليس أدل على ذلك من أن هؤلاء انفسهم لاذوا بحمى الأباطرة لنصرتهم وعقيدتهم ، إلا إذا استثنينا من ذلك، وبشيء من التحفظ، كتابات هوسيوس القرطبى وحده .

وعلى نفس المنوال نسج أساقفة سرديكا خيوط رسالة أخرى(١٧٠) بعثوا بها إلى أساقفة مصر وليبيا هى فى الواقع صورة مطابقة لسالفتها، أما أثناسيوس فلم يترك هذه المناسبة تمر دون أن يذكر بنفسه جموع كنيسته أنه لا يزال صاحب

---

(167) HOS. Ep. Ad Const. In ATHANAS. Hist. Arian. 44
(168) ATHANAS. Hist. Arian. 51-53
(169) THEOD. Hist. eccl. II, 13
(170) ATHANAS, Apol. C. Arian. 41-43

الحق الوحيد فى كرسى الإسكندرية الأسقفى، مدعما بقرار الأساقفة فى سرديكا، فكتب رسالة إلى أكليروس وشعب مريوط(١٧١)، وأخرى إلى القسيسين والشمامسة والكنيسة فى الإسكندرية يستحث الجميع فيها على عدم الاستسلام مطلقا لفعال جريجورى الكبادوكى، أو الخضوع، خاصة بعد أن جرده المجمع من صفته الكهنوتية . ويورد فى نهاية رسالته إلى كنيسة مريوط توقيعات قرابة ستين أسقفا ممن وقفوا إلى جواره يؤيدونه ويناصرون .

هكذا أتم الذين التقوا فى سرديكا ما حسبوه لازما وضرورة، وكذا فعل أولاء الذين اجتمعوا فى فيليبوبوليس، كل على حدة(١٧٢)، وبعدها عاد أساقفة الفريقين إلى بيعهم، ولكن ما خلفوه وراءهم كان أشد هولا، فقد تركوا الكنيسة أكثر انقساما من البدء وأشد فرقة، حتى لقد سجل المؤرخ الناقد سقراط هذه الحقيقة بقوله : " منذ ذلك الزمان فصاعدا بدأت كنائس الغرب تسير فى اتجاه منفصل تماما عن تلك التى فى الشرق"(١٧٣) ويعلل ذلك قائلا " أن كلا الفريقين كان يعتقد أنه على الحق المبين، أساقفة الشرق يوقنون بسلامة موقفهم ويخطئون أخوة الغرب الذين ألقوا فى دروب التغاضى والإهمال أحكام صور أنطاكية، واستقبلوا بالمحبة أولئك المبعدين. على حين يؤمن رجال الكنيسة الغربية انهم وحدهم المدافعون عن الإيمان النيقى، وان زملاء الشرق آثمون إذ قدموا يحملون نوايا الازدراء، فانسحبوا قبل أن يبدأوا(١٧٤) .

كان واضحا منذ البداية أن المجمع لن يحقق الهدف الذى من أجله وجهت الدعوة إلى عقده، فلم يكن لدى أساقفة الشرق النية فى حضوره أو الرغبة فى نجاحه، إذ كان هذا النجاح يعنى القضاء على جهود بذلوها طوال عشر سنوات

(171) ATHANAS. Ep. Ad Mareot.
(172) SOCRAT. Hist. eccl. II, 22
(173) Id.
(174) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20

مضت للتخلص من النيقية وإقرار معتقدهم الآريوسى، وأساقفة الغرب يحدوهم الأمل فى نجاح المجمع بهدف إقرار الهوموسية والقضاء على شكوى أثناسيوس ورفاقه، ولكن مجمع سرديكا فشل فى أن يحقق ما تعلقت به الأفئدة من دعوى السلام، وأخفق فى أن يؤلف خصمين اختصموا فى ربهم .

ويلقى المؤرخ Kidd تبعة هذه النتيجة على كاهل هوسيوس أسقف قرطبة فيقول : " حقيقة كان هوسيوس أبا للمجمع، ولكنه كان أسبانيا عنيدا فى إيمانه لا يلين، ينقصه العطف ويحتاج إليه كى يفلح العقل فى رشد الجميع[١٧٥] " أما Duchesne فإنه يقدم أساقفة الشرق فداء لهذا الفشل نتيجة انقلابهم على أعقابهم والمكابرة[١٧٦] . لقد هوت المثالية، على حد تعبير المؤرخ فليش Fliche لتتحطم على صخرة الواقع، وضاعت وسط زحام الأباطيل وسوء النية فرصة اللقاء، وعصفت قرارات الحرمان التى رمى بها الفريقان نفسيهما بكل بارقة أمل فى كنيسة يسودها السلام،لقد هتك المجمع حجب شقاق ظل يستتر طيلة سنوات عديدة بين شقى عالم المسيحية[١٧٧] .

وليس من المنطقى أن نوجه اللوم إلى فريق دون الآخر، أو أن نحمل أحدهما ما لا طاقة له به، فكلاهما شارك بنصيب فى هذه النتيجة التى انتهى إليها المجمع، وكان أثناسيوس وصحبه سبب الخلاف الظاهرى، وكان الإصرار على إبعادهم من جانب الآريوسيين، والتمسك ببقائهم من ناحية النيقيين، نقطة البدء والمنتهى فى طريق الإخفاق، إلا أنها فى حد ذاتها من وجهة النظر الضيقة، النجاح الوحيد الذى حققه مجمع سرديكا، إذا حصرنا مهمته فى هذا النطاق المحدود الذى جاء فى رسالة[١٧٨] قنسطانز إلى أخيه إمبراطور الشرق، بضرورة بحث مسألة أثناسيوس وبولس وغيرهما للمرة الأخيرة . فقد أصدر أساقفة سرديكا قرارهم

(175) Kidd. op. cit. II,
(176) Duchesne, op. cit. II, p. 17 9
(177) Fliche, Histoire de L'église. III, p. 103
(178) ATHANAS. Hist. Arian. 15

بتبرئة أولاء وأعادتهم إلى كراسيهم الأسقفية، وهذا هو الجزء الذى تم تنفيذه واقعا، كما سنرى بفعل الأحداث لا بقوة القرار وسلطان المجمع .

وفى تفصيل دقيق يتناول المؤرخ Hefele الآراء العديدة التى أثيرت حول اعتبار مجمع سرديكا مسكونيا، ويخلص فى النهاية إلى عدم الموافقة على هذا الاقتراح بناء على الانقسام الذى تعرض له المجمع منذ البداية، وان من بين الأساقفة الذين التأموا فى سرديكا وقاربوا المائة، لم يكن هناك من الشرق سوى أستريوس وآريوس، اللذين هجرا جانب الآريوسيين فى سرديكا . وعليه لا يمكن أن يوضع مجمع سرديكا فى عداد المجامع المسكونية(١٧٩)، كما أن الكنيسة الشرقية لم تدخله ضمن المجامع المسكونية السبعة التى تعترف بها.

كانت نهاية المجمع على هذا النحو إشارة البدء للفريقين، فقد تم تبادل قرارات الإدانة والعزل بين كل منهما، وتنفيذ هذه الأحكام يحتاج إلى تدخل السلطات المدنية ممثلة فى الأخوين قسطنطيوس وقنسطانز، واستبقا الطريق، فشارك إمبراطور الشرق أساقفته سخطهم الذى عادوا يحملونه من سرديكا، وعزمهم الذى رجعوا به من فيليبوبوليس ، فصبوا غضبهم على أدرنه Adrianopolis وأسقفها لوقا(١٨٠) Lucius وأسقفى العربية والبتراء(١٨١)، وكذلك ثيودولوس Theodulus . أسقف تراجانوبوليس(١٨٢) Trajanopolis وفى الغرب كان أثناسيوس ينظر بعين القلق إلى المصير الذى ينتظر قرارات المجمع وجدية تنفيذها . ولم تهدأ به الأحوال هناك، فقد غادر سرديكا إلى نيش حيث أمضى فيها شتاء عام ٣٤٤(١٨٣) فى ضيافة أسقفها جاودنتيوس، يترقب السماح له من جانب إمبراطور الشرق بالعودة إلى أسقفيته .

---

(179) Hefele, op. cit. I, 2 pp. 819-821
(180) ATHANAS. Hist. Arian. 18, 19
(181) Ibid. 18
(182) Ibid. 19
(183) FEST. IND. XVI
وراجع أيضا ATHANAS. Apol. Ad Const. 4

وفى الوقت نفسه لم يدع قنسطانز، إمبراطور الغرب، وقتا يمضى دون أن يؤيد بكل جهده ما انتهى إليه المجمع(١٨٤)، ونصب من نفسه مدافعا عن قضية الأغلبية السرديكية(١٨٥)، فأضيف إلى الصراع الكنسى بين الشرق والغرب النزاع السياسى بين عاهلى الإمبراطورية، ذلك أن أساقفة سرديكا أوفدوا من لدنهم سفارة فى مطلع سنة ٣٤٤ إلى قسطنطيوس تضم فينكنتيوس Vincentius أسقف كابوا Capua ويوفراتس Euphrates أسقف كولونى Agrippina (Cologne) (١٨٦) لاطلاعه على قرارات مجمع سرديكا بقصد انتزاع موافقته على القرارات الخاصة بعودة الأساقفة المبعدين إلى كنائسهم(١٨٧) . وانتهز قنسطانز الفرصة ليكتب هو الآخر إلى أخيه فى هذا الشأن(١٨٨)، وصحب السفارة فى رحلتها ساليانوس Salianus أحد قادة قنسطانز العسكريين(١٨٩) ومما يرويه أثناسيوس(١٩٠) وفى تفصيل ثيودوريت، ندرك أن الآريوسيين كانوا يسعون إلى عدم وصول سفارة الغرب إلى قسطنطيوس، خشية أن يؤدى ذلك، مع الصعاب التى يعانى منها فى حربه مع الفرس إلى تغيير موقفه وسواء جرت المحاولة على هذا النحو الذى يصوره أثناسيوس وثيودوريت، أو سلك الآريوسيون سبيلا آخر، فقد أخفقوا فى

(184) Kidd, op. cit. II, p. 39
(185) Robertson, op. cit. p. 47
(186) ATHANAS. Hist. Arian. 20
(187) ATHANAS. Hist. Arian. 20
(188) Id.
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 22
(189) THEOD. Hist. eccl. II, 7
(١٩٠) يصور أثناسيوس وثيودوريت محاولات الآريوسيين فى شكل مؤامرة أقدم عليها الأسقف الأنطاكى اسطفانوس، حيث يذكر إنه استأجر إحدى العاهرات وأغراها أن تتسلل إلى فراش يوفراتس أسقف كولونى أثناء نومه غير أن يوفراتس تنبه إلى وجودها، واعترفت هى بأن اسطفانوس هو الذى دفعها إلى ذلك، تكشفت بهذا خيوط المؤامرة وسرت مع الهمس ثم الضجيج عبر المدينة كلها حتى صكت مسامع القصر حيث يقيم الإمبراطور قسطنطيوس ، والرواية فى جملتها لا يقبلها العقل.
انظر ATHANAS. Hist. Arian. 20
وكذلك THEOD. Hist. Eccl. II, 7

تحقيق هدفهم، وتمكن رسل الغرب من لقاء قسطنطيوس، وسلمه ساليانوس رسالة قنسطانز، وقد جاء فيها :

" أثناسيوس وبولس فى معيتى، وإنى لعلى يقين، بعد الفحص "
" والتمحيص، أن ما نزل بساحتهما من اضطهاد، إنما سببه "
" تقواهما والورع، والآن عاهد نفسك على أن تعيدهما ثانية "
" إلى كنيستيهما و أن تعاقب أولاء الذين أساءوا إليهما دون "
" عدالـــــة ، ولسوف أبعث بهما إليك ، ولئن رفضت تنفيذ "
" مشيئتى، فكن على يقين انك ستجدنى هنا، عندك "
" لأعيدهما بنفسى رغم أنفك(١٩١) " .

كانت هذه الرسالة، تهديدا صريحا من جانب إمبراطور الغرب لأخيه قسطنطيوس(١٩٢) وقد جاءت فى الوقت الملائم للنيقية تماما، ذلك أن إمبراطور الشرق تلقى فى بداية عام ٣٤٤ هزيمة ساحقة على يد جيوش فارس عند سنجار Singara قضت على عدد كبير من قواته(١٩٣)، فى الوقت الذى كان قنسطانز يسود أقاليم الغرب ويستمد منها قوته(١٩٤)، وهكذا وجد قسطنطيوس نفسه فى مأزق حرج، فها هى زحوف سابور الثانى تمضى داخل الأراضى الرومانية فى طريقها إلى نصيبين، بعد أن تمزق عند سنجار جيش الإمبراطور، وقنسطانز فى الغرب يشهر فى وجهه سلاح التهديد من أجل نفر من الأساقفة لاذ به واحتمى، واكليروس الشرق يضيق عليه الخناق ويحثه على العناد، وراعى أنطاكية يجلب عليه الآن مشكلة جديدة . ولم يجد قسطنطيوس أمامه غير الإذعان سبيلا، فأصغى لأخيه كارها مغيظا، ولم يشأ أن يثير بدافع " الحماقة "، حسب قول سوزومنوس ، حربا أهلية من أجل نقاط الخلاف هذه(١٩٥)، فأطاع تحت وطأة الضرورة وحدها(١٩٦).

(191) SOCRAT. Hist. eccl. II, 22
(192) THEOD. Hist. eccl. II, 6
(193) Gibbon, op. cit. II, pp. 240-242
(194) Ostrogorsky, history of the Byzantine State, p. 45
(195) SOZOM. Hist. eccl. III, 20
(196) SOCRAT. Hist. eccl. II, 23

ولعل سالیانوس هو الآخر أدرك ما يختلج فى نفس الإمبراطور قسطنطيوس فسعى إليه يطلب تقديم أسطفانوس ورفاقه إلى محاكمة مدنية، وليس أمام مجمع من الأساقفة(١٩٧) وذهبت سدى احتجاجات الأسقف الأنطاكى بعدم شرعية هذا الإجراء(١٩٨) إذ إن ذلك يشكل فى حد ذاته سابقة خطيرة فى محاكمات رجال الأكليروس الآثمين(١٩٩)، مما يعطى للسلطات المدنية حقا تعتبره الكنيسة من اختصاصها وحدها، ولم يسع الإمبراطور ثانية إلا الموافقة، فقرر ومستشاروه إجراء المحاكمة داخل القصر الإمبراطوري(٢٠٠)، وانتهى الأمر بعزل إسطفانوس وطرده من أنطاكية(٢٠١) . وأعقب ذلك توجيه الدعوة لعدد من أساقفة الشرق للإجتماع فى أنطاكية للتصديق على ما تم بشان اسطفانوس، واختيار خلف له . وفى صيف عام ٣٤٤ بدأ المجمع جلساته(٢٠٢)، وأصدر قراراته بالموافقة على لفظ اسطفانوس خارج البيعة، ورسم ليونتيوس Leontius بدلا منه(٢٠٣) . ويعلق ثيودوريت على ذلك قائلا : " لا يعنى هذا أن أنطاكية قد تخلصت من الآريوسية(٢٠٤)، لقد كان أسقفها الجديد فريجي المولد يشابه كثيرا الآريوسيين القدامى(٢٠٥)، حيث تتلمذ فى المدرسة اللوقيانية(٢٠٦) التى ينتمي إليها آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى . ويتحدث عنه أثناسيوس فى لهجة قاسية فى كل ما كتب

---

(197) THEOD. Hist. eccl. II, 7
(198) Id.
(199) Kidd, op. cit. II, p. 94
(200) THEOD. Loc. cit.
(201) Ibid. 8
وراجع أيضا ATHANAS. Hist. Arian. 20
(202) SOCRAT. Hist. eccl. II, 19
(203) ATHANAS. Hist. Arian. 20
(204) THEOD. Hist. eccl. II, 8
(205) THEOD. Hist. eccl. II, 8
وراجع أيضا II, p. 94.Kidd. op. cit
(206) B. Jackson, op. cit. p. 78 n. 2

عنه[٢٠٧] . وقد تفرد بذكاء وفطنة تفوق الكثيرين[٢٠٨]، وجمع إليه فى حرص وحذر الأضداد المتنافرة مثل ديودور Diodorus وفلافيان Flavianus، وهما من الكاثوليك العلمانيين، إلى جوار شماسه وفتاه آيتيوس Aetius الآريوسى المتطرف[٢٠٩]، وتمكن بدهاء أن يسترضى جميع الأطراف، حيث كان يردد دائما عبارته الشهيرة : " إذا ذاب الجليد فلن يخلف إلا الوحل "[٢١٠] .

وقد انتهز الأساقفة المجتمعون فى أنطاكية فرصة هذا اللقاء، وأصدروا مرسوم إيمان جديد[٢١١]، أعادوا فيه مرة أخرى صيغة المرسوم الأنطاكى الرابع، مع الإضافات التى لحقت به فى فيليبوبوليس، ثم زادوا عليه شروحا وتفسيرات حتى سمى بالمرسوم المطول Macroatichos وقد خلا المرسوم كذلك شأن وثائق الإيمان الآريوسية التى سبقته من مصطلح " الجوهر" مثار الخلاف[٢١٢]، وهو يعبر عن روح الاعتدال التى فرضتها الأحداث انذاك[٢١٣] وحرص واضعوه على أن يستقوا معظم عباراته من الكتاب المقدس[٢١٤]. غير أن المرسوم تضمن إدانة صريحة مرة أخرى لأحد تلامذة ماركللوس ويدعى فوطين Photinus[٢١٥]

(207) ATHANAS. Apol. De fuga 26
ولأثناسيوس كذلك انظر Hist. Arian. 28
(208) Kidd, op. cit. II, p. 94
(209) THEOD. Hist. eccl. II, 9
(210) SOZOM. Hist. eccl. III, 20
(211) SOCRAT, Hist. eccl. 19
راجع ATHANAS. De. Syn. 26
وأيضا SEV. Hist. Sac. III.1.SVLp
(212) SOZOM. op. cit. III.11
(213) Neale, holy Eastern Church, p. 134
(214) SOCRAT. Loc. cit.
راجع أيضا ATHANAS. De. Syn. 26
(215) SOCRAT. op. cit. 11, 18
وكان فوطين هذا شماسا لأسقف انقرة، واعتنق آراء أستاذه وتطرف بها، وجهر بالقول بان الابن استمد وجوده من مريم العذراء، وانه محض انسان، وانكر وجوده قبل كل الدهور حسب ما تؤمن به الكنسية الكاثوليكية .

الذى يشغل أسقفية Sirmium (٣٤٠-٣٥١)، وكانت هذه الإدانة فى حقيقة أمرها تشمل بصورة غير مباشرة ماركللوس وأثناسيوس، حيث إنهما لم يعلنا رفضهما لما نادى به فوطين[٢١٦] .

حمل هذا المرسوم إلى الغرب يودوكسيوس أسقف مرعش، وماكيدونيوس أسقف المصيصة Mopsuesta وآخر يدعى مارتيريوس[٢١٧]، حيث كان أساقفة إيطاليا يعقدون مجمعا فى ميلانو سنة ٣٤٥[٢١٨]، غير أن هؤلاء رفضوا قبول هذه الوثيقة محاجين بانهم يعتقدون أن الإيمان النيقى هو الصيغة الواحدة الملائمة ولن يرضوا عنها بديلا[٢١٩] . وهكذا أخفقت محاولة أساقفة الشرق هذه للخروج من الحصار الذى ضرب حولهم عقب سرديكا .

والآن، وقد جرت هذه الأحداث سراعا، يضفى أثناسيوس بسببها على قسطنطيوس دون ادراك للظروف السياسية التى تحيط بالإمبراطور من الشرق والغرب، نوعا من تأنيب الضمير، عاد به إلى نفسه يلومها[٢٢٠]، ويدفعه إلى أن يصدر أوامره باستدعاء الشمامسة والقسيسين السكندريين، الذين كانوا يقضون فترة النفى فى أرمينيا، ويسمح لهم بالعودة إلى ديارهم[٢٢١] . وفى أغسطس ٣٤٤ كتب الإمبراطور إلى الإسكندرية يأمر برفع الاضطهاد عن أنصار أثناسيوس سواء كانوا من العلمانيين أو الأكليروس[٢٢٢] . وواتت بولس أسقف القسطنطينية الشجاعة، فارتحل عن بلاط قنسطانز عائدا إلى كنيسته، مزودا بقرارات مجمع

---

(216) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 37
وراجع أيضا Gwqatkin, op. cit. p73
(217) SOCRAT. op. cit. II 19
وراجع ATHANAS. De. Syn. 26
وأيضا SOZOM. op. cit. III, 11
(218) Hefele, op. cit. I, 2 p. 348
(219) SOZOM. Loc. cit.
(220) ATHANAS. Hist. Arian. 21
(221) Id.
(222) Id.

سرديكا، وتوصيات إمبراطور الغرب واثنين من الأساقفة، وآخر من ذوى المكانة فى البلاط لحمايته(٢٢٣) .

أما أثناسيوس، الذى كان يقيم آنئذ فى ضيافة قنسطانز فى أكويليا Aquileia بعد أن استدعاه الإمبراطور إليه(٢٢٤)، فأنه ظل مترددا فى العودة خشية أن يتعرض لغضبة قسطنطيوس وأساقفة الآريوسية(٢٢٥) ولكن إمبراطور الشرق كان قد قرر أن يسير الشوط كارها حتى تواتيه الأقدار، إذ يدرك أن أخاه جاد فى تنفيذ تهديده، وان الظروف السياسية والعسكرية التى تحيط به لا تسمح له مطلقا بالعناد والتحدى، ومن ثم أرسل على الفور يستدعى أثناسيوس، وكتب إليه هذه الرسالة .

" قسطنطيوس أوغسطس المنتصر إلى أثناسيوس الأسقف :

ان صفحنا الرحيم لا يمكن أن يسمح بأن تظل هكذا فى مهب الريح، تتقاذفك أمواج اليم الصخابة، ورحمتنا الواسعة لم تكن غافلة عن إخراجك من الديار، ونهب مالك وأنت على وجهك هائم فى توحد وعسر. ولتعلم أنه لم يمنعنى عن إطلاعك على ما يدور فى ذهنى إلا توقعى انك لابد من نفسك آت، سعيا لوضع الاصر عنك . ولكن يبدو أن الخوف وقف حجر عثرة فى سبيل الأقدام على تنفيذ آمالك، من أجل هذا كتبنا لنيافتك رسائل تفوح صفحا وغفرانا حتى تسرع دون خشية بالظهور فى حضرتنا حتى تعاين أريحيتنا وتحقق رغائبك. ولسوف ترجع إلى مركزك المرموق، لذا طلبت إلى أخى قنسطانز أوغسطس المنتصر، أن يأذن لك فى الرحيل، ولتكن على يقين أن رضانا وكرمنا سوف يعيدانك إلى الديار(٢٢٦) .

هذه الرسالة تفصح عن وقوف قسطنطيوس على خبيئة نفس أثناسيوس المضطربة، وتردده فى العودة إلى الإسكندرية حتى لا يتعرض لهجمات خصومه

(223) SOCRAT. Hist. eccl. II, 23
(224) ATHANAS. Apol. Ad Const. 4 وراجع أيضا
FEST. IND. XVII
(225) SOCRAT. Loc. cit.
(226) ATHANS. Apol. C. Arian, 51 وراجع
SOCRAT. Hist. eccl. II, 23

وعداء الإمبراطور، كما يبين منها أن قسطنطيوس قد كتب إلى أخيه قنسطانز رسالة، ربما جاءت ردا على خطاب التهديد الذى بعث به مع قائده ساليانوس، يخبره بعفوه عن الأسقف السكندرى . ولكن يبدو أن أثناسيوس لم يقتنع بما جاء فى رسالة إمبراطور الشرق هذى وخشى سوء العاقبة، ورغم ما كان يعتمل فى داخله من اللهف على العودة إلى أسقفيته، إلا أنه آثر الأمان فى بلاط إمبراطور الغرب ووسط ترحاب الأساقفة هناك وتقديرهم آياه، ولكنه ما لبث أن تلقى ثانية رسالة من قسطنطيوس يقول فيها :

" . . رغم المودة المفرطة التى تبدت فى رسالتنا السابقة، "

" ندعوك بكل الثقة إلى بلاطنا، لأنا فى غاية الشوق لإعادتك "

" إلى كرسيك الرفيع، فانا نبعث لنيافتك ثانية هذه الرسالة "

" نستحثك دون أدنى ريب، أن تسرع إلينا حتى تنال الرضى "

" وتحقق المنى "(٢٢٧) .

وكانت الأمور فى الإسكندرية تشجع الإمبراطور على الإلحاح فى عودة أثناسيوس، فقد كان جريجورى الكبادوكى، الأسقف الآريوسى، مريضا يعانى الانتظار الممل للموت(٢٢٨) . ويبدو أن الإمبراطور كان يتوقع هذه النهاية ويرقبها، ومن ثم أراد أن لا يدع الفرصة لفوضى جديدة قد تحدث فى الإسكندرية، بل ومصر كلها قد تؤثر على خطوط تموينه فى صراعه مع فارس، وأراد أن يستعيد أثناسيوس كرسيه حتى يمنع حدوث هذه الاضطرابات، يضاف إلى ذلك فزعه الدائم من تهديدات أخيه قنسطانز إذا ما تبقى أثناسيوس هناك فى بلاطه . غير أن أسقف

(227) ATHANAS. Apol. C. arian. 51 .
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II,23
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 9
(228) FETS. IND. XIV

الإسكندرية أثناسيوس، على حد تعبيره، لم يكن " يهتم مطلقا بالعودة "[229] لا ترفعا عنها ولكن خوفا منها، وابتغاء الأمان لدى قنسطانز .

وفى ٢٦ يونية ٣٤٥ مات جريجورى الكبادوكى[230]، فصدق حدس الإمبراطور وكان يقيم عندئذ فى الرها[231]، فلما جاءته هذه الأنباء كتب للمرة الثالثة إلى أثناسيوس على هذا النحو :

" . . . بينا نحن فى الرها إذ نفر من قساوستك حضور "
" فسرنى أن أبعث بأحدهم إليك أبتغى سرعة مجيئك إلى "
" بلاطنا، وما أن تأتى هنا حتى تتوجه على التو إلى "
" الإسكندرية . لقد مضى وقت طويل مذ تسلمت رسالتنا "
" ولكنك لم تأت، وها نحن الآن نعود فنذكر انا نتعجل مقدمك "
" إلينا، حتى تكون قادرا على العودة إلى وطنك، وحتى "
" تتحقق أمانيك، وحتى تكون على يقين تام من ذلك، فقد "
" أرسلنا إليك الشماس آخيتاس Achetas لتعلم منه علم "
" اليقين شعورنا نحوك، وانك سوف تحقق كل ما تبغى إليه "
" سبيلا "[232] .

ولابد أن يكون القساوسة السكندريون الذين جاء ذكرهم فى أول الرسالة قد ذهبوا إلى قسطنطيوس ليقدموا له الشكر على إطلاق سراح رجال الأكليروس

---

(229) ATHANAS. Hist. Arian. 21
(230) FEST. IND. XVIII.
(231) ATHAMAS. Apol. C. Arian .51
(232) ATHANAS. Apol. C. Arian. 51 وأيضا
SOCRAT. Hist. eccl. II, 23

وإعادتهم إلى الإسكندرية، ورفع الاضطهاد عن أنصار أثناسيوس، وليحملوا إليه فى الوقت ذاته نبأ وفاة جريجورى الكبادوكى، وليطلبوا منه عدم تعيين أسقف جديد خلفا له، إذ انهم مستمسكون بأثناسيوس، ويتضح هذا مما يقوله الأسقف السكندرى نفسه حين يذكر أن قسطنطيوس قد بعث إليه والى قنسطانز يؤكد أنه لن يسمح بأى تغيير فى الأمور، ولن يوافق على رسامة أى أسقف آخر، وأنه سوف يحتفظ بالكنائس لأسقفها أثناسيوس(٢٣٣)، ومن هذه الرسالة نعلم أيضا أن إمبراطور الشرق لم يكتف بمراسلاته مع أثناسيوس فقط، بل أوفد إليه أحد الشمامسة ليوضح للأسقف ما عجزت الرسائل عن احتوائه، ويؤكد أثناسيوس وصول هذا المبعوث فى كتاباته(٢٣٤) .

هكذا لم يترك قسطنطيوس وسيلة دون أن يسعى إليها فى محاولة لعودة أثناسيوس من الغرب، بل لقد ذهب أبعد من ذلك إلى الحد الذى أوحى فيه إلى خلصائه من القادة، بوليميوس Polemius وداتيانوس Datianus وطالاسوس Thalassus، وتاوروس Taurus وفلورنتيوس Florentius ممن يثق فيهم الأسقف السكندرى، بالكتابة إليه أيضا(٢٣٥) . والغريب أن أثناسيوس، رغم أن القطيعة لم تكن حتى ذلك الوقت قد ظهرت سافرة بينه وبين قسطنطيوس، ورغم أنه كان لا يزال يخلع عليه ألقاب التقوى والورع، إلا أنه لم يفكر حتى فى مجرد الرد على هذه الرسائل التى بعث بها إليه الإمبراطور، مما ترك فى نفس قسطنطيوس أسوأ الأثر، سوف تظهر نتائجه فيما بعد .

وأمام كل هذه التعهدات والضمانات الكافية، لم يكن أمام أثناسيوس إلا الارتحال عائدا إلى بيعته، فغادر على الفور أكويليا إلى تريير(٢٣٦)، ليطلب من قنسطانز الإذن له بالسفر، وليودعه شاكرا حسن الصنيع وليقدم على مذبح العرفان قربان الثناء، وبعدها

---

(233) ATHANAS. Hist. Arian. 21
(234) Id.
(235) Ibid. 22
(236) ATHANAS. Apol. Ad. Const. 4

اتجه إلى روما ليحمل إلى الكنيسة وأسقفها يوليوس كل التقدير[٢٣٧]، ولم يشأ يوليوس أن يرحل أثناسيوس دون أن يحمله رسالة الاكليروس السكندرى وجموع المسيحيين فى بيعته[٢٣٨]، تفيض كلها مدحا وإعجابا بشخص أثناسيوس واصطباره، وتمتدح فى الوقت ذاته ذلك الولاء الصادق والوفاء الذى أظهروه تجاه أسقفهم وهو عنهم بعيد، وتطلب إليهم فى النهاية حسن استقباله وكريم اللقاء .

ومن روما اتخذ أثناسيوس سبيله قادما إلى أدرنه[٢٣٩]، ثم وصل أنطاكية فى سبتمبر ٣٤٦[٢٤٠]، حيث التقى بقسطنطيوس، وهى المرة الثالثة التى لقى فيها إمبراطور الشرق، ويخبرنا أثناسيوس أن الإمبراطور لقيه بالحفاوة[٢٤١]، وان كان سقراط بأسلوبه الساخر يقول : " لم يستطع الإمبراطور قسطنطيوس أن يستقبل أثناسيوس فى هذه الآونة بشعور العداء[٢٤٢]، وتلك حقيقة لا جدال فيها، فلم يكن قسطنطيوس مدفوعا إلى أثناسيوس، إلا إرضاء لأخيه فقط وخشية وعيده، وحفاظاً على الاستقرار فى مصر، ورضوخا لظروفه العسكرية العصيبة التى تحيط به من جراء الخطر الفارسى، إلى أن تنجلى الأمور، ولعل هذا قد اتضح للوهلة الأولى من عبارة الترحيب التى استقبل بها الإمبراطور الأسقف : " لقد عدت إلى بيعتك بقرار المجمع ولكن بموافقتى[٢٤٣] . وبعدها راح قسطنطيوس يحاول إدخال الطمأنينة على نفس أثناسيوس، فاستمع منه شكايته وما كاله له الخصوم، وغضبه السابق عليه، فأخبره الإمبراطور أن هذه الأمور لم تعد بذات موضوع وأنه يشهد الرب على أن لا يسمع فى أثناسيوس من بعد وشاية[٢٤٤] .

---

(237) ATHANAS. Apol. C. Arian. 51
(238) Ibid. 52,53
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 23
(239) ATHANAS. Hist. Arian. 31
(240) ATHANAS. Apol. Ad. Const. 5
(241) ATHANAS. Hist. Arian. 22
(242) SOCRAT. Hist. eccl. II, 23
(243) SOCRAT. Hist. eccl. II, 23
(244) ATHANAS. Hist. Arian. 22

وقد طلب الإمبراطور من أثناسيوس أن يخصص كنيسة للآريوسيين فى الإسكندرية(٢٤٥) ويقول ثيودوريت أن أساقفة الآريوسية الذين يحيطون بقسطنطيوس هم الذين أوحوا إليه بذلك(٢٤٦)، وقد أجاب أثناسيوس بأنه على استعداد لان يطيع ما أمر به الإمبراطور شريطة أن يمنح للنيقيين فى أنطاكية نفس الامتياز(٢٤٧) . وهؤلاء النيقيون هم انصار بوستاتيوس الأسقف الأنطاكى الذى عزله اليوسابيون من قبل سنة ٣٣٠(٢٤٨)، وقد رفضوا الدخول فى شركة خليفته أسطفانوس وليونتيوس، وحل بهم الاضطهاد وأصبحوا يعرفون بالبوستاتيين(٢٤٩)، ولم يكن الإمبراطور يتوقع مثل هذا الرد من الأسقف السكندرى، ويعبر ثيودوريت عن الحالة التى انتابته بقوله : " أن الإمبراطور رغم أنه أبدى إعجابه بشجاعة أثناسيوس إلا أنه فى الوقت ذاته صدم بهذه الإجابة(٢٥٠) .

وقد عد قسطنطيوس ذلك تحديا له، وأسرها فى نفسه ولم يبدها له، وآثر الآن السلامة فى وقت لم يكن يمتلك عندئذ طريقا سواها، إلا أن موقف أثناسيوس، عمق من هوة الكراهة له عند الإمبراطور .

وقد ذكرنا من قبل أن قسطنطيوس سيق إلى ذلك قسرا، لذلك ودع أثناسيوس، الذى أخذ طريقه جنوبا إلى الإسكندرية، وشيعه برسائل ثلاث تعيد إلى نفسه ما خبأ من الأمان . وقد وجه الرسالة الأولى إلى أساقفة الكنيسة السكندرية والقسيسين جاء فيها :

" الوقور المهيب، الأسقف أثناسيوس، عناية الله لم تغفل عنه لحظة . لقد

---

(245) SOCRAT. Loc. cit.
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 20
(246) THEOD. Hist. eccl. II, 9
(247) SOZOM. Loc. cit.
وأيضا SOCRAT. Loc. cit.
(٢٤٨) راجع الفصل الأول :
(249) SOZOM. Loc. cit
(250) THEOD. Hist. eccl. II, 9

دخل فى تجربة بفعال بعض الرجال، ولكنه نال من عناية الله الذى يعلم السر وأخفى، تزكية هو بها جدير. لقد عاد بإرادة الله وقرارنا إلى الديار والكنيسة التى برضى السماء يرعاها . وقد رأيناه حسنا أن تجئ رحمتنا موافقة لحدث أجل . كل أمر سبق مس بسوء أولئك الذين من قبل والوه، قد نقض كل شكوك من حوله ثارت وريب، الان، وبعد الآن فلتقف . كل امتياز حازه الأكليروس الرفاق، فليبق . وقد رأيناه عدلا، أن تسع رحمتنا التى وسعته؛ كل رجالات الأكليروس، والشركة معه نعم الدليل على انسان يقظ المرام، وليكن الجميع على يقين أن من أراد أن يدخل فى عهده ويتناول شركته، فسوف تشمله رعايتنا، كما سبق له فى ذلك رفاق. ألا فليحفظكم الله "[٢٥١] .

ويتضح من الرسالة أنها تحتوى على عدة أمور على جانب كبير من الأهمية، إذ عاد فيها قسطنطيوس يؤكد أن عودة أثناسيوس انما كانت برضاه وقراره، وكأنه يريد بذلك أن يبعد عن نفسه وعن أذهان الناس شبح تهديد قنسطانز، وعودة أثناسيوس بقهر منه، يضاف إلى هذا أنه رفع الاضطهاد عن الأكليروس انصار أثناسيوس وأعاد إليهم كل الامتيازات التى كانت لهم من قبل، وألغى كل القرارات التى صدرت بالنفى أو المصادرة .

وإلى شعب الكنيسة الكاثوليكية فى الإسكندرية، جاءت الرسالة الثانية يمتدح فى بدايتها سلوك أثناسيوس، أو هى بمعنى آخر استرضاء لهم ، ثم توجه الرسالة بعد ذلك تحذيرا إلى الجموع حيث تقول :

" ... كرسوا أنفسكم دواما وفق قانون الكنيسة للتوائم والسلام، لأنه ليس من الصواب إحداث أى انشقاق أو فتنة . . .ولكى نحول دون أى اتجاه إلى الشغب أو الفتنة فى نفوس أناس طبعت على الشقاق أرواحهم، فقد صدرت أوامرنا إلى

(251) ATHANAS. Apol. C.Arian. 54.
وراجع لأثناسيوس أيضا Hist. Arian. 23
وانظر كذلك SOCRAT. Hist. eccl. 11. 23

موظفينا فى إقليمكم أن يضعوا تحت طائلة العقاب كل من تحدثه نفسه بغشيان ذلك،. لتعلموا هذا جيدا، ورغبتى تتفق مع إرادة العلى، تود أن يعمكم الخير والرفاهة، وعذابى أصيب به من ضل وغوى "(٢٥٢) .

ولاشك أن الإمبراطور كان يدرك أن الفريق النيقى فى الإسكندرية، ربما انتهز فرصة عودة الأسقف، بعد طول غياب، إلى بيعته منتصرا، ليثيرها حربا لا هوادة فيها ضد الفريق الآريوسى في المدينة، انتقاما لما أحدثه الأسقف الكبادوكى جريجورى، وما أنزله بهم فيلاجريوس النائب الإمبراطوري من اضطهاد ، ولذا أراد أن يضع من البداية جدا لأية محاولة من هذا القبيل، بل لكبت نوازع الفتنة فى صدر " كل من تحدثه نفسه بغشيان ذلك " .

أما رسالته الأخيرة فقد بعث بها إلى موظفيه فى مصر وليبيا، جاء فيها :

" لئن كانت هناك قوانين صدرت قبلا، تثلب وتحط من كرامة أولاء الذين يوالون الأسقف أثناسيوس، فإنه لمن دواعى سعادتى الآن أن تلغى كلية، وأن يعاد على أكليروسه كل امتياز لهم كان . ويهمنى تماما أن توضع هذه الأوامر على الفور موضع التنفيذ ، فما أن يعود أثناسيوس إلى كنيسته ، حتى تعاد إلى كل من والاه حقوقهم التى نالوها من قبل ذلك ، إن أمورهم وحوائجهم يجب أن تقضى بارتياح، فيتناول الجميع شركة الخير العام "(٢٥٣) .

بهذا مهد قسطنطيوس السبيل أمام عود هادئ لأثناسيوس . وقد يتبادر إلى الأذهان للوهلة الأولى أن إمبراطور الشرق، بما ظهر من حديثه المتسم بالود مع الأسقف السكندرى فى أنطاكية، ورسائله التى بعث بها هذه، قد مال فعلا إلى جانب

---

(252) ATHANAS. Apol, C. Arian. 55
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. 11,23
(253) ATHANAS. Apol. C. Arian. 56
وراجع لأثناسيوس أيضا Hist. Arian. 23
وراجع كذلك SOCRAT. Hist. eccl. 11,23

أثناسيوس، ولكن هذا الاعتقاد لا يلبث أن يزول عندما نعلم أن قسطنطيوس كان يبتغى فى الدرجة الأولى هدوءا داخل إقليمه فى هذا الوقت العصيب، فالقوات الفارسية تفرض حصارها الثانى الان(سنة ٣٤٦) على مدينة نصيبين التى تعد من أهم قلاعه فى حربه ضد سابور(٢٥٤) وكان كل ما يشغل بال الإمبراطور انقاذ هذه المدينة من السقوط فى أيدي جيش فارس، ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له حاليا بالتصدى للخلافات العقيدية، أو النظر فى قضايا الأساقفة، كما أنه لم يكن من صالحه البتة أن يرى شغبا يثار أو فتنة تستيقظ وفى مصر بالذات . ولم ينس الإمبراطور إلى جوار هذا كله أن تهديد أخيه لا يزال قائما، وهو ما يوليه كل حساب . من أجل هذا لم يكن اهتمام قسطنطيوس قاصرا على الإسكندرية وأثناسيوس، بل قبل عودة بولس إلى القسطنطينية وتنحية ماكيدونوس عن أسقفيتها، وأعاد ماركللوس إلى انقرة وعزل عنها باسيليوس، ورد غزة على اسكلبيوس ولوقا إلى أدرنه(٢٥٥) وأرسل إلى رعية الكنائس فى هذه المدن يحضها على استقبال أساقفتهم العائدين بما يليق، ويدعو الجميع للإخلاد إلى الهدوء ونبذ الشقاق(٢٥٦) .

هكذا سار قسطنطيوس الشوط إلى ما حسبه أثناسيوس منتهاه، يتبرم صمتا ويتقد غيظا، ويرقب ما يجيء به الغد .

أما أثناسيوس فقد تسلح برسائل الإمبراطور، وسلك سبيل الأمان عبر سوريا حتى أتى فلسطين، وفيها التقى بأسقف أورشليم، ماكسيموس(٢٥٧) Maximus وأطلعه على ما تم اتخاذه فى مجمع سرديكا، وما قر عليه رأى الإمبراطور من الموافقة على قرارات المجمع، واقترح عليه فى نفس الوقت عقد مجمع محلى يضم أساقفة

---

(254) Gibbon. op. cit. 11. p. 242

(255) SOCRAT. Hist. eccl. 11. 24
وراجع كذلك SOZOM. Hist. eccl. 23

(256) SOCRAT. Loc. cit.

(257) Ibid. 24
وراجع لأثناسيوس أيضا ATHANAS. Apol. C. Arian. 5
Hist. Arian. 25

المنطقة[٢٥٨] . ولبى ماكسيموس على الفور نداء أثناسيوس، ودعا إليه عددا من أساقفة سوريا وفلسطين[٢٥٩]الموالين للأسقف السكندرى أو الذين راجعوا الآن حساباتهم !!

التأم عقد المجمع فى أورشليم فى أكتوبر سنة ٣٤٦، وأعلن الجميع ترحيبهم بعودة أثناسيوس، وأعادوه إلى شركة الكنيسة[٢٦٠]، وشيعوه إلى بيعته برسالة[٢٦١] موجهة إلى الاكليروس فى مصر وليبيا ، ومن التوقيعات التى ذيلت بها الرسالة يتضح انها ضمت أسماء أساقفة كانوا قد وقعوا قبلا على قرارات مجمع سرديكا، وأوردهم أثناسيوس أيضا من قبل[٢٦٢] .

ارتحل أثناسيوس من أورشليم قاصدا الإسكندرية، وكانت المدينة قد علمت بمقدمه، فخرجت لاستقباله على مسافة بعيدة منها[٢٦٣]، ويصف جريجورى النازيانزى وصفا شائقا مظاهر هذا الاستقبال والاحتفال بعودة أثناسيوس[٢٦٤] .

---

(258) SOCRAT. Hist. eccl. II, 24.
(259) Id.
(260) ATHANAS. Apol. C. Arian. 57
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. 11,24
(٢٦١) جاء فى هذه الرسالة : " أحيانا .. إنا لنعجز والحق عن أن نقدم لإله العالمين الشكران لمعجزات أعطاها فى كل ان، وعلى الأخص الان . إذ أعاد إليكم أباكم، راعيكم أخانا المحبوب أثناسيوس . وللحق، لقد سمع منكم إله العالمين الضراعات وأشفق على الدموع من مآقيكم تنساب والانات، وتحنن للرجا والابتهالات، . .إذ كنتم منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعى لها (متى ٩/٣٦) . . . صلوا لأجل إمبراطورينا الدينين، محبوبى الرب، اللذين ما أن علما بقلق اشتياقكم من بعده، ونقاء سريرته، حتى قررا إعادته إليكم بكل الكرامة " انظر ATHANAS. Apol. C. Arian. 57
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 22
(262) ATHANAS. Apol. C. Arian.50
(263) FEST. IND. XVIII
(٢٦٤) يقدم جريجورى النازيانزى صورة رائعة للاستقبال الذى لقى به شعب الكنيسة السكندرية أثناسيوس عند عودته، ويذكر أن الجموع سواء منها الشيوخ والأطفال والنساء خرجوا جميعا كنهر دافق ينساب مئات الأميال لاستقبال أثناسيوس وبلغ به الإعجاب فى هذا الوصف أن شبه أثناسيوس بالمسيح وقد اعتلى متن أتان دخل به المدينة، كما دخل المسيح من قبل أورشليم ويذكر على لسان أحد الشيوخ أن هذا الاستقبال يفوق أى احتفال أقيم لاستقبال أى من حكام مصر عند قدومه إلى الإسكندرية.
انظر GREG. NAZ. Orat. XXI29

وفى ٢١ أكتوبر ٣٤٦، بعد غيبة قرابة سبع سنوات ونصف، دخل أثناسيوس الإسكندرية دخول الظافرين[٢٦٥] وسجل هو بقلمه هذه اللحظات[٢٦٦] . وهكذا انتصرت النيقية إذ انتصر أثناسيوس . ولقد استطاع الأسقف السكندرى خلال فترة نفيه هذه أن يثير أساقفة الغرب جميعا ضد العقيدة الآريوسية وأساقفتها، وأن ينقل صراعا هو من صميم الشرق وحده إلى عالم الغرب وفكره . نفس الدور الذى قام به يوسيبيوس النيقوميدى، مع خلاف فى الاتجاه والميدان، حتى لقد أصبحت الكنيسة الغربية تدافع عن الإيمان النيقى وأثناسيوس باعتبارهما متلازمين، وأضحت قضية أثناسيوس، على حد تعبير أحد المؤرخين[٢٦٧]، قضية الغرب بعامة" . ونجح الأسقف السكندرى أيضا فى أن يستثير عطف قنسطانز، وان يحوز ثقته وإعجابه، بل وكان أدنى إلى أن يشهر سلاحه فى وجه قسطنطيوس . ربما لم يسع أثناسيوس إلى أن يشعل بين الشقيقين حربا، أو أن يوقع بينهما عداوة . ولكنه أفلح فى أن يجعل من أساقفة الغرب جميعا، وعلى رأسهم الإمبراطور، انصارا له يمدون إليه يد العون فى كل حين وآن، يتحدى بقوتهم إمبراطور الشرق وأساقفته .

وكانت الجولة الثانية هذه، بين جولات أثناسيوس الخمس، من أعظمها أثرا، إذ انها تمثل النجاح الكامل لأسقف الإسكندرية فى تنفيذ الشق الأول من دعامتيه اللتين ارتكزت عليهما جهوده فى صراع كنيسته والإمبراطورية . ولعل أثناسيوس لم يضع منذ البداية خطة يسير بمقتضاها إذ دهمته الأحداث مرة واحدة ، ولكن الأحداث وحدها هى التى ساقت إليه مقدمة هذا السبيل عندما بعث به قسطنطين الكبير إلى الغرب مبعدا، والى هنا يقف دور الأحداث، ويبدأ الأسقف السكندرى يتلمس خطاه فى

---

(265) Gwatkjin, op. cit. p. 73

(٢٦٦) كتب أثناسيوس يصف هذه اللحظات بقوله : " من تراه الآن لم يصل به العجب عنان السماء وهو يرى السلام يهفو فوق الكنائس بأجنحة السلام ؟ ! من تراه لم تسر العين منه للوفاق يجمع أخوة الإيمان ؟! كم تاب من الخطاة ؟! كم من الآثمين ندم ؟! لقد أتى جمعهم يسعى يطلب الصفح ويلتمس الغفران ".
انظر ATHANAS. Hist. Arian. 27

(267) Lè Bachelst, op. cit. Col. 2147

وعى دقيق وذكاء، حتى أتى جهده فى النهاية ثمرته المرجوة . فإذا كان أثناسيوس قد جئ به إلى الغرب فى المرة الأولى رغم أنفه فقد أتى بنفسه إليه فى المرة الثانية وبملء إرادته، ليواصل جهوده من أجل نصرة قضيته وقضية الإيمان النيقى .

لم يكن الغرب حتى سنة ٣٣٥، عام نفيه الأول، يعلم عن مدى عمق هذا الجدل العقائدى شيئا أو يريد، أو حتى يقدر ، ولم يكن يعرف عن أثناسيوس نفسه سوى أنه الشماس السكندرى الذى ظهرت فى نيقية سنة ٣٢٥ براعته . وحتى فى نيقية لم يكن للغرب بين الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا، حضور المجمع، إلا ثمانية أساقفة فقط ، ولكن أثناسيوس استطاع أن يرتفع بهذا العدد، خلال أقل من عشر سنوات قضاها هناك على مرحلتين ، إلى قرابة المائة فى سرديكا كلهم يؤيدونه وينصرون ، ولم يكن هذا الحماس الجارف من أساقفة الغرب تجاه أثناسيوس، نابعا عن فهم عميق من هؤلاء لمتاهات الجدل اللاهوتى، فقد أسلفنا أن الغرب لم يكن على نفس القدر مع الشرق فى الفكر والنزعة العقلانية فى اللاهوت، بل كانوا حسب تعبير المؤرخ المعاصر سولبكيوس سفروس " عديمى الخبرة قليلى الثقافة "[٢٦٨] .

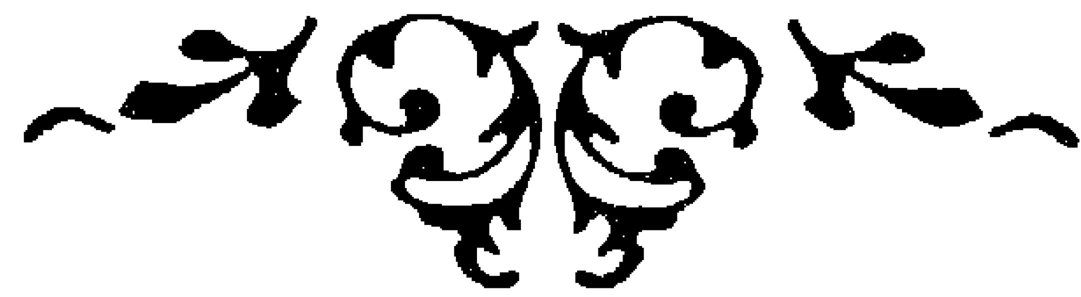
لقد ورث الغرب إيمان الأسلاف دون أن يكلف نفسه عناء البحث وراء أسرار هذه العقيدة وغوامضها . فلما جاء آريوس يخاطب العقل ويجادل محاولا بناء المعتقد المسيحى على أساس عقلى، تابعه الشرق جله، على حين وقف الغرب يناصر أثناسيوس، إذ رأى فيه مصدقا لما بين يديه من عقيدة أسلافه السكندريين، ممثلا للإيمان النيقى ، وهذا المعنى أشار إليه سوزمنوس عند حديثه عن المجمع النيقى[٢٦٩]، وأفصح أساقفة الغرب عن ذلك فى رسالتهم التى بعثوا بها إلى الإمبراطور قسطنطيوس سنة ٣٥٩ بشان ما تم فى مجمع ريمينى[٢٧٠]، من أجل

(268) SVLP. SEV. Hist. sac. II, 41
(269) SOZOM. Hist. eccl. 1. 17
(٢٧٠) راجع الفصل السادس وانظر أيضا *
SOCRAT. Hist . eccl. II, 27; ATHANAS. De. Syn. 10
وكذلك THEOD. Hist. eccl. II, 15; SOZOM. Hist. eccl. IV, 8

هذا تراص أساقفة الغرب يعضدون الأسقف السكندرى ومن ورائهم وأمامهم سلطان الإمبراطور .

لقد اتشحت النيقية برداء النصر والفخار يوم دخل أثناسيوس الإسكندرية ظافرا ، ولكنه كان نصرا بزغ غاربا !

الفصل الخامس



ركيزة النضال الأثناسى

الفصل الخامس

ركيزة النضال الأثناسى

عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية بعد أن ارتحل عن الإسكندرية والدنيا جريجورى، وكانت الأحداث، على النحو الذى جرت به آنفا ، تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى أن الفترة القادمة (٣٤٦-٣٥٦) سوف تكون من أهم الفترات التى اعتلى فيها أثناسيوس كرسى أسقفية الإسكندرية ، فقد رجع من منفاه بعد أن استطاع أن يجمع أساقفة الغرب الإمبراطورى إلى جانبه، وتمثل ذلك بوضوح فى المجمع الذى عقده هؤلاء فى مدينة سرديكا سنة ٣٤٣، وأصدر قراره فى صالح أثناسيوس ووجوب عودته إلى كنيسة الإسكندرية، بل إن أثناسيوس تمكن أن يحصل على تأييد إمبراطور الغرب قنسطانز إلى الحد الذى دفع هذا الأخير إلى أن يبعث برسالة تهديد إلى أخيه قسطنطيوس إمبراطور الشرق يحثه فيها على ضرورة السماح لأثناسيوس بالعودة إلى كرسيه الأسقفى. هذا إلى أن السبيل أصبح ميسرا أمام الأسقف السكندرى بعد وفاة جريجورى الكبادوكى الذى كان يحتل مكان أثناسيوس طوال سبع سنوات (٣٣٨-٣٤٥)، وبعد أن أعلن قسطنطيوس عزمه على انتهاج سياسة جديدة تجاه كنيسة الإسكندرية وأسقفها، كما أفصحت عن ذلك رسائله التى عرضنا لها من قبل .

وقد حرص أثناسيوس منذ الوهلة الأولى لعودته، على أن يدعم سيادته وسلطان أسقفيته على كل كنائس مصر والمدن الخمس الغربية وليبيا، ليواصل بذلك جهوده التى كان قد بذلها فى هذا السبيل خلال أسقفيتيه الأولى والثانية(١). فلم يترك مدينة واحدة مر بها على طول الطريق من بلوزيوم إلى الإسكندرية، إلا وقد أخذ يعظ الجموع فيها محذرا من التعاطف مع الآريوسيين، داعيا إياهم إلى الدخول فى شركة أولئك الذين يعترفون بالعقيدة النيقية وحدها، وقام بسيامة عدد من

---

(١) راجع الفصل الأول .

الأساقفة على بعض الكنائس الشاغرة[٢] وعلى كل من يعلم انتماءهم للآريوسية، ووضع سلطة بيعته وأمانة المعتقد النيقى فى يد أنصاره[٣]، حتى إذا دخل الإسكندرية دعا على الفور أساقفة كنيسته إلى التوقيع على قرارات مجمعى سرديكا وأورشليم التى صدرت فى صالحه[٤]، حتى يعلن لخصومه تمسك الأكليروس السكندرى بأسقفهم الشرعى.

وكان طبيعيا، كما يقول جلانفيل دوانى Glanville Downey أن يظهر وسط هذه التيارات المتصارعة وتغيرات الأحداث، ووجود إمبراطورين على عرش الإمبراطورية، وتباعد الآراء العقيدية وتنافرها، نوع من رجال الدين الدنيويين، الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية شعب الكنيسة فى أسقفياتهم، بقدر ما جعلوا همهم محصورا فى المناورات الدبلوماسية داخل البلاط الإمبراطورى[٥] وهم من هذه الناحية يمثلون الأساقفة السياسيين الذى لا يتعلقون بفكر عقيدى معين، وإنما يهبون أنفسهم للفريق الذى يحقق لهم السيادة على الكنيسة بعامة. وإلى هؤلاء ينتمى فالنز أسقف مورسا، وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم (فى بانونيا)، وقد علمنا من قبل[٦] انهما كانا ضمن أساقفة مجمع صور الذى أدان أثناسيوس وعزله سنة ٣٣٥، وانهما اشتركا فى لجنة التحقيق التى جاءت إلى مريوط، وشاركا بدور إيجابى فى أعمال مجمع فيليبوبوليس حيث كانا على رأس الذين رفضوا الانضمام إلى أساقفة مجمع سرديكا، وقادا جموع أساقفة الجزء الشرقى من الإمبراطورية عائدين إلى فيليبوبوليس. ورغم هذا الماضى الطويل فى الآريوسية، وحتى الان (سنة ٣٤٧)، إلا انهما هجرا فجأة ذلك الجانب، بعد أن رأيا الزمن يجرى الآن فى غير صالحه، وأسرعا يعلنان مناصرتهما للفريق النيقى. وسوف تبرهن الأحداث بعد ذلك أن الآريوسية لم تشهد مثل رجلى بانونيا هذين، سعيا من أجل رفعتها على

(2) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 24
(3) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 21
(4) ATHANAS. Apol. C. Arian. 25, 26
وراجع أيضا SOCRAT. op. cit. II,26
(٥) انظر أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس، ترجمة الدكتور البرت بطرس، ص ٣٨ .
(٦) راجع قبله .

العقائد المسيحية الأخرى، ليس إيمانا بها يقينا، ولكن لأن الدولة أرادت للآريوسية أن تعلو على ماعداها، ولم تغب هذه الحقيقة عن ذهن المؤرخ الناقد سقراط عندما حدث عنهما قائلا : " إنهما دائما يلقيان بنفسيهما فى الجانب الذى يملك بيده النفوذ والسلطان "(٧).

وتمشيا مع هذه السياسة ظل فالنز وأورساكيوس يرقبان بحذر ما تسفر عنه اجتماعات سرديكا وما صدر فى النهاية عنها، والموقف الذى اتخذه قسطنطيوس بعد تهديدات قنسطانز له، فلما أيقنا أن كل السبل قد أصبحت مهيأة لنجاح النيقية وأثناسيوس، هرعا دون تردد يستبقان إلى روما ليعلنا على الملأ توبتهما والندامة، ويطلبان الصفح والغفران(٨)، وشفعا هذه الضراعة بالرسالة التالية:

" من أورساكيوس وفالنز إلى السيد المبارك البابا يوليوس . . . . لما كان معلوما تماما أنا من قبل سقنا الكثير من الاتهامات المجحفة ضد الأسقف أثناسيوس، وحيث إنا، عند تلقينا رسائل جودكم، لم نستطع ان نقدم تبريرا عما آتيناه مقنعا، فإننا نعترف الآن أمام بركم وفى حضرة كل رجال الكنيسة، أن كل ما طرق مسامعكم قبلا عن قضية أثناسيوس، محض زيف وافتراء، ومناف بالكلية لخلقه. ومن ثم فإننا نتحرق شوقا للدخول فى شركة أثناسيوس اذا ما تعطف رحماكم، ومروءة شخصكم، فغفرتم لنا ما كان منا. بل اننا نعلن أنه إذا جاء حين رغب فيه أساقفة الشرق أو حتى أثناسيوس نفسه تقديمنا للمحاكمة، فلن نخرج على قضائك"(٩).

والرسالة إلى هذا الحد تفصح عن طبيعة أسقفى مورسا وسنجيدونوم فقد

(7) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 37
(8) ATHANAS. Apol. C. Arian, 58
(9) Id.
وله أيضا Hist. Arian, 26
انظر كذلك SOZOM. Hist. Eccl. III, 23

ساقا ضد الأسقف السكندرى عددا من الاتهامات، اعترفا هنا أنها ليست من الحقيقة فى شـىء، ومـا ذلك إلا ليظهرا أمام يوليوس وأساقفة الغرب، صدق التوبة التى جـاءا مـن أجلها. ولا شك انهما كانا يقدران أن بيعتهما تقعان فى الإقليم المتاخم لحـدود قنسـطانز الذى نصب من نفسه حاميا للنيقية، وانهما سيكونان أول من يقع فى يدى إمبراطور الجزء الغربى إذا ما ساق قواته لقتال أخيه دفاعا عن أثناسيوس والهوموسـية تـنفيذا لوعـده إذا سـولت لقسطنطيوس نفسه أن يتغاضى عن تنفيذ قـرارات مجمـع سـرديكا، ولهذا أراد الأسقفان أن تكون توبتهما صريحة قاطعة فاختتما الرسالة قائلين :

" ... أما آريوس، ذلك المهرطق وبطانته، الذين يقولون أن هناك زماناً الابن فيه لم يكن، والابن من العدم جاء ولا يعرفون بأن المسيح ابن الله قبل كل الدهور، فليكونوا أناثيما... لقد كتبنا هذا بأيدينا، ونعترف إلى الأبد اننا ننكر الهرطقة الآريوسية ونمقت أصحابها.

أنا أورساكيوس الموقع على اعترافى هذا بنفسى، ومثله أنا فالنز ".

هكذا أعلن الرجلان فى دهاء ميلهما إلى جانب أثناسيوس، لقد أنكرا الآريوسية، وأنزلا اللعنة على آبائها، كما كتبا، ولكنهما لم يعترفا صراحة بالهوموسية عقيدة نيقية، ولم يقدما وثيقة إيمان يقران فيها " المساواة فى الجوهر بين الابن والآب، مثار النزاع . ومن قبل فعل هذا أساقفة القسم الشرقى فى أنطاكية فى المرسوم الأول الذى صدر عن مجمع التدشين[١٠]، اذ تبرأوا من التبعية لآريوس، ولكنهم ظلوا يؤمنون بعقيدته. وهاهما فالنز وأورساكيوس يسلكان نفس السبيل، بلعن آريوس وأصحابه، وانكار عقيدته دون الإقرار بالإيمان النيقى، فتركا لنفسيهما بذلك بابا غادا منه أدراجهما عندما انتصرت الآريوسية بعد سنة ٣٥٣. وقد تمادى الأسقفان فى مسلكهما، فبعثا إلى أثناسيوس بخطاب جاء فيه :

" من اورساكيوس وفالنز، الأسقفين، إلى الأسقف أثناسيوس السيد والأخ،

(١٠) راجع قبله .

إنا لننتهز هذه الفرصة لنرسل من أكويليا مع زميلنا موسى Musaeus القس، تحية بالود مليئة، أيها الأخ الحبيب، ضارعين أن تكون – كما نحب، فى موفور الصحة حتى تقرأ خطابنا هذا، ولسوف تمنحنا الثقة إن كتبت لنا رداً لتطمئن قلوبنا بأنا وإياكم فى سلام وفى شركة الكنيسة، ولترعاكم عناية الرب أيها الأخ الحبيب"(١١).

وهذا الخطاب كما يبدو منه يزيد موقفهما غموضا، وطبيعتها إيضاحا، فهو لا يتضمن أكثر من التمنيات الطيبة للأسقف السكندرى. وهو يختلف تماما عن رسالتهما إلى يوليوس، فلم يرد فيه شيء عن مسألة العقيدة، ولا لعنهما لآريوس وآرائه وأتباعه. بل الأهم من هذا كله انهما لم يذكرا لأثناسيوس، وهو أحق بهذا من يوليوس، باعتباره صاحب القضية، تبرئته من الاتهامات التى سيقت ضده وقادته إلى المنفى بعيدا، ولا شك أن هذا يفسر ما ذهبنا إليه من أن كل ما كان يعنيها استرضاء أساقفة القسم الغربى وإمبراطوره، حتى لا يفقدا فى لحظة من نزوات غضبه منصبيهما، وحتى يبدوان أمام الجميع هناك انهما ليسا داعية شقاق.

لعله مما يزيد المسألة جلاء أنهما انتهزا فرصة وجود اثنين من قساوسة أثناسيوس فى أكويليا، بطرس Peterus وايرينايوس Irenaeus ، يحملان رسائل السلام التى بعث بها الأسقف السكندرى إلى عموم الأساقفة بعد عودته إلى الإسكندرية، فوقعا عليها دون توان(١٢)، على الرغم من أن أثناسيوس نفسه، على حد تعبيره لم يبعث أليهما شخصيا شيئا من هذه الرسائل، ولا أعطاهما شركة الكنيسة(١٣). ويبدو أن أثناسيوس قد قبل من الأسقفين شعورهما هذا(١٤)، وراح يشيد بالسلام الذى أظل الكنيسة بعد أن حرمت منه فترة ليست بالقصيرة(١٥)، ولكن

---

(11) ATHANAS. Apol. C. Arian. 58
وله كذلك Hist. Arian . 26
وأيضا HILAR. Fragm, 1I 20 (P. L, X646)
وانظر أيضا SOZOM. Hist. Eccl. III,24
(12) ATHANAS. Hist. Arian.26
(13) Id.
(14) ATHANAS. Apol. C. Arian.58
(15) ATHANAS. Hist. A rian.27

سقراط يعلق على هذه الواقعة بسخريته اللاذعة قائلا(١٦). " هكذا أذعن أورساكيوس وفالنز فى هذه الفترة بالذات لقدر أثناسيوس المنتصر " .

انصرف أثناسيوس لمباشرة شئون كنيسته ورعايتها(١٧)، يشد من أزره داخل مصر جماعات الاكليروس المؤيد التى لم تتخل عن أسقفها أثناء نفيه، وتحملت فى سبيل ذلك النفى أو المصادرة من جانب حاكم مصر فيلاجروس والأسقف الكبادوكى جريجورى(١٨).

غير أن القوة الحقيقية التى ارتكز عليها أثناسيوس الآن، كانت تتمثل فى هؤلاء الآلاف من الرهبان الذين تمتلئ بهم صحراء مصر، وذلك النفوذ الكبير والتأثير العميق الذى يتركه أولاء فى نفوس جموع المسيحيين فى عصر وجدت فيها روايات المعجزات سبيلها إلى أفئدة البسطاء، والاعتقاد الكامل لدى العامة بالذات أن الرهبان هم أكثر الناس حظا فى هذا الميدان(١٩)، وسوف نعرض هنا للقيمة الحقيقية التى يمثلها هؤلاء(٢٠) وما كان يحمله الأسقف السكندرى للرهبان من تقدير، والولاء الكامل الذى يكنه هؤلاء لأثناسيوس، وكيف أفادت أسقفية الإسكندرية من هذا الترابط الوثيق بين الأسقف والرهبان(٢١) حتى لقد

---

(16) SOCRAT. Hist. Eccl. II,24

(17) FEST. IND. XVIII-XXII

(١٨) راجع الفصل الثانى.

(19) ATHANAS. Vita. Ant. 51-54

(20) French. The Eastern Orthodox Church, p. 136

وراجع Hulme, The Middle Ages, p.33

وأيضا Cantor, op. cit. P. 184

وراجع أيضا Lot, histoire du Moyen Age, 1, p. 336

وانظر كذلك Painter, history of the Middle Ages, p. 18

وكذلك Kidd, op. cit. II, p.104

(٢١) ليس هنا مجال الخوض فى حديث عن نظام الرهبانية فى مصر. ونشأته بالتفصيل. سواء فى شكله التوحدى فى الصوامع، أو الجماعى فى الأديرة. ذلك النسق من الحياة الذى كانت مصر أول مناطق العالم المسيحى فى القرون الميلادية الأولى التى اتجهت إليه، كما ان الأسباب التى أدت إلى وجود هذا النظام على تعددها وكثرتها ليست مما يندرج ضمن موضوع بحثنا هذا فذلك كله يحتاج إلى دراسة خاصة ومستفيضة. راجع للمؤلف – ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى، الفصل الأول ، وله أيضا ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى الفصل الرابع .

أضحى هؤلاء العماد الثانى والأهم الذى أقام عليه أثناسيوس خطته فى نزاعه مع الأباطرة، بعد أن يفقد الغرب عندما ينجح الإمبراطور قسطنطيوس فى فرض سيادته على الإمبراطورية كلها عام ٣٥٣.

يخبرنا جيروم فى دراسة ممتعة عن أول الرهبان المسيحيين فى مصر، أن بولس كان ذلك الرجل، رغم اعتقاد الكثيرين، حسب قوله، أن انطونيوس هو الذى سبق الجميع فى هذا الميدان، ويدلل على صدق رأيه بما رواه له اثنان من تلامذة انطونيوس نفسه وهما أماتاس Amathas ومقار Macarius[٢٢]. من أن بولس، الذى كان أحد أبناء طيبة، هرب بنفسه إلى الصحراء زمن اضطهاد دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١) وفاليريان Valerianus (٢٥٣-٢٦٠)[٢٣] ويذكر جيروم أن انطونيوس كان يحمل الاعتقاد انه أول من سلك هذا السبيل إلى أن علم بعد ذلك بوجود بولس فارتحل للقائه[٢٤]. ويضيف جيروم أن انطونيوس تملكته الدهشة عندما أخبره بولس بمعرفته بالأسقف السكندرى أثناسيوس وإعجابه بشخصه[٢٥]، ويقول ميتدنا، اذا كان بولس هو أول من وضع نسق هذه الحياة فإن انطونيوس يعد المؤسس الحقيقى والرائد لنظام الرهبانية "[٢٦].

وقد ترك أثناسيوس صورة مثالية للحياة النسكية المسيحية تعد فى رأى معظم المؤرخين[٢٧] نموذجا رائعا لحياة الرهبان ضمنها كتابه عن حياة القديس انطونيوس Vita S. Antonii الذى وضعه فى الفترة ما بين عامى ٣٥٦-٣٦٢، ويقدم فيه وصفا شيقا عن نشأة انطونيوس وفضائله واختياره طريق الزهد

(22) HIER. Vita Pauli, 1
(23) Ibid. 4-6
(24) Ibid. 7-10
(25) HIER. Vita Pauli, 12
(26) Ibid. 1
(27) Artz, op. cit. P. 116
وراجع كذلك Cantor, op. cit. P. 184
وأيضا Vasiliev, op. cit. 1, p. 121

والعزلة[٢٨] ويحدث فى فصول كثيرة[٢٩] بعد ذلك عن المعجزات التى أتى بها، مما دفع بعض المؤرخين[٣٠] إلى اعتبار ذلك نقصا يعتور قيمة الكتاب، وصفحات الكتاب كلها تدل بوضوح على ذلك القدر الكبير من الإعجاب الذى يعتمل فى نفس الأسقف تجاه الرهبانية والنسكية، والاحترام الخالص لأبى الرهبان انطونيوس.

ويتفق الدارسون على أن "حياة أنطونيوس" كان له أكبر الأثر فى وقوف العالم المسيحى على هذا النسق من الحياة، وانتشاره من مصر إلى الخارج[٣١]، إلى الحد الذى لم يحظ كتاب آنذاك بمثل ما حظيت به هذه الترجمة من التقدير والانتشار وخاصة فى مصر وغرب آسيا وأوربا[٣٢] وقد نال أنطونيوس شهرة فائقة وسرت سمعته عبر صحارى مصر كلها على حد تعبير سوزومنوس[٣٣]، حتى لقد كان، كما يصفه جيروم على لسان كل انسان فى مصر[٣٤]، ولما كان أنطونيوس من أسرة مصرية صميمة[٣٥]، ولا يعرف اليونانية[٣٦] لغة الحديث والثقافة فى تلك الفترة فقد جعله ذلك قريبا إلى الأفئدة على امتداد النهر من طيبة إلى فم النيل، وجذبت طرائق الحياة التى ارتضاها، إليه هؤلاء، وأيضا أولئك الذين يحدثون باليونانية[٣٧] وهنا تكمن أهمية الرجل واعتزاز أثناسيوس به إلى الحد الذى

(28) ATHANAS. Vita Ant. 1-4, 67, 68, 93
(29) Ibid. 5-12, 51-54, 57-66
(30) Artz, op. cit. p. 30
(31) Neander, Christian religion and Church, 111 p. 367
وراجع :
Kidd. op. cit. 11, p. 104; Lot, op. cit. 1, p. 336; Painter, op. cit. p. 18;
وراجع كذلك Vasiliev, op. cit. 1, p. 121
وأيضا : Stanley, op. cit. P. 229; Hardy. op. cit. P. 59
(32) Waddell, The desert Fathers, p.2
(33) SOZOM. Hist. Eccl. I, 13
(34) HIER. Vita Hilar. 3
(35) ATHANAS. Vita Ant. 1
(36) Ibid. 72
(37) Ibid. 70

سار فى ركبه مودعا حتى أبواب المدينة(٣٨) عندما جاء انطونيوس إلى الإسكندرية سنة ٣٣٨ ليشد من أزر أسقفها فى صراعه مع الآريوسيين، بل لقد كتب انطونيوس إلى قسطنطين من أجل أثناسيوس(٣٩).

وإذا كان أنطونيوس يعد رائد الرهبانية فى مصر ومؤسسها الحقيقى فإن باخوم Pachomius (٢٩٢-٣٤٦) يعتبر واضع أسس النظام الديرانى(٤٠)، حقيقة كان أنطونيوس فى بدء اختياره لهذا الطريق متوحدا(٤١)، ولكن جماعات المريدين والرهبان تكاثروا من حوله، وانتشرت الصوامع حيث كان يقيم(٤٢)، غير أن باخوم هو الذى وضع لهذه الحياة الرهبانية نظمها وطرائقها، واستطاع أن يحول المظهر المتفرق للدافع النسكى إلى شكل منظم للحياة الجماعية(٤٣). وقد أورد سوزومنوس تفصيلا كاملا للأسس التى كانت تقوم عليها العلاقات بين أفراد الدير الباخومى فى طابنا Tabennesi (قرب أخميم Panopolis)، والواجبات التى يلتزم بها كل منهم تجاه الآخرين(٤٤)، ويقول أن باخوم قد قسم جماعته التى تحيط به والتى يبلغ عددها نحو ألف وثلاثمائة إلى أربع وعشرين مجموعة، ميز كلا منها بحرف من الأبجدية اليونانية(٤٥)، ويضيف ومعه بالاديوس Palladius أن هؤلاء الرهبان الطابنيين قد قاربوا بعد ذلك الآلاف السبعة(٤٦). ومن حديث سوزومنوس نتبين أن

---

(38) Ibid. 71

(٣٩) راجع قبله.

(40) Bullough. Roman Catholicism, p. 245
وأيضا Ware, The Orthodox church, p. 45, 6
وراجع كذلك O'Leary, op. cit. 319

(41) ATHANAS. Vita Ant. 14

(42) Ibid. 15

(43) Robertson, op. cit. p. 84.

(44) SOZOM. Hist. Eccl. III, 41

(45) PALLAD. Hist. Laus. 31-34 ,Id.

(46) SOZOM. Loc. cit.
وأيضا PALLAD. Loc. cit

النظام الباخومى كان يشبه إلى حد كبير التشكيلات العسكرية فى دقتها وانضباطها[٤٧]، ويعلق على ذلك بقوله :

" لقد كان جميع رهبان مصر ينظرون إلى مجتمع طابنا باعتباره الأم، ويرون فى قواعده آباءهم والأمراء[٤٨]" .

وكان باخوم معاصرا لأثناسيوس، وإن كان قد مات سنة ٣٤٦، وهو العام الذى عاد فيه الأسقف إلى الإسكندرية بعد نفيه الثانى، ولكن أثناسيوس أفاد من هذا النظام الدقيق الذى وضعه باخوم للرهبان[٤٩]. وتمثل ذلك واضحا خلال مراحل النفى الثلاث الأخيرة التى تعرض لها الأسقف السكندرى وفى منطقة وادى النطرون Nitria أسس الراهب آمون Ammon ديرا آخر،سرعان ما تقاطر إليه الكثيرون ممن ارتضوا هذه الحياة، حتى امتلأ بهم الوادى[٥٠] يحدهم جيروم بخمسه آلاف راهب[٥١].

ولما كانت هذه الجماعة أقربها إلى الإسكندرية، فقد وجد فيها أثناسيوس ملجأ آمنا يحتمى به إبان الاضطرابات التى عانى منها، نتيجة عداء الأريوسيين والإمبراطور، بل كان قادرا من هناك على أن يراقب سير الأمور فى أسقفية الإسكندرية[٥٢]، ومما يرويه بالاديوس فى تاريخه[٥٣]، ندرك تلك القوة الهائلة التى كان يشكلها أولئك الرهبان، بحماستهم الشديدة وغيرتهم الدينية وصلابة أرواحهم، وإلى جوار هذا كله أعدادهم الهائلة على امتداد صحراء مصر.

---

(47) SOZOM. Hist. eccl. III, 41
وراجع أيضا O'leary, op. cit. p. 319
وكذلك Kidd, op. cit. II, p. 104
(48) SOZOM. Hist. Eccl. III, 14
(49) Budge, Stories of the holy Fatheres, p. 51
(50) SOZOM. op. cit. IV. 23
(51) HIER. Ep. XXII. 33-36
(52) O'leary. op. cit. P. 323
(53) PALLAD. Hist. Laus.

ففى المناطق المجاورة للإسكندرية كان عدد الذين التقى بهم ألفى راهب. وفى وادى النطرون خمسة آلاف ومثلهم فى البهنسا Oxyrhynchus داخل المدينة، ومثلهم خارجها، وفى ليكوس Lycus (قرب أسيوط Lycopolis) مجتمع ضخم لا يذكر لنا عدده، وتضم الأديرة الباخومية فى طابنا سبعة آلاف، أما مدينة "انطينوى" Antinoe (الشيخ عبادة حاليا) فيسكنها ما يزيد على اثنى عشر ألف راهب، ويخص منطقة النطرون بالأهمية.

ويعلق بودج Budge على ما يرويه بالاديوس بانه لو صدقت أحاديثه عن أعداد أولئك الرجال فى كل هذه المناطق، لبدا على الفور واضحا أن هذا الجمع الضخم من الرهبان المصريين يشكل جيشا حقيقيا، وقوة كافية لمقاومة أى إجراء غير شعبى قد تصدره الحكومة الإمبراطورية[٥٤]، يحتمون فى ذلك بهذه الأديرة التى تحميها الأسوار العالية والبوابات الضخمة، فقد كانت نزلهم هذه تجمع فى شكلها العام صفتى الدين والقلعة، يمثل أطلالها الآن دير القديس سمعان بالقرب من أسوان[٥٥]، ويضيف أوليرى O'Leary أن الرهبان زمن أثناسيوس كانوا الحلفاء المخلصين للأسقف السكندرى فى صراعه مع الآريوسية، وكان رهبان النطرون أكثر من غيرهم ارتباطا بهذه الأحداث، وكثيرا ما وجدت فيهم سلطات الإسكندرية مصدرا للمتاعب[٥٦].

وتأتى هذه الأهمية، كما أسلفنا لقرب المنطقة من الإسكندرية، وقد كان أثناسيوس حريصا تماما على أن يضمن ولاء الجهات المحيطة بالمدينة، ولعل أبلغ الأدلة على ذلك تلك الرسالة التى تعد من أشهر ما خلفه أثناسيوس، وبعث بها إلى أحد الرهبان ويدعى دراكونتيوس Epistola ad Dracontium عندما رفض قبول رسامته على دمنهور Hermopolis Parva وجاء ذلك فى عام٣٥٤ أو ٣٥٥على أبواب نذر السوء المتوقعة للأسقف السكندرى[٥٧]، وقد لامه فيها بصورة

(54) Budge. op. cit. 51
(55) Id.
(56) O'Leary, op. cit. p. 327

(٥٧) انظر بعده

عنيفة لهذا الموقف الذى اتخذه، وحثه على الطاعة حتى لا يدع الفرصة للخصوم لتولى مقاليد هذه المنطقة الهامة(٥٨).

ولما كانت حركة الاضطهادات العامة والعنيفة التى تعرض لها المسيحيون على عهد الإمبراطورين دكيوس وفاليريان، دافعا أساسيا، إلى جانب الرغبة فى محاكاة المسيح وتفسير الكتاب المقدس بصورة حرفية، إلى فرار عدد كبير من المسيحيين إلى الفيافى والقفار هروبا بالعقيدة، وخلاصا للروح كما يحدث بذلك الأسقف السكندرى ديونيسيوس(٥٩)وجيروم(٦٠)، فقد حمل هؤلاء معهم فى رحلة الزهد، العداء الكامن لسلطان الإمبراطورية التى كانت تنظر إليهم فى الوقت ذاته بعين الريبة، باعتبار مسلكهم هذا خروجا على سلطة الدولة وعزوفا عن المشاركة فى الحياة العامة وواجبات الأفراد تجاه الدولة(٦١).

ولما كان هؤلاء الرهبان مصريين خلصاء، ولم يتأثروا باليونانية لغة ولا الهلنستية ثقافة، فقد ظلوا على الولاء للغتهم الأصلية وثقافتهم المصرية(٦٢)، ونظروا أيضا من هذه الزاوية نظرة الكراهية لهؤلاء المضطهدين باعتبارهم أجانب عن هذه البلاد دخلاء، يمثلون سيادة غريبة مقيتة، أثقلت كواهلهم بالضرائب(٦٣) وهى الآن تحاول صرفهم كرها عن عقيدة وجدوا فيها العزاء عن واقع القسوة الذى يعيشون، من جراء الحروب الأهلية و الأزمات الاقتصادية التى كانت تكابدها الإمبراطورية فى النصف الثانى من القرن الثالث للميلاد.

ولما كانت الإسكندرية هى قصد الاضطهاد الوثنى وهدفه، فقد أصبحت محورا التف حوله هؤلاء الضاربون فى الفلوات، ووجدت الكنيسة فيهم هى

(58) ATHANAS. Ep. Ad. Dracont. 1-2,6
(59) EVSEB. Hist. Eccl. VI, 42
(60) HIER. Vita Pauli, 2-6
(61) Hardy, op. cit. P. 37
(62) Aymard. Histoire génerale des civilisations. II. P. 556
وراجع O'Leary, op. cit. 318
وأيضا Stanley op. cit. 130
(63) Cantor. op. cit. P. 48

الأخرى نعم النصير، وحتى بعد أن انقشعت غيوم الاضطهاد، فجأت الكنيسة آراء آريوس فازداد الرهبان ارتباطا بالكنيسة وازدادت هى قربا. وكانت معرفة أثناسيوس باللغة المصرية، لسان الرهبان، أسرع وسيلة، كما يقول أحد المؤرخين(٦٤) لإيجاد الألفة العميقة والمودة الصادقة بين الكنيسة والرهبان. ولقد تبدى ذلك جليا فى تلك الأمثلة التى قدمناها عن العلاقة الوثيقة التى كانت تربط بين أثناسيوس وانطونيوس ومن ورائه كل هذه الجموع، نضيف إليها أن أثناسيوس عند ارتحاله إلى روما مكرها سنة ٣٣٩ لم يصطحب معه إلا اثنين كانوا من الرهبان أحدهما يدعى آمون، يحدثنا عنه سقراط(٦٥) فى خشوع ووقار.

هذا بالإضافة إلى أن رهبان مصر كانوا يشاركون أساقفة الغرب ذلك الإيمان السلفى والحرص على عقيدة الآباء، كما رأى الاكليروس الغربى فى أثناسيوس تابعا أمينا للكنيسة الأولى، يقدم لهم المعتقد دون إعمال للفكر ، ولذا حاز أثناسيوس ثقتهم فى الوقت الذى بدت الآريوسية فى أعينهم غريبة، ولدى النفوس مقيتة، فقد كانت فوق طاقة فكرهم وثقافتهم، اذ تعتمد العقل والمنطق منهاجا. وقد أفصح أثناسيوس(٦٦) عن هذا المعنى صراحة فى حديثه عن أبى الرهبان أنطونيوس، وسوف ترينا الأحداث من بعد تلك الجهود التى بذلها الآريوسيين للفوز بنصرة أولئك الجموع وتأييدهم ولكن دون جدوى.

ولاشك أن الرهبان قد وجدوا فى شخص أثناسيوس تجسيدا عما يعتمل فى نفوسهم من عداء نحو السلطة الإمبراطورية بعد أن وقف يجابه تحدياتها، وفى صوامع الرهبان والأديرة الممتدة على شطآن النيل وعبر الصحراء، كان أثناسيوس يستقبل بالحفاوة عندما تضيق به العاصمة. وهكذا وضع أثناسيوس نفسه، على حد تعبير نفر من الدارسين(٦٧)، على رأس الحركة الرهبانية، بل إن جريجورى

(64) Hardy, op. cit. P. 74
(65) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 23
(66) ATHANAS. Vita Ant. 72-73
(67) Robertson. op. cit. P. 48
Kidd. op. cit. II, P. 195 وراجع

النازبانزى يذهب إلى أن أثناسيوس وضع من خلال رواية حياة انطونيوس قوانين الحياة الديرية[٦٨]، ولا جدال أن التطور السريع فى نظام الرهبانية المصرية، والحماس الدافق الذى كسبه أثناسيوس من هؤلاء الغيورين، يأتى فى المرتبة الأولى بين الأسباب التى أدت إلى تقوية مركز أثناسيوس فى الأسقفية وتدعيمه[٦٩]. وكان الرهبان السر الحقيقى وراء الحيوية والنشاط الذى بدا على الأسقف السكندرى أثناء فترة نفيه الثالث[٧٠]، وكان هذا راجعا دون شك إلى جهده الرائع فى تنظيم هذه القوة(٧١). وقد تمثل ذلك تماما عندما أخذ أثناسيوس يملأ الأسقفيات الشاغرة بأصدقائه الرهبان، سرابيون فى تمى (الأمديد) Thmuis وبولس فى اسنا Latopolis ومويس Muitus (Muis) فى طيبة العليا وغيرهم فى أماكن أخرى[٧٢] وما لبث الرهبان حين عاد أثناسيوس سنة ٣٤٦ أن أرسلوا إلى الإسكندرية وفدا من جماعة طابنا ليشارك فى إحدى احتفالات المدينة باستقبال الأسقف السكندرى وحمل الوفد رسالة تهنئة بسلامة العودة من أبى الرهبان انطونيوس[٧٣].

وشاءت الأقدار أن تسعى لأثناسيوس بالحظ دفعة واحدة، فيحدثنا روفينوس[٧٤]ويتابعه سقراط[٧٥]، وسوزمنوس[٧٦] وثيودوريث[٧٧]عن قصة ذلك الشاب

(68) GREG. NAZ. Orat. XXI, 5
(69) Robertson. op. cit. P. 48
وراجع Kidd. op. cit. 105
وأيضا Stanley. op. cit. P. 229
(٧٠) انظر بعده .
(71) Robertson. op. cit. P. 48
وراجع Kidd, op. cit. P. 106
(72) ATHANAS. Ep. Ad. Dracont. 7
(73) KIDD, op. cit.. P. 105
وراجع Robertson. op. cit. 48
(74) RVFIN. Hist. Eccl. I,9 (P. L. XXI478-480)
(75) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 19
(76) SOZOM. Hist. Eccl. II, 24
(77) THEOD. Hist. Eccl. I, 22

الصورى فرومنتيوس Frumentius (٧٨) الذى كان يعمل فى بلاط ملك أكسوم Auxuma وجاء إلى الإسكندرية وعرض على أثناسيوس حالة هذه المنطقة وحاجتها إلى كنيسة وراع، وأدرك أثناسيوس على الفور، حسب تعبير سقراط، كم يبدو ذلك عظيم الأثر والنفع، وأيقن انه ليس هناك من يصلح لمثل هذه المهمة سوى فرومنتيوس نفسه الذى وقف على طبيعة أهلها وتعرف إليهم ، ومن ثم رسمه أسقفا، وبهذه الأهلية عاد فرومنتيوس ليصبح أول أسقف على كنيسة الحبشة، وقد تم رسمه على يد أسقف الإسكندرية. وسواء صدقت الرواية أم تدخلت الأسطورة فى بعض أحداثها، فالذى لاشك فيه أن الكنيسة المسيحية فى الحبشة قد تلقت أول سياسة لها بالأسقفية من كنيسة الإسكندرية، وأن فرومنتيوْس كان أول أساقفتها، وان انثاسيوس هو الذى قام بترسيمه.

ويختلف الدارسون حول الفترة التى وقعت فيها هذه الأحداث، فيرى بعض(٧٩) انها حدثت فى أول عهد أثناسيوس بالأسقفية، ويرجح آخرون(٨٠) أن ذلك ربما كان فى عام ٣٤٠. ونحن نعلم أن أثناسيوس قضى السنوات السبع الأولى من أسقفيته (٣٢٨-٣٣٥) متنقلا بين القسطنطينية والإسكندرية وصور ثم القسطنطينية ثانية حيث صدر قرار نفيه الأول، كما أن الجهود التى بذلها وهو يذرع مصر جيئة وذهابا من أجل تدعيم سلطان أسقفيته، وجهوده المضنية ضد التحالف المليتى

(٧٨) يذكر مؤرخو الكنيسة هؤلاء أن رجلا من صور يدعى ميروبيوس Meropius وفى صحبته صبيان هما اديسيوس Edesius وفرومنتيوس ذهبوا فى تجارة فى المحيط الهندى وأثناء عودتهم ألقت السفينة مراسيها اضطرارا على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر، حيث وقع الجميع أسرى فى أيدى أهالى هذه المنطقة، ولقيت القافلة مصرعها، وتشفع غض العمر للصبيين فشفع لهما وقدما هدية لملك الحبشة وعملا فى خدمته، أما أحدهما فيسقى ربه خمرا، وأما الآخر، فرومنتيوس فكان لدى الملك أثيرا لما بدا عليه من سمات الورع والتقوى. وراح فرومنتيوس يختلط إلى التجار المسيحيين القادمين إلى أكسوم ويسعى وإياهم لنشر المسيحية فى هذه المنطقة. فلما تاقت إلى الديار نفساهما وسمح لهما بذلك، أقلع اديسيوس إلى صور، على حين قدم فرومنتيوس إلى الإسكندرية .

(79) Robertson. op. cit. 48.

(80) Atiya, op. cit. P. 51.

وراجع Hyatt, The Chyrch of Abyssinia,p. 31

الآريوسى، كل ذلك لم يكن يسمح له بأن يبسط رعايته على إقليم جديد، ولو فعل ذلك لاستغلها اليوسابيون ووجهوا إليه بها اتهاما، كما سيفعلون بعد قليل حين عودته من نفيه الثانى عندما اتهموه برسم أساقفة فى مناطق ذكروا أنها لا تخضع لسلطانه فى طريقه من بلوزيوم إلى الإسكندرية(٨١) أما القول بعام ٣٤٠ فلا يمكن التسليم به. فقد أسلفنا أن أثناسيوس كان قد غادر الإسكندرية إلى روما سنة ٣٣٩ ولم تقع عملية ترسيم فرومنتيوس فى روما بل فى الإسكندرية، هذا من ناحية، والأخرى أن قسطنطيوس بعد نفيه أثناسيوس للمرة الثالثة (سنة ٣٥٦) كتب إلى عيزان Aezannes ملك أكسوم يطلب إليه أن يرسل فرومنتيوس ليتلقى رسامته على يد الأسقف الجديد جورج(٨٢) Georgius الذى خلف أثناسيوس، ولو أن أثناسيوس كان قد رسم فرومنتيوس سنة ٣٤٠، لكان قسطنطيوس قد طلب إلى فرومنتيوس أن يرسم ثانية على يد جريجورى الكبادوكى وليس جورج، ومن ثم نرى حدوث هذه الواقعة أمرا مقبولا فى السنوات الأولى (٣٤٧-٣٤٩) بعد عودة أثناسيوس من نفيه الثانى.

على أن ما يعنينا من وراء هذا أن أثناسيوس قد كسب بذلك الحادث أرضا جديدة أبعد عمقا، يستطيع أن يعتمد عليها إذا ما تجدد الصراع مع خصومه فى العقيدة وإمبراطور الشرق قسطنطيوس، وكانت ضفاف النيل والصحراء على امتدادها من عند أثناسيوس إلى فرومنتيوس تمتلئ بأشد أنصار أثناسيوس حماسة وغيره، وغدا الأسقف السكندرى الآن فى أمر العقيدة سيد مصر والمدن الخمس الغربية، وصاحب النفوذ فى ليبيا والحبشة بلا منازع، هذا بالإضافة إلى أن اكليروس هذه المناطق قد أعطى توقيعاته على قرارات مجمع سرديكا، وأظهر فالنز وأورساكيوس ندمهما وتابا، وتوارى خصوم الأسقف، وأذعن لإرادة القهر قسطنطيوس وساد الكنيسة سلام.

(81) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 24
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. III, 21
(82) ATHANAS. Apol. ad. Const. 31

خلال هذه السنوات (٣٤٦-٣٥٦) أمسك أثناسيوس قلمه، وكتب عددا من أشهر أعماله، فأخرج فى سنة ٣٥٠-٣٥١[٨٣] دفاعه ضد الآريوسيين Apologia Contra Arianos، الذى يعد المصدر الرئيسى لتاريخ الكنيسة فى النصف الأول من القرن الرابع[٨٤]، ويعتبر ملفا كاملا للوثائق التاريخية الهامة التى حرص أثناسيوس على إبرازها للتدليل على براءته من الاتهامات التى رماه بها التحالف المليتى اليوسابى. وكان أثناسيوس غاية فى الذكاء عند ترتيبه لهذه الوثائق فى مجال الدفاع، وهذا الترتيب فى حد ذاته يجيء دليلا عمليا على النهج الذى سار عليه الأسقف فى مواجهته لهؤلاء الخصوم ومن ورائهم السلطة الإمبراطورية. بدأ أثناسيوس عمله برسالة مجمع الإسكندرية سنة ٣٣٨/٣٣٩ إلى عموم الأساقفة[٨٥]، فوضع بهذا بادئ ذى بدء أمام الجميع شهادة الإكليروس المصرى، وثنى ذلك بالخروج من النطاق المحلى، إلى أساقفة إيطاليا ممثلين فى مجمع روما ٣٤٠، وقد أدلوا بشهادتهم على لسان يوليوس أسقف روما فى رسالته إلى أساقفة الشرق[٨٦]، فضم بذلك إلى أصوات الإكليروس السكندرى إكليروس كنيسة روما. ثم أردف بعدئذ المرحلة الثالثة وهى أهمها على الإطلاق، حيث وقف إلى جواره عالم الغرب جميعا وقد التقى أساقفته فى سرديكا سنة ٣٤٣، وقدم الوثائق الثلاث التى صدرت عن المجمع، وهى رسائله إلى كنيسة الإسكندرية[٨٧]، وأساقفة مصر وليبيا[٨٨]، ثم الرسالة إلى عموم الأساقفة[٨٩].

---

(83) Cavallera. op. cit. 12
وراجع Bardennwer. op. cit. II, p.
وأيضا Kidd. op. cit. 11. P. 107
(84) Robertson. op. cit. P. 97
وراجع Kidd. op. cit. II, p. 108
(85) ATHANAS. Apol. C. Arian. 3-19
(86) Ibid. 20-35 .
(87) Apol. C. Arian. 36-40 .
(88) Ibid. 41-43
(89) Ibid. 44-50

وبهذا التسلسل المنطقى المتسم بالحصافة قدم أثناسيوس أدلة تبرئته فى شكل وثائقى، ولما كان يدرك أن قرارات الأساقفة مهما بلغت قوتها، تصبح عديمة الجدوى دون تأييد سلطة الدولة، وأن أساقفة الشرق ومتهميه لا يعيرون ذلك كله التفاتا دون عون الإمبراطور، فقد أعقب وثائق سرديكا مباشرة برسائل قسطنطيوس إليه فى أكويليا(٩٠)، حتى لا يدع الفرصة أمام اليوسابيين لاتهامه من جديد انه عاد إلى أسقفيته بصورة غير شرعية كما حدث عند عودته سنة ٣٣٧، فهو قد جاء الان بناء على قرار مجمعى روما وسرديكا وبإذن من إمبراطور الغرب وبدعوة من قسطنطيوس، ثم يضم أثناسيوس إلى كل هذه الأدلة خطابات التوصية التى حملها من يوليوس عندما غادر روما(٩١) وتلك التى حمله إياها قسطنطيوس عند لقائه معه فى أنطاكية(٩٢)، ومن أساقفة مجمع أورشليم(٩٣)، وببراعة المدافع الماهر الفطن أيقن أثناسيوس انه ليس أروع من أن يختم الجزء الأول من دفاعه، الذى انصب فقط على السنوات الثمانى الأخيرة (٣٣٩-٣٤٧)، بإيراد شهادة اثنين من زعماء الخصوم أنفسهم، حتى لو جاءت ماكرة غامضة، فقدم رسالتى(٩٤)، فالنز وأورساكيوس إلى يوليوس واليه واللتين أوردناهما آنفا.

وقد يكون الواقع التاريخى ومجرى الأحداث هو الذى أوحى إلى أثناسيوس بترتيب دفاعه على هذا النحو، ولكن لانها كانت مشكلته التى يعانى منها وقضية الساعة، فقد أراد لها أثناسيوس أن تكون كذلك، ففى النصف الثانى من دفاعه هذا يعرض بالوثائق أيضا علاقته مع الإمبراطور قسطنطين الكبير، وصراعه مع اليوسابيين، وهذا الجزء من دفاع أثناسيوس على جانب من الأهمية التاريخية كبير، إذ يعرض فى مؤلفه هذا للأحداث التى وقعت من قبل عقد مجمع صور سنة ٣٣٥،

(90) Ibid. 51
(91) Ibid. 52
(93) Ibid. 44-56
(93) Ibid. 57
(94) Ibid. 58

ورسائل[٩٥] الإمبراطور قسطنطين إليه، واعترافات الخصوم وخاصة ايسخيراس[٩٦] Ischyras وأرسينيوس[٩٧]، ثم يقدم دراسة وثائقية للأحداث التى واكبت المجمع الصورى، وشهادات البراءة التى كتبت فى صالحه من جميع أساقفة مصر[٩٨] واكليروس مريوط[٩٩]، واسكندر أسقف سالونيك[١٠٠] ويورد بعد ذلك رسالة قسطنطين إلى المجمع والتى يخبرنا فيها الإمبراطور بسماعه لظلامة أثناسيوس ودعوته الأساقفة لتقديم تقرير عن الإجراءات التى اتخذوها ضد الأسقف السكندرى[١٠١]، ثم الخطاب الذى بعث به مجمع أورشليم سنة ٣٣٥ إلى الإسكندرية بشان قبول آريوس فى شركة الكنيسة[١٠٢].

ويبدو أن أثناسيوس أراد بوضع هذه الوثائق فى النصف الثانى من دفاعه، أن يمحو من أذهان الأساقفة جميعا، ما قد يكون لازال عالقا حول الاتهامات السابقة التى وجهت إليه زمن قسطنطين الكبير، وهكذا تجلت حصافته، كما أشرنا، فى أنه عرض أولا بالوثائق لمجريات الأحداث التى تزيل من النفوس سحابات الشك حول الأسقف، بإقرار أساقفة مصر والغرب بعامة وبعض من فلسطين، ولا بأس بعد ذلك من أن يقف الجميع على براءته كذلك أيام قسطنطين، ولعله بذلك يريد أن يقول، إنه على الرغم من اعترافات الخصوم انفسهم بزيف ما قدموه، فقد تعرض لنقمة الإمبراطور وتم نفيه، ولعله أيضا كان مقتنعا بما جاء فى رسالة قسطنطين الثانى من أن هذا النفى ما جاء إلا تخليصا له من أيدى اليوسابيين. وقد ناقشنا هذه

---

(95) ATHANAS. Apol. C. Arian. 61-68
(96) Ibid. 64
(97) Ibid. 69
وراجع للمؤلف : الدولة والكنيسة جـ٢ ص٢٤٥-٢٤٧
(98) Ibid. 64
(99) Ibid. 74, 75, 76,
(100) Ibid. 80
عن هذه الأحداث جميعها راجع للمؤلف : الدولة والكنيسة ، جـ٢ . الفصل السادس .
(101) Ibid. 86
(102) Ibid. 84

المسألة من قبل. ولذلك رأى أثناسيوس أن خير ما يختم به دفاعه كلية هى رسالة قسطنطين هذه إلى الإسكندرية والتى حمله إياها إلى بيعته.

هكذا حرص أثناسيوس منذ الوهلة الأولى التى خطا فيها أول خطوة على أرض مصر عائدا من الغرب، على أن يدعم نفوذه ويثبت سلطانه. وكان رهبان مصر، بمصريتهم الخالصة وإيمانهم السلفى البسيط وحرصهم على تحدى سلطان روما، يمثلون حجر الزاوية فى قوة أثناسيوس، وسلاحه الماضى الذى أرهق به خصومه الألداء .. قسطنطيوس وجوليان وفالنز أباطرة الرومان، حتى انه يمكن القول صراحة، أنه لولا رهبان مصر، لما تمكن الأسقف السكندرى من التصدى طيلة هذه السنوات للسلطة الإمبراطورية دفاعا عن كرسيه والعقيدة.

ولم يفت أثناسيوس أن يدعم هذه القوة بسلاح الكلمة، فوضع قرابة الأربعين عملا، ما بين كتاب ورسالة وخطبة ومقال. شحذ فيها قلمه وفكره للرد على خصومة الآريوسيين، وتجنيد الأنصار الخلصاء من رجال الأكليروس. وضمن هذه الكتابات عددا كبيرا من الوثائق الهامة، وإن كان أثناسيوس لم يترك عملا عقائديا خالصا.

الفصل السادس



السلام القلق

الفصل السادس

السلام القلق

خيل لأثناسيوس أن الأمور بذلك أصبحت ملك يمينه، فالغرب بإمبراطوره واكليروسه من أجله يهدد سيد الشرق ويتوعد، ومصر برهبانها ورجال الدين في كنيستها تحمل له الإخلاص والولاء، وقسطنطيوس يظهر المودة والرضى . وحسب أثناسيوس أن السلام لن يلبث أن يبسط على الكنيسة جناحيه، ولكن الأقدار كانت تخبئ له ما لم يدر بخلده أبداً.

إذ ما كاد ينتهي من كتابة دفاعه هذا ضد الآريوسيين، أو حتى قبل أن يتمه، حتى حملت إليه الأنباء خبر موت قنسطانز. وكان قنسطانز قد تصدى بشجاعة للدفاع عن جبهة الراين ضد القبائل الجرمانية [١]، غير أن صرامته أدت إلى أن يفقد شعبيته لدى الجنود، كما أن الجهود التى بذلها من أجل تحسين العملة وما تبعها من إجراءات اقتصادية، ساقت عليه غضب مواطنيه[٢]، فاشتركت العناصر المدنية والعسكرية على السواء في مؤامرة تزعمها ضابط من أصل جرمانى[٣] يدعى ماجننتيوس Magnentius. تمكن من اغتيال إمبراطور الغرب قنسطانز في "النا" Elna أقصى جنوب غالة [٤] فسيطر ماجننتيوس بذلك على الغرب الإمبراطورى.

ولكن النجاح الذى أحرزه هذا الفتى أغرى كثيرين غيره من الطموحين بأن يحـــذوا حـــذوه، ففى الليريا Illyricum أعلن القائد العجوز فترانيو Vetranio نفســـه إمبراطورا بإيعاز قسطنديا Constantia أخت القتيل، وتشجيع من الجنود

---

(1) Martin,op. cit.1,p.302
(2) Boak,op.cit.p.436
(3) Jones, The Roman Empire,p.401
(4) SOZOM.Hist. eccl. IV.1 ,SOCRAT. Hist. Eccl. II,25
وأيضا cit. II,197.Duchesné,op

وذلــك فــي أوائــل مــارس عــام ٣٥٠[٥] . أمــا في إيطاليا فقد قام نبوتيانوس Nepotianus في يونية من العام، واحتل المدينة، وحمل اللقب الإمبراطورى[٦].

هكــذا أمســت الإمبراطورية تحمل فوق عرشها أربعة أباطرة، وشهد القسم الغــربى فوضى الحرب الأهلية وصراعاتها، بينما القسم الشرقى يتعرض للهجمات المتتالية من جانب الفرس، وأصبح قسطنطيوس موزع الفكر بين مجابهة فارس، أو الاشــتراك فــي هــذه الحــرب الأهلية بدعوى الدفاع عن حقوق أخيه قنسطانز، وبأســلوب الدهاء، يأخذنا سقراط من وسط هذه الأحداث الصاخبة، إلى ما وقع منذ ســنوات طويــلة .فيذكــر أن دالماتيوس Dalmatius أحد أفراد بيت قسطنطيوس شارك أبناء قسطنطيوس الثلاثة الحكم فترة قصيرة بعد وفاة أبيهم مباشرة ثم ما لبث أن قــتل غيــلة عــلى يد جنده، ويعلق سقراط أن قسطنطيوس "لم يأمر بقتله و لم يحاول منعه" ويضيف "وكذلك حدث عندما قتل قسطنطيوس الثانى"[٧]. وهذا التعبير مــن جــانب الــناقد سقراط يصور قسطنطيوس شخصية طامعة في أن تفيد إلى أقصــى حــد من أحداث زمانها، وقد لا تحركها ولكنها لا تتوانى عن اهتبالها إذا جادت بها الفرصة.

ولذلك ليس من المبالغة في شئ القول إن قسطنطيوس بعد أن ملك أخوه قنسطانز ثلثى الإمبراطورية، حكم في القسم الشرقى من الإمبراطورية، ولم يطلب إلى أخيه شيئا من الأقاليم التى استولى عليها بعد مقتل أخيه قسطنطيوس الثانى. فلما قتل الآن قنسطانز لعبت بنفسه نوازع السيادة، وهب للأخذ بثأر أخيه، يقصد السيطرة الكاملة على الإمبراطورية كلها. وهكذا عمل قسطنطيوس بهدوء، فترك خصومه يقتتلون، حتى إذا أفنوا بعضهم، تمكن هو في النهاية من بسط سيادته على الإمبراطورية .

---

(5) SOCRAT . Hist. Eccl. II,25
أيضا Duchesné, op. cit. II, p. 197
وراجع كذلك Jones, Loc.cit.
(6) SOCRAT.Loc.cit
وأيضا Jones, Loc.cit
(7) SOCRAT.Loc.cit

لم ينعم نبوتيانوس بالعباءة الأرجوانية طويلا، إذ سرعان ما دخلت قوات ماجننتيوس روما، وقتلته[٨]. وهكذا غدا ماجننتيوس حاكم الجزء الغربى للإمبراطورية بلا منازع . وفى الوقت ذاته تخلص قسطنطيوس من أحد الطامعين في العرش، بقتل نبوتيانوس، دون أن يخسر جنديا من قواته، وأتاح له الهدوء النسبى على جبهة الفرات، أن يزحف بقواته غربا الى الليريا لمعالجة فتنة فترانيو، فلما أتى سيرميوم حلت المشكلة نفسها، ذلك أن الجنود الذين صنعوا فترانيو إمبراطورا، أدركوا أنهم يواجهون قوة لا قبل لهم بها، فهجروا صنيعهم وانضموا الى قسطنطيوس ، وحذا فترانيو حذو جنده، فتقدم الى قسطنطيوس يطلب المغفرة، فغفر له، وأجرى له رزقا كريما، وظل بعد ذلك يكاتب الإمبراطور من مقامه في بورصه Pursa في بيثينيا Bithynia بآسيا الصغرى، يشكر له فضل تحريره من قيود السلطان[٩]، وبهذا سيطر قسطنطيوس على شبه جزيرة البلقان وولايات بانونيا، واتخذ من سيرميوم مستقرا ومقاما[١٠].

أضحى الرجلان، قسطنطيوس وماجننتيوس وقد جمعت بينهما مواجهة عسكرية لا ريب فيها، فراح كل منهما يعد العدة للقاء خصمه، فخلف ماجننتيوس غالة وخف متجها إلى الشرق بعد أن جعل من أخيه دكنتيوس Decentius قيصرا[١١] لحماية جبهة الراين من خطر الجرمان الذين قيل إن قسطنطيوس قد بعث يستميلهم إليه[١٢]، على حين استدعى قسطنطيوس إليه سنة ٣٥١ ابن عمه جاللوس Gallus وعينه قيصرا وبعث به إلى أنطاكية للحفاظ على الجبهة الشرقية[١٣]- ووجه بقية قواده الى ماجننتيوس وزودهم بالقوات اللازمة لقهره[١٤].

(8) SOCRAT.Hist. eccl. II,25
(9) SOCRA. Loc. cit.
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV.4
(10) SOCRAT. Loc. cit.
وأيضا SOZOM. Loc. cit
(11) SOCRRAT. Hist. Eccl. II, 32
(12) SOZOM. Hist. Eccl. V,1
(13) SOCRAT. Hist. Eccl. II,28
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV,4
(14) SOCRAT. Loc. cit.

ولا شك أن العاهلين كانا يقدران تماما القيمة الحقيقية لمصر، بما تتربع عليه من بقعة ممتازة، وما تمثله من أهمية اقتصادية للإمبراطورية، ولهذا كان من البديهى أن يسعى كلاهما لاسترضاء الأسقف السكندرى، ومحاولة ضمه إلى صفه في هذا الصراع السياسى العسكرى، ولا شك أن هذا يعد اعترافا صريحا منهما بما كان لأثناسيوس من مكانة مرموقة في مصر ونفوذ لدى الجموع. ولم يكن ماجننتيوس بغافل عن السمعة العريضة والشهرة التى حازها أثناسيوس في عالم الغرب، ولا كان في مقدور قسطنطيوس أن ينكرها، فضلا عما يعلمه هذا بالذات عن سلطان أسقف الإسكندرية في مصر وهيمنته الكاملة على نفوس شعب الكنيسة، وقدرته على توجيهها والرهبان الى أى وجهة هو موليها. من أجل هذا جاء إلى الإسكندرية وفد يمثل ماجننتيوس ويتكون من كلمنتوس Clementus وفالنز Valens، وكانا ضمن السفارة التى بعث بها ماجننتيوس الى قسطنطيوس في محاولة لإقرار السلام بينهما، فانفصلا عنها وسلكا طريق ليبيا حتى الإسكندرية[١٥]، ويبدو أنهما كانا يحملان الى أثناسيوس رسالة شفهية من ماجننتيوس للوقوف على مدى استعداده للمساهمة في تأييده، لأن أثناسيوس اضطر أن يدافع عن نفسه بعد ذلك أمام قسطنطيوس بأنه لم يتلق رسالة من ماجننتيوس، ولا رد عليه بكتاب[١٦].

وليس هناك مصدر آخر غير أثناسيوس كتب عن هذه الواقعة، ويبدو من حديثه أنه استقبل الوفد "بدموع الحزن على الإمبراطور الراحل"[١٧]، ولا مجال للشك في صدق هذه الدموع، فنحن نعلم مدى الصلة الوثيقة التى كانت تربط الأسقف بقنسطانز، وندرك يد الفضل التى قدمها القتيل لرجل الإسكندرية، ولهذا فليس من المعقول، كما حدث أثناسيوس نفسه، "أن يصافح يدا امتدت لقتل الرحمة والتقى "[١٨].

وهكذا كان لا بد أن يخفق الوفد في مهمته إلى الإسكندرية خاصة وأن

(15) ATHANAS. Apol. Ad. Const.9
(16) Id.
(17) Ibid. 10
(18) Ibid. 10

قسطنطيوس لم يكن الآن قد دخل في دور الخصومة العلنية والعداء السافر مع الأسقف السكندرى، وليس أدل على ذلك من أن قسطنطيوس حرص آنذاك على أن يدخل الطمأنينة إلى نفس أثناسيوس، التى لا بد انتابتها الهواجس بعد مقتل نصيرة في الغرب، حتى لا يدع الفرصة لمنافسه ماجننتيوس في السعى للفوز بتأييد الإسكندرية، وقد حملها باللاديوس Palladius أمين البلاط، وأستريوس Asterius الذى كان من قبل حاكما لأرمينيا (١٩).

"قسطنطيوس أغسطس المظفر الى أثناسيوس "
" لا يخفى على فطنتك، كيف أنى على الصلاة عاكف"
" والضراعة حتى أحقق بالنجاح كل ما كان ينتويه أخى"
" الراحل قنسطانز ، وسوف تدرك حكمتك بجلاء، كيف أنى"
" مغتم، فقد كلمت بعد اذ أتانى نبأ اغتياله بيد الأوغاد"
" الآثمين، والآن نظرا لأنا على يقين من أن البعض يسعى "
" دوما لإيقاع الأذى بك و الضرار، منتهزين فرصة المأساة "
" الأليمة فإنا قد رأيناه حسناً أن نبعث لنيافتكم هذه "
" الرسالة، نحضك فيها، وأنت بالأسقفية قائم، أن تعلم "
" الناس كيف الخلود إلى السكنية، وبالدين يقومون "
" ولتشاركهم كما اعتدت الصلوات، فهذا ما يتفق ورغائبنا "
" كما أن إرادتنا تود أن نراك دائما أسقف المكان .ألا "
"فليحفظك الرب سنين عددا "(٢٠).

والرسالة أمر صريح إلى الأسقف السكندرى بالتزام الهدوء، والانصراف إلى أداء الطقوس الكنسية، وحث الجموع على التمسك بأهداب السلام، فذلك مما يتفق ورغبات الإمبراطور، وهى في الوقت ذاته اعتراف واضح بما للأسقف من

(19) ATHANAS. Apol. Ad. Const. 7 .
(20) ATHANAS. Apol. Ad. Const.22

مكانة بين الجموع، والدور الذى يمكن أن يؤديه إبان هذه الأزمة العصيبة التى تتعرض لها الإمبراطورية . ثم هى بالإضافة إلى كل ذلك إقرار بالصلة الوثيقة التى كانت تربط أثناسيوس وقنسطانز، وكيف أن إمبراطور الغرب كان بالفعل حاميا لأسقف الإسكندرية ونصيرا .

على هذا النحو اطمأن قسطنطيوس وهدأ من روع أثناسيوس، وانطلق لملاقاة خصمه، وعند مورسا Mursa وفي الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ٣٥١، دارت رحى معركة فاصلة، ضاقت فيها الدائرة على ماجنتيوس(٢١) ولم تقم له من بعد قائمة، حقيقة استطاع النجاة بنفسه، وبقى يتعلق بأمل باهت طيلة عامين بعد ذلك حتى سنة ٣٥٣، فلما أيقن أنه يسعى إلى السراب اتخذ سيفه متكئا واسلم للموت روحه(٢٢)، فألقى الحظ بثقله دفعة واحدة في كف قسطنطيوس، فاعتلى منفردا عرش الإمبراطورية .

وكانت السنتان الفاصلتان ما بين هزيمة ماجننتيوس في مورسا ثم موته في ليون، فاصلتين فيما يتعلق بقضية النيقية وأثناسيوس، والعقيدة الآريوسية . حرص فيهما الإمبراطور على ترتيب خطوه القادم قبل الأسقف السكندرى، وقد ضمن الآن أن مصر لن تنضم إلى خصمه ماجننتيوس، وأن أسقفها يرفع أكف الضراعة له بالنصر، تشاركه الجموع(٢٣)، وأساقفة الشرق جميعا يقفون من ورائه يؤيدونه ويعضدون، وكنائس الغرب تترقب نتيجة الصراع بنفس قلقة وفؤاد يرتاب.

وقد أورد المؤرخ سولبيكيوس سفروس، دون غيره، قصة قسطنطيوس مع

---

(21) SOZOM. Hist. Eccl.IV,7.
وراجع SOCRAT. Hist. Eccl. II, 32
(22) SOCRAT. Hist. Eccl. II,32
وايضا SOZOM. Hist. Eccl.IV.7
(23) ATHANAS. Apol. Ad. Const.25

أسقف مورسا عند اللحظات الحاسمة التي سبقت المعركة الفاصلة(٢٤). والغرض من هذه القصة واضح تماما، فكاتبها يقدم بها لتلك المكانة المرموقة التي أحرزها فالنز لدى الإمبراطور بعد ذلك، وانفراد سفروس وحده برواياتها، وعدم ورودها عند مؤرخ مثل سوزومنوس، وهو مولع بمثل هذه الروايات، وعدم ذكر أثناسيوس لها مع كرهه العميق لفالنز، يدعونا للاعتقاد أن الخيال لا بد داعب بعض وقائعها، خاصة آخرتها. فقسطنطيوس شأن أي حاكم يخشى على سيادته من نتيجة المعركة، بل لقد اعترف بنفسه بهذا بعد ذلك في حديث جرى بينه وبين أسقف روما ليبريوس، وذكر أنه لم يكن يتوقع الانتصار على خصمه(٢٥). وأسقف المدينة وهو الأب الروحي لها، لابد أن يسري عن الإمبراطور كآبته . أما مسألة "ملاك الرب" التي يذكرها سولبيكيوس سفروس، فتلك قصة جرت بها أقلام مؤرخي الكنيسة تهبط به على من تشاء(٢٦).ولم يكن قسطنطيوس في حاجة إلى ملاك للرب كي

(٢٤) يقدم سولبيكيوس سفروس في مشهد تراجيدي ذلك اللقاء الذي تم بين قسطنطيوس وفالنز أسقف مورسا. فهو يصور الساعات التي سبقت المعركة، وتلك التي خلالها دارت، وكيف أن الإمبراطور كانت تنتابه الهواجس وتلعب به الظنون، خشية أن ينكشف الغبار عما لا تحمد عقباه، وأنه من أجل هذا الاضطراب النفسي غادر قصره وأمضى سحابة نهاره في الكنيسة . ويمضي سفروس قائلا إن تلك هي الفرصة التي كان ينتظرها أسقف المدينة فالنز، فقد استغل هذه الحالة النفسية السيئة لدى قسطنطيوس ليحقق له ولفريقة الآريوسي كل ما يبتغي . ومن ثم راح يهون عليه أمر ماجننتيوس وجنده، ويخفف عنه ويلات يعانيها ويبشره بالنصر كما أخبر ملاك الرب . ويقول سفروس إن فالنز اتفق مع بعض خاصته على أن ينقلوا إليه سير المعركة أولا بأول حتى يستطيع النجاة بنفسه إن لقي جيش قسطنطيوس الهزيمة، أو يكون أول من يحمل إلى الإمبراطور بشرى الانتصار. فلما لاح في الأفق بريق الظفر لإمبراطور الشرق، خف فالنز يتهادى ليزف إلى قسطنطيوس ما يتوق إليه الفؤاد . وأضاف أن ملاك الرب خصه على عجل بهذا النبأ السعيد . ويعلق سفروس، ولما كان من السهل على الإمبراطور أن يصدق مثل هذه الأقاويل، فقد راح يعلن في الملأ من بعد، أنه أحرز النصر بكرامات فالنز وليس فقط بشجاعة الجنود .
راجع SEV. Hist. Sac.II,88.SVLp

(25) THEOD. Hist. Eccl. II, 13.

(٢٦) اعتاد مؤرخو الكنيسة أن يقحموا ملاكا للرب في كل عمل يأتيه أي حاكم قدم للكنيسة ذات يوم جميلا . فالكاتب الأفريقي لاكتانتيوس يذكر ملاكا للرب زار الإمبراطور ليكينيوس قبل حربه مع خصمه ماكسيمينوس عام ٣١٣ ولقنه أدعية الانتصار،لأن ليكينيوس كان قد اتفق مع قسطنطين في ميلانو على رفع الاضطهاد عن المسيحية . ومرة أخرى يهبط يوسيبيوس القيساري بملاك الرب على قسطنطين قبل معركته مع عدوه ماكسنتيوس سنة ٣١٢ . أما تجلي ملاك الرب للأساقفة والقسيسين فذلك ما تمتلئ به كتب أولاء المؤرخين .وليس هنا مجال الحديث عنها . راجع LACT. De mort. p ers.44 .
وأيضا EVSEB. Vita Const. I, 29

يعلنها من بعد حربا ضارية على النيقية وأتباعها، فقد كان لديه من الدوافع الكثير، ولم يكن من السهل على الإمبراطور أن يغفرها .

كانت مورسا المعركة الفاصلة، ولكنها لم تكن نهاية ماجننتيوس، ولا زالت هناك أجزاء كثيرة في الجزء الغربى من الإمبراطورية واقعة تحت سيادته، ولذا مشى قسطنطيوس الهوينى في سياسته تجاه الكنيسة، وحاول أن يكسب إلى جواره أيضا أساقفة الغرب، وبحث قسطنطيوس عن الوسائل الكفيلة باستمالة أساقفة الشرق والغرب جميعا، ووجد ضالته في فوطين أسقف سيرميوم، الذى كان قد جلب على نفسه بآرائه غضب الكنيسة الجامعة، على النحو الذى بينا، فدعا الإمبراطور إلى عقد مجمع في المدينة ذاتها[٢٧]، وهو مجمع سيرموم الثانى سنة ٣٥١[٢٨] حضره نفر يسير وتقرر فيه إدانة فوطين للمرة الثانية وعزله من أسقفيته[٢٩] وأصدر الأساقفة الحضور مرسوم إيمان جديد[٣٠] يعتبر صورة أخرى للمرسوم الأنطاكى الرابع، أو مرسوم فيليبوبوليس، وأضيف إليه سبع وعشرون أناثيما قصد بها أصلا فوطين وأستاذه ماركللوس[٣١]. وكان باسيليوس أسقف أنقرة

(27) SOCRAT. Hist. Eccl. II,32.
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV, 6

(٢٨) كان مجمع سيرميوم الأول قد عقد سنة ٣٤٧ وتمت فيه إدانة فوطين
راجع Hefele, op. cit.I, 2 pp. 348
وأيضا Fliche, op. cit. III, p. 137

(29) SOCRAT. Loc. cit.
وانظر كذلك SOZOM. Hist. eccl. II,32

(30) ATHANAS. De Syn. 27
وراجع HILAR. De Syn. 38
وكذلك SOCRAT. Hist. eccl. II, 29

(31) Hefele, op, cit. I, 2pp. 852-362
وراجع أيضا Gwatkin, op. cit.p. 81
للمؤرخ نفسه انظر المقال الذى كتبه تحت عنوان Arianism
ضمن مجموعة C. M. H. Vol. I. P130
راجع أيضا Robertson, op. cit.p.281

المنافس هو الذى يتزعم هذه الجماعة آنذاك[٣٢]، وان كان سقراط يذكر أن مرقس أسقف الرستن Arethusa هو الذى أضاف هذه اللعنات السبع والعشرين[٣٣].

ويبدو أن فوطين لم يستسلم لهذه القرارات ، فلجأ إلى الإمبراطور يعرض عليه شكايته ، ويعرض في الوقت ذاته مناظرة الخصوم[٣٤]، وقد أجابه قسطنطيوس إلى ذلك ، واختار باسيليوس رجل أنقرة ليكون على رأس المتناظرين ، ويذكر سقراط أن فوطين لم يستطيع مجابهة باسيليوس ورفاقه ، فأعلنت هزيمته وإدانته وصدر قرار الإمبراطور بنفيه[٣٥]،وعين جرمينيوس Cerminius الذى كان أسقفا على كيزيكيوس Cyzicius بدلا منه[٣٦].

حوالى ذلك الوقت (٣٥٢) كان أثناسيوس قد انتهى من وضع عمل آخر من أعماله دفاعا عن مجمع نيقية De decretis Nicaenae Synodi ولئن كان هذا العمل قد جاء أصلا على شكل رسالة كتبها أثناسيوس إلى أحد أصدقائه الذين اضطرتهم ظروف الجدال إلى الدخول في مناقشات عميقة مع جماعات من الآريوسيين فطلب إلى أثناسيوس أن يخبره بما تم في المجمع النيقى[٣٧] ، فمما لاشك فيه أن الأسقف السكندرى قد رحب بوضع هذا المؤلف للرد على المحاولات التى بذلها أساقفة الآريوسية في أنطاكية سنة ٣٤١ وما تبعها، والتى تمثلت في إصدار عدد كبير من مراسيم الإيمان بهدف القضاء على الأيمان النيقى. وهذه الرسالة تعد على جانب كبير من الأهمية اذ توقفنا على ذلك الجدل العقيدى الذى دار بين أساقفة نيقية، بالإضافة إلى أنها تقدم معرفة أكثر اتساعا عن حادثة بعينها كان لها أكبر الأثر على تاريخ الفكر الكنسى والعقيدة المسيحية .

وغداة انتحار ماجننتيوس (١٠أغسطس ٣٥٣) أسلمت الإمبراطورية كلها قيادها

---

(32) Robertson, op. cit.p.464n.5A
(33) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 29
(34) Id ; SOZOM. Hist. Eccl.IV. 6
(35) SOCRAT. Hist. Eccl. II,30
(36) ATHANAS. Hist. Eccl. Arian. 74
(37) ATHANAS. De decr. Praef.

لقسطنطيوس، وراح يذرع أقاليم الغرب حتى غالة، وبدأ يتفرغ الآن لشئون العقيدة، فقد كان السلام الذى غلف الكنيسة بعد سرديكا قشرة رقيقة لم تصل إلى حد الحقيقة، وذلك أن الاستغراق الملح للحرب الفارسية، وتهديدات قنسطانز باعادة أساقفة النيقية في الشرق إلى كراسيهم بالقوة. كانت أسبابا فرضت السلام دون أن تجتث جذور الصراع. ولا شك أن ذاكرة قسطنطيوس قد استعادت الآن صورة ذلك الأسقف السكندرى وقد تمكن من إثارة أساقفة الغرب جميعا ضده، وظنه وراء رسالة التهديد التى بعث بها قنسطانز، ولم يغب عن مخيلته تلك الرسائل الثلاث التى بعث بها إلى أثناسيوس يرجو عودته دون أن يكلف الأسقف نفسه عناء الرد على أى منها، ولا نسى الإمبراطور ذلك التحدى الذى أظهره أثناسيوس ساعة الحوار في أنطاكية. وتذكر أنه في لحظة ما لم يكن يملك حق الاعتراض على عودة راعى كنيسة عاصمته، وفوق هذا وذاك .. فقد كان قسطنطيوس إمبراطوراً رومانيا . يجسد تماما- شأن أبيه – النظرية السياسية الرومانية، القائمة منذ قامت الإمبراطورية في القرن الأول قبل الميلاد، القائلة بعدم وجود كيان داخل الكيان، ورفض قيام دولة داخل دولة.

ولذا كان لابد من فرض سلطان الدولة على الكنيسة .. حتى لا يشعر آباء هذه مهما علت منزلتهم – أنهم يحققون لأنفسهم كيانا مستقلا. تلك سنة استنها قسطنطيوس تقليدا لما أرساه أسلافه في العصر الوثنى للإمبراطورية –ولم يبغ عنها خلفاؤه من بعد حولا. حتى غدت الكنيسة في الإمبراطورية مجرد دائرة من دوائر الحكومة وأسقفها موظف كبير عند الإمبراطور .

وكان بولس أسقف القسطنطينية أول من امتدت إليه يد قسطنطيوس ، إذ أرسل اليه نائبه فيليب(٣٨)، الذى استخدم الحيلة والدهاء حتى تكمن من القبض عليه(٣٩) ونقله سرا إلى القوقاز حيث مات(٤٠)، وخلفه على الأسقفية ثانية ماكيدونيوس(٤١). وبهذا أعاد قسطنطيوس لنفسه شيئا من كبرياء كان قد ضاع. أما أثناسيوس فقد كانت مجرد عودته إلى الإسكندرية

(38) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 16
(39) Id.
وأيضاً SOZOM. Hist. Eccl. III, 9
(40) ATHANAS. Hist. Arian, 7
(41) SOZOM. Op. Cit. IV, 2

سنة ٣٤٦ تحمل بين طياتها الإهانة الشخصية للإمبراطور[٤٢]حتى لقد غدا أثناسيوس عدوا شخصيا لقسطنطيوس[٤٣]بل أشد مقتا له وبغضا من طاغية غالة[٤٤]،ويبرر أثناسيوس ذلك بقوله " كلما استحث الإمبراطور خطاه في أثر ماجننتيوس ورأى الإعجاب الذى يحمله أساقفة تلك المناطق لشخصى، استبد به الحنق وولى للأيمان التى قطعها على نفسه دبره، وأضحى كمن أشعل النار فجأة "[٤٥]غير أن أثناسيوس يغفل بذلك بواعث العداء الكامنة. وهكذا فتح على اتساعه آتون الخصام بين الإمبراطور والأسقف، وبذل كل منهما جهده وفكره للقضاء على خصمه، ولكن نهاية الحرب بينهما الأقدار عندما مات الإمبراطور.

أدرك قسطنطيوس أن الهجوم على أثناسيوس مباشرة، لن يصل به إلى النجاح الذى يريده، بل ربما على العكس من ذلك، خلق من أثناسيوس بطلا في أعين معاصريه والأجيال، وهذا ما لم يكن يبتغيه ، ولهذا كان عليه أن يمحو من أذهان رجال الكنيسة أسطورة ذلك الرجل، وليتم ذلك عن طريق الأساقفة أنفسهم . فبنى قسطنطيوس خطته على أساس عزل أثناسيوس عن العالم ووصمه منبوذا، فإذا ما تحقق له ذلك أصبح من السهل بعدئذ لفظه خارج البيعة بلا ولى ولا نصير. وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه اليوسابيون منذ عام ٣٣٠ حتى تحقق لهم ما أرادوا في مجمع صور عام ٣٣٥ .

وكان قسطنطيوس يحمل في نفسه منذ البداية عدم الولاء للنيقية، وزادت الأحداث من هذا الشعور لديه، بعد أن تطاول عليه زعماؤها. ولكن الإمبراطور في الوقت ذاته كان يدرك يقينا أن الغرب، نصير النيقية، ليس على استعداد للتخلى عنها طواعية، ولذا لم يشأ أن يصوب سهام غضبه إلى العقيدة مباشرة، ولما كانت قضية أثناسيوس والنيقية لدى الغرب واحدة، فإن إذلال الأسقف السكندرى سوف يتضمن كذلك للنيقية إذلالا.

(42) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 74
(43) Maritn, op. Cit. I, pp. 304-305
(44) Gibbon, op. Cit. II, p. 393
(45) ATHANAS. Hist. Arian. 30

وفي الإسكندرية بدأت سحابات الشك تتجمع في سماء البيعة، وأدرك أثناسيوس بنفس مضطربة أن ما جرى في سيرميوم سنة ٣٥١، وما حدث في القسطنطيوسية لأسقفها بولس، لابد أنه بدايات لشيء يحاك من حوله، وترامت إليه في النهاية أنباء ارتداد كل من فالنز وأورساكيوس. فقد صرح الأسقفان أنهما لم يقدما على إعلان توبتهما السابقة إلا بدافع الخوف من الإمبراطور الراحل قنسطانز وتحت قهره، وأنهما الآن لا يملكان إلا العودة إلى عقيدتهم والرفاق[٤٦].

والحقيقة أن هذا السلوك من جانبهما ليس أمرا مستغربا، لكن تعجب له أثناسيوس، فقد كان شيئا متوقعا يتمشى مع طبيعة شخصيتهما السياسية. وقد تملك القلق على أثناسيوس كل سبيل، وعزم على أن يتحرك بسرعة قبل أن يفلت الأمر، خاصة بعد أن فقد بقتل قنسطانز معقل حماه، وقلعة الأمان له وللنيقية، فاستدعى على الفور صديقه سرابيون، وجعله على رأس سفارة تضم تريادلفوس Triadelphus أسقف نقوتاس Nicotas (زاوية رازين بالشرقية) وأبوللو Apollo أسقف كينوبوليس العليا Upper Cynopolis (الشيخ فضل) والراهب أمونيوس Ammonius أسقف باكمون Pachemmon (كوم الخنزير) وثلاثة من قساوسة الإسكندرية، بطرس النطاسى، واستريكوس Astericus وفيلياس Phileas. ووجههم إلى إيطاليا حيث كان يقيم الإمبراطور آنذاك في ميلانو[٤٧]، يدفعه إلى ذلك كما جاء على قلم صاحب الحوليات[٤٨]، الخوف من أن يمتلك الآريوسيون آذان الإمبراطور.

وفي ١٩ مايو ٣٥٣، ارتحل الوفد السكندرى قاصدا إيطاليا[٤٩]، ولم يكد يمضى على إقلاعه أربعة أيام، حتى قدم الإسكندرية مونتانوس Montanus أمين

---

(46) ATHANAS. Hist. Arian. 29
(47) HIST. ACEPH. III,3 وراجع أيضا
FEST. IND. XXV
(48) FEST. IND. XXV
(49) HIST. ACEPH.III,3

البلاط(٥٠)، يحمل رسالة من قسطنطيوس إلى أثناسيوس، تعلن استجابة الإمبراطور لرجاء أثناسيوس بالسماح له بلقائه، حتى يتيسر الحصول على المعونة اللازمة لاستكمال المنشآت الكنسية، وتطلب منه الامتناع عن إرسال أى سفارة إلى القصر(٥١). وتملكت أثناسيوس الدهشة وهو يقرأ هذه الرسالة، وأدرك بإحساس الرهبة أن هذا الخطاب ليس "إلا كمينا أعد بمهارة، ومحض زيف على الإمبراطور وافتراء"(٥٢)، لأنه لم يكتب إلى قسطنطيوس أية رسالة تحمل الرغبة في لقياه، أو بشأن إعانة تمنح لكنيسته(٥٣). ومن ثم تريث الأسقف ولم يعط إجابة واضحة لأمين البلاط، وارتحل مونتانوس دون أن يحصل من أثناسيوس على شيء(٥٤).

ولم يحفظ التاريخ الأدلة الكافية التى تجعلنا نتفق وأثناسيوس في القول بأن الإمبراطور لم يكتب هذه الرسالة، ولكن الأحداث التى تلت ذلك مباشرة تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذه الرسالة كتبت تحت سمع الإمبراطور وبصره، ويدفعنا إلى ذلك الاعتقاد أن قسطنطيوس ومن ورائه أساقفة البلاط، أرادوا بها انتزاع أثناسيوس من القلعة الحصينة التى يحتمى بها، أعنى مصر . يزود عنه الأكليروس، ويحميه جيش من الرهبان قوى، ويحوطه بالرعاية والولاء شعب الكنيسة. وبعيدا عن هذه المنطقة سوف يجد الأسقف نفسه مجردا من أقوى الأسلحة التى يعتمد عليها. وهناك في الغرب، لن يستطيع أسقف فى حضرة الإمبراطور أن يفغر فاه فيقول كلمة تأييد فى جانب الأسقف السكندرى. وإذا كانت هناك أصوات معارضة -كما سنرى- فلن يكلف ذلك قسطنطيوس شيئا سوى توقيع قرار بالنفى.

ترك الإمبراطور إيطاليا وقصد غالة، وفي آرل Arles حيث كان أسقفها على الآريوسية ، دعا أساقفة الولاية لعقد مجمع كنسى(٥٥) كان الهدف الأساسى منه

---

(50) HIST. ACEPH. III,3
(51) ATHANAS. Apol. Ad. Const.19
(52) Ibid, 20 .
(53) Ibid, 19 .
(54) HIST. ACEPH. III, 3
وراجع أيضا FEST. IND. XXV
(55) ATHANAS. Hist. Arian. 31

إدانة أثناسيوس. وقد حاول أسقف روما ليبريوس إثناء قسطنطيوس عن عزمه والانتقال بالمجمع إلى أكويليا Aquileia وأرسل فينكنتيوس Vincentius أسقف كابوا Capua لتقديم هذا الاقتراح إلى الإمبراطور(٥٦)، غير أن هذا الأخير رفض ذلك، لقد كان حريصا على أن يشرف بنفسه على جلسات المجمع(٥٧) كي يتعرف على اتجاهات الأساقفة، ويتدخل في الوقت المناسب لفرض إرادته وإقرار سلطان الدولة الرومانية على رجال الأكليروس. وكان الإمبراطور حصيفا عندما رأى أن يبدأ بأساقفة ولاية واحدة من ولايات الغرب لها أهميتها، خشية أن يؤدى اجتماع الأساقفة في الغرب جميعا إلى تكرار ما حدث في سرديكا. وكان من السهل التأثير على أساقفة غالة بالذات باعتبارها أقل ولايات الغرب الإمبراطورى اهتماما بالاضطرابات العقائدية(٥٨) بل إن شئنا الدقة حسب قول المؤرخ مارتن Martin "إن حمى هذا الجدال لم تقو على أن تعبر الألب إلى غالة"(٥٩)، على الرغم من أن ساتورنينوس Saturninus أسقف آرل كان صديقا للبلاط آريوسيا. وكان هذا مما يخدم غرض قسطنطيوس تماما(٦٠).

وفي أكتوبر ٣٥٣، التأم عقد الأساقفة في آرل تحت رئاسة ساتورنينوس أسقف مدينة المجمع، وحضره مندوبون عن أسقف روما في طليعتهم فينكنتيوس أسقف كابوا، الذى أراد أن يطرح قضية الإيمان أولا للمناقشة، بدلا من أن ينصرف جهد المجمع إلى المسائل الشخصية(٦١). ولكن فالنز وأورساكيوس، رفضا هذا الاقتراح، وأصرا على أن تكون قضية أثناسيوس محور عمل المجمع(٦٢)، ولما احتدم الجدل بين الفريقين ارتضى مندوبو أسقف روما طريقا وسطا إلى السلام،

(56) HILAR. Fragm. VI, 3 (p. L. X 688) .
(57) HILAR. Ad. Const. Aug. 1.8 (p. L. X 562)
(٥٨) راجع ما كتبه Le Bachelet عن القديس هيلارى S. Hilaire ضمن Dict. De théol. Cath. VI, 2. col.2390
(59) Martin, op. cit. I, p.305 .
(60) Watson, op. cit. p.10 .
(61) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 39
(62) Id.

فتعهدوا بالتوقيع ضد أثناسيوس في مقابل أن يتعهد الجانب الآخر بلعن الآريوسية ولكن فالنز وصحبه أعلنوا معارضتهم لمثل هذه المحاورات(٦٣). يشد من عضدهم قرار الإمبراطور الذى أصدره بنفى كل من يأبى التوقيع على قرار الإدانة لأثناسيوس(٦٤). ولم يجد الحضور جميعهم وفيهم رسل أسقف روما بدا من الإذعان لإرادة الإمبراطور والتوقيع على مرسوم يدين الأسقف السكندرى، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا باولينوس Paulinus أسقف ترير(٦٥)، فاصدر الإمبراطور أوامره بنفيه إلى فريجيا(٦٦) وأيقن الإمبراطور أن مثالا واحدا يعد كافيا لقهر ولاية غالة جميعا(٦٧). وهكذا خسر أثناسيوس النقطة الأولى في الجولة الثانية من صراعه مع قسطنطيوس.

وقرابة عامين قادمين انصرف الإمبراطور مرغما عن محاولاته مع أساقفة الغرب للتخلى عن تأييد أثناسيوس، فقد جذبته الأحداث على الراين إلى متابعتها بعد أن بدأت القبائل الجرمانية القاطنة عبر النهر تثير من جديد الاضطرابات في ذلك الإقليم(٦٨). ولكنه ضمن الآن على الأقل تخلى أساقفة ولاية من الغرب هامة عن نصرة الأسقف السكندرى.

وفي الوقت ذاته شغل أثناسيوس نفسه بكتابة عدد من الرسائل إلى أصدقائه الرهبان؛ فبعث في سنة ٣٥٤ رسالته إلى آمون راهب النطرون الشهير Ad-Amunem Monachum يعرض فيها لبعض فعال الآريوسيين وخاصة آراءهم اللاهوتية بصورة ميسرة. على أن الرسالة تدور في معظمها حول مسائل التطهر والحياة. ويعقد أثناسيوس مقارنة بين حياتى أولئك الذين يعيشون الدنيا ، وأولاء الذين يقدسون الرهبنة، ويفضل الأخيرة. وتشير الرسالة أيضا إلى الأعداد الكبيرة

(63) HILAR. Fragm. V, 5 (p. LX. 685)
(64) SVLp. SEV.Loc. cit.
(65) Id.
(66) HILAR. Ad. Const. Im. II (p. L. X. 587-58)
(67) Watson, op. cit p. 10
(68) AMM. MARC. Res. Gest. XIV, 10, XV, 8 . وانظر بعده

من الرهبان الذين تمتلئ بهم المنطقة، أو رعية الراهب آمون كما يطلق عليهم أثناسيوس، وهو لا يخاطب الراهب إلا بألقاب الوقار والاحترام، ويناديه بـ"الأب" "والشيخ المهيب محبوب الرب"(٦٩) وهو نفس الأسلوب الذى نلمسه عندما كتب أثناسيوس من بعد حياة أنطونيوس، بل نراه أيضا في كل رسائله إلى الرهبان وسلوكه معهم.

أما رسالته الثانية فقد بعث بها حوالى ذلك العام تقريبا أو الذى تلاه إلى دراكونتيوس Dracontius أحد الرهبان، وذلك عندما رفض قبول سيامته أسقفا لدمنهور Hermopolis parva وهى تعد من أهم الوثائق عن تاريخ الرهبنة المصرية(٧٠)، وفيها يوجه أثناسيوس اللوم إلى دراكونتيوس بسبب موقفه، ويقول إن ذلك سوف يفتح الباب لاتهامه بالهروب من مسئولية رعاية الكنيسة في وقت تتعرض فيه للضغط والإرهاب(٧١)،وأن هذا الرفض قد حمل إلى نفس الأسقف الكآبة في وقت تحتاج فيه إلى العزاء(٧٢) ويرجوه أن لا يصغى إلى نصائح المحيطين به والذين يزينون له الابتعاد عن خدمة شعب الكنيسة(٧٣)، ويضرب له الأمثال بكثير من الرهبان الذين يعرفهم، ولم يترددوا عندما اختيروا للاكليروس، بل كان منهم من أرسل في مهام سياسية خارج مصر مثل سرابيون(٧٤). والرسالة في مجموعها رجاء حار إلى دراكونتيوس من أثناسيوس كى يقبل رسامة نفسه أسقفا، وكانت هذه المنطقة، كلما أسلفنا، تشكل أهمية خاصة لقربها من الإسكندرية.

انتهى قسطنطيوس من حربه على جبهة الراين، واستدار الآن ليكمل الجولة الثانية ضد أثناسيوس، وكان ليبريوس أسقف روما قد اغتم لمسلك مندوبيه في آرل،

---

(69) ATHANAS. Ad. Amun. Mon.

(70) ATHANAS. Ad. Dracont.

وراجع أيضا Robertson, op. cit. p. 557 n.1

(71) ATHANAS. Ad. Dracont.

(72) Ibid. 2, 3,

(73) ATHANAS. Ad. Dracont. 3-5

(74) Ibid. 7

فطلب إلى الإمبراطور أن يدعو إلى عقد مجمع جديد لبحث قضية أثناسيوس وما تم بشأنه في آرل(٧٥). ولم يكن قسطنطيوس أقل حماسة من أسقف روما سعيا لعقد هذا المجمع . فقد حصل على التأييد المحلى في غالة ويريد أن يتبعه الآن بقرار يمثل أساقفة الغرب عامة(٧٦)، بعد أن تخلص من متاعبه العسكرية والسياسية، ولم يبق إلا المتاعب الشخصية التى تمس في الوقت نفسه سلطان الدولة وهيبتها ، أما مشاكل العقيدة فلها دورها.

وفي خريف عام ٣٥٥ تم توجيه الدعوة إلى الأساقفة لحضور المجمع الذى اختيرت ميلانو له مكانا(٧٧). ويذكر سقراط(٧٨)ويتابعه في ذلك سوزومنوس(٧٩) أن عددا كبيرا من أساقفة الشرق اثاقل عن حضور هذا المجمع وتعلل بأسباب مختلفة، على حين كان عدد أساقفة الغرب فيه حوالى ثلاثمائة. ولا شك أن هذا التقدير يحوى كثيرا من المبالغة، ولابد أن سقراط قد ضم إلى من حضروا المجمع أولئك الذين وقعوا من بعد على القرارات التى أصدرها(٨٠). وقد شهد المجمع في أول جلساته صراعا عنيفا بين أنصار أثناسيوس في الغرب يقودهم يوسيبيوس أسقف فرسالى Versellae (في إيطاليا) ولوكيفريوس Luciferius أسقف كاليارى Caliaris (Cagliare) (في سردينيا) وديونيسيوس Dionysius أسقف

---

(75) Kidd, op. cit. II. p. 122
وراجع Robertson, op. cit. p. 49
وأيضا Gwatkin. The Arian Conroversy p. 38
(76) Robertson, Loc. cit.
(77) Hefele, op. cit. I, 2, pp. 862-876
وراجع Fliche, op. cit. III, Pp. 142-143
وكذلك 135 . cit. II, p.Mourret, op
وانظر أيضا Lietzmann, Histoire de L'église ancienne. III, pp. 219-220
(78) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 36
(79) SOZOM. Hist. Eccl. IV, 9
(80) Zenos, op. cit. p. 60 n. 1

ميلانو[81]، والآريوسيين بزعامة فالنز وأورساكيوس. وثار من جديد ذلك الجدل الذى نشب في آرل حول بحث مسألة الإيمان قبل كل شيء .

وتقدم يوسيبيوس الذى كان ممثلا لأسقف روما، بمرسوم الإيمان النيقى يطلب إلى الجميع التوقع عليه قبل بحث أى مشاكل أخرى، وربما أدرك الآريوسيوس أن النجاح الذى أحرزوه في آرل سوف يضيع الآن أمام عناد أنصار أثناسيوس، ولذا اقترحوا نقل جلسات المجمع من الكنيسة إلى القصر الإمبراطورى[82]. وعلى هذا النحو استطاع قسطنطيوس أن يشارك بنفسه في مناقشات المجمع، وقد طلب إلى الأساقفة إدانة أثناسيوس دون تسويف، فأجابه النيقيون أنهم لا يستطيعون إدانة أثناسيوس بناء على ادعاء رجال مثل فالنز وأورساكيوس لا يقيمون وزنا للعقيدة وينتقلون من جانب لآخر حسب مصالحهم[83]. ويقول سقراط أن زعماء النيقية تنبهوا إلى أن الإلحاح على إدانة الأسقف السكندرى يخفى وراءه هدفا آخر هو ادانة قانون الإيمان ذاته[84]، وقد أعلن الإمبراطور أنه المدعى وأنه يتهم بنفسه الأسقف[85].

ويذكر أثناسيوس بشيء من التفصيل تلك المساجلات القانونية التى دارت بين أنصاره وقسطنطيوس، باعتبار أنه لا يحق للإمبراطور أن يتهم أحداً في غيبته[86].

ولا شك أن الإمبراطور قد أحس هنا أنه قد وضع نفسه على درجة واحدة مع أثناسيوس ، ولم يرض عن هذه الجرأة من جانب الأساقفة النيقيين الذين راحوا يحاجون ويجادلون حول شرعية المحاكمة ، ومن ثم فقد قطع كل حديث وأعلن فى

(81) ATHANAS. Hist. Arian. 33 .
(82) HILAR. Ad. Const. Aug. 1.8 (p.L.X.564).
(83) ATHANAS. HIST. Arian.76.
(84) SOCRAT. Hist. Eccl. II,36.
(85) ATHANAS. Hist.Arian. 76.
(86) Id.

حنق "إرادتي هي القانون" oper ego boulomai outo kanon (٨٧) وطلب من الجميع التوقيع على إدانة الأسقف السكندرى (٨٨) ، ويقول سفروس إن كثيرين ممن وقعوا على مرسوم الإدانة كان يدفعهم إلى ذلك الخوف أو تجذبهم الخديعة(٨٩)، ويعلق أحد المحدثين على ذلك قائلاً : " إن هؤلاء الأساقفة أقنعوا أنفسهم بالإذعان لما طلب منهم، موقنين أن ذلك لا يمس عقيدتهم ، معللين مسلكهم بأنه لا يمكن التضحية بسلام كنائسهم من أجل رجل فرد والذى لابد أن يكون مذنباً فى أى ناحية مما أثير حوله، وليس فى استطاعتهم حمايته بأصواتهم المفردة الواهنة (٩٠) ولعل الذى دفع هؤلاء الأساقفة إلى الإيمان بسلامة اقتناعهم، إن الإمبراطور لم يحاول في أى من المجمعين أن يفرض مرسوم إيمان جديد، ولذا انحصرت المسألة في أذهانهم باعتبارها مجرد نزاع شخصى بين قسطنطيوس وأثناسيوس.

ولكن على الرغم من هذه التهديدات فإن عدداً من أشهر رجال الغرب آنذاك تحدوا قرارات الإمبراطور فتم نفيهم ، ديونيسيوس أسقف ميلانو الذى فضل – كما يحدث عنه القديس أمبروز – " عذاب التقوى على صداقة المليك " (٩١) ، وخلفه على عرش الأسقفية الأسقف أوكسنتيوس Auxentius الآريوسى المتطرف(٩٢) ، وشارك ديونيسيوس قدره يوسيبيوس أسقف فرسالى(٩٣) ولكيفريوس أسقف كاليارى (٩٤).

وقبل أن نمضى مع الأحداث ، فإنه من الأهمية بمكان أن نذكر أنه ابتداء

---

(87) ATHANAS. Hist. Arian. 33

(٨٨) يقدم أثناسيوس تصرف قسطنطيوس فى صورة مسرحية حيث يقول إن الإمبراطور نهض وشهر سيفه ووضعه على أعناق الجميع مهدداً ثم أمرهم بالتوقيع على المرسوم .
راجع Ibid. 33

(89) SVLP. SEV. Hist . Sac. II, 39.

(90) Neander, Christ. Relig. And Church. IV, 52

(91) AMB. Ep. LXIII,68 .

(92) ATHANAS. Hist. Arian. 75
وعن أوكسنتيوس هذا راجع للمؤلف ، الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع

(93) AMB. Ep. LXIII,68 .

(94) ATHANAS. Hist. Arian. 33

من كاليجولا أو فسباسيانوس أصبح تنصيب الإمبراطور الجديد يتم بموجب مرسوم دستوري شامل يسمى قانون تولية الإمبراطور Lex regia de imperio يصوت عليه مجلس الشيوخ وتصادق عليه جمعيات الناخبين الشعبية ، وينص هذا المرسوم على أن كل ما يصدر عن الإمبراطور يجب أن يعتبر صحيحاً ويصادق عليه ، كما أنه صدر بأمر الشعب ، وهذا هو المعروف باسم قانون أولبيان Ulpien فقيه القرن الثالث والذى يقول " إن إرادة الأمير لها قوة القانون Quod principi lacuit legis habet vigorem لأن الشعب بموجب قانون التولية Lex regia نقل له كل سلطاته[٩٥] Populius in eum omne suum imperium et potestatem conferat.

على هذا النحو انتهى مجمع ميلانو الذى دعاه هيلارى "مجمع الخبائث"[٩٦] Malignantium Synagoga، ولكن قسطنطيوس كسب به نقطة أخرى ثمينة وكانت هذه النتيجة التى انتهى إليها المجمع خسارة فادحة لأثناسيوس. فقد تحطم الآن، وبعد مقتل قنسطانز، ذلك الصرح الهائل الذى جهد أثناسيوس من قبل سنين عددا حتى أمكنه أن يعتمد عليه بدرجة كبيرة، وأيقن الأسقف أن الدائرة من حوله قد أخذت في الضيق توشك أن تطبق عليه. على حين كان الإمبراطور سعيدا بهذه النتيجة حتى لكأن نصره في مورسا لم يكتمل الا في ميلانو. فقد أفلح في عزل الأسقف هناك في بيعته، وكف أيدى الغرب الممتدة له بالعون، وتركه الآن لشهور آتية فريسة القلق والاضطراب.

وكان الإمبراطور يدرك يقينا، أن قرارات ميلانو وقد تدعمت بقوة السلطان ينقصها الدعم المعنوى حتى لا يمتعض الجمع من قبولها، ويسعون من بعد إلى هدمها. وكان يعلم حقا أن هذه القوة المعنوية كامنة في رجلى الغرب الشهيرين أسقف روما ليبريوس، وهوسيوس أسقف قرطبة. وكان أثناسيوس يدرك تماما مدى

---

(95) P.Petit, Histoire generale de L'empire Romain, paris 1974, p. 165.
وراجع أيضاً : جان جاك شوفاليه ، تاريخ الفكر السياسى ، ترجمة د. محمد عزت صاصيلا ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٣٥ .

(96) HILAR. Ad. Const. Aug. 1.8 (p. L. X562) .

الأهمية التى يعلقها الآريوسيون على ذلك[٩٧].فكنيسة روما سواء على عهد ليبريوس أو سلفة يوليوس، أعطت طاقة التأييد التى تمتلكها كاملة في صالح قضية أثناسيوس ، وكان يوليوس هو الذى قاد أساقفة إيطاليا في روما سنة ٣٤٠، وجمع أساقفة الغرب في سرديكا سنة ٣٤٣ من أجل نصرة أثناسيوس، ولم يرض ليبريوس عما تم في آرل، ولا وقع على ما انتهى إليه مجمع ميلانو، ووقف قدر جهده يؤيد زميله أسقف الإسكندرية، ولذا كانت استمالة كنيسة روما إلى الفريق المضاد عملا بارع الدعائية والأثر.

اختار الإمبراطور خصيا له يدعى يوسيبيوس، وبعث به إلى ليبريوس في روما[٩٨]، فلما التقى بالأسقف طلب منه التوقيع على إدانة أثناسيوس وقبول الآريوسيين في شركة الكنيسة مضيفا "تلك ارادة الإمبراطور، وعليك أن تطيع"[٩٩] وقدم إليه رسائل التهديد التى بعث بها قسطنطيوس[١٠٠]. ولكن أسقف روما رفض مطلبى الخصى وراح يمتدح أثناسيوس[١٠١]، ويبدو أن الإمبراطور استخدم وسائل الأغراء بعد أن أخفق التهديد ولكن دون جدوى[١٠٢]، ومن ثم أمر الإمبراطور بالقبض على ليبريوس[١٠٣]، واقتيد إلى البلاط في ميلانو[١٠٤]، ودار بين الرجلين حديث على جانب كبير من الأهمية تبين وجهة نظر كل منها في العلاقة بين الدولة والكنيسة، ورأى كل منهما في الأسقف السكندرى، وقد حفظ لنا المؤرخ ثيودوزيت

---

(٩٧) يتخيل أثناسيوس في حديث طويل أساقفة الآريوسية وقد اجتمعوا يأتمرون ومعهم الإمبراطور حول الوسائل الكفيلة التى تحقق لهم السيطرة على الكنيسة، وكان من أهم الأسس التى أقروها حسبما يروى أثناسيوس "محاولة استمالة هوسيوس وليبريوس .. من ذلك مثلا قولهم في تصور أثناسيوس. "لو استطعنا إغراء ليبريوس لعلا نجمنا فوق الجميع وساد". راجع ATHANAS. Hist. Arian. 35

(98) Id.

(99) Id.

(100) Id.

(101) Ibid. 36

(102) Ibid. 37

(103) Id.

(104) Ibid. 39

هذا الحوار(١٠٥).وقد اقترح ليبريوس دعوة الأساقفة لعقد مجمع عام في الإسكندرية حتى يقف الجميع على القضية في موطنها، غير أن قسطنطيوس رفض ذلك، واتهم أثناسيوس صراحة بأنه كان وراء مقتل أخيه الأكبر، اذ حرض قسطنطيوس الثانى حتى غزا أقاليم أخيه، فلقى حتفه، ثم كان السبب أيضا في إيقاع العداء بينه وبين قنسطانز حتى هدده بالحرب من أجله. وقد انتهت هذه المحاورة دون أن يجنى الإمبراطور شيئا، ولم تمض ثلاثة أيام حتى كان الإمبراطور قد أمر بنفيه إلى بيرويا Beroea في تراقيا، واختير الأسقفية بدلا منه فيلكس Felix أحد رجال العقيدة الآريوسية(١٠٦). وكان ذلك خسارة كبرى لكنيسة الإسكندرية، اذ فقد أسقفها المركز الرئيسى الذى يستطيع أن يجتمع أساقفة الغرب من حوله تأييدا له.

لم يبق أمام الإمبراطور إذن إلا "أبو المجامع"، هوسيوس القرطبى، ولم تكن أهميته تقل عن ليبريوس، فإذا كانت هذه ترجع عند أسقف روما إلى كرسيه الرسولى، فإنها عند هوسيوس تتمثل في الهيمنة الروحية والتقدير له من الكنيسة الكاثوليكية. ولا يخفى علينا أن هوسيوس هو الذى قاد أساقفة الغرب في سرديكا ضد اكليروس الشرق، وانتصر لأثناسيوس، وأعاده بقرار المجمع ونفوذ قنسطانز إلى الإسكندرية، ولم يكن قسطنطيوس بغافل عن كل هذا، ولا أساقفة البلاط(١٠٧) وعليه فقد استدعى الإمبراطور إليه الأسقف القرطبى ليمثل أمامه في ميلانو سنة ٣٥٥، وأمره بالإقرار بإدانة أثناسيوس وقبول الآريوسيين في شركة الكنيسة(١٠٨) ولكن هوسيوس لم يكن أقل صلابة من ليبريوس وعنادا، ومع ذلك فقد سمح له الإمبراطور بالعودة إلى دياره(١٠٩).

---

(105) THEOD. Hist. Eccl. II, 13 وراجع ملحق رقم ١

(106) ATHANAS. Hist. Arian. 42

(١٠٧) ومرة أخرى يترك أثناسيوس لقلمه عنان التصور ، فيخال أساقفة الآريوسية وقد التفوا من حول قسطنطيوس يؤكدون له أن كل ما تم اتخاذه من تدابير وإجراءات ، لا يعدل مطلقاً حرمان الكنيسة من هوسيوس ، الذى إذا ظل فى بيعته راعياً فلسوف يدين له الكثيرون بالولاء ، فيولى قيادهم شطر القضاء على الآريوسية عقيدة واتباعاً

راجع ATHANAS. Hist. Arian . 42.

(108) Ibid.43

(109) Ibid. 43

ويبدو أن المائة عام[١١٠] التى يحملها الأسقف على كاهله، جعلت قسطنطيوس يشفق على الرجل من قرار بالنفى يورده حتفه، ولعله أشفق على نفسه كذلك من مثل هذا القرار الذى ربما أثار كنائس الغرب بعامة من أجل ستين عاما[١١١] قضاها الأسقف يرعى شعب الكنيسة، وترك بصماته على العقيدة والقضية منذ نيقية إلى سرديكا.

وللرجل بين الأساقفة كلهم قدره واحترامه، ولا يبعد أن يكون قسطنطيوس قد أمل بقرار عفوه عن هوسيوس أن يخفف من حدة البغضاء التى يحملها له أساقفة الغرب بسبب سياسته في مجمع ميلانو وموقفه من ليبريوس، ويؤيد ذلك أن قرارا بنفى هوسيوس لم يصدر من الإمبراطور رغم أن الأسقف ظل على عناده طيلة عامين، إلى أن تلاقى مع الآريوسيين عام ٣٥٧.

وعاد هوسيوس إلى قرطبة، وهناك تلقى رسالة من الإمبراطور تحمل في طياتها عبارات التهديد[١١٢]، ويقول أثناسيوس إن الاريوسيين تكاثروا على قسطنطيوس مصورين له مدى الخطورة التى يمكن أن تترتب على إطلاق سراح هوسيوس، فأصغى لهم وكتب إليه هذه الرسالة[١١٣] على أنه يمكننا اعتبارها جزءا من السياسة التى انتهجها قسطنطيوس في معاملته للأسقف القرطبى، ففى الوقت الذى من عليه بالعفو، بعث يخبره أنه على إيقاع الأذى به قادر، وهذا يبين مما يذكره أثناسيوس نفسه من أن الإمبراطور لم ينس أن يخاطب هوسيوس في رسالته بلقب الأب، ويخلع عليه آيات التقدير، ثم سرعان ما يتبع ذلك بنغمة الوعيد، ويعيد على ناظرى الأسقف أسماء أولئك الذين في المنفى غيبهم[١١٤].

غير أن هوسيوس لم تكن قد وهنت عزيمته، فرفض لهجة الإمبراطور

(110) Ibid. 45
(111) Ibid. 42
(112) Ibid. 43
(113) Id.
(114) Id.

وكتب إليه رسالة تعد وثيقة تاريخية هامة، يعرض فيها لفكرة الدولة والكنيسة والعلاقة بينهما في هذه الفترة الباكرة من عمر المسيحية، ولست أعنى "بالباكرة" هنا أنها في القرن الرابع الميلادى، ولكن لأنه لم يمض على خلاصها من الاضطهاد إلا أقل من نصف قرن فقط. فطوال ثلاثة قرون والدولة الرمانية الوثنية تعتبر الكنيسة هيئة خارجة على القانون، فلما كان قسطنطيوس الكبير احتوت الدولة الكنيسة، وأسلمت الكنيسة لقسطنطيوس قيادها، ثم غمرتها أحداث الجدل العقيدى فسمحت للأباطرة أن يسيروا دفة أمورها، بل لقد دعتهم بنفسها إلى أن يبحثوا أمر العقيدة رغم أن الأباطرة آنذاك لم يكن لهم باللاهوت المسيحى دراية، ولا كان عندهم بطبيعة ذلك الجدال وأسراره معرفة، حتى أن كاتبا وثنيا مثل أميانوس ماركللينوس فطن إلى ذلك عندما كتب عن قسطنطيوس يقول :"رغم إن العقيدة المسيحية كانت في أصولها واضحة وبسيطة، فإن قسطنطيوس أشاع فيها الارتباك والبلبلة بخرف الخزعبلات، وبدلا من أن يحل السلام بين الأحزاب المتصارعة بثقل سلطانه ونفوذه، فإنه سعى يوسع ويعمق بجدل عقيم تلك الخلافات التى أثارها وأهاجها بفضوله العابث، ولقد تغطى مرارا وجه الطرق العامة بكتائب الأساقفة الذين جيء بهم من كل مكان للاجتماعات التى يدعونها مجامع كنسية، وبينما يسعون جاهدين للحد من هذا الشاق، فإن الجهد لا يلبث حتى يتحطم على صخور وجهات النظر المتعارضة وسرعة اتخاذ القرارات[١١٥].

بل إن قسطنطيوس الكبير نفسه أفصح من قبل عن فكرته حول طبيعة الجدل اللاهوتى عندما راح يصفه في رسالته إلى اسكندر وآريوس بـــ"التفاهة" وبأنه لا يعدو أن يكون "خلة حمق صبياني". ولا يمكننا أن نصف نفرا من الاكليروس بأنه التجأ بالكنيسة إلى الدولة دون غيره، فالنيقيون والآريوسيون على السواء فعلوا ذلك، غاية الأمر أن هذا الاضطراب العقيدى سمح لجماعة من رجال الكنيسة أن يعلقوا بالإمبراطور آمالهم، وكان يوسيبيوس النيقوميدى، وفالنز وأورساكيوس رجلا بانونيا، أوضح الأمثلة على ذلك، حتى جاز أن نطلق عليهم أساقفة البلاط أو

(115) AMM. MARC. Res. Gest. XXI, 16 .

الأساقفة السياسيين. وقد وجد فيهم قسطنطيوس ضالته التي يبحث عنها من أجل تدعيم نفوذه على الكنيسة وسلطانه، خاصة بعد أن ناصبه العداء أساقفة النيقية ! ونالوا من كبريائه حينا من الزمان.

من هنا تجيء غرابة رسالة هوسيوس إلى قسطنطيوس وجرأتها في الوقت ذاته. فلم يكن الفكر الروماني آنذاك يستطيع أن يتقبل فكرة إقامة هيئة مستقلة، هي الكنيسة، داخل الإمبراطورية، أو بمعنى آخر دولة داخل الدولة. ذلك أن الإمبراطور الروماني كان يعتبر الكاهن الأعلى Pontifex Maximus في الدولة الوثنية، وظل أباطرة المسيحية يحملون هذا اللقب حتى نهاية القرن الرابع، وإن كان قد أصبح الآن الأسقف الأعلى(١١٦)، ولذلك لا يمكن أن نعتبر ما جاء في رسالة هوسيوس، أو ما ورد بعد ذلك عند أثناسيوس(١١٧)، نظرية في العلاقة بين الدولة والكنيسة بالمعنى المفهوم للنظرية ، فلم تكن قد تبلورت بعد مثل هذه المفاهيم، ومن ثم تعد مجرد تعبير عن فكر أصحابها فقط لحظة إحساسهم بحيف نزل بساحتهم ، وإن كان يمكن في الوقت ذاته اعتبارها عند هوسيوس بالذات بادرة مبكرة لطبيعة هذه العلاقات التي سيطرت على العصور الوسطى فيما بعد.

ذلك أن الغرب الروماني كان يختلف بطبيعة فكره كلية عن الشرق الروماني، فبينما غرق هذا حتى آذانه في حمى الجدال العقيدي، انصرف الشطر الغربي بجهوده إلى إرساء قواعد النظرية الكنسية، والعلاقة بين البابوية والإمبراطورية، كما تتجلى بأوضح صورها في القرون من الحادي عشر إلى الثالث عشر(١١٨).

يبدأ هوسيوس رسالته بالحديث عن نفسه وصلابته أمام الاضطهادات التي توالت على الكنيسة منذ عهد دقلديانوس، ويعلن رفضه سماع نغمة التهديد التي

(116) Watson, op. cit. p. 14.
(117) ATHANAS. Hist. Arian. 49, 52, 57
(١١٨) راجع للمؤلف مقدمة الجز ء الثاني من الدولة والكنيسة

يستخدمها الإمبراطور[١١٩]، ثم يعرج على ما حدث في سرديكا، وما كان من أمر فالنز وأورساكيوس ورسالتيهما إلى يوليوس وأثناسيوس[١٢٠]. وبعدها تشتد لهجة الأسقف حيث يقول موجها حديثه للإمبراطور:

"... ألا فلتقلع عن القهر والطغيان، لا تكتب رسالة، لا ترسل قائدا . أطلق أولئك الذين في المنفى هم الآن، خشية إن داومت على العنف أنت أتواهم من القوة والعنف أعظمه"[١٢١] .

ولعل هذا هو ما كان يخشاه الإمبراطور وأساقفة البلاط إن ظل هوسيوس طليق اليد حرا. ويمضى الأسقف في رسالته يقارن بين قسطنطيوس وأخيه قنسطانز " الذى لم يقدم على شئ مما يأتيه هو الآن"[١٢٢]، ثم يدلى هوسيوس برأيه الذى قدمنا له الآن يقول :

"تذكر أنك رجل فان، خف يوم الدينونه، واحفظ نفسك لليوم ذاك نقية طاهرة . لا تقحم نفسك في المسائل الكنسية، لا تصدر إلينا أوامر هى من صميم شئوننا، بل لتعلمها أنت منا نحن . الله وضع في يدك هذه المملكة، والينا سلم أمور الكنيسة وكما أن الذى يسلبك هذه الإمبراطورية يصنع الشر في عينى الرب، فلتخش أنت أيضا التدخل في شئون الكنيسة حتى لا تأتى بذلك شيئا إدا. مكتوب (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ومن ثم فليس من حقنا أن نمارس حكم الدنيا وليس من حقك أيها السيد أن تحرق البخور "[١٢٣].

(119) HOS, Ep. Ad. Const.(ATHANAS. Hist. Arian. 44)
(120) Id.
(121) Id.
(122) Id.
(123) HOS. Ep. Ad. Const. (ATHANAS. Hist. Arian. 44).

وإذا جاء حديث هوسيوس بهذه الصراحة، فلا ينبغي أن يغرب عن ذهننا أنه رحب شأن يوسيبيوس القيسارى بالتزاوج بين الكنيسة والدولة، مذ عمل مستشار قسطنطيوس الكبير للشئون الدينية، ومذ قبل سيادته في نيقية، ومذ طلب الدعم من قنسطانز قبل سرديكا وبعده، وإن كنا نعتبرها في الوقت ذاته إرهاصا بما سوف تصبح عليه العلاقة بين الدولة والكنيسة في الغرب من بعد.

ويختتم الأسقف القرطبى رسالته بالحديث عن أثناسيوس وبراءته، وعدم التزام الإمبراطور بالمواثيق التى قطعها على نفسه، ويستمطر اللعنات على فالنز، ويدعو الإمبراطور إلى عدم الإصغاء له :

" قسطنطيوس، فلتوقف على الفور كل ذلك، ولتصغ إلى ، تلك فكر راودتنى، فكتبتها إليك . أما أنت فمن الأفضل أن لا تزدريها[١٢٤].

غير أن الإمبراطور لم يصغ لشيء مما جرى به قلم الأسقف القرطبى[١٢٥]فقد عقد العزم على تحطيم أثناسيوس، وصرح بذلك لأسقف روما ليبريوس أثناء لقائهما في ميلانو قائلا : " ليس هناك نصر واحد من الذى تحقق لى، ولا حتى ذلك الذى لم يكن متوقعا على ماجننتيوس ، يعدل طرد هذا الوغد من الكنيسة[١٢٦]".

ولذا ترك هوسيوس في بيعته، ولكنه لم يترك له وقتا للراحة أو الهدوء، بل ظل يسبب له الكثير من المضايقات، إذ اُستدعاه إلى سيرميوم في العام التالى (٣٥٦)[١٢٧] وأبقاه بها دون هدف سوى ترويض هذه النفس الجامحة .

هكذا أغلقت الدائرة في وجه أثناسيوس تماما في الغرب، وفقد الأسقف السكندرى قلاعه الحصينة هناك واحدة وراء الأخرى ، والإمبراطور يسير في

(124) Id.
(125) Ibid. 45
(126) THEOD. Hist. Eccl. II, 13
(127) ATHANAS. Hist. Arian. 45

خطته بسرعة متأنية. وكان هيلارى أسقف بواتييه (٣٥٠-٣٦٧) قد بدأ يشارك في هذه الأحداث التى تقع في الغرب، ويخبرنا واطسون Watson إن هيلارى ربما كان أيضا بين الذين أدانوا أثناسيوس في هذه الفترة[١٢٨]. وقد لا يعدو هذا الرأى الحقيقة إذا علمنا أن هيلارى ظل حتى عام ٣٥٦، لا يعرف شيئا عن عقيدة نيقية، أو بالأحرى "الهوموسية" كما يخبرنا هو نفسه بذلك[١٢٩]. كما أن عدم الإدراك العام لدى أساقفة الغرب بطبيعة الجدل في الشرق[١٣٠] جعل كثيرين من هؤلاء في مجمع آرل يدينون أثناسيوس دون العلم الكامل بجذور القضية[١٣١]، وذلك على النحو الذى أسلفنا، ولكن هيلارى لم يكن من بين الذين حضروا مجمع ميلانو سنة ٣٥٥ بعد أن تكشفت له دوافع قسطنطيوس، بالإضافة إلى أنه قد أصبح مدركا لدوافع أساقفة البلاط[١٣٢].

ولا بد أن يكون الأسلوب الذى لجأ إليه قسطنطيوس في حمل الأساقفة على إدانة أثناسيوس، قد أثار لدى هيلارى شعورا بعدم الارتياح، فتملكه الندم على ما قدمت يده في آرل "[١٣٣]، وراح يكفر عن ذلك بمحاولة إقناع عدد من أساقفة غاليا بالتخلى عن إدانة الأسقف السكندرى[١٣٤] والوقوف في وجه ساتورنينوس أسقف آرل صديق البلاط[١٣٥]. وقد جلب هيلارى على نفسه بذلك عداء الإمبراطور.

ويبدو أن أسقف بواتييه لم يكن على استعداد آنذاك ليدخل في صراع مع قسطنطيوس، ولهذا أسرع يكتب إليه رسالة Ad Costantium Augustum

(128) Watson, op. cit. p. 19
(129) HILAR. De Syn. 91 .
(130) Gibbon, op. cit. II, p. 374 .
وانظر أيضا Watson, op. cit. p. 11
(131) Neander Christ. Relig. And Church, IV, p. 52
(132) Watson, Loc. cit.
(133) HILAR, Ad. Const. Aug. I, 8 (p. L. X. 562-564)
(134) Watson, op. cit. p. 12
(135) Id.

تجمع بين الاحتجاج الخافت والضراعة، تبدأ بتوجيه نظر الإمبراطور إلى ضرورة كف أيدى السلطات المدنية عن التدخل في الشئون الدينية(١٣٦)، وكفالة الحرية التامة لشعب الكنيسة الكاثوليكية، ليدين بما يريد دون اكراه على تغيير معتقده"(١٣٧). وترفع الرسالة بعد ذلك أكف الابتهال إلى الإمبراطور من أجل إعادة الأساقفة الذين تعرضوا للنفى إلى ديارهم(١٣٨). ويلقى هيلارى تبعة هذه الأحداث على فالنز وأورساكيوس " الصبيين الجاهلين الخبيثين "، ويعد أى اتصال بهما خطيئة(١٣٩)، ويقول إن الآريوسيين قد تبين لدى الجميع منذ زمن مروقهم عن حظيرة الإيمان، في الوقت الذى ظهر فيه أن أثناسيوس بعيد كل البعد عما نسب إليه من اتهامات(١٤٠) ويختم هيلارى خطابه بما تم اتخاذه في ميلانو، والطريقة التى جرى بها، ويشير إلى ما تعرض له يوسيبيوس أسقف فرسالى والآخرون خاصة باولينوس أسقف ترير(١٤١).

غير أن هذه الرسالة لم تحدث أى تغيير في سياسة قسطنطيوس، ولكنها تركت أسوأ الأثر في نفسه، فقد كان يعقد أنه أمن جانب الغرب، واطمأن إلى غالة بالذات، وعلى رأس أساقفتها ساتورنينوس، فإذا به يواجه اضطرابا جديدا مصدره هذا الأسقف الذى ظهر فجأة على مسرح الأحداث في غالة، وراح يدعو أساقفة الغال إلى طرح ما اقترفوه، ولكن الإمبراطور كان يدرك في الوقت نفسه أن هؤلاء الأساقفة لن يضحوا ببيعتهم من أجل أسقف الإسكندرية وخاصة بعد ما رأوه في ميلانو، ويبدو أن قسطنطيوس قد أوحى إلى ساتورنينوس أن يكفيه عناء تلك الضجة الجديدة.

من أجل هذا فإنه في ربيع سنة ٣٥٦ دعا ساتورنينوس أساقفة غالة

(136) HILAR. Ad. Const. Aug. I, 1 (p. L. X. 557)
(137) Ibid. 1, 2 (p. L. X. 557-559)
(138) Ibid. I, 4 (p. L. X. 559)
(139) Ibid. I, 5 (p. L. X. 560)
(140) Ibid. I, 6, 7 (p. L. X. 560-562)
(141) Ibid. 1, 8 (p. L. X. 562-564).

للاجتماع ، وتم عقد مجمع في مدينة بيتراى Biterrae [١٤٢] تحت رئاسته، ودعا إليه هيلارى قسرا، وكما جرت سنة المجامع آنذاك، لم يتعرض المجمع لمسألة العقيدة، ولم يجد شيئا يمكن اعتباره نقيصة تعتور إيمان هيلارى، ومن ثم دارت الاتهامات حول سلوكه، إذ خرج عن واجب وظيفته الاكليروسية، وبدلا من أن يعظ الجموع راح يحرضها ويدعوها إلى الشغب[١٤٣] وقر رأى الحضور على إدانته، وبعثوا بقرارهم هذا إلى جوليان Julianus، ابن عم الإمبراطور، وكان قد أضحى قيصرا في غالة منذ ٦نوفمبر سنة ٣٥٥ [١٤٤]، فرفعه هذا إلى الإمبراطور الذى صدق على قرار الإدانة وأصدر أوامره بنفيه في صيف سنة ٣٥٦ إلى آسيا[١٤٥]، وأشرك معه في الإدانة رودانيوس Rhodanius أسقف تولوز Toulouse الذى أعلن تأييده لهيلارى[١٤٦].

هكذا أطبق الإمبراطور بسلطانه على الغرب جميعا، ودفعه إلى قطع كل صلة له بأثناسيوس، وأساقفة الشرق كلهم يقفون أيضا ضده، إلا من نفر يسير يؤيده في همس، فحقق قسطنطيوس بذلك نجاحا كاملا في الجزء الأول من خطته التى وضعها للخلاص من خصمه العنيد ، وفي الوقت نفسه لفرض سلطان الدولة على الكنيسة دون عوج، وهو ما تقضى به النظرية السياسية الرومانية، وأضحى الأسقف السكندرى وكأنه يقف وحده وسط جزيرة نائية، ويصف أثناسيوس نفسه في هذه الحالة بقوله: " بعد أن أتم قسطنطيوس كل شيء وفق ما أراد،في إيطاليا

---

(١٤٢) حالياً Beziers قرب خليج ليون، وعن المجمع انظر
Hefele, op. cit. 1, 2 pp. 885-886
Fliche, op. cit. 111, p. 144
Mourret, op. cit. 11, p. 142
Kidd, op. cit. 11, p. 129

(143) Watson, op. cit. p. 14

(144) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 34

(145) HILAR, De Syn. 63

(146) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 39
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV, 9

وفي كل مكان، وبعد أن نفي بعضا وقهر آخرين، وملأ بالخوف كل البقاع، استدار ومرجل الغضب يغلى في نفسه، والشر متقد، ناحية الإسكندرية(١٤٧).

وإذا كان قسطنطيوس قد انصرف بعد ميلانو إلى محاولة إخضاع ليبريوس وهوسيوس، فإنه عمل خلال هذه الفترة أيضا على أن يثير العراقيل في وجه أثناسيوس، فقرب نهاية أغسطس عام ٣٥٥ قدم الإسكندرية – ديوجنس Diogenes سكرتير الإمبراطور(١٤٨) ولم يكن يحمل معه أية أوامر محددة فيما يختص بالأسقف السكندرى(١٤٩) رغم ما يقوله صاحب الحوليات(١٥٠) من أن الهدف الأساسى لمجيئه هو القبض على أثناسيوس، ولو كان هذا القول صادقا، لما تردد أثناسيوس في ذكره، بل إنه يكرر أكثر من مرة في كتاباته أن ديوجنس لم يأت إليه بأية رسالة من الإمبراطور، وليست لديه أية تعليمات من قسطنطيوس بشأنه وقد استفسر الأسقف منه عن ذلك شخصيا(١٥١) واستخدم أثناسيوس ذلك في الدفاع عن نفسه فيما بعد . ويصور قلم الأسقف مدى القلق النفسى الذى كان يعانى منه آنذاك، ولهفته على الوقوف على أية أنباء جديدة لما يحدث في الغرب، وما يدور في صدر الإمبراطور تجاهه، ويبدو ذلك جليا في الطريقة التى يتحدث بها عن هذا القدوم المفاجئ الغامض لديوجنس إلى الإسكندرية(١٥٢).

كانت مهمة ديوجنس الأساسية في المدينة، كما تكشف عنها الأحداث، هى مضايقة الأسقف السكندرى، ومحاولة زيادة الايلام لنفسه المضطربة، فقد قضى سكرتير الإمبراطور في الإسكندرية أربعة أشهر يقلب المدينة ضد أسقفها، ويستثير

---

(147) ATHANAS. Hist. Arian. 47
(148) HIST ACEPH. III, 4 وراجع أيضا FEST. IND. XXVII
(149) ATHANAS. Apol. Ad. Const. 22
(150) FEST. IND. XXVII
(151) ATHANAS. Apol. ad. Const. 22
(152) ATHANAS. Apol. ad. Const. 22

الجموع من أجل التخلى عنه[153]. وفي الرابع من سبتمبر هاجم إحدى الكنائس في الإسكندرية[154]، بغية قهر الجموع فيها على التخلى عن أثناسيوس، أو على الأقل إحداث الاضطرابات في نفوس شعب الكنيسة[155]، حتى إذا اقترب العام من نهايته، ارتحل ديوجنس في ١٣ ديسمبر عائدا إلى سيده[156].

وتجمعت لدى الإمبراطور عدد من الاتهامات موجهة بطريقة مباشرة إلى الأسقف السكندرى، تقول إنه قام بتحريض الإمبراطور الراحل قنسطانز ضد أخيه قسطنطيوس، ودفعه أن يبعث إليه مهددا[157]، كما أنه لم يخجل من مراسلة ماجننتيوس قاتل قنسطانز، بهدف إثارته أيضا على قسطنطيوس وتشجيعه على حربه[158]، هذا إلى أنه استخدم الكنيسة الكبرى في الإسكندرية، وهى التى كان العمل في بنائها لا يزال جاريا ولم يتم بعد تدشينها بموافقة الإمبراطور، مما يعتبر تعديا من الأسقف على حق من حقوق الإمبراطور[159]، أما الاتهام الرابع فيقوم على أساس عدم امتثال الأسقف للأوامر الإمبراطورية برفضه الذهاب إلى إيطاليا كما جاء في الرسالة التى حملها مونتانوس إليه من قبل[160].

وهذه الاتهامات في جملتها تتناول أساسا ما يمس كرامة الإمبراطور والدولة، وتظهر الأسقف وقد راح ينتقص من سلطان الجالس على العرش، ولا شك أن مشهد صور ومريوط سنة ٣٣٥ يعود الآن.

وفي ٦ يناير سنة ٣٥٦، دخل الإسكندرية القائد سيريانوس Syrianus واستقدم إليها شراذم من الفرق العسكرية العاملة في مصر وليبيا[161]، وبكل القلق

(153) HIST. ACEPH. III, 4
(154) Id.
(155) ATHANAS. Hist. Arian. 48
(156) HIST. ACEFH. III, 4
(157) ATHANAS. Apol. ad Const. 2
(158) Ibid. 6
(159) Ibid. 14
(160) Ibid. 19
(161) HIST. ACEPH. IV, 5

والاضطراب أقبل أثناسيوس على القائد يسأله إن كان يحمل شيئا يعنيه من قبل الإمبراطور، ولكن سريانوس أجاب بالنفي[١٦٢]،غير أن نفس الأسقف لم تهدأ ، فطلب من القائد أن يؤكد له ذلك كتابه، أو أن يتولى حاكم مصر ماكسيموس Maximus ذلك بنفسه[١٦٣]. وكانت الأنباء قد وردت إلى الإسكندرية عما حدث في الغرب[١٦٤]، وإن كانت تفاصيلها لم تتضح بعد، ذلك إن أثناسيوس يخبرنا أنه لم يعلم بنفى ليبريوس وما وقع لهوسيوس إلا بعد هروبه من الإسكندرية ودخوله الصحراء الليبية في طريقه إلى الإمبراطور[١٦٥].

وقد شاركت الجموع أسقفها حالة القلق والحيرة، فأجمعوا أمرهم وتقدموا في ١٦ يناير إلى سيريانوس وماكسيموس بعدة التماسات تتضمن الكف عن إيقاع الأذى بالكنائس حتى يرسلوا وفد من قبلهم إلى الإمبراطور، أو يقدم أحدهما أو كلاهما وثيقة إلى أثناسيوس تفصح عن نيات الإمبراطور حيال الأسقف[١٦٦]، ودعم أثناسيوس ذلك بالرسالة التي كان قسطنطيوس قد بعث بها إليه عقب مقتل قنسطانز مباشرة تطمئنه على نفسه وأسقفيته وقد أعلن سيريانوس تعهده بعدم الأقدام على شئ ما لم يتلق أمرا من الإمبراطور، كما وعدهم برفع التماساتهم إليه[١٦٧] وساد الإسكندرية هدوء ينذر بعاصفة.

ولم تمتد طويلا فترة الترقب هذه، فبعد مضى ثلاثة وعشرين يوما على هذه الأحداث، وفي منتصف ليلة الخميس الثامن من فبراير ٣٥٦، وبينا أثناسيوس يؤم جموع المصلين في كنيسة ثيوناس Theonas دهم القائد سيريانوس الكنيسة على

(162) ATHANAS. Hist. Arian. 22
(163) Id.
(164) Id.
(165) ATHANAS. Apol. ad Const. 27
(166) Ibid. 24
وراجع لأثناسيوس أيضا Hist. Arian. 81
(167) ATHANAS. Apol. ad Cont. 24

رأس خمسة آلاف جندى بغية القبض على الأسقف(١٦٨) غير أثناسيوس استطاع أن يفلت من هذا الحصار.

وكان الرهبان هم السبب الرئيسى في هذه النجاة، واختفى أثناسيوس عن أعين السلطة الإمبراطورية طيلة ست سنوات آتية (٣٥٦-٣٦٢) تمثل فترة نفيه الثالث، وانتقم الإمبراطور قسطنطيوس لنفسه من هذا الخصم العنيد، وان كان قد انتقص من سعادته بهذا النصر، إنه لم يشهد الأسقف السكندرى ماثلا بين يديه ينتظره قراره .

والطريقة التى أريد بها القبض على الأسقف السكندرى تستحق النظر، فالإمبراطور أفاد من التجربة التى جرت عندما حاول هرموجنوس القبض على بولس أسقف القسطنطيوسية علانية، فلقى مصرعه، ولم يكن من السهل استخدام أسلوب الخديعة مع أثناسيوس كما حدث لبولس في المرة الثانية، عندما أفلح فيليب في استدراجه بعيداً عن أعين الجموع وقذف به إلى المنفى، فلم تكن النذر في القسطنطيوسية توحى آنذاك بوقوع هذا الحادث، أما الإسكندرية فكان شعب الكنيسة

---

(١٦٨) يذكر أثناسيوس إنه بينما كان يعظ الجموع ويؤمهم احتفالا باليوم السابع عشر لعيد الفصح Septuagesima اقتحم القائد سيريانوس الكنيسة بقواته .. وألقى عليها من الخارج حصاره، غير أن أثناسيوس حسب روايته، أظهر رباطة جأش وجلس على عرش الكنيسة وأمر الشماس أن يستمر في قراءة المزمور الذى كان يتلوه، والجموع تجيب"... لأن إلى الأبد رحمته " (مزامير ١٣٦/١) ويقول أثناسيوس إنه رفض الخروج من الكنيسة قبل أن يخرج الجميع، وإن الرعية طالبته بالنجاة ولكنه أبى ذلك، ولما أخذ الاكليروس وشعب الكنيسة ينسلون واحداً تلو الآخر، وجد الأسقف نفسه محاطا بجموع الرهبان الذين كانوا يشاركون في الاحتفال، ونفر من الاكليروس، وأخذوه وسطهم، ودلفوا به خارج الكنيسة دون أن يفطن إليهم أحد من الجنود، ولما لم يقف الجنود على أثر للأسقف، راحوا يقتحمون حجرات الكنيسة ويحطمون الأبواب ولكن دون جدوى ".

راجع ATHANAS. Apol. ad Const. 25

وانظر لأثناسيوس كذلك Apol. de Fuga. 24

وله أيضا Hist. Arian. 48

بالإضافة إلى ذلك راجع FEST. IND. XXVIII

وأيضا HIST. ACEPH. IV, 5

فيها والأسقف على رأسه يعيش حالة من القلق والاضطراب النفسى قرابة ثلاث سنوات أو ينيف، تمثل في لقاء الأسقف لسيريانوس، والالتماسات التى تقدمت بها الجموع إليه والى حاكم مصر، ولم تكن الإسكندرية وحدها هى التى تدرك أن الإمبراطور يدبر للأسقف أمرا، ولا شك أن هذا هو الذى دفع ذلك الجمع من الرهبان للقدوم إلى الإسكندرية ليكونوا على مقربة من أثناسيوس، وليقوموا بدورهم في اللحظة المناسبة ، هذا هو ما حدث فعلاً . ولما كان من المستحيل إلقاء القبض على الأسقف جهاراً، كما أنه لن تجدى معه محاولة الخداع، فقد وضعت الخطة على هذا النحو الذى جرت به، والتى أصبح واضحا أن مهمة سيريانوس كانت تنحصر في تنفيذها، وأعد لها من الضمانات ما يكفل نجاحها ، غير أن هذه الضمانات أخفقت جميعها في الإيقاع بالأسقف.

ويضفى أثناسيوس ومؤرخو الكنيسة[١٦٩] على نجاة الأسقف نوعا من عناية الرب وتدبيره. والحقيقة، كما يبدو، إن أحداً من الجنود لم يكد يتبين ملامح الرجل، وسط كهنوت يرتدى أردية واحدة، ولم يروه من قبل، فهم قد جمعوا من مختلف أنحاء مصر وليبيا، ولم يكن اللقاء الذى تم بين الأسقف وسيريانوس كافيا لكى يجعل القائد يعرف أثناسيوس تماما، ومع الاضطراب الذى صحب اقتحام الجنود للكنيسة، وتكاثر الرهبان والاكليروس والجموع حول أثناسيوس، جعل من السهل على الأسقف أن يختفى وسط هذه الجمهرة، ويفلت من قبضة جند الإمبراطورية ولابد أن يكون قد صحب ذلك نوع من التهاون في تنفيذ الخطة من جانب بعض الجنود في داخل الكنيسة وخارجها ، ودقة تامة من جانب الرهبان للحفاظ على حياة الأسقف .

أدرك قسطنطيوس بعد تدبر أن هروب أثناسيوس يشكل أمرا خطيرا،ربما تفوق خطورة بقائه على كرسى الكنيسة، ومن ثم سعى كى يستميل إليه شعب الكنيسة السكندرية، ويمحو من أذهانهم تلك الصورة التى رسموها لأسقفهم طوال

(169) ATHANAS. Apol, de fuga. 24 .
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV, 9

هذه السنين ، فكتب رسالة إلى السكندريين تعتبر أصدق تعبير عما يجيش في نفس الإمبراطور تجاه أثناسيوس، والذى وصفه الكاتب الوثنى أميانوس ماركللينوس بأنه العداء الشخصى والبغضاء المزمنة(١٧٠) ".

وقد جاءت مقدمة الرسالة(١٧١)مدحا في السكندريين باعتبارهم " أساتذة الحكمة ورواد المعرفة "، ليجذب إليه الأفئدة ضد الأسقف، وبعد هذه المقدمة يطلق الإمبراطور العنان لقلمه ليكتب ما شاءت له قواميس القدح اللاذع في أثناسيوس فيقول :

" وبعد . . . فهل هناك من يجهل أولاء الذين انتبذوا بأنفسهم مكانا قصيا، أى روح عنيفة تكشفت في تلكم الأحداث العنيفة التى وقعت أخيرا، تلك التى لا يمكن أن نجد ما نقاعنه بها . فجموع من المدينة وقد عميت بصائرهم، ورجل ينحدر من أصل دنى يجلل بالعار، تملك عليهم السلطان، أوقعوا في حبائل مكرهم أولئك الذين يتوقون للحق شوقا. رجل لم يدخر لجموعه أى حديث مثمر أو عظة، بل افسد العقول بخبث ودهاء، وصاح منافقوه والمداهنون يطرونه مادحين، وقد تملكتهم الدهشة من هول اكتداره، وإن كانوا يدمدمون خفية، بينما جموع البسطاء قد أصبحت لهم ذيلا وذنبا، واندفع الكل في هياج هو الطوفان يقودهم رجل، ماذا يمكن أن أقول عنه، إلا إنه لا يتحلى من الإنسانية بخلال، وكأن رحمته الوحيدة إنه لم يلق المواطنين في غيابة الجب. هذا العقل المتزن والشخصية اللامعة لم ينتظر

---

(170) AMM. MARC. Res gest. XV, 7-10

(١٧١) جاء في مقدمة الرسالة : " إن مدينتكم وهى تحتفظ بخلاقها الأصيل، وتعى فضائل مؤسسيها، قد أبدت دواما أنها لنا نعم المطيع، واليوم هذا حالها، نحن في نظر أنفسنا مقصرين في رعايتنا لها إن لم يحجب خيرنا خيرية الإسكندر بانيها، ولتسمحوا لى أن أذكركم أنكم كنتم أساتذة الحكمة ورواد المعرفة.

والإله قد اختار لكم دوما رجالا بلغوا من الكمال مراتبه، يرضى تماما عن فكرنا فى بغض ذلك المخادع الدجال. ألا فلتجمعوا صفوفكم وراء أولئك الرجال، الذين يفوقون كل إعجاب، شيوخ الوقار " .

راجع ATHANAS. Apol. ad Const. 30

حتى يحكم القضاء في أمره، لكنه حكم بالنفى على نفسه. ذلكم ما يستحق.

والآن فقد أصبح من حق المتبربرين ونفعهم أن يقذفوا به في عرض الطريق، مخافة أن يقود بعضا منهم إلى طريق الإلحاد والضياع، ذلك إنه سوف يشكو، شأن المكروب في مسرحية، لمن هم مثله قد سقطوا " (١٧٢).

على هذه الشاكلة راح الإمبراطور يرسم للسكندريين صورة عن أثناسيوس، يحاول بها أن يصرفهم عن نصرته، ثم يعود بعد ذلك في رسالته إلى امتداح خلالهم، ويزين لهم الدخول في شركة الأسقف الجديد الذى تم اختياره من جانب الآريوسيين خارج مصر خلفا لأثناسيوس، وهو أحد رجال كبادوكيا ويدعى جورج(١٧٣) Georgius . وبعد أن يعلى من قدر السكندريين، ويرفع إلى عليين جورج هذا، يختم رسالته بحنق باد في قوله :

" ... لن نحتاج إلى سكين أو مكواة لهؤلاء الذين أرواحهم مريضة، أولئك النفر الذين لا يزالون يتعلقون بأثناسيوس، إلا فليطلقوا هذا التعلق، بل حتى لا يذكروا قبح كلامه الذى من قبل قال، وإلا فإنهم سوف يعرضون أنفسهم لأقسى أنواع العذاب، فذاك الوبيل أثناسيوس، بينما يساق الآن من مكان إلى أخر، بثقل جرائمه التى ارتكب، فأنه يعانى العقاب الذى يستحق... أثناسيوس ذاك الحقير، كم أضل الكثيرين، وأفسد الدولة، ومد أصابعه الرجسة، فدنس كل قدسية "(١٧٤).

---

(172) ATHANAS. Apol. ad Const. 30

(١٧٣) يقول قسطنطيوس في رسالة مخاطبا السكندريين : أما أنتم فإنكم تتحلون بالفضيلة، وسوف أكون سعيدا وأنا أسترجع لنفسى ذكرى سلوككم، وأنتم يا من فقتم سابقيكم في المجد والعظمة ، وسوف تكونون مثالا يحتذي لمن هم الآن يحيون، ولمن هم في الغيب آتون . فاختاروا لأنفسكم من الكائنات مرشدا بالقول والعمل . لا تترددوا للحظة، بل لينتقل على الفور ودادكم إلى الجانب الأخر، اتركوا هؤلاء المعلمين الأرضيين ذوى الخسة والحقارة، وتعلقوا بكائنات السماء تحت رشد ذلك المعظم جورج، فبرعايته سوف تفتح لكم أبواب الأمل في المستقبل وسوف تمضون حياتكم هذه في مسرة السكينة، وليكن الجميع عند كلمته، فهو مرساة القداسة " .

راجع ATHANAS. Apol. ad Const. 30

(174) Id.

بهذا أفرغ قسطنطيوس كل ما يخالج فكره قبل أثناسيوس، وأزاح الإمبراطور عن كاهله بعض الشيء، جزءا من الرغبة في الانتقام لكبريائه الذى أهانه يوما الأسقف السكندرى، وراح يداهن الناس ويتهددهم في نفس الحين، علّه ينقل إلى أفئدتهم شيئا يعانيه، وإلى هذا الحين لم تكن مسألة العقيدة وجوهر الإيمان محور القضية، لكنه صراع بين الأسقف والإمبراطور أو لنقل بين الكنيسة والدولة.

أحكم قسطنطيوس الحصار من حول أثناسيوس، أو هكذا خيل إلى الإمبراطور ، فباب الغرب في وجه أسقف الإسكندرية تم إغلاقه تماما، وأساقفة الشرق يمقتون الهوموسية ويكرهون أثناسيوس، وقسطنطيوس يأمل بخطابه إلى السكندريين أن تنفض الرعية من حول أسقفها، ولكن ميدانا واحدا بقى، وكان على الإمبراطور أن يسد الثغرة منه حتى لا ينفذ إليه أثناسيوس، تلك المنطقة!التى كان أثناسيوس قد مد إليها سلطان الإسكندرية الأسقفى منذ عصر سنوات وهى مملكة أكسوم، فكتب إلى مليكها هذا الخطاب :

" قسطنطيوس المظفر، الأوغسطس العظيم إلى عيزان Aezanes وسازان Sazanes .

" ... لما كان في الاعتبار أن تحظوا بنفس العناية والاهتمام، سواء مع الرومان بسواء، فقد رأينا أن تكون العقيدة التى تدين بها الكنيسة هنا وعندكم واحدة، وعليه، أرسلوا على التو إلى مصر الأسقف فرومنتيوس ليلقى الأسقف جورج العظيم والآخرين، الذين يملكون سلطة الرسامة لمثل هذه الوظائف، لأنكم بالطبع تعرفون جيدا وتذكرون أن فرومنتيوس قد وصل إلى هذه المرتبة الكهنوتية على يد أثناسيوس، إلا إذا كنتم تدعون الجهل بحقيقة يعلمها الجميع "(١٧٥).

بهذا أراد قسطنطيوس أن ينقل ولاء فرومنتيوس، الأسقف الذى رسمه أثناسيوس، إلى الأسقف الآريوسى جورج الكبادوكى، ولم يكن الإمبراطور يعنى الآريوسية في جورج عندئذ بقدر ما كان يبتغى أن يسد أمام الأسقف الهارب منافذ

(175) ATHANAS. Apol. ad Const. 31

اللجوء، وحاول أن يضع أمام هؤلاء سيرة سيئة لذلك الرجل الذى تناولوا على يديه شركة الكنيسة، فمضى في خطابه قائلا :

... ذلك الرجل يحمل وزر عشرة آلاف خطيئة، ولم يستطع أن يجلو أى إتهام من هاتيك التى وجهت ضده، بل إنه حرم قبل ذلك من كرسيه الأسقفى، وهاهو الآن تائه شريد لا يعرف أين المأوى والمستقر، يهيم من بلدة إلى بلد، يحسب إنه بهذا التجوال يستطيع أن يهرب من الآثام، وبعد، فإذا ما أطاع فرومنتيوس أوامرنا، وأذعن لبحث كل الظروف حول رسامته، فإنه سوف يظهر جليا أمام الجموع إنه لا يناوئ قوانين الكنيسة والإيمان، وإذا ما قدم الدليل على حسن سيرته، ورسم صورة لحياته أمام أولئك الذين بأيديهم مقاليد الأمور في هذه الأمور. فإنه سوف يتلقى رسامته منهم، إذا ما تبين أن له أى حق في أن يكون أسقفا ، فإذا ما تقاعس وتجنب أن يدخل في تجربة، فإنه بذلك يؤكد بصورة واضحة إنه قد مال لاغراءات ذلك الوغد أثناسيوس، ذلك الذى صنع الشر في عينى الرب "(١٧٦).

ثم يفصح الإمبراطور عن الهدف الأساسى من وراء هذه الرسالة :

" ... وكل ما نخافه أن تحط به عصا التسيار في أكسوم، فيفأد فيها الرعية، بأن يقدم لهم عقائد ضالة مضلة، ويثير الفوضى في الكنيسة والاضطراب، مجدفا على الإله العلى، ولكن البلية الكبرى أنه سوف ينزل الخراب والضياع في كل مكان به حل . وإنى لعلى يقين أن فرومنتيوس سوف يعود إلى بيعته وهو على علم تام بكل هذه الأحداث التى تهم الكنيسة، وسوف يزود ببعض الأوامر التى تحتوى على عظيم النفع له والكنيسة ، وذلك من خلال لقائه مع العظيم جورج والأساقفة الآخرين، حفظكم الرب ورعى اخوتي المبجلين "(١٧٧) .

قرت عينا قسطنطيوس شيئا ما بهذا الجهد الكبير الذى بذله، ونجحت سياسته

(176) ATHANAS. Apol. ad Const. 31
(177) ATHANAS. Apol, ad Const. 31

إلى حد كبير في عزل أثناسيوس عن جميع الأساقفة في الشرق والغرب، واطمأن إلى أن الأسقف الهارب لا يلبث أن يفقد احتمال ما يكابده من عناء الترحال، فقد كان الإمبراطور يعتقد كما أفصحت رسائله أن أثناسيوس ليس له الآن مستقر يحمله، وإن نغمة التهديد التى ترددت في رسائله إلى السكندريين وملكى أكسوم، سوف تجعل من الصعب على أى من هؤلاء أن يقدم للأسقف ملجأ أو ييسر له ملاذا، وبث قسطنطيوس عيونه فى كل مكان تبحث عن هذا الأسقف العنيد .

أمن الأسقف على نفسه، ولكن نفسه لم تكن آمنة . فقد اختفى به الرهبان وسط الصحراء في أديار وادى النطرون، يحوطونه بكل الرعاية ويدفعون عنه، ولكن الأسقف كان القلق يتملكه، فخلف من ورائه صحراء النطرون، واتخذ سبيله في صحراء ليبيا، يحمل معه دفاعا كتبه في مسيرته، يقصد به وجه الإمبراطور. والحقيقية إن أثناسيوس لم يقتنع بمسألة هروبه هذه، ولا اطمأنت نفسه إليها، وكان يعتقد أن الإمبراطور لابد وقع فريسة نفر من خصومه، فأقدم على هذه الإجراءات، بل إن الشيء الغريب حقا أن أثناسيوس كان يتصور أن هذه الأحداث ربما تكون قد وقعت بفعل أساقفة البلاط وتدبيرهم، وإن الإمبراطور لا يدرى عنها شيئا(١٧٨) " ومن هذه الفكرة الأخيرة، صمم على أن يلقى الإمبراطور بنفسه، ليعرض عليه حقيقية الأمر، وليبين له تطور هذه الأحداث، وهو يعيد بذلك ما أقدم عليه زمن قسطنطيوس العظيم. إذ التجأ إليه ومثل بين يديه في القسطنطيوسية عام ٣٣٥ بعد أن لقى العنت في مجمع صور. من أجل هذا، بل انطلاقا من هذا، سار أثناسيوس رحلة الصحراء عبر ليبيا ليبحر من سواحلها إلى إيطاليا حيث كان قسطنطيوس آنذاك، ووضع الأسقف في هذه الرحلة وثيقة تاريخية هامة عن كل هذه الوقائع ليقدمها دفاعا إلى الإمبراطور قسطنطيوس Apologia ad Imperatorem Constantium بدأها أثناسيوس بقوله :

" لعلمى أنك مسيحى منذ زمان، أوغسطس ورع تقى، ومن منبت أصيل تنحدر، آثرت بمسرة أن أحدث الآن عن نفسى(١٧٩) ".

(178) ATHANAS. Apol. ad Const. 26, 29
(179) Ibid. 1

ويعلق روبرتسون على ذلك بقوله إن أثناسيوس خلع على قسطنطيوس صفات التقى والورع، رغم أن الإمبراطور لم يكن قد تلقى المعمودية بعد(١٨٠) إذ أن تعميده تم أثناء مرضه سنة ٣٦١ على يد يوزيوس Euzoius أسقف أنطاكية الآريوسى(١٨١). وبعد ذلك يمضى أثناسيوس في عرض قضيته مقدما الأدلة التى يملكها في محاولة لإثبات براءته، مستندا إلى رسائل فالنز وأورساكيوس(١٨٢) ويعرض أثناسيوس للاتهامات الأربعة التى سيقت ضده، والتى قدمنا لها آنفا(١٨٣) وذلك في تفصيل دقيق يشغل ثلاثة أرباع دفاعه، ويرد على كل منها بما توافر لديه من البراهين، وبما كان من أمره هو شخصيا مع قنسطانز وماجننتيوس ثم مع قسطنطيوس نفسه في المرات الثلاث التى لقيه فيها، ويوضح الأسباب التى دعته إلى استخدم إحدى الكنائس قبل أن يتم تدشينها، ويعلن ارتيابه في أمر الرسالة التى دعته للذهاب إلى إيطاليا، ومن أجل ذلك رفض الاستجابة لها، ويعترف أنه ليس من الجنون حتى يعصى أوامر الإمبراطور(١٨٤)، مما كان سببا في تصاعد الأحداث بالصورة التى رأيناها وعرضنا لها.

ويقول أثناسيوس إنه بناء على كل هذا أسرع إلى الإمبراطور يحمل دفاعه هذا، يدفعه إلى ذلك معرفته بخيرية الإمبراطور، وتذكره الواعى لوعوده(١٨٥). ولكنه ما أن امتد به الخطو في طريقه إلى قسطنطيوس حتى تلقى تقريرا ظنه، حسب تعبيره، غير حقيقى، ولكنه ما لبث أن اقتنع بكل ما جاء فيه. وعلم منه أن ليبريوس أسقف روما، وهوسيوس القرطبى، وباولينوس، وديونيسيوس ويوسيبيوس الإيطاليين، ولوكيفريوس السردينى، وفينكتيوس أسقف كابوا، وغيرهم قد عوملوا

---

(180) Robertson, op. cit. p. 237 n. 1
(181) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 47
(182) ATHANAS. Loc. cit.
(١٨٣) راجع قبله .
(184) ATHANAS. Apol. ad Const. 2-26.
(185) Ibid. 27

معاملة غير كريمة حتى يتخلوا عن أثناسيوس[(١٨٦)]، وبينما أثناسيوس في حيرته هذه أتاه تقرير آخر يفيد أن أكثر من تسعين أسقفا في مصر وليبيا قد طردوا من كراسيهم وحل محلهم الآريوسيون، بينما أذعن آخرون، وأن الإسكندرية بالذات أكثر المدن تأثرا بهذه الأحداث[(١٨٧)].

وقد تألم أثناسيوس كثيرا نتيجة هذا التقرير الأخير، ولذلك كتب رسالة إلى أساقفة مصر وليبيا Ad episcopos Aegypti et Libyae يشير في أولها إلى تأثره بهذه الأنباء التى سمعها عن المحاولات التى جرت لتحويل الأساقفة إلى العقيدة الآريوسية[(١٨٨)]، ثم يورد ثبتا بزعماء الآريوسية فى الشرق محذرا أنصاره من الامتثال لهم أو الدخول فى شركتهم، ويشرك مع هؤلاء جورج الكبادوكى الذى أصبح أمر معلوما أنه سوف يخلف أثناسيوس فى الأسقفية، وحرضهم على عدم طاعته أو تقديم الولاء له[(١٨٩)]. ويعرض أثناسيوس بعد ذلك فى رسالته للعقيدة الآريوسية ويرد عليها[(١٩٠)]، وفى عبارات صريحة يستحث أنصاره على المقاومة العنيدة حتى الشهادة[(١٩١)]، ولم يكن يدور بخلد أثناسيوس أن هذا التحريض سوف يزيد من سخط الإمبراطور عليه، فقد كان يؤمن أن قسطنطيوس لا صله له البتة بهذه الأحداث، وهذا واضح مما جرى به قلمه (. . . نحن على يقين من أن إمبراطورنا الرحيم عندما يسمع بهذه الفعال، سوف يضع على الفور حدا لخبثهم وهذه الدناءة)[(١٩٢)]. ومن أجل ذلك اختم رسالته بكل عبارات الحماسة يحضهم على التصدى للفريق الآريوسى[(١٩٣)].

(186) ATHANAS. Apol. ad Const. 27.
(187) Id.
(188) ATHANAS. Ad episc. Aeg. Et Lib. 5
(189) Ibid. 7
(190) Ibid. 10 – 20
(191) Ibid. 21
(192) Ibid. 23
(193) Id.

واصل أثناسيوس رحلته قاصدا الإمبراطور، إذ لم يتملكه الشك حتى الآن فى طهارة قلب قسطنطيوس، ويعبر عن ذلك بقوله : (إنى على ثقة بأن كل هذه الإجراءات التى حدثت كانت على غير رغبة الإمبراطور بل على غير علم منه "، ويضيف . " لو أن الإمبراطور علم بذلك لمنع على الفور وقوعها "[١٩٤]. لهذا ظل سائرا حتى حملت إليه الأنباء أن الإمبراطور قد بعث برسالتين إلى شعب الإسكندرية وملكى أكسوم، وتلقى أثناسيوس صورة من كل رسالة[١٩٥]، وعلم أن الأوامر الإمبراطورية قد صدرت بالبحث عنه، حتى ولو كان قد اختفى لدى المتبربرين خارج حدود الإمبراطورية[١٩٦].

هناك فقط أفاق أثناسيوس من وهم جهالة قسطنطيوس بكل ما حدث له، وتأكد لديه بصورة قاطعة أن الإمبراطور لم يكن غافلا عما تعرض له الأسقف السكندرى[١٩٧] ومن ثم تدبر الأمر، وعاد ثانية إلى الأمان[١٩٨] فى الأديار وسط الرهبان، وإن كان لم يفقد الأمل كلية فى عدالة الإمبراطور إذا ما علم القضية من فم صاحبها[١٩٩].

على هذا النحو سجل الأسقف دفاعه إلى الإمبراطور، وملأ صفحاته بألقاب التمجيد والإطراء التى خلعها على قسطنطيوس (التقى الورع)،أوغسطس المبارك)، (الخير الرحيم)، (محبوب الله)[٢٠٠]، ويعلن ولاءه الكامل للإمبراطور والإقرار بسيادته[٢٠١]. وكان دافع أثناسيوس إلى ذلك كما ذكرنا، يقينه ببعد الإمبراطور عن تدبير مثل هذه الأحداث، ومما يلفت النظر فى دفاع أثناسيوس، تلك التقارير التى كانت تصله تباعا وهو يقطع الصحراء هربا إلى قسطنطيوس.

(194) ATHANAS. Apol. ad Const. 29
(195) Id.
(196) ATHANAS. Apol. ad Const. 29
(197) Ibid. 32
(198) Id.
(199) Ibid. 34
(200) Ibid. 9, 18, 32, 34
(201) Ibid. 10, 21, 22, 24

ولاشك أن نقل هذه الأنباء والتقارير، بل وصور الرسائل الإمبراطورية ذاتها، يقتضى تنظيما سريا دقيقا وصارما ممن يتولون هذه المهمة، فهم يعلمون أن أى خطأ ولو يسير، يمكن أن يودى بسلامة الأسقف الذى ترقبه عيون الإمبراطور، والذى لاشك فيه أن الرهبان هم الذين تولوا حمل هذه المسئولية الجسيمة، ولقد قدمنا عند الحديث عن الرهبان أن أثناسيوس وضع نفسه على رأس الحركة الرهبانية فى مصر، فاستطاع بذلك أن يضمن لنفسه المأوى والأمان وأن يكون رغم بعده عن ميدان الأحداث فى فترات نفيه، قريبا منها بالدرجة التى تخول له المشاركة فيها وتحريكها، أو حتى على الأقل متابعتها، ولذا كان الرهبان يمثلون الشق الثانى والأهم فى دعامتى أثناسيوس اللتين ارتكزت عليهما أيديولوجيته تجاه الدولة البيزنطية.

ويتساءل أثناسيوس فى ختام دفاعه :

" ترانى ماذا أفعل ؟ ! أآتى إلى الإمبراطور فى الوقت الذى تتأجج فيه صدور خصومى بالغضب ضدى والكراهية، بل وتسعى جاهدة من أجل قتلى ؟ ! ألختفى قليلاً علهم فى هذه الفترة بآثامهم يدانون، ومن ثم تتنزل علىّ رحمة الإمبراطور ؟! أم ترانى أظهر أمام موظفيه، الذين على الرغم من أنه كتب إليهم من أجلى، إلا أنهم لم يفهموا من كتابه المبتغى، ولربما الآن أثيروا ضدى وربما قتلونى(٢٠٢) .. من أجل هذا آثرت أن أختفى إلى حين، حتى يجئ الوقت لأعرض على الإمبراطور دفاعى هذا "(٢٠٣) .

ويرفع الأسقف فى النهاية إلى الإمبراطور أكف الابتهال قائلا :

" إنى لأضرع إليك أن تتقبل دفاعى هذا، وأن تعيد كل الأساقفة والاكليروس إلى ديارهم والكنائس، حتى تبرئ نفسك الآن ويوم الدينونة "(٢٠٤).

---

(202) ATHANAS. Apol. ad Const. 34
(203) Ibid, 35
(204) ATHANAS. Apol. ad Const. 35

ولكن الإمبراطور لم يقرأ مما كتبه أثناسيوس هنا شيئا، فقد ظل الأسقف مختفيا طيلة ست سنوات يبحث عنه فيها الإمبراطور، ومات قسطنطيوس دون أن يلقى أثناسيوس، وطوى الأسقف دفاعه على نفسه وتركه للتاريخ.

الفصل السابع



قطوف الفكر الآريوسى

الفصل السابع

قطوف الفكر الآريوسى

كان قسطنطيوس يعلم جيدا أن الاكليروس فى مصر لن يقبل طواعية أن يحتل كرسى الإسكندرية الكنسى أسقف جديد، وأن شعب الكنيسة فيها لا يمكن أن يرضى عن راعى بيعته بديلا، وأن رسالته التى بعث بها إلى الإسكندرية تخاطب أهلها بماضيهم المجيد، وتحمل الوعيد، لن تحول ولاء الجميع عن عقيدة آمنوا بها، ورجل أخلصوا له، ومن ثم كان عليه أن يمهد السبيل أمام جورج الكبادوكى، الأسقف الآريوسى، الذى وقع عليه الاختيار ليكون خلفا لأثناسيوس، فاستدعى إليه ماكسيموس، نائبه فى مصر، وعين بدلا منه كاتافرونيوس[1] Cataphronius الذى قدم إلى الإسكندرية فى العاشر من يونية سنة ٣٥٦، وبصحبته أحد كبار الشخصيات فى البلاط ويدعى هرقل[2] Heraclius ذلك إنه بعد مرور أربعة أشهر على فرار أثناسيوس من الإسكندرية كانت الكنائس لا تزال فى يد أنصاره[3]، ولعل الإمبراطور أدرك بعد مضى هذه الفترة أن ماكسيموس لا يصلح لتنفيذ سياسته الجديدة، والتى تقضى باستخدام العنف مع أتباع نيقية، وهذا شىء يبدو واضحا بعد وصول الحاكم الجديد كاتافرونيوس إلى مصر بثلاثة أيام فقط. ففى اليوم الرابع عشر من يونية بدأ تنفيذ هذه السياسة بإقصاء أنصار أثناسيوس من رجال الاكليروس عن كنائسهم، وتسليمها للآريوسيين[4]. ويذكر أثناسيوس[5] أن هرقل قد حمل معه رسالة إلى الإسكندرية، لابد أن يكون قسطنطيوس هو كاتبها – حسب تعبيره– تحرض الوثنيين فى الإسكندرية على العداء لأثناسيوس، وتحثهم على

---

(1) HIST. ACEPH. IV, 5
وراجع FEST. IND. XXVIII
(2) HIST. ACEPH. IV, 5
(3) Id.
(4) HIST. ACEPH. IV, 5
(5) ATHANAS. Hist. Arian. 48

مساعدة القوات الحكومية فى الاعتداء على أتباعه والكنائس التى تحت أيديهم، وإلا عدوا أنفسهم أعداء للإمبراطور، وحتى يضطرهم إلى تنفيذ هذه الأوامر هددهم بحرمانهم أقواتهم، وتعريض معابدهم للنهب والتخريب، والنزول بهم إلى قدر العبودية[٦] وحتى يضمن ترويضهم طلب إليهم التوقيع على كل ما طلبه منهم[٧].

وعلى الرغم من أن الوثنيين لم يكونوا فى حاجة إلى من يثير ثائرتهم ضد الأسقف السكندرى، لا بصفته الشخصية، ولكن باعتباره تجسيدا لعقيدة اجتذبت من أربابهم العباد، وقوضت دعائم هياكلهم، فأقفرت من ساكنيها، وهاهى الإسكندرية، مدينتهم القديمة، وعاصمة إمبراطوريتهم، وذكرى مجدهم، أضحت الآن ميدانا للصراع بين طوائف تلك العقيدة، وهم ينظرون، ولو جاز لنا أن نقبل هنا حديث أثناسيوس دون نقاش وهو أمر بعيد الاحتمال، لأضفنا أن الوثنيين قد وجدوا فى رسالة الإمبراطور دعوة صريحة للانتقام من المسيحية، والغريب أن أثناسيوس وهو يعرض لهذه الأحداث يضع الوثنيين فى موقف الذين يتصرفون تحت القهر، "يبتاعون بالإذعان سلامة الأرباب"[٨].

على أنه ليس من المنطقى أن نتابع أثناسيوس فيما يقول، ذلك أن أحدا من مؤرخى الكنيسة لم يذكر شيئا عن تحريض الإمبراطور للوثنيين، وأثناسيوس نفسه لم يترك صورة من رسالة الإمبراطور هذه، رغم حرصه على تدعيم موقفه بمثل هذه الوثائق بل إن ما يذكره سوزومنوس وهو أحد المؤرخين الكنسيين، عن القرارات التى أقدم عليها قسطنطيوس ضد الوثنيين، وفى مصر بالذات، من تحريم الاجتماعات فى المعابد، أو مباشرة طقوس العبادة،أو الاحتفال بأعيادهم[٩] وما نعلمه عن الإجراءات التى اتخذها قسطنطيوس ضد الوثنيين فى الإمبراطورية بعامة، والأمر بإزالة مذبح النصر من قاعة مجلس الشيوخ فى روما، الذى يعد

---

(6) Ibid. 54
(7) Id.
(8) Ibid. 55
(9) SOZOM. Hist. eccl. IV, 9

رمزا للعقيدة الوثنية ومعقلا لها، وذكرى مجد روما(١٠) . كل هذا يدفعنا إلى التردد فى تصديق رواية أثناسيوس عن رسالة الإمبراطور إلى الوثنيين، هذا بالإضافة إلى أن القوات الحكومية لم تكن بحاجة إلى عون تلك الجموع الوثنية.

والذى يبدو لنا إن الوثنيين ربما انتهزوا فرصة الأحداث التى وقعت فى الإسكندرية إبان نقل السيادة فى الكنائس إلى أيدى الآريوسيين، والنزاع الذى حدث بين هؤلاء وأنصار أثناسيوس، والفوضى التى ترتبت على ذلك، وتدخل الفرق العسكرية لقهر أتباع أثناسيوس على التخلى عن كنائسهم وتسليمها إلى الآريوسيين، وشاركوا فى هذه الاضطرابات تعبيرا عما يجيش فى نفوسهم من حقد على المسيحيين، لا يفرقون فى ذلك بين أتباع نيقية وأصحاب آريوس، ووجدها أثناسيوس فرصة ليرمى بها خصمه ويصم بها الإمبراطور.

ويقدم أثناسيوس فى أكثر من موضع عرضا للاضطهاد الذى تعرض له أنصاره والمذابح التى وقعت فى عدد من الكنائس، والجهود التى بذلها سباستيانوس Sebastianus القائد العسكرى الجديد الذى خلف سيريانوس، ونفى عدد كبير من رجال الأكليروس المؤيدين(١١)، من أجل توطيد نفوذ الآريوسيين تمهيدا لمقدم الأسقف الجديد. وأخيرا بعد مضى عام كامل على هروب أثناسيوس دخل جورج الكبادوكى الإسكندرية فى الرابع والعشرين من فبراير ٣٥٧(١٢) . ليتسلم كرسى أسقفية الإسكندرية(١٣). وكان من الطبيعى أن يتبع دخول جورج الإسكندرية نوع

---

(10) AMB. Ep. XVIII, 32

(11) ATHANAS. Hist. Arian. 55-65
وراجع لأثناسيوس كذلك Apol. Ad Const. 26
وله أيضا Apol. De fuga, 6

(12) HIST. ACPH. V, 6
وراجع FEST. IND. XXIX

(١٣) يصف أثناسيوس وجريجورى النازيانزى، جورج الكبادوكى بأنه كان متعهدا للتموين والإمداد للجيش فى القسطنطينية، وكون من وراء ذلك ثروة ضخمة . ولكن جيبون يصفه بأنه كان محبا للعلم أو الزهو به، جمع مكتبة قيمة فى التاريخ والبلاغة والفلسفة واللاهوت، حرص الإمبراطور جوليان على اقتنائها بعد مقتل جورج، وإن كان يضيف أن

من الفوضى، اقتضاها استكمال نقل السلطة إلى الآريوسيين، يقصها أثناسيوس فى حديث طويل(١٤). ينقله عنه مؤرخو الكنيسة سقراط(١٥) ، وسوزمنوس(١٦)، وثيودوريت(١٧) ، كان من أبرزها الاضطرابات التى حدثت فى ١١مايو ٣٥٧، والعنف الذى أحدثه القائد سباستيانوس وجنده.

وإذا كان هذا الصراع دائرا فى مصر بين الآريوسيين والنيقيين من أجل السيطرة على الكنائس، فإن الآريوسيين خارجها كانوا قد دخلوا فى صراع مع أنفسهم من أجل السيادة على الإمبراطورية فكرا وعقيدة. لقد أطلقوا العنان لعقولهم تبحث عن إيمان يلقون إليه مراسيهم، وكانت النتيجة عددا هائلا من مراسيم الإيمان، أخصبت الفكر وأهلكت العقيدة، ولكنهم فى هذا كله كانوا يوجهون كل فكرهم فى وجه النيقية وأتباعها وزعيمها أثناسيوس.

لقد كان نضال الآريوسيين طيلة هذه الفترة، منذ عام ٣٢٨، على النحو الذى رأينا، موجها ضد زعماء الإيمان النيقى، ولم تكن مسألة العقيدة على امتداد ربع قرن من الزمان، تجذب منهم الانتباه، اللهم إلا من محاولة خافتة جرت فى أنطاكية

مسلك الأسقف الجديد فى الإسكندرية يشبه سلوك أحد الغزاة البرابرة، ورغم ذلك فقد وضعه البابا جيلازيوس الأول Gelasius (٤٩٢-٤٩٦) فى مصاف الشهداء الذين يعرفهم الله أكثر مما يعرفهم الناس .

راجع ATHANAS. Hist. Arian 75

وأيضا GREG. NAZ. Orat. XXI, 16

وأنظر Gibbon, op. cit. II, p. 496-498, n. 121, 125

وتشير الروايات الآريوسية إلى أن جورج هذا هو من ذاع صيته بعد ذلك باسم سان جورج أو مار جرجس.. راجع للمؤلف: ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحي.. الفصل الخاص بالقديسين.

(14) ATHANAS. Apol. De fuga, 6, 7 .
وراجع له أيضا Hist. Arian 55-66

(15) SOCRAT. Hist. eccl;. II, 28

(16) SOZOM. Hist. eccl. IV, 10

(17) THEOD. Hist. eccl. II, 11

سنة ٣٤١[١٨]. وقبلها، ومن بعد شغل الآريوسيين أنفسهم بالتخلص أولا من رجال النيقية، كما لو كانت المسألة عداء شخصيا، وهذا شيء اتضح لنا تماما من خلال محاضر الاتهامات التى قدمناها. والآن قد خلا الميدان من هؤلاء القادة فى الغرب والشرق على السواء، وغاب عنه بوجه خاص أثناسيوس ، أضحى من الضرورى أن يتجه الآريوسيون بحرصهم إلى العقيدة ذاتها، يدفعهم إلى ذلك، كما أسلفنا، أن المرسوم النيقى جاء ردا على آراء آريوس، وليس قانونا للإيمان كاملا، ولهذا ترك المجال مفتوحا للقول بقوانين الإيمان المحلية القديمة المتوارثة، ورغم ذلك فقد تمسكت كنائس الغرب به، وحرصت عليه كنيسة الإسكندرية، وارتبط به اسم أسقفها، ولهذا كان جهد الآريوسيين موجها فى هذه الآونة إلى البحث عن صيغة جديدة للإيمان يمكن الاستعاضة بها عن عقيدة نيقية.

وبعد وفاة زعماء الآريوسية الأصلية، آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى ظهرت عناصر جديدة من الآريوسيين، اختلفت آراؤها وتضاربت، وبدا ذلك واضحا فى المراسيم الأنطاكية الأربعة، وكان ذلك التيار ينساب من منبعين أساسيين، بولس السميسطائى، سلف آريوس، وأوريجن السكندرى، مؤسس لاهوت الكنيسة الشرقية عامة. ولما كان الاتجاهان يتدفقان من مصدرين مختلفين تماما، كان من الصعب أن يلتقيا أو يمتزج بالآخر أحدهما، ولكن الخوف من النيقية جمع هذا الشتات للعمل جبهة واحدة تحت راية الآريوسية بعد وفاة قسطنطين الكبير، وخاصة فى محاولة للتصدى للغرب، وتمثل ذلك فى فيلبوبوليس (٣٤٣)، وأنطاكية (٣٤٤) وسيرميوم (٣٥١)، وإن كان المرسوم الأنطاكى الثانى، أو اللوقيانى يمثل نغمة شاذة وسط هذا التجمع. فلما كانت سنة ٣٥٦ ووجد الآريوسيون أنفسهم أصحاب السيادة فى الإمبراطورية بلا منازع، بعد أن تهاوت قلاع النيقية، انفرط عقد هذا التحالف، وبدأ كل من الاتجاهين يأخذ طريقه المتباعد من جديد! ذلك إن

---

(١٨) راجع ما قبله

تأثير أرسطو وبولس ولوقيانوس، قاد إلى فريق آريوسى عنيد، على حين قاد التأثير الأفلاطونى الأوريجنى أتباعه إلى الاقتراب من النيقيين[١٩]. وسنتناول ذلك تفصيلا الآن.

فى سنة ٣٥٧، انتهز نفر من زعماء الآريوسية وعلى رأسهم جرمينيوس أسقف سيرميوم وفالنز وأورساكيوس[٢٠]، فرصة وجود الإمبراطور فى سيرميوم وعقدوا مجمعا عرف بمجمع سيرميوم الثالث[٢١]. وقد أوضح هؤلاء لقسطنطيوس أن كلمة "جوهر" Oüsia (Substantia) هى فى الواقع السبب المباشر وراء كل هذا الخلاف العقيدى الذى خيم على الكنيسة وحرمها نعمة السلام، وقد وافقهم الإمبراطور الرأى فأصدروا بناء على ذلك مرسوما للإيمان عرف بمرسوم سيرميوم الثانى[٢٢]، يعتبره هيلارى كفرا محضا ويطلق عليه مرسوم "التجديف"[٢٣] Blasphemia. وكان هدف واضعى المرسوم، على حد تعبير هيلارى، الإنكار الكامل لألوهية الابن[٢٤]، وتضمن إلى جوار ذلك تبعية الابن للأب شأن كل الخلائق، وأن الأب أعظم من الابن فى المجد والكرامة والألوهية[٢٥].

(19) Hefele, op. cit. I, 2 pp. 885-899
وأيضا Bachelet, Arianisme (Dict. De theol.) I, 2
وراجع كذلك Robertson, op. cit. pp. 53-54
وأيضا Neander Christ. Relig. And Church IV, pp. 57-58

(20) HILAR. De Syn. 11

(21) Hefele, op. cit. I, 2 pp. 809-902
وراجع Bachelet, Loc. cit
أيضا Fliche, op. cit. III, pp. 151-153

(22) ATHANAS. De Syn. 28
وراجع أيضا HILAR. De Syn. 11
وكذلك SOCRAT. Hist. eccl. II, 30

(23) HILAR. Loc. cit.

(24) Id.

(٢٥) كان أهم ما تضمنه المرسوم ما يلى : " . . . لما كان بعض قد اضطرب فكره بمسائل تدور حول ما يسمى فى اللاتينية Substantia وفى اليونانية Oüsio (جوهر) مما قاد إلى

وكان هذا المرسوم نقطة تحول خطيرة فى الصراع كله، ذلك أنه منذ هزمت الآريوسية فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥، لم تظهر بعد ذلك فى وثيقة عامة، ولم تكن تتجاسر على أن تعلن عن نفسها صراحة مثلما فعلت الآن(٢٦) . ونلاحظ أن هذه الصيغة جاءت خلوا من كلمة "الجوهر" كما أنها تستنكر (المساواة فى الجوهر) Homoousius (الهوموسية) وترفض (التشابه فى الجوهر) Homoiousius (الهومويوسية) مستندة فى ذلك على عدم ورودها فى الكتاب المقدس. ومن ثم تبنى أصحاب هذه الدعوة تعبير "عدم التشابه" (Anomoean) وعرف مذهبهم بالأنوموية Anomoeanism وأصبح الأنومويون (Anomoeaus) يمثلون الفريق المتطرف فى الآريوسية(٢٧). وعلى رأس هذا الفريق فى الشرق يقف يودوكسيوس Eudoxius أسقف مرعش(٢٨) Germanicia (٣٤١-٣٥٨) والذى اعتلى كرسى أسقفية أنطاكية (٣٥٨-٣٦٠) بعد وفاة ليونتيوس(٢٩)، برضى الإمبراطور ورجال البلاط ودون موافقة جورج أسقف اللاذقية أو مرقس أسقف الرستن، أو غيرهما

القول " بالمساواة فى الجوهر Homoousius و" التشابه فى الجوهر" Homoiousius، لذا كان من الواجب أن لا يذكر شئ من هذا على الإطلاق وأن لا يعرض فى الكنيسة، ذلك أن الكتاب المقدس لم يحدث البتة عن أى منها، فتلك أمور فوق علم البشر، وفوق إدراك الأناسى . لأن أحدا لا يستطيع أن يوضح ولادة الابن . . . الأب وحده يعلم كيف ولد الابن! والابن يعلم . . . ولا أحد يشك فى أن الأب أعظم فى المجد والكرامة والألوهية . والابن نفسه قال : " أبى الذى أرسلنى أعظم منى " (يوحنا ١٤/٢٨)

راجع ATHANAS. De Syn. 28

وأنظر كذلك HILAR. De Syn.11

(26) Watson, op. cit. p. 89

وراجع Gwatkin, The Arian controversy. p. 89

وله أيضا Arianism (Cam. Med. Hist.) Vol. I, p. 132

(27) ATHANAS. De Syn. 31 ; SOCRAT. Hist. eccl. II, 45

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 29

وراجع BASIL. Ep. CCXII, 2

(28) SOCRAT. Hist. eccl. II, 19

وراجع SOZOM. Hist. eccl. III, 5

(29) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37

وأيضا THEOD. Hist. eccl. II,20

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV,12

من الأساقفة الذين لهم حق المشاركة فى اختيار أسقف أنطاكية[٣٠] ،وقد دعا يودوكسيوس على الفور إلى عقد مجمع فى أنطاكية حضره عدد من الأساقفة الذين يؤيدونه الرأى، وقرروا التصديق على مرسوم سيرميوم الثانى، ونبذ اصطلاحى "الهوموسية" و"الهومويوسية" باعتبارهم غير واردتين فى الكتاب المقدس تبعا لما قرره الاخوة فى سيرميوم"[٣١].

على أن شهرة فريق الأنومويين ارتبطت بأسم آيتيوس Aetius السورى[٣٢] وتلميذه يونوميوس Eunomios [٣٣]. وكان هوسيوس الأسقف القرطبى يقيم آنذاك فى سيرميوم نزولا على إرادة الإمبراطور، لمدة تزيد على العام، عقابا له

(30) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37.
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 12
وكذلك THEOD. Hist. eccl. II,20
(31) SOCRAT. Hist. eccl. II,37
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 12
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 20
(32) SOCRAT. Hist. eccl. III, 15
وراجع أيضا AMB. De fide, I, 5

(٣٣) درس آيتيوس الكتاب المقدس ونظم الكنيسة وقوانينها، ثم جاء إلى الإسكندرية فى أسقفية جورج الكبادوكى، وتعلم ببراعة فلسفة أرسطو وغيرها من المدارس الفلسفية التى سادت الإسكندرية آنذاك. وقد بنى عقيدته فى رأى باسيليوس أسقف قيسارية كبادوكيا، على أساس ما جاء فى رسالة بولس الأولى إلى كورنث " إله واحد، الأب الذى منه جميع الأشياء ونحن له، ورب واحد يسوع المسيح الذى به جميع الأشياء ونحن به (أكورنث ٨/٦)، ويضيف جريجورى أسقف نيسا أن آيتيوس سار بعقيدة آريوس الأولى شوطا بعيدا وأن الأنوموية تعد وليدا شرعيا للآريوسية الأصلية . أما يونوميوس فقد وصل بالعقيدة المدى، تعرف إلى آيتيوس فى الإسكندرية ولازمه وتتلمذ عليه، ويعد المؤسس الحقيقى للأنوموية، فقد صاغ فكرها ونظم خطاها، وأكد دون مواربة خلق الأبن ورفض فى إصرار مجرد (الشبه) وأجتذب إليها ببراعته الجدالية، أنصارا كثيرين، حتى حملت الطائفة من بعده اسمه وصارت اليونومية علما عليها. وقد أصبح يونوميوس أسقفا على كيزيكوس فى عهد الإمبراطور فالنز وذلك بعد عزل أسقفها اليوزيوس Eleusius
راجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 35
أيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 15 VI, 26
أنظر كذلك BASIL. De Spir. San. II, 4
وأيضا GREG. NYSS. Con. Eunom. I, 6

على معارضته أوامر الإمبراطور الخاصة بإدانة أثناسيوس[٣٤]، وحرص الأنومويون على أن يضع هوسيوس توقيعه على مرسوم سيرميوم هذا[٣٥]، وقد أقدم هوسيوس على ذلك "تحت ضغط الإمبراطور وقهره في رأى بعض المؤرخين"[٣٦]، ولتقدم العمر به واختلاط الأمر على عقله عن البعض الآخر [٣٧]، ولكنه على الرغم من ذلك فإن هوسيوس لم يوقع ضد أثناسيوس، وإنما أعطى فقط المرسوم السيرميومى توقيعه[٣٨]. ولم يكد يمضى على ذلك عام واحد، حتى كان الأنومويون قد حققوا نصرا أكبر، ذلك أن ليبريوس أسقف روما الذى كان يعانى من جراء نفيه فى تراقيا منذ عامين[٣٩]، وقد اشتد به الشوق إلى بيعته، ولم يطق هذه المعاناة[٤٠] ووصلت أنباء ذلك القلق النفسى إلى الإمبراطور، وأدرك أن أسقف روما قد خارت قواه. فأرسل على الفور يستدعيه، جاء هذا أيضا فى الوقت الذى اشتد فيه سخط الجموع فى روما على الأسقف الآريوسى فليكس[٤١] ، فلما أتى ليبريوس إلى سيرميوم قدم له الإمبراطور مرسوم الإيمان الجديد فمهره دون مناقشة، وأضاف إلى ذلك الإقرار بإدانة أثناسيوس[٤٢]، وقد كتب ليبريوس فى أثناء

(34) ATHANAS. Hist. Arian. 45
(35) SOCRAT. Hist. eccl. II, 31
(36) ATHANAS. Hist. Arian. 45
وراجع له أيضا Apol. De fuga, 5
وأنظر SOCRAT. Hist. eccl. II,30
(37) SVLp. SEV. Hist. Sac. II,40
(38) ATHANAS. Loc. cit.
(39) ATHANAS. Apol. C. Arian
(40) Neander, Christ. Relig. and Church IV, 65
وراجع أيضا 9.Watson, op. cit. p
(41) THEOD. Hist. eccl. II, 14
(42) ATHANAS. Hist. Arian. 41
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 15
وأيضا Hefele, op. cit. I, 2 pp. 908-928
ويذكر سوزومنوس (Hist. eccl. Iv, 15) أن ليبريوس لم يوقع على مرسوم الأنومويين، وإنما وقع على مرسوم الإيمان الذى وضعه أنصاف الآريوسيين فى أنقرة بعد ذلك سنة ٣٥٨ وقدموه للإمبراطور كذلك فى سيرميوم (أنظر بعده)
وراجع ما كتبه Kuhner عن ليبريوس فى : Encyclopedia of the Papacy, p. 16

رحلته عائدا إلى روما ثلاث رسائل، إلى عدد من الأساقفة حفظها لنا هيلارى[٤٣] . تدور كلها حول الدفاع عن نفسه وتبرير ذلك العمل الذى أقدم عليه.

وعلى هذا النحو أيقن الآريوسيون المتطرفون إن الإمبراطورية قد دانت لهم عقيدة وسيادة، فقسطنطيوس أعطاهم الثقة كلها، وهوسيوس، أبو المجامع، وعماد النيقية فى الغرب رضخ، بعد رسالته الساخنة إلى الإمبراطور، وقبل المرسوم، وليبريوس أسقف روما، وما يمثله من مكانة فى عالم الكنيسة، لانت عريكته فأذعن طائعا، وأثانسيوس قد هرب بنفسه وعقيدته، والإسكندرية يحمل كرسيها الأسقفى جورج الكبادوكى الآريوسى، وكذا الحال فى أنطاكية والقسطنطينية وقيسارية.

وكان طبيعيا أن يتوقف الصراع الآن، غير أن الأنومية تلقت الآن صفعة قوية لم تفق منها إلا بعد ذلك بفترة طويلة على يد يونوميوس، ولم يأتها هذا التحدى من جانب أتباع نيقية، ولكنه تم على يد الآريوسيين أنفسهم.

وقبل أن نتحدث عن ذلك، علينا أن نلقى نظرة على أثناسيوس فى المكان الذى يختبئ فيه، فقد نقلت إليه الأنباء فى ملجئه الأمين، أن هوسيوس قد أعطى موافقته على مرسوم للإيمان ينكر أى "مساواة" أو "شبهية" بين الآب والابن[٤٤] أضافت هذه الأنباء إن ليونتيوس أسقف أنطاكية ونارقيسوس أسقف بانياس، وجورج أسقف اللاذقية ورفاقهم من الآريوسيين يتهمون الأسقف السكندرى بالجبن نتيجة هروبه، وأن ما أقدم عليه يتنافى مع خلق رجال الدين[٤٥] وعلى الفور شحذ أثناسيوس قلمه وراح يكتب دفاعا عن هروبه Apologia de fuga يرد على هذه الاتهامات التى وجهت إليه، ويتساءل، من تراه من الأساقفة لم يتعرض لغضب هذا

---

(43) HILAR. Fragm. Vi, 5-11 (p. L. X. 589-595)

وكانت الأولى إلى أساقفة الشرق، والثانية إلى فالنز وأورساكيوس، والثالثة إلى فينكنتيوس أسقف كابوا .

(44) ATHANAS. Apol. De fuga, 5 .

(45) ATHANAS. Apol. De fuga, 1.

الفريق؟! ويعدد الأسقفيات التى تم نفى أساقفتها بسبب عدائهم للآريوسية[٤٦]، ويدافع عن هوسيوس القرطبى ويخلع عليه أعظم الصفات وأنبلها، ويلتمس له الأعذار عن توقيعه على إيمان سيرميوم[٤٧].

وينتقل أثناسيوس بعد ذلك إلى الحديث عن الاضطرابات التى شهدتها الإسكندرية بعد دخول جورج الكبادوكى إليها[٤٨]، ويذكر أسماء ستة عشر أسقفا مصريا واثنين من القساوسة تم نفيهم لأنهم رفضوا الدخول فى شركة الأسقف الآريوسى جورج[٤٩]، ويصرح بأن هذا الاتهام ليس نابعا من حرصهم على العقيدة، بل للحزن الذى تملكهم بعد أن أفلت من أيديهم، يضرب لهم مثلا بمن سبقه من الأنبياء والقديسين[٥٠]، ثم يقول إن المسيح نفسه فعل ذلك[٥١]. ويقص أثناسيوس على مسامعنا قصة الهجوم الذى قام به سيريانوس على كنيسة ثيوناس وما كان من أمر فراره[٥٢] ويختم الأسقف دفاعه بتوجيه الاتهامات إلى جميع الأساقفة الذين أذاعوا فى الكنيسة نبأ هروب أثناسيوس وقد وصموه بالجبن والتخلى عن فضائل الاكليروس[٥٣].

على أن أهم ما يلفت النظر فى هذا الدفاع أن أثناسيوس لم يتعرض فيه لشخص الإمبراطور إلا مرة واحدة، وتجنب أن يخبر فى قليل أو كثير عنه، حتى عندما ينحى باللائمة على أولئك الذين يساعدون أعداءه، فإنه يشير إلى "موظفى الإمبراطور"، دون الجالس على العرش، ولكنه فى نهاية مرافعته، وفى معرض اتهامه للأسقف الأنطاكى ليونتيوس، أورد اسم الإمبراطور مقرونا بلفظ

(46) ATHANAS. Apol. De fuga, 3,4,9 .
(47) Ibid. 5
(48) Ibid. 6
(49) Ibid. 7
(50) Ibid. 10
(51) Ibid. 12-15
(52) Ibid. 24
(53) Ibid. 26

"هرطوق"(٥٤)، وهذا فى حد ذاته يعد تعبيرا عن الاتجاه الجديد الذى ينتويه أسقف الإسكندرية فى دائرة علاقته بالإمبراطور قسطنطيوس، ويعتبر فى الوقت ذاته مرحلة انتقال بين أسلوبه الذى يضفى التقوى على قسطنطيوس ويجعل منه ورعا ديّنا فى دفاعه إليه، والعبارات اللاذعة واللهجة القاسية العنيفة التى امتلأ بها عمل أثناسيوس الآخر وهو تاريخ الآريوسيين.

لم يكتف أثناسيوس بتسخير قلمه للدفاع عن نفسه واتهام الخصوم وإنما راح يباشر من مستقره مجريات الأحداث فى مصر وخارجها، وكان وجوده فى وادى النطرون قريبا من الإسكندرية يهيئ له سرعة الوقوف على كل ما يجرى حوله، ويقوم على ذلك جماعات الرهبان وتنظيمهم السرى الدقيق الذى وضعوه حفاظا على حياة أثناسيوس. وقد ساعده فى هذا كله جمع تفاصيل الاضطرابات التى تعرضت لها الإسكندرية، وأن يخرج من مخبئه ليقيم فى المدينة طيلة عامين كاملين (٣٥٨-٣٦٠)(٥٥) فى الوقت الذى كان فيه جنود الإمبراطور وعيونه تذرع مصر كلها بحثا عن الأسقف الهارب الذى يختفى تحت سمعهم وبصرهم فى الإسكندرية! ولقد امتد جهد الإمبراطور وأساقفته بحثا عن أثناسيوس إلى مملكة أكسوم على النحو الذى رأينا، بل لقد راحوا يطلبونه لدى ملوك الحميريين على الشاطئ الجنوبى الشرقى للبحر الأحمر(٥٦)، وإذا كان أثناسيوس قد مد سيادة الإسكندرية النيقية إلى أكسوم، فليبسط الآريوسيين أيضا نفوذهم على الشاطئ المقابل، وقد تمثل ذلك فى البعثة التى قام بها ثيوفيلوس Theophilus أحد أساقفة الآريوسية، وزار فيها هذه المنطقة، ثم عرج على أكسوم فى طريق عودته ليحاول صرف أسقفها ومليكها والجموع عن تأييد أثناسيوس(٥٧). بل إن القديس أوغسطين

(54) ATHANAS. Apol. De fuga, 26
(55) FEST. IND. XXI-XXXII
(56) Neale, Holy Eastern Church. p. 132 وللمؤرخ نفسه أيضا راجع أيضا Patriarchate of Alex. I, p. 188
(57) Id.

يخبرنا فى إحدى محاوراته ضد الدوناتيين إن الآريوسيين سعوا جهدهم بعد مجمع سرديكا للاتصال بالدوناتيين لتوحيد جهودهم وإياهم ضد النيقية وزعمائها(٥٨) .

وفى هذه الأثناء، وإبان اختفاء أثناسيوس فى الإسكندرية، اشتعلت الثورة فيها ضد جورج الكبادركى، نتيجة لسياسة العنف التى اتبعها حيال النيقيين والوثنيين على السواء طيلة ثمانية عشر شهرا(٥٩) حتى لقد ثار الناس على "لدغ الأفعى" حسب تعبير الكاتب الوثنى أميانوس ماركللينوس(٦٠) وفى ٢٦ أغسطس ٣٥٨ وقع جورج فى أيدى هذه الجموع الساخطة، غير أنه استطاع الإفلات بصعوبة بالغة(٦١)، وفى الثانى من أكتوبر غادر المدينة هاربا (٦٢)وانتهز أنصار أثناسيوس الفرصة وقاموا بهجوم مضاد فى ١١ أكتوبر، انتقاما لما حل بهم أنفا، وطردوا الآريوسيين من الكنائس التى سيطروا عليها، ووضعوا عليها أيديهم(٦٣). وظلت هذه الكنائس تحت سيطرتهم حتى الرابع والعشرين من ديسمبر ٣٥٨ عندما قام القائد سباستيانوس وأخرجهم منها وأعادها جميعا إلى أتباع جورج الآريوسيين(٦٤).

وقد صمتت المصادر تماما عن العلاقة بين ما حدث فى الإسكندرية ضد جورج واختفاء أثناسيوس فيها آنذاك، غير أن مجيء أثناسيوس إلى الإسكندرية ليختبئ فيها فى هذا التوقيت بالذات، لا يدع مجالا للشك فى أن الأسقف السكندرى لم يكن ليترك الأحداث تجرى حسبما اتفق ولكنه كان يتدخل ليرسم سيرها ومجراها، وهذا شيء نلمسه بوضوح فى تلك الرسائل التى بعث بها فى فترة اختفائه هذه، وكان أشهرها على الإطلاق رسالتيه إلى الرهبان وأخرى إلى صديقه الراهب سرابيون.

---

(58) AVG. Con. Cresc. III, 38
(59) HIST. ACEPH. V, 6
(60) AMM. MARC. Res gest XXII, 11
(61) HIST. ACEPH. V, 6
(62) Id.
(63) Id.
(64) Id.

ومن رسالته الأولى إلى الرهبان AD Monachos نعلم أن هؤلاء قد طلبوا إليه أن يكتب إليهم عن "الآلام التى عاناها" وقد أجابهم إلى ما أرادوا وراح يسفه لهم العقيدة الآريوسية(٦٥)، وحذرهم من الإصغاء لأحد من أتباعها، وحثهم على الحرص الكامل على ما كتبه إليهم، خشية أن يقع منه شيء فى أيدى الخصوم (٦٦). أما رسالته الثانية إليهم، فهى تعد وثيقة على جانب كبير من الأهمية إذ نعلم منها أن الآريوسيين قد بذلوا جهدهم لاستمالة الرهبان إلى صفوفهم، لما يعلمونه وأدركوه فعلا من قوتهم ومدى ما لهم من نفوذ على جموع المسيحيين. وقد أفصح أثناسيوس عن ذلك صراحة فى هذه الرسالة حيث قال:

"... لا تعطوا الفرصة لأولاء (يعنى الآريوسيين)، وذلك"
"إنه إذا ما رآكم راء، أنتم يا أهل الإيمان، ترتبطون أو"
"تدخلون فى شركة أولئك النفر، أو تشتركون فى الشعيرة"
"وإياهم ، فإن الجموع سوف تتقبل الأمر ببساطة وتتبعكم"
"إلى الكفران(٦٧)".

وهذه العبارة الأخيرة لا تحتاج إلى تعليق على مدى الدور الخطير الذى لعبه الرهبان المصريون فى قضية أثناسيوس، وقد وضعت هذه الرسالة على الفور موضع التنفيذ (٦٨)، وفى هذا القول من الأسقف السكندرى دلالة كافية على ما كان

(65) ATHANAS. Ep. Ad Mon. I, 1, 2
(66) Ibid. 3
(67) Ibid. 11
(٦٨) تورد المصادر رواية تدل على مدى ولاء الرهبان لأثناسيوس، فتخبرنا أن القائد العسكرى أرتميوس قام فى سنة ٣٥٩/٣٦٠ بمهاجمة أحد الأديرة فى جنوب الوادى بحثا عن أثناسيوس. فتقدم إليه رئيس الدير قائلا :
"أثناسيوس أبانا بعد الآب، ولكننا مع ذلك لم نر وجهه مطلقا " . فطلب إليه أرتميوس أن يصلى مع الاخوة قبل الرحيل، فأجابه أحد الرهبان ويدعى بسارفى Psarphi بأن الأب منع الرهبان من الصلاة مع الغرباء الذين يرتبطون بالآريوسيين، ولاشك أن هذا إشارة واضحة إلى ما جاء فى رسالة أثناسيوس.
راجع FEST. IND. XXXII
وأيضا Robertson, op. cit. p. 564 n 1, p. 180

يعوله أثناسيوس، بل والآريوسيين أيضا على اجتذاب الرهبان، كل إلى قضيته، ولكن أثناسيوس كان قد حاز قصب السبق فى هذا الميدان، كما بينا آنفا، وقد بلغ الود بين الأسقف والرهبان درجة كبيرة تتبدى فى رسائله العديدة إليهم، والتى يبدأها دائما مخاطبا إياهم: "الأخوة الأحبة الأعزاء"، ويختتمها قائلا "من صديق وفى إلى أوفى الأصدقاء". وقد كانوا فعلا بالنسبة لأثناسيوس، وأثبت هذا "الجيش"-على حد تعبير المؤرخ نيل Neale مقدرته على التصدى لأعداء أثناسيوس.

وكانت جهود هؤلاء الرهبان عاملا هاما من بين ما أودى بجهود الآريوسيين فى السيطرة على كنيسة الإسكندرية(٦٩)، وبرز ذلك واضحا فيما وصل إليه الحال بجورج الكبادوكى، نتيجة لذلك الكره الدفين الذى يصفه سوزومنوس، يحمله له الرهبان جميعا، وقد بادلهم جورج نفس القدر من الكراهية، موقنا أنهم وراء عصيان الجموع لأوامره، ونفورهم منه ورفضهم الدخول فى شركته(٧٠). ويقول جيبون أنه فى الوقت الذى كانت فيه كل أجهزة الدولة عسكريا وماليا تبحث عن أثناسيوس وترصد الجوائز لمن يعثر عليه حيا أو ميتا، وتنذر بأوخم العواقب لمن يحمى عدو الدولة الأول، كان الرهبان يقدمون أرواحهم دفاعا عن أثناسيوس وبأيديهم كان ينتقل من مكان إلى آخر أكثر أمنا إذا ما داهمه الخطر. وظل بينهم حتى مات قسطنطيوس، وهؤلاء يقومون على خدمته، حراسا له، ومساعدين ورسلا(٧١). ويضيف روبرتسون "لقد امتلأت المدن والقرى والفيافى والأديرة والمقابر والقفار بمندوبى البلاط يبحثون عن الأسقف الهارب لكن دون جدوى، ولم نسمع أن راهبا قد وشى به أو غدر . لقد آتت السنوات العشر (٣٤٦-٣٥٦) الآن أكلها(٧٢). لقد كان الأسقف يقضى وقته متنقلا بين صوامع مصر العليا

(69) Neale, Patriarchate of Alex. I, p. 180
(70) SOZOM. Hist. eccl. IV, 10
(71) Gibbon, op. cit. II, p. 401
وراجع أيضا Paul-Chenau, Les Saints D'Egypte I, p. 565
(72) Robertson, op. cit. pp. 51-53

والسفلى وأديرتها، حيث يجد نعم المأوى، وهناك تتوالى عليه الرسائل تحمل الولاء أو التحذير، وتبقيه على علم بالأحداث ساعة وقوعها، وتحمل رسائله وكتاباته إلى كل مكان.

أما رسالته إلى سرابيون فتعد هى الأخرى من أهم أعمال أثناسيوس خلال فترة نفيه الثالث، ولها دلالتها الخاصة حيث إن سرابيون كان الساعد الأيمن لأثناسيوس، وقد اختاره أسقفا لمدينة تمى (الأمديد) Thmuis ما بين عامى ٣٣٧-٣٣٩، ثم اتخذه سفيرا له إلى الإمبراطور سنة ٣٥٣، هذا بالإضافة إلى أن سرابيون كان صديقا مقربا إلى أبى الرهبان أنطونيوس[٧٣]، وكان سرابيون قد طلب إلى أثناسيوس أن يكتب له رسالة عن الظروف التى أحاطت بوفاة آريوس، ومبادئ العقيدة الاريوسية[٧٤]، ومن ثم كتب إليه أثناسيوس هذه الرسالة Ad Serapionem dc morte Arii يدين فيها فكر آريوس، وينحى باللائمة على قسطنطيوس الذى يتابع هذه العقيدة[٧٥] ويعلن أنه كتب إليه على نحو ما كتب أيضا إلى الرهبان، حتى يكون الجميع فى موقف قوى يستطيعون معه مجابهة الآريوسيين والتصدى لهم[٧٦].

ومن هذه الرسالة يتضح مدى المودة والتقدير الذى يكنه أثناسيوس للرهبان عامة وسرابيون بخاصة حيث يدعوه "الصديق الحميم". ثم يطلب منه أن يرد عليه ما كتب مزودا بالملاحظات التى يمكن أن تكمل أى خطأ يعتور ما كتبه الأسقف، وهذا يكشف عن الاحترام العميق الذى يحمله الأسقف للرهبان. والذى كانوا يبادلونه إياه ويضفون عليه الولاء كله.

ولنعد الآن إلى الأحداث خارج مصر لنرى ما كان يعتمل بين الآريوسيين فكرا من أجل العقيدة والسيادة، ذلك أن نفرا من أساقفة الغرب وخاصة غالة،

(73) ATHANAS. Vita Ant. 91
(74) ATHANAS. Ep. Ad Serap. 1
(75) Ibid. 4
(76) Ibid. 5

والتى كانت خاضعة الآن لسيادة جوليان، مذ عينه الإمبراطور قسطنطيوس هناك قيصرا في ٦نوفمبر ٣٥٥[٧٧]. استمدوا من وجود جوليان فيما بينهم سندا يخفف عنهم سطوة قسطنطيوس [٧٨]، وتولى زعامتهم فويبادوس Phoebadius أسقف آجن Agennum (جنوب غربى غالة) (٣٥٠-٣٩٣) ودعا إلى عقد مجمع من أساقفة غالة، قرر الحضور فيه إدانة مرسوم سيرميوم[٧٩] .

غير أن هذا الاستنكار من بعض أساقفة غالة لم يترك أى تأثير على سير العقيدة الاريوسية واتجاهها نحو هدفها الرئيسى، ولكن الخطر الحقيقى الذى هدد كيان الآريوسية جاء من داخلها. فقد أسلفنا أن هؤلاء العقليين في تاريخ اللاهوت المسيحى الأول، كانوا يسعون حثيثا للوصول إلى صيغة للإيمان ملائمة، يضعونها بدلا من عقيدة نيقية التى لم تشبع الإيمان لدى الكثيرين، وكان مرسوم الأنومويين فى سيرميوم انطلاقة هامة وخطيرة فى هذا السباق العقيدى فتحت الباب أمام زعماء الجيل الآريوسى الجديد لوضع صياغة مناهضة.

وقد شعر جماعة من هؤلاء أن الأنومويين قد تطرفوا بالآريوسية الأصلية، فأدى ذلك بهذه الجماعة إلى الشكل الآريوسى المحافظ الذى يؤكد التمايز بين الآب والابن[٨٠] ، وبدأوا يتأملون فى الذى يمكن أن يتضمنه "الشبه" بين الابن والآب. وانتهوا إلى الاعتقاد بأن هذا "الشبه" "جوهرى" وليس"مقتبسا" كما يعتقد آريوس[٨١] على اعتبار أن كلمة "الجوهر" لا تعنى الفردية أو الوحدة. وإنما تعنى المماثلة الصريحة أو الكاملة. وعليه فلا ضير من قبولها على هذا المفهوم، مع عدم تقبلها

---

(77) AMM. MARC. Res gest, XV, 8
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 34
(78) Watson, op. cit. p. 14
وراجع أيضا Gwatkin, The Arian Controversy, p. 90
وأيضا cit. II, p. 158.Kidd. op
(79) HILAR, De Syn. 2-8
(80) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 90
(81) Robertson, op. cit. p. 54

فى صورتها النيقية، بمعنى المساواة "الهوموسية" Homoousius خوفا من ترديد الآراء السابللية، ولكى يكون المعنى واضحا، فليس هناك أكثر تأثيرا من إدخال حرف (اليوتا) (I) iota على هذا الاشتقاق الأخير ومن ثم تغدو تشابها فى الجوهر "الهومويوسية "[٨٢] Homoiousius.

وقد جاء هذا استنتاجا صريحا مما ورد فى المرسوم الأنطاكى الرابع عن التشابه التام فى الجوهر[٨٣] كما ورد هذا التعبير فيما كتبه كيرلس Cyrillus أسقف أورشليم على هذا النحو "التشابه كما هو مكتوب ، التشابه فى كل شىء"[٨٤] ، ولقد تمثل هذا الاتجاه فى ذلك الجيل الجديد الذى لم يتعلم احترام النيقية، ولا حتى تشرب الأفكار الآريوسية[٨٥]، ومن ثم حمل هؤلاء اسم (أنصاف الآريوسيين) Semi-Arians، أو الهومويوسيين وهؤلاء هم الممثلون الحقيقيون للمحافظين الذين صبت آراؤهم فى قالب جديد[٨٦]، وقد دفعهم الخوف من متابعة السابللية إلى رفض صيغة "الهوموسية" واستخدام "الهومويوسية". وكان أبرز زعماء هذا الفريق باسيليوس أسقف أنقرة، وجورج أسقف اللاذقية ويوستاتيوس أسقف سيواس Sebaste، واليوزيوس Eleusius أسقف كيزيكوس، ويوسيبيوس أسقف حمص، وكيرلس أسقف أورشليم، ومرقس أسقف الرستن، وماكيدونيوس أسقف القسطنطينية[٨٧] .

واتت الفرصة أنصاف الآريوسيين للعمل ضد الأنومويين، ذلك أن باسيليوس أسقف أنقرة، وجه الدعوة فى عام ٣٥٨ إلى نفر من الأساقفة بلغ عددهم اثنى عشر

(82) Robertson, op. cit. Pp. 54-55
(83) ATHANAS. De Syn. 25
(84) CYRIL. Catech. VI, 7
(85) Robertson, op. cit. p. 55
(٨٦) راجع ما كتبه F. Jackson عن الآريوسية فى Arianism
Encycy1. Of relig. And ethics, I, pp. 775-786
(87) ATHANAS. Apol. De fuga, praef
وراجع كذلك HILAR. De Syn. 63

أسقفا، لعقد اجتماع فى مدينته بمناسبة الاحتفال بتدشين كنيسة أنقرة(٨٨)، وفى ربيع هذا العام التأم عقد الأساقفة فى مجمع حمل اسم المدينة(٨٩)، وأسرع بهم إلى ذلك تلك الرسالة التى بعث بها جورج أسقف اللاذقية إلى باسيليوس، يحمل فيها على الأنومويين وخاصة يودوكسيوس الذى تولى أسقفية أنطاكية فى نفس العام. وكان جورج يمتلئ حقدا على يودوكسيوس لاعتقاده أنه أحق منه بكنيسة أنطاكية(٩٠). ومن ثم ركز هجومه على آيتيوس رجل الأنوموية أيضا لاتفاقه فى الرأى مع يودوكسيوس، والرسالة فى حد ذاتها دعوة صريحة إلى أنصاف الآريوسيين للعمل بسرعة على توحيد عدد كبير من الأساقفة فى جبهة واحدة ضد متطرفى الآريوسية، هذا بالإضافة إلى أنها تلقى الضوء على أهمية أنطاكية مدينة وكنيسة، وما يعوله الجميع من السيادة عليها باعتبارها حاضرة الشرق وقلب الاريوسية النابض(٩١).

وكان مجمع أنقرة سنة ٣٥٨ تحديا صريحا لصيغة سيرميوم الأخيرة التى رفضت الشبه إطلاقا بين الآب والإبن، ولذلك كان على أساقفة المجمع أن يضعوا صيغة إيمان جديدة تمثل الجماعة المحافظة بفكرها المتطور، ونتيجة لهذا تمخض المجمع عن رسالة تؤكد التشابه فى الجوهر بين الآب والابن "الهومويوسية"

(88) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 91

(89) Hefele, op. cit. I, 2 pp. 903-908

(90) Kidd, op. cit. II, p. 159

(٩١) جاء فى هذه الرسالة بعد الديباجة: " منذ زمن يسير كابدت المدينة (يُعنى أنطاكية) من الخراب الذى جاءها به آيتيوس، وقد تشجع تلامذة هذا الوغد، الذين ازدريتموهم، بمناصرة يودوكسيوس ووصلوا بيديه إلى المراتب الكهنوتية ، بل إن آيتيوس نفسه رفع قدره . أذهبوا إذن لإسعاف هذه المدينة العريقة ، حتى لا يؤدى غرقها إلى أن يغرق العالم ، تآلفوا والتمسوا موافقة الأساقفة الآخرين . فربما طرد أيتيوس من الكنيسة . ربما قطع تلاميذه الذين وضعوا سلفا بيد يودوكسيوس فى قائمة الاكليروس . وإذا ما أصر يودوكسيوس على تأييده لآيتيوس فى القول بأن الأبن يغاير كلية الآب وتفضيل أولاء الذين يمالئون هذه العقيدة على من يعارضها، فقد هلكت أنطاكية " .
أنظر SOZOM. Hist. eccl. IV, 13

(Homoiousius) وذيل إياها بثمان عشرة لعنة Anathema موجهة ضد آيتيوس ويودوكسيوس وماركللوس، وكل أولئك الذين ينكرون "التشابه فى الجوهر" بين الآب والابن[٩٢]، وهكذا أدان مجمع أنقرة "الأنوموية" وتجاهل فى الوقت ذاته "النيقية"[٩٣]. وعلى الفور ارتحل كل من باسيليوس وبوستاتيوس واليوزيوس إلى سيرميوم، حيث كان الإمبراطور قد عاد إليها من روما[٩٤] وقد تمكن ثلاثتهم من الاستحواذ على أذن الإمبراطور واستمالته إلى ما جاءوا يحملون، فقد كان الإمبراطور ينظر إلى باسيليوس آنذاك بعين الاحترام باعتباره[٩٥] من أكثر الأساقفة اعتدالا، ومن ثم لم يجد رسل مجمع أنقرة صعوبة فى اجتذاب الإمبراطور إلى صفهم.

وكان أصفاليوس قسيس أنطاكية ورسولها إلى الإمبراطور، يستعد للارتحال عائدا إلى الشرق يحمل رسالة التأييد من الإمبراطور[٩٦] فلما قدم وفد أنقرة إلى قسطنطيوس، وقص عليه القصص وعرض صيغة الإيمان الجديدة، استدعى الإمبراطور إليه ثانية أصفاليوس واسترد منه رسالة الرضى التى كان قد حملها إياه إلى يودوكسيوس[٩٧]، وكتب إلى كنيسة أنطاكية رسالة[٩٨] أعلن فيها سحب الثقة من يودوكسيوس ورفاقه، وسخطه على آيتيوس وآرائه، وموافقته على آراء أنصاف الآريوسيين، واستخدم بعد ذلك أسلوب التهديد ضد الأنومويين وأنصارهم،

(92) SOZOM. Hist. eccl. IV, 14

وراجع Hefele, op. cit. Pp. 903-998

وأيضا Kidd, op. cit. II, pp. 159-160

ويذكر باسيليوس أسقف قيسارية كبادوكيا أن الرسالة تضمنت أثنتا عشرة أناثيما فقط ضد كل من ينكر التشابه فى الجوهر .

راجع BASIL, Ep. CCLXIII, 3

(93) Watson, op. cit. p. 9

(94) SOZOM. Hist. eccl. IV, 13

(95) Robertson., op. cit. p. 55

(96) SOZOM. Loc. cit.

(97) Id.

(98) Ibid. 14

ثم أعلن فى النهاية أن الجزاء العادل لأولاء أن تلفظهم الكنيسة مارقين، وبالفعل صدرت الأوامر بنفى يودكسيوس إلى أرمينيا، وآيتيوس إلى فريجيا(٩٩).

وقد اتخذ قسطنطيوس من وجود أساقفة الشرق، باسيليوس ويوستاتيوس وغيرهما فى سيرميوم سنة ٣٥٨ ، وحضور فالنز وأورساكيوس وجرمنيوس، فرصة، ودعاهم إلى عقد مجمع عرف بمجمع سيرميوم الرابع(١٠٠)، وطلب إلى هؤلاء جميعا التوقيع على ما جاء به أنصاف الآريوسيين، ولم يبد أى منهم، خاصة أنصار الأنوموية فى الغرب، فالنز وأورساكيوس، أى بادرة تشير إلى الاعتراض(١٠١)، ويعلق جواتكين على ذلك قائلا: "إن قرارات هذا المجمع توضح مدى الجرأة التى يمتلكها أناس يستطيعون التأثير على الإمبراطور نفسه، وإحداث التغيير المفاجئ الذى يبتغون(١٠٢).

ولعلنا نتساءل عن الدوافع التى حدت بقسطنطيوس إلى تغيير موقفه بهذه السرعة من الأنوموية إلى النصف آريوسية؟! الحقيقة أن الإمبراطور اضطر بفعل الأحداث إلى اتخاذ مثل هذا الموقف بالتخلى عن الأنومويين فجأة، ذلك إنه قد رأى الاحتجاج الذى أظهره أساقفة غالة ضد فريق المتطرفين، ولم يكن يريد أن يثير غضب الاكليروس وشعب الكنيسة فى غالة خاصة والغرب بعامة، فى وقت كان فى أشد الحاجة إلى ضمان الهدوء فى تلك المنطقة حتى يتسنى له مجابهة القوات الفارسية فى الشرق، والتى بدأت مرة أخرى تعكر صفو السلام عند الفرات(١٠٣). وبنفس الدافع إلى الاستقرار لم يكن يريد أن يرى فى الشرق ذاته هذا الصدع الهائل بين الآريوسيين وأنفسهم، وتأكد لديه بناء على ما حدث فى أنقرة، أن الأساقفة هناك، أو على الأقل عدد ليس باليسير منهم يرفضون الأنوموية.

من أجل هذا رأى الإمبراطور، بقصر نظره فى المسائل اللاهوتية ومشاكل

---

(99) Kidd, op. cit. II, p. 161
(100) SOZOM. Hist. eccl. IV, 15
(101) Hefele, op. cit. I. 2, p. 908
(102) Gwatkin, The Arian controversy, p. 91
(103) Sykes, A history of Persia, pp. 416-417

الجدل العقيدى، أن يمالئ أنصاف الاريوسيين معتقدا عدم وجود خلاف جذرى بين "الهوموسية" و"الهومويوسية"، وأن "التشابه فى الجوهر" بين الآب والابن لا يبعد كثيرا عن "المساواة"، وإن أنصار النيقية على هذا النحو لن يجدوا الفرصة التى تدفعهم إلى الهياج وإثارة النزاع من جديد، ويعلق سوزومنوس قائلا: "تلك كانت الأحداث التى شهدتها سيرميوم، وهكذا بدا للجميع آنذاك أن كنائس الشرق والغرب، يدفعها الخوف من إثارة سخط الإمبراطور، راحت تدق أجراسها بفكر عقيدة واحدة"(١٠٤).

غير أن علامات الهدوء هذه كانت تحمل فى طياتها نذر إعصار عنيف، فالأساقفة الأنومويون الذين تم نفيهم، سرعان ما صدرت الأوامر الإمبراطورية بإعادتهم ثانية (١٠٥) فى محاولة من قسطنطيوس لتقليد أبيه، جريا على سياسته فى ائتلاف جميع الفرق المتصارعة واسترضائها، وبدأت بذلك فترة امتدت ثلاثة أعوام هى عمر قسطنطيوس الباقى، شهدت مواجهة سافرة بين جميع الفرق المسيحية، الآريوسية والنيقية.

وكانت الفرصة الآن قد تهيأت لظهور فرقة جديدة تحمل معتقدا آخر، احتجاجا على هذا التطرف البعيد عن الأنومويين والنيقيين، والارتداد الحثيث لدى أنصاف الآريوسيين. ومن ثم كان البحث طريق وسط، يمثل أيسر السبل بلوغا إلى الهدف وسط هذا الجدال العقيدى المحتدم، وأعملت الجماعة فكرها فاهتدت إلى صيغة تجمع ربما كل ما يدور فى أذهان هذه الفرق جميعا، تتجسد فى كلمة "التشابه" (Homoeos) "الهوموية" وفقط. دون تحديد معين لنوعية "التشابه" بين الابن والآب. وكان احتجاجهم نابعا من أن "الهوموسية" و"الهومويوسية" لم تردا فى الكتاب المقدس، أما "الهوموية" فقد رددها أثناسيوس فى كتاباته ضد

---

(104) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16

(105) Gwatkin, Arianism, p. 132

وراجع له أيضا The Arian Controversy, p. 92

وانظر كذلك Watson, op. cit. p. 9

الأنومويين[١٠٦]، وجرت فى لاهوت الجماعة المحافظة عند كيرلس الأورشليمى كما أسلفنا[١٠٧]. وبناء عليه فقد رأى هذا الفريق فى الكلمة هذه صيغة بسيطة واضحة يمكن أن تتلاقى عليه آراء الجميع.

وعلى رأس هذا الفريق يقف أكاكيوس Acacius أسقف قيسارية (٣٤٠-٣٦٦) تلميذ يوسيبيوس شيخ مؤرخى الكنيسة[١٠٨] وإذا كان هذا الأخير صاحب آراء لاهوتية يعوزها وضوح الرؤية، فإن أكاكيوس كان ذا عقل ألمعى، ولكن دون عقيدة معينة[١٠٩]. ويبين تاريخه الطويل حتى وفاته، تقلبه بين الفرق والفكر يرتضى الهوموسية حينا، ويتقبل الآريوسية أحايين[١١٠]. وهو من هذه الناحية بالذات يمثل فريق الأساقفة السياسيين فى الشرق. لقد كان سياسيا أولا وآريوسيا بعد ذلك. ويقول عنه روبرتسون: من الصعب أن تحدد طبيعة آراء هذا الرجل وأفكاره، ولكن الذى لا شك فيه أنه كان متعاطفا مع سياسة قسطنطيوس التى تبغى الوحدة بين جميع الفرق المسيحية على أساس الخضوع للدولة[١١١].

وأكاكيوس فى ذلك يشبه رجلى بانونيا، فالنز وأورساكيوس، كلهم يسعى إلى تحقيق هدف واحد هو السيادة على الكنيسة بسلطان الدولة. ولعل صفحات التاريخ التى قلبناها آنفا تحدث فى جلاء عن طبيعة هذين الأسقفين، وكانا قد نجحا لأشهر قليلة فى الانتصار للأنوموية، ولكن قسطنطيوس عاد فتنكر لهذا المعتقد، فلما أحسا بأس الإمبراطور أسرعا يتحالفان مع رجل قيسارية أكاكيوس ليخلعا عن نفسيهما

(106) ATHANAS. Orat. C. Arian. I, 9, 39-40, II, 16-18

(١٠٧) وهم يعنون قول كيرلس " التشابه كما هو مكتوب فى كل شئ " والمقصود هنا أنه استخدم الكلمة ذاتها راجع قبله .

(108) SOCRAT. Hist. eccl. II, 4
وراجع كذلك SOZOM. Hist. eccl. III, 2

(109) Robertson, op. cit. p. 54

(110) SOCRAT. Hist. eccl. II, 39-42; III, 25
وراجع SOZOM. Hist. eccl. III, 5, 12, 16; IV, 23, 24, 29

(111) Robertson, op. cit. p. 54

بذلك رداء أغضب الإمبراطور، وتلك كانت الصورة التى أضحت عليها الفرق المسيحية آنذاك. الآريوسية الأصلية طرحها الجيل الجديد جانبا بعد موت زعمائها، ثم الأنومويون يمثلون الفريق المتطرف والذى يمتلئ حيوية ونشاطا، وأتباع النيقية يمشون على استحياء فى الغرب ومصر، وأنصاف الآريوسيين لهم السيادة الآن. وكان على الجميع أن يفسحوا كرها مكانا بينهم للهومويين حزب الوسط، وأدرك زعماء تلك الفرق أن صراع البقاء يحتم على كل منهم أن يبحث عن حليف يؤمنه عثرات الانعزال، فضم الأنومويون إلى الهومويين صفوفهم، بينما سعى أنصاف الآريوسيين والنيقيون إلى التقارب.

تولى أمر التقريب بين الأخيرين هيلارى أسقف بواتييه، وتمثل ذلك فى تلك الرسالة التى كتبها عن المجامع De Synodis وهو فى الشرق يقضى أيام نفيه جزاء العناد، وبعث بها إلى أصدقائه الغاليين يوضح لهم فيها حقيقة إيمان أساقفة الشرق ويخلع على مجمع التدشين الأنطاكى (٣٤١) صفة "مجمع القديسين"، ويبين أن مراسيم الإيمان الشرقية متأثرة بالمعانى الأرثوذكسية[١١٢]. ولما كان الغرب ينعم باللامبالاة تجاه المسائل اللاهوتية ، فإن ما أثاره هيلارى فى رسالته عن إيمان الشرقيين لم يحرك فى أساقفة الغرب ساكنا.

ويبدو عمليا أن هذه الرسالة قصد بها أن تقرأ فى المكان الذى كتبت فيه، وإنه إذا استطاع الأسقف هيلارى بهذا الخطاب المفتوح أن يقنع أكليروس الشرق أنه لا ينظر إليه فى الغرب بعين الشك والريب، فإن ذلك يعد خطوة كبيرة نحو الوحدة بين الشرق والغرب عقيديا [١١٣] وفى الوقت نفسه إذا تمكن هيلارى من إقناع زملائه فى الغرب، أن المصطلحات التى اعتاد الشرق أن يبرزها فى إيمانه، موافقة للإيمان الأرثوذكسى، فإن خطوة أخرى من جانب الغربيين تكون قد بدأت [١١٤]. بهذا يمكن القول أن هيلارى راح يستحث الشرق على أن يتقدم نحو

(112) HILAR. De Syn. 32
(113) Watson, op. cit. p. 19
(114) Id.

الإيمان النيقى، ويناشد الغرب الترحيب بهذه المبادأة، والاعتراف بالفكر التى جاءت فى وثائقهم المبهمة(١١٥).

لقد كان هيلارى قريب الصلة بباسيليوس أسقف أنقرة، الذى كان لفريقه السيادة الآن، يرى فيه وأنصاف الآريوسيين فاتحة للتقارب مع النيقية، ويرى فى الإمبراطور، رغم نفيه له، "مؤمنا صادقا"، ضل مرة ثم تاب وعاد إلى الإيمان(١١٦)، وهو يعنى بذلك ارتداد قسطنطيوس عن الأنوموية وانتصاره للهومويوسية عقيدة أنصاف الآريوسيين، ويطمع بذلك أن تجد الوحدة بين الكنيسة فى شطرى الإمبراطورية سبيلها، ولكن مسيرة الأحداث بعد ذلك مباشرة، سوف تكشف أن الوقت لم يكن قد حان بعد لإيجاد هذا التفاهم بين الشرق والغرب، بل إن هذا الوقت لم يأت أبدا. وقد ساعد على ذلك عندئذ أن أنصاف الآريوسيين أنفسهم لم يكونوا على قدر من الكفاءة تسمح لهم بتثبيت دعائم السيادة التى حصلوا عليها مؤخرا، ومن ثم كان عليهم أن يفسحوا المجال للفريق الجديد، الذى تتفق ميوله وهوى الإمبراطور.

---

(115) Watson, op. cit. p. 19

(116) Id.

الفصل الثامن



أثناسيوس ضد العالم

الفصل الثامن

أثناسيوس ضد العالم

على صفحات أميانوس ماركللينوس يبدو قسطنطيوس إمبراطورا مرهف الحس، غامضا، خفرا ظنونا فريسة سهلة لكل مطر مملاق[1] يبحث عن الهدوء متقلبا بين الأنومويين وأنصاف الآريوسيين، ثم ينشد وحدة الكنيسة فى غيرهما، إلى أن يتجه فى النهاية إلى عقيدة الهومويين، فريق الوسط وأساقفة البلاط، وفى هذا الجو الخانق المضطرم ظهرت الحاجة إلى عقد مجمع جديد يضم أساقفة الإمبراطورية جميعا لوضع حد لهذه الفوضى العقيدية.

يخبرنا أثناسيوس أن القلق الذى انتاب الهومويين من أجل القضاء على النيقية، كان السبب الرئيسى وراء فكرة هذا المجمع[٢]. ومن ثم فإن فالنز وأورساكيوس وجرمينوس وأكاكيوس ويودوكسيوس وباتروفيلوس هم الذين تولوا أمر توجيه الدعوة إلى عموم الأساقفة للالتقاء تحت دعوى مناقشة مسألة الإيمان[٣]. غير أن أنصاف الآريوسيين أيضا كانوا يشعرون بنفس القلق من أجل تدعيم سيادتهم على الكنيسة، فقد حققوا النصر فى سيرميوم سنة ٣٥٧، واستطاعوا اكتساب الإمبراطور إلى جانبهم ونفى الخصوم، ولكنهم ما لبثوا أن رأوا هؤلاء الخصوم يعودون ثانية من المنفى ويسعون جاهدين لاستعادة ثقة الإمبراطور.

ويذكر سقراط[٤]، ويتابعه على ذلك سوزومنوس[٥]، أن الإمبراطور هو الذى رأى أن يدعو الأساقفة لاجتماع عام نتيجة للاضطرابات الحادثة فى الكنيسة بغية تحقيق السلام والخلاص من هذه الفوضى. أما المؤرخ ثيودوريت فيدلى

(1) AMM. MARC. Res gest. XIV, 7
وراجع أيضا Jones, Later Roman Empire, I, p. 116
(2) De Syn. 1
(3) Id.
(4) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
(5) SOZOM. Hist. eccl. IGV, 16

بحديث غامض، وإن كنا نستطيع أن ندرك من خلاله أن أنصاف الآريوسيين هم الذين "أغروا" الإمبراطور بالإقدام على هذا الإجراء حيث يقول: "إن أعداء الإيمان أرادوا حذف تعبيري "جوهر" و "من نفس جوهر الأب"[٦]، أما جيروم فيذكر في إيجاز أن هذا المجمع عقد بدعوى وحدة الإيمان.

على أنه من خلال هذا كله يمكن القول أن جميع الأطراف كانت ترى المصلحة بعينها عند كل، ضرورة عقد مجمع عام لحسم الخلاف.

تلقى أساقفة الكنيسة في الشرق والغرب رسائل الإمبراطور التي تدعوهم إلى الالتقاء في مدينة نيقية، التي رغب قسطنطيوس في أن تكون مقرا للمجمع[٨] غير أن باسيليوس ورفاقه، وكانت لهم الحظوة عند الإمبراطور حتى ذلك الوقت كرهوا أن يلتئم عقد المجمع في هذه المدينة[٩] لأنها ترتبط في أذهانهم والآريوسيين عامة، بذكرى انتصار العقيدة المقيتة لدى نفوسهم، واقترح باسيليوس أن يتجه الأساقفة إلى نيقوميديا بدلا منها[١٠] وبدأ الأساقفة فعلا بالارتحال إليها[١١]، غير أنه في ٢٤ أغسطس ٣٥٨ تعرضت المدينة لهزة أرضية عنيفة أتت عليها فجعلتها كالرميم[١٢]. ولما أذيعت أنباء هذا الزلزال آثر الأساقفة الانتظار حتى ترد إليهم الأوامر الإمبراطورية الجديدة، على حين فضل بعض منهم أن يدون آراءه الدينية في رسائل ويبعث بها إلى قسطنطيوس[١٣].

ويصف سوزومنوس حالة الإمبراطور عندئذ وقد تملكه القلق والاضطراب حائرا، فلما ضاقت به السبل أرسل إلى باسيليوس يسأله النصيحة[١٤]، فكتب إليه

(6) THEOD. Hist. eccl. II, 15
(7) HIER. Dial. C. Lucif. 17
(8) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16
(9) Id.
(10) Id.
(11) Id.
(12) Id.
(13) Id.
(14) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16

الأسقف يمتدح رحمته ويقدم له العزاء فى مصاب نيقوميديا الأليم، ويناشده من أجل العقيـدة الإسـراع بعقـد المجمـع، وأن لا يـترك لـلهم أو الحـزن فى نفسـه موضعا ، وأن لا يصرف رجال الدين الذين تجمعوا لهذه المهمة أو الذين لا يزالون فى طريقهم إليها، واقترح عليه فى النهاية أن يلتئم عقد المجمع ثانية فى نيقية، عله بذلـك يعيد السرور إلى قلب الإمبراطور، حيث تلك منذ البداية رغبته[١٥]، وعليه صدرت الأوامر إلى الأساقفة بالتوجه إلى نيقية، واستثنى منهم أولئك الذين يكابدون وهن العمر أو علة الجسد، منيبين عنهم الشمامسة رسلاً[١٦]. وفجأة على حد تعبير سـوزومنوس، بعـد مشاورات عديدة، تراجع الإمبراطور عن قراره، وأرسل إلى الأسـاقفة بـأن يظـل كـل فى مكانه حتى يأتيه أمر الإمبراطور[١٧]، وكتب إلى باسـيليوس يطـلب منه أن يشاور أساقفة الشرق فى المدينة التى يفضلون الالتقاء فيهـا مؤكـدا ضـرورة صدور بيان مجمعى قبل ربيع عام ٣٥٩[١٨]. ولم يتوان باسـيليوس فى تنفيذ رغبة الإمبراطور، ولكن الأساقفة اختلفوا فيما بينهم، فارتحل باسيليوس إلى الإمبراطور فى سيرميوم ليعرض عليه ما انتهى الأمر إليه[١٩].

هـذه الأحـداث الـتى ينفرد بنشرها سوزومنوس فى تاريخه الكنسى تضع أمامـنا صـورة واضـحة عن مدى الارتباك الذى كان يسيطر على الإمبراطور، والحيرة التى تملكته، وكذا الأساقفة، ولم يكن اختيار مدينة لعقد المجمع، كما يتبادر إلى الأذهـان للوهلة الأولى، أمرا ميسورا، فكل فريق يريد أن تكون له السيادة فى المجمـع، واختيار المدينة وسط أنصاره يعد خطوة هامة فى هذا المجال. غير أن الـتراجع "المفاجئ" الذى تبدى فى سياسة قسطنطيوس، والذى جاء "بعد مشاورات عديـدة" حسب تعبير سوزومنوس، يجعلنا نتساءل عن هؤلاء الذين شاورهم فى الأمر قسـطنطيوس، إلى الحـد الذى جعله يترنح فى تفكيره طوال ستة أشهر قادمة، ويجيبنا سـوزومنوس عـلى ذلـك عندما يذكر أن باسيليوس حين قدم إلى سيرميوم وجد

(15) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16.
(16) Id.
(17) Id.
(18) Id.
(19) Id.

بالمديـنة عـددا كبيرا من الأساقفة جاءوا لقضاء أمور خاصة لهم، وكان من بينهم مـرقس أسـقف الرستن، وجورج الكبادوكى أسقف الإسكندرية، وفالنز الذى كان ينزل آنئذ ضيفا على البلاط[٢٠].

ووجود أسقف مورسا بالذات فى حضرة الإمبراطور يجيب على كل تساؤل ولا يـدع مجالا للشك حول الدافع الرئيسى الذى حدا بقسطنطيوس إلى العدول عن قـراره بذهاب الأساقفة إلى نيقية تبعا لنصيحة باسيليوس. ولا شك أن هذا الموقف الـذى أقدم عليه قسطنطيوس، يذكرنا بالسياسة التى اتبعها قسطنطين الكبير من قبل وهى ائـتلاف الآريوسـيين والنيقيين، مع خلاف واضح هو أن قسطنطيوس، وقد عفـا عن الأنومويين، يجاهد لإحلال الوحدة بين الآريوسيين وأنفسهم بعد أن فرقت بينهم طبيعة الجدل العقيدى، وذلك بفرض عقيدة واحدة للآريوسية على الكنيسة. أما النيقية فلم يعد يقيم لها وزنا بعد أن ارتبطت فى مخيلته دائما بالعناد والصلف ممثلا فى عدد من رجالها وخاصة أثناسيوس الأسقف السكندرى ، وفالنز يقوم الآن بنفس الـدور الـذى قـام به من قبل يوسيبيوس النيقوميدى، فكلاهما ينتمى إلى مدرسة اللاهـوت السياسى، وكلاهما يسعى لفرض سيادته وعقيدته، وكلاهما يحقق رغبة الدولة فى السيادة على الكنيسة . ولعل الإحساس الذى انتاب باسيليوس بالخوف من وجـود رجل مثل فالنز "ضيفا" على قسطنطيوس، هو الذى استحثه على القدوم إلى سـيرميوم، حـتى لا يـدع الفرصـة لخصـمه أن يتملك أذن الإمبراطور فيمسى الانتصار الذى حققه أنصاف الآريوسيين منذ شهور، سرابا.

ولكن يبدو أن باسيليوس قد جاء متأخرا بعض الشىء، ذلك أن فالنز كان قد أفلح فى أن يأخذ موافقة الإمبراطور على اقتراحه بأن يلتقى أساقفة الإمبراطورية بشـطريها، كـل فى إقـليمه، فتكون مدينة ريمينى Ariminium فى إيطاليا ملتقى أسـاقفة الغـرب، بيـنما يلتـئم عقد أساقفة الشرق فى سلوقية Seleucia بايزوريا Isauria [٢١] فى آسـيا الصغرى. ويتملك أثناسيوس العجب من فكرة تقسيم المجمع

(20) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16
(21) SOZOM. Hist. eccl. IV, 17
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
وأيضا ATHANAS. De Syn. I, 8

على هذا النحو ويضفى على ذلك شيئا من تدخل السماء[٢٢]. ويذكر سقراط أن بعد المشـقة وطـول المعانـاة وكـثرة الـنفقات كانت باعث الإمبراطور على هذا التقسيم[٢٣]. ولكن سوزومنوس يفوق الجميع بدقة تحليله لهذه النقطة إذ يقول: بينما تجـرى الاستعدادات على قدم وساق لعقد مجمع عام، إذا بيودوكسيوس وأكاكيوس وفالـنز وأورساكيوس وأنصارهم يدركون أنه إذا ما جمع بين الفرق المتصارعة مكـان، لأدانـوا عـلى الفـور عقيدة آيتيوس باعتبارها مختلفة تماما لما يؤمن به الجميع، ومن ثم أداروا دفة الأحداث حتى أفلحوا فى الوصول بها إلى هذه النتيجة، يقـود خطوهم اليقين بأن من السهل التأثير على عدد من الأساقفة قليل، على حين يصـبح قيـاد الأكـثرية أمرا بالغ الصعوبة والتعقيد، ولذا كان التقسيم بالنسبة لهم ضـرورة حيـاة وطريق سيادة[٢٤]. وهكذا أفلح الهومويون فى أن يطبقوا القاعدة المعـروفة "فرق تسد"[٢٥] Divid et impera. وهكذا فقد أنصاف الآريوسيين جانب الإمبراطور بنفس السرعة التى كسبوه بها[٢٦]. ويضيف سوزومنوس أن الهومويين تمكـنوا مـن الـتأثير على قسطنطيوس عن طريق الخصى يوسيبيوس الذى كان مهيمـنا على القصر، وكان فى الوقت ذاته على وداد مع يودوكسيوس ويحمل نفس عقيدتـه[٢٧] ويعـلق على ذلك قائلا: "وكثير من هؤلاء يقطعون أنفاسهم فى سبيل استرضاء هذا اليوسيبيوس العظيم"[٢٨]

لا شـك أن الإمبراطور قد اقتنع بوجهة نظر أساقفة البلاط. وهنا كان يدرك

---

(22) ATHANAS. De Syn. I,8.

(23) SOCRAT . Hist. eccl. II, 37.

(24) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16

(25) Kidd. op. cit. II, p. 136
وراجع Robertson, op. cit. p. 448

(26) Kidd, Loc. cit

(٢٧) هـذه القصة ترددت كثيرا على أقلام مؤرخى الكنيسة، وقد ساقوها من قبل على عهد قسطنطين الكبير عندما عفا عن آريوس ورفاقه ، ثم من بعد على عهد ولده قسطنطيوس عقب وفاه والده مباشرة . وقد عرضـنا لذلـك فى الفصل الثالث وأثبتنا خطأ هذا الزعم . ولم يكن هؤلاء الأساقفة فى حاجة إلى من يقـربهم إلى الإمبراطور، ففالنز صديقه الحميم منذ أتاه بنبأ النصر عند مورسا ، وفالنز يتزعم الفريق الذى يمثل فكر الإمبراطور فى سيادة الدولة على الكنيسة .

(28) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16

أن الخـــلاف لا محالة واقع بين رجال المجمع المزدوج فى ريمينى وسلوقية حول أمـــور العقيـــدة، من واقع الاختلاف العميق فى الفكر بين الشرق والغرب(٢٩)، فقد حـــرص عـــلى أن يحول دول فشل أى من المجمعين، وطلب إليهما أن يرسل كل مـــنهما عشرة مندوبين نوابا إلى البلاط حتى يقف على حقيقة ما يجرى فى الشرق والغـــرب(٣٠). والحقيقة أن الإمبراطور كان يرى، بدافع الحرص على إقرار عقيدة واحـــدة للإمبراطورية، أنه من السهل استمالة هؤلاء النفر أو قهرهم دون أن تذهب جهـــوده عبثا وسط صيحات جموع الأساقفة بالاستنكار، من أجل هذا أيضا أصدر أوامـــره إلى نائـــبه فى إيطاليا طاوروس Taurus أن لا يدع مجمع ريمينى ينفض حتى ينتهى الحضور إلى اتفاق حول الإيمان، ووعده بالقنصلية مرتبة إذا ما انتهى أمـــر المجمـــع إلى نجـــاح، وأرسل موظفى البلاط إلى مختلف المناطق فى الليريا وإيطاليـــا وإفريقيا وغالة للتمهيد للمجمع(٣١) وكان من الطبيعى أن يتولى فالنز أمر الأساقفة فى ريمينى.

أمـــا فى الشـــرق فـــإن اختيار سلوقية فى حد ذاته يشير إلى تصميم أساقفة الـــبلاط والإمبراطور على تحقيق الوحدة العقيدية فى الكنيسة مهما كانت الوسائل، ومـــن ثم كان وجود حامية عسكرية بالمدينة باعثا للإمبراطور على اختيارها مكانا لالتقاء أساقفة الشرق(٣٢)، وعهد بإدارة هذا المجمع إلى أكاكيوس القيسارى.

وقـــبل أن تـــبدأ جلســـات المجمعين، انتهز الهومويون فرصة وجود بعض زعماء أنصاف الآريوسيين فى سيرميوم للدخول معهم فى مفاوضات، أسفرت عما يمكـــن أن نســـميه لجنة تحضيرية للمجمع المزدوج، وكان الهدف الذى يسعى إليه أســـاقفة الـــبلاط مـــن وراء ذلـــك، أن يضعوا مرسوما للإيمان يحمل عقيدتهم إلى المجـــتمعين فى ريميـــنى وســـلوقية، حتى لا يدعوا لأى منهم مجالا لتغليب عقيدة

---

(٢٩) أنظر قبله .

(30) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16

(31) SVLp. SEV. Hist. SAC. II, 41

(32) Robertson, op. cit. p. 338

وراجع أيضا Gwatkin. The Arian Controversy, p. 96

أخرى أو الظفر بالسيادة. ولما كانوا يدركون أن أنصاف الآريوسيين يمثلون قوة لا يستهان بها في الشرق، فإن النجاح في استمالتهم إلى التوقيع على مثل هذا المرسوم يعد مغنما كبيرا للهومويين، وخطوة واسعة في سبيل السيادة. وقد اشترك في هذه المفاوضات باسيليوس ومرقس وفالنز وجورج الكبادوكي، وتم التوصل في النهاية إلى مرسوم للإيمان يمثل عقيدة الهومويين[٣٣]، وقد عرف باسم "المرسوم المؤرخ"[٣٤]، نتيجة لما جاء في مقدمته التي تقول: "الإيمان الكاثوليكي الذي نشر في حضرة سيدنا الديّن، الإمبراطور ممجد الانتصار قسطنطيوس أوغسطس الأبدي، في سيرميوم بتاريخ ٢٢مايو " ٣٥٩ ". وقد تعرضت هذه الديباجة لهجوم عنيف من جانب أثناسيوس بسبب ما خلعه الهومويون على قسطنطيوس من صفة "الأبدية" واعتبار الإيمان الكاثوليكي حديث عهد يبدأ فقط في سيرميوم في الثاني والعشرين من مايو "٣٥٩"، عندما تم وضع هذا المرسوم[٣٥]. على أن أهم ما يعنينا في هذا المرسوم هي الفقرة التي وردت في نهايته، والتي تحدد اتجاه الهومويين العقيدي:

"... ولما كانت كلمة "جوهر" قد استخدمها الآباء بسذاجة مفرطة، وأحدثت أضرارا لأن الرعية لم تع أمرها، ولأن الكتاب المقدس لم يحوها، فقد تبدى لنا حسنا شجبها، بحيث لا تستخدم ثانية في الحديث عن الله اتباعا للكتاب المقدس الذي لم يستخدمها عندما حدث عن الآب والابن. ومن ثم فنحن نقول أن الابن يشبه الآب في كل شيء كما علم بذلك الكتاب المقدس"[٣٦]

وقد علمنا أن الهوموية تعتمد "التشابه" فقط دون تحديد، لكونه تعبيرا نسبيا يتسع لكل التفسيرات، ولهذا وضعت عبارة، "كما علم بذلك الكتاب المقدس" وكان

(33) ATHANAS. De. Syn. 2-6
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
(34) Kelly, op. cit. p. 288
(35) ATHANAS. De Syn . 2-6
راجع كذلك .SOCRAT. Loc. cit
(36) ATHANAS. op. cit. 8
وراجع SOCRAT. Loc. cit

هـذا ترخيصـا مـن المتطرفين فى اللجنة يسمح لأنصاف الآريوسيين بافتراض حسـن الـنية[٣٧]، ومن ثم كان الإصرار من جانب الأخيرين على إضافة "فى كل شـىء" إلى كـلمة "التشـابه" رغـم المعارضة القوية التى أبداها فالنز. وقد وقف الإمـبراطور إلى جـانب أنصـاف الآريوسـيين حـتى أكره أسقف مورسا على الموافقـة[٣٨]. ولـئن كـان المرسـوم يبدو من هذه العبارة للوهلة الأولى نصف آريوسى، إلا أنه فى حقيقته يعد هومويا[٣٩].

والحقيقـة أن كلمة "التشابه" Homoeos وتعبير "كما علم الكتاب المقدس" كما لاحـظ جريجورى النازيانزى تعد "طعما لذوى العقول البسيطة، وحذاء يناسب كل قدم"[٤٠]. ويبدو أن باسيليوس انتابه بعد التوقيع على هذا المرسوم شعور بأنه تورط فى عقيدة لا قبل لأنصاف الآريوسيين بها، ولهذا فإنه وضع مذكرة تفسيرية يشرح فيهـا المغزى الذى من أجله وقع على هذا المرسوم، ويؤكد فيها التشابه الجوهرى بيـن الابـن والآب[٤١]، غير أن الهومويين حققوا بذلك، وفى حضرة الإمبراطور، نصرا كبيرا وخطوة فى سبيل السيادة الكاملة.

وفى ٢١يوليو ٣٥٩، التقى فى ريمينى أربعمائة من أساقفة الغرب[٤٢] تحت رعايـة الـنائب الإمبراطورى طاوروس، وكان الإمبراطور قد أمر بأن تقدم كل التسهيلات للأساقفة[٤٣]، وإلى ريمينى أيضا جاء فالنز وأورساكيوس بعد أن انتهت

---

(37) Kidd, op. cit. II, p. 165

(38) SOZOM. Hist. eccl. IV, 17

(39) Gwatkin. The Arian Controversy, p. 64

(40) GREG. NAZ. Orat. XXI, 22

(41) Robertson, op. cit. Pp. 56, 448

(42) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 41

وأنظر أيضا ATHANAS. De Syn. 8

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 17

(٤٣) كانت هذه التسهيلات تشمل إعداد المركبات الخاصة لنقل الأساقفة إلى مكان الاجتماع والإنفاق عليهم. غيـر أن أسـاقفة غالـة وبريطانيا رفضوا الاعتماد على ما يصرف لهم من الخزانة العامة وفضلوا الانتقال على نفقتهم الخاصة.

راجع SEV. Loc. cit.SVLp

إجـــراءات سيرميوم، يحملان رسالة من الإمبراطور بتاريخ ٢٧مايو ٣٥٩ تدعو أســـاقفة الغـــرب إلى بحث مشكلة العقيدة دون توان(٤٤)، وحذرهم من الأقدام على اتخــاذ قـــرار نهائى قبل الوقوف على رأس أساقفة الشرق(٤٥). وفى كنيسة المدينة الــتقى الأســـاقفة الــنيقيون(٤٦)، الذين كانوا لا يزالون يمثلون الأغلبية الساحقة فى الغرب على الرغم من الأحداث التى وقعت فى ميلانو سنة ٣٥٥، ونفى زعمائهم. بيــنما عقــد أســـاقفة الآريوسية ولم يكن عددهم يتجاوز الثمانين اجتماعاتهم خارج الكنيســة(٤٧). وقــد أبــدى هؤلاء رغبتهم فى أن يسدل ستار الصمت على قضية أثناســيوس، وأيد هذا الاتجاه بحماسة فالنز وأورساكيوس(٤٨)، وأعلن رجلا بانونيا أن جميـــع مراسيم الإيمان التى صدرت من قبل يجب أن تطرح الآن جانبا، وأن يعــلو فوق الجميع ذلك المرسوم الذى تم الاتفاق عليه فى سيرميوم فى ٢٢مايو من العـــام(٤٩). وقـــام فالنز بقراءة نص "المرسوم المؤرخ"، فقوبل على الفور بعاصفة هوجـــاء من جانب الأساقفة النيقيين الذين أعلنوا تمسكهم بالإيمان النيقى، وسخروا مـــن عـــبارة "الإيمان الكاثوليكى" التى يفتتح بها المرسوم، وطالبوا بلعن الآريوسية وأتباعها(٥٠).

غير أن هذا الهياج لم يلق أى استجابة من أسقفى بانونيا ورفاقهما(٥١). فأدى ذلـــك عـــلى الفور إلى تصدع مجمع ريمينى، إذ أصر كل من الجانبين على التزام

---

(44) HILAR. Fragm. VII, 1, 2 (p. L. X. 695-696)

(45) Id.

(46) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 41

(47) Id.

(48) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV. 17

(49) SOCRAT. Loc. cit.

(50) Id.

(٥١) كـــان مـــن أبرز زعماء الآريوسية آنذاك إلى جوار فالنز وأورساكيوس، جرمينيوس أسقف سيرميوم، وأكسنتيوس أسقف ميلانو، وديموفيلوس Demophilus أسقف بيرويا Beroea فى مقدونيا، وجايوس Gaius أسقف الليريا

عقيدته[٥٢]، وأعلنت الأغلبية الغربية التمسك بالإيمان النيقى وحرمان وعزل أساقفة الآريوسية وإدانة عقيدتهم. ويطلق القديس أمبروز على ذلك "بيان ريمينى الأول"[٥٣]. وقد ضمن الأساقفة النيقيون قراراتهم هذه فى رسالة بعثوا بها إلى الإمبراطور، حدثوه فيها عن مجمع نيقية وتقوى أبيه ومروق فالنز وأورساكيوس، و"عبثهما" فى ريمينى وخطورة الانسياق خلفهما، ويخبرونه أنهم أعطوا مبعوثيهم صلاحيات خاصة لإقرار الإيمان "شريطة أن يجيء متفقا مع قوانين الأباء، ويتوسلون إليه فى النهاية أن يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم.

والفقرة الأخيرة[٥٤] فى الرسالة بالذات تفصح عن مدى القلق الذى ينتاب أساقفة الغرب تجاه الأحداث التى يخبئها لهم المستقبل وهم يعلمون أن فالنز وأورساكيوس ليسا إلا رسولى الإمبراطور، أن الاريوسية الهوموية التى يناديان بها، التى صادق عليها قسطنطيوس وارتضاها لابد الآن ماضية إلى صعود، أن على النيقية أن تنتظر قدرها. وفى نهاية الاجتماع أصدر أساقفة الغرب فى ريمينى القرار التالى:

"اخوتنا الأعزة ... إلى هذا الحد من الصبر بلغ المجمع الكبير والبيعة المقدسة، وبهذا القدر من المروءة احتملت الكنيسة فعال أورساكيوس وفالنز وجرمينوس وأوكسنتيوس، أولاء الذين دأبوا على تبديل إيمانهم فأرهقوا الكنائس

(52) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. IV. 17
(53) AMB. DE. Fide I, 18
وراجع أيضا Ep. XXI, 15

(٥٤) جاء فى خاتمة هذه الرسالة : "... من أجل ذلك نرجو رحمتك أن تعطى مندوبينا آذانا صاغية، وعينا حانية، وأن لا تسمح لشيء أن يتبدل، بل لتسمح لنا أن نظل على تلك الأمور التى تقررت وشرعت بواسطة الأسلاف ... كما نرجو أن تتفضل بالأمر بعودة الأساقفة القادمين عبر الأقطار، وقد هد العمر منهم الزمن، وأضنتهم الفاقة والعوز إلى الديار، حتى لاتظل بيعهم ثكلى ترتقب. نتوسل إليك أن لا شئ يبتدع وأن لا شئ يضاف إلى مواد (الإيمان) التى لا زالت مذ عهد أبيك التقى وإلى هذا الزمان باقية. لا تجعلنا نقاسى شراك الخديعة، ولا نهجر بيعنا لأننا والرعية إذا ما ساد السلام، كان الوقت كله للصلاة والضراعة يقدمها الجميع لأجلك، أمانا وسلطانا" .
راجع ATHANAS. De Syn. 10
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 15

مـــن أمرها عسرا، ولا زالوا يستحثون الخطى خداعا لينفثوا روحهم المهرطقة فى صـــدور ذوى الإيمان القويم، تحدوهم رغبة إفساد ما قر عليه الإيمان فى نيقية ضد الاريوســـية، وقد قدموا لنا مرسوما صنفوه بأنفسهم يباغض كلية الكنيسة المطهرة، لـــم تستطع عقولنا أن تتقبله ، ومن قبل أعلناهم هراطقة مارقين، والآن لا يدخلون فى شركتنا، فقد أدناهم فى حضورهم وعزلنا"(٥٥).

حمـــل رســـل الغـــرب رســـالة المجمع وقراراته إلى الإمبراطور، ويصف ســـفروس هؤلاء المندوبين بقوله "إنهم مازالوا فى مدارج الصبى، عديمو الخبرة، ضـــيقو الفكـــر قليلو الثقافة(٥٦)، وفى الوقت ذاته ارتحل أيضا زعماء الآريوسيين، الذين كانوا شيوخا مهرة، على حد تعبير سفروس أيضا، ولذا استطاعوا أن يكسبوا إلى صفهم الأمير(٥٧). ويخبرنا سقراط أن مندوبى الآريوسيين كانوا أسبق فى لقاء الإمـــبراطور مـــن وفد النيقيين، وأنهم عرضوا عليه ما انتهى إليه أمر المجمع فى ريميـــنى مـــن الفشـــل(٥٨). ويضيف ويتابعه سوزومنوس صورة الاستقبال الودى والاحـــترام الـــذى أظهـــره قســـطنطيوس تجـــاه الآريوسيين، والمقت الذى أبداه للنيقيين(٥٩)، خاصة بعد علمه أن أساقفة الغرب رفضوا قبول المرسوم المؤرخ (٦٠) ويـــبدو أن الإمبراطور كان يفكر الآن بصورة جدية فى الحرب الفارسية، فقد تلقى فى هذه الآونة (٣٥٩) رسالة من الملك الفارسى تفيض بالتهديد والوعيد(٦١).

---

(55) ATHANAS. De Syn. 11
وراجع L. X. 696).HILAR. Fragm. VII, 3 (p
(56) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 41
(57) Id.
(58) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
(59) SOZOM. Hist. eccl. IV, 19
وكذلك SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
(60) SOZOM. Loc. cit.
(٦١) جـــاء فى هـــذه الرســـالة : " ســـابور ملك الملوك . أخ الشمس والقمر ، يرسل تحياته إلى القيصر قســـطنطيوس، لعـــلكم تعـــلمون أن نهر ستريمون Strymon وحدود مقدونيا كانت فى يوم ما تحت ســـيادة أســـلافنا، فإذا ما طالبتك الآن بردها، لما بدا ذلك ظالما ، ولكن روح الاعتدال سوف تجعلني قانعـــا بأن أتسلم ميزوبوتاميا وأرمينيا اللتين سلبتا من أجدادي ، وإذا ما عاد مبعوثي خالي الوفاض فأنى سوف أنزل ضدك الميدان ، وبكل جيوشي عندما يمضى الشتاء " .
راجع sykes, op. cit. 1, p. 416

وهكــذا اســتبد الغضب بالإمبراطور، ولعلنا ندرك من ذلك مدى القلق الذى كــان يساوره بشأن المسألة العقيدية، الذى بدا جليا فى رسالته إلى أسقف أنقرة فى العــام الماضــى[٦٢]، ورغبته فى إقرار أمر هذا الجدل اللاهوتى المضطرم، وهذا الــتمزق الداخــلى بيــن الفــرق الكنســية، والــذى يهدد وحدة الدولة كلها، وكان الإمــبراطور يــريد أن يقــف بهــا موحدة أمام الخطر الخارجى، وكان يرى فى "المرسوم المؤرخ" صيغة معتدلة، التقى عليها أمامه زعماء الأنوموية، والهومويون وأنصــاف الآريوسيين مع التحفظ، وبقى أن تتم هذه الموافقة بصورة جماعية من أســاقفة الإمــبراطورية، فكــانت فكــرة عقــد هــذا المجمع المزدوج، فلما علم الإمــبراطور برفض أساقفة الغرب فى ريمينى قبول هذه الصيغة، أدرك أن أتباع نيقيــة هــؤلاء ســوف يعكرون من جديد بعنادهم صفو السلام فى الكنيسة والدولة بالــتالى، وانهــم يقفون حجر عثرة فى سبيل تحقيق الوحدة فى الكنيسة، وتجمعت عــليه بذلــك فى وقت واحد، أنباء التحرش الفارسى، ومكابرة النيقيين. والفوضى المروعة التى صبغت أعمال مجمع سلوقية، كما سنعلم بعد قليل.

فكتب إلى أساقفة الغرب هذه الرسالة:

"قســطنطيوس الظافــر، أوغســطس المنتصر إلى جمع الأساقفة الملتئم فى ريميــنى، دأبت عنايتنا دائما على تقديم الاحترام اللائق بالقانون السماوى المطهر، وقداستكم يعلمون ذلك، ولكننا الآن لا نملك إصغاء للأساقفة العشرين، رسلكم، لأن القيــام بحمــلة ضــد البرابرة أصبح محتما، وحيث إنكم مقتنعون أن أمور القانون المقــدس يجــب أن تؤخذ بعقل متحرر من سلطان القلق، فقد أصدرت أوامري إلى أولاء الرســل أن ينتظروا عودتنا إلى أدرنة، ذلك أنه ما أن تقضى الأمور العامة، أصبحنا قادرين على أن نصغى إلى ما سوف يقترح هؤلاء ونعى. والآن لا تنظروا إلى تأخيــرهم على أنه يمس هيبتكم، وحالما يرسلون إليكم رأينا فلتقدموا على اتخاذ الإجراءات التى تكفل الخير والرفاهة للكنيسة الجامعة"[٦٣].

---

(٦٢) راجع قبله

وأنظر كذلك SOZOM. Hist. eccl.. IV, 16

(63) ATHANAS. De Syn. 55

و أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 37

وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 15

ويبدو أن قسطنطيوس قد عزم وساعدته الأحداث على الجبهة الفارسية على أن يستخدم مع هؤلاء الأساقفة فى الغرب أقسى وسائل الإيلام النفسى حتى تنهار فى النهاية قواهم كما حدث لأسقف روما ليبريوس. ولم يكن النيقيون فى الغرب بغافلين عن هذا الاتجاه، ولذلك ما أن تلقوا رسالة الإمبراطور حتى كتبوا إليه رسالة أخرى تفيد أنهم لن يحيدوا عن إيمان نيقية، ويضرعون إليه أن يسمح لهم بالعودة إلى كنائسهم قبل أن يحل الشتاء(٦٤).

ولا شك أن الرسالة الأخيرة قد تركت أثرها السيئ فى نفس الإمبراطور وزادته اقتناعا أن هذه الجماعة لابد أن تساق قهرا إلى حيث يبتغى الإمبراطور، ووجد أساقفة البلاط فى هذه الرسالة سبيلا جديدا يصل ما بينهم وبين قسطنطيوس. وقبل أن نمضى مع جهد هؤلاء الأساقفة، علينا أن نرى الآن ماذا كان من أمر أساقفة الشرق.

ففى ٢٧سبتمبر ٣٥٩، التقى فى سلوقية حوالى مائة وستون أسقفا عند معظم المصادر(٦٥)، ومائة وخمسون فقط فى رأى ثيودوريت وحده(٦٦). وعلى حين كانت

---

(٦٤) كانت رسالة أساقفة ريمينى على هذا النحو : " تلقينا رسالة عطفكم، السيد السنى، محبوب الرب، التى تطلعنا فيها على أن أمور الدولة قد حالت دون السماح لرسلنا بالمثول فى حضرتكم، وتأمرنا أن نصطبر عودتهم حتى تقف رحمتكم منهم على ما قررنا . متفقا مع تقليد الآباء . ولكنا نحتج ثانية بهذه الرسالة ، على أننا لا يمكن أن نحيد البتة عن سابق قرارنا. وهذه أيضا فوضنا بها مندوبينا. ومن أجل هذا نضرع إليكم أن تأمر بكل الرضى ، بقراءة رسالة تواضعنا هذه، وأن تصغى بالمحبة إلى ما حمله مندوبونا ولاشك أن سماحتكم يدرك، ونحن . . كم من الحزن والكآبة ظللت العديد من كنائس حرمت رعاتها على عهدكم السعيد، ها نحن ثانية سيدنا والمليك يا من أنت إلى الرب عزيز، نلتمس من رحمتك أن تسمحوا، إذا كان ذلك يسركم، أن نؤوب إلى بيعنا قبل أن يحل بنا التيبس لشتاء برده قارص، حتى نكون مع شعب الكنيسة قادرين أن نقدم الصلوات للأله القدير والضراعة" .

راجع ATHANAS. De Syn. 55

و أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 37

وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 12

(65) ATHANAS. De Syn. 12

وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 23

(66) THEOD. Hist. eccl. II, 22

الأغلــبية الساحقة فى ريمينى للنيقيين، فإن أساقفة مجمع سلوقية جميعا كانوا على الآريوســـية، عـــدا نفر يسير لا يقترب من العشرة، كان من بينهم هيلارى أسقف بواتييــه الذى جئ به من منفاه ليشهد هذا المجمع(٦٧)، وقد وجهت إليه الدعوة عن طــريق حــاكم المنطقة والقائد العسكري فيها، وعلى الرغم من أن الإمبراطور لم يوجه أوامر خاصة بهيلارى، إلا أن القائمين بالأمر أجروا عليه ما اتبع بشأن بقية الأســاقفة(٦٨)، وإلى جوار هيلارى كان هناك بعض الأساقفة المصريين من أنصار أثناســيوس(٦٩)، ولعل هذا هو الذى دفع ثيودوريت أن يقصر عدد أعضاء المجمع على الآريوسيين فقط.

وإذا كـــان الغـــرب قـــد شهد فى ريمينى صراعا بين النيقيين والآريوسيين، فإن ســلوقية شهدت صراعا بين الآريوسية ونفسها، الأنومويون والهومويون فى جانب، ويبلغ عددهـــم قـــرابة اثـــنين وثلاثين أسقفا، على رأسهم يودوكسيوس أسقف أنطاكية وجورج أســقف الإســكندرية وأكاكيوس أسقف قيسارية، وأورانيوس Uranius أسقف صور(٧٠). وأنصـــاف الآريوســـيين الذيـــن يمثـــلون الأغلبية التى يزيد عددها عن مائة أسقف(٧١)، ويـــتزعمهم باسيليوس الذى لم يحضر الجلسات الأولى للمجمع، وجورج أسقف اللاذقية، وصـــفرونيوس Sophronius أســـقف بومـــبيوبوليس Pompeiopolis فى بافلاجونيـــا Paphlagonia واليوزيـــس أسقف كيزيكوس، وسيلفانوس Silvanus أسقف طرطوس(٧٢)، وكيـــرلس أســـقف أورشليم(٧٣)، وعلى الرغم من الأغلبية العددية التى يتمتع بها أنصاف الآريوســـيين إلا أن القوة الحقيقية كانت فى جانب خصومهم الذين كانوا قد حصلوا على

(67) HILAR. Con. Const. 12 (p. L. X. 590-591)
وراجع أيضا SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 42

(68) SVLp. SEV. Loc. cit.

(69) HILAR. Loc. cit

(70) SOCRAT. Hist. eccl. II,39
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

(71) SOCRAT. Loc. cit.

(72) SOZOM. Loc. cit.
وراجع SOCRAT. Loc. cit

(73) THEOD. Hist. eccl. II, 22

تـأييد الإمـبراطور، هـذا بالإضـافة إلى أن أنصـاف الآريوسيين فقدوا ثقلهم منذ وقع باسـيليوس على المرسوم المؤرخ فى سيرميوم، وقد حرص قسطنطيوس على أن يكون لـه ممـثله الشخصـي فى سـلوقية، كما فعل فى ريميني، لينفذ إرادة الإمبراطور عند الاقتضـاء، ومـن ثـم فقـد قدم إلى سلوقية ليوناس Leonas الرقيب، وأمر لوريكيوس Lauricius القائد العسكري العام فى أيزوريا بالإشراف على المجمع(٧٤).

أصـدر ليونـاس أوامره على الفور بالبدء فى مناقشة مسألة الإيمان، دون اعتـبار لغيـاب بعـض الأساقفة(٧٥). وقد طالب الهومويون بإبعاد كيرلس أسقف أورشـليم ويوسـتاتيوس أسـقف سيواس، حيث أنه قد تم عزلهم آنفا ولا يحق لهم حضـور جلسـات المجمـع قبل تبرئة ساحتهم(٧٦)، وتدخل وسطاء السلام لإقناع كيـرلس ورفيقـه بالانسحاب(٧٧)، وانقسم الأساقفة على أنفسهم، بعض يصر على ضرورة اتخاذ قرار معين أولا فى مسألة حضور الأساقفة، وثان يرى أن لا تكون هـناك أسبقية لأى أمر على قضية الإيمان، وآخرون يدينون هذا التردد(٧٨). وهكذا دبـت الفوضـى فى المجمـع مـنذ الساعات الأولى لانعقاده، وقد عملت الأوامر الإمبراطورية، حسب تعبير سقراط، على زيادة هذا الاضطراب، فقد كانت تطالب بمناقشـة الأمور ذات الأهمية دون تحديد لنوعيتها(٧٩). ولما أجيب الهومويون إلى ما أرادوا بدأ المجمع فى مناقشة مسائل الإيمان(٨٠).

---

(74) SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

(٧٥) فى الجلسـة الأولى لـلمجمع أمـر ليوناس الحاضرين بأن يقدم كل منهم اقتراحا بما يعتقد أنه الحق، ولكـنهم احـتجوا لـتغيب بعض الأساقفة ، وأنه ليس من اللائق مناقشة أمور الإيمان دون أن يكتمل حضورهم ، ذلك أن ماكيدونيوس أسقف العاصمة، وباسيليوس أسقف أنقرة وباتروفيلوس أسقف بيسان تخلفوا عن المجمع بأعذار مرضية .

راجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

راجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

(76) THEOD. Hist. eccl. II, 22

(77) Id.

(78) SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

(79) SOCRAT. Loc. cit.

(80) SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

ورغم هذه الفوضى التى صبغت أعمال مجمع سلوقية للوهلة الأولى، إلا إنه يمكننا أن نتبين اتجاهين برزا خلال الجدال الذى استمر أربعة أيام. فأنصاف الآريوسيين طالبوا على لسان اليوزيوس باحترام إيمان الآباء[٨١]، وتولى سيلفانوس الطرسوسى توضيح المعنى الذى يرمى إليه رفيق دعواه، فأعلن أنه ليس سوى مرسوم التدشين الأنطاكى (اللوقيانى) ٣٤١[٨٢]، بل لقد أبدى أنصاف الآريوسيين استعدادهم لقبول مرسوم الإيمان النيقى نفسه، ولكن شريطة أن يحذف منه تعبير "الهوموسية" لا لكونها لم ترد فى الكتاب المقدس، بل باعتبارها مصطلحا غامضا ومدعاة للارتياب[٨٣]، أما الهومويون فقد رفضوا صراحة عقيدة نيقية، وتقدم أكاكيوس فى اليوم الثانى للمجمع إلى المندوب الإمبراطوري ليوناس بوثيقة تضم مرسوم الإيمان الذى يدينون به، وتعد مقدمة الوثيقة[٨٤] احتجاجا على ما أقدم عليه أنصاف الآريوسيين، عندما التقوا فى صبيحة ٢٨سبتمبر داخل كنيسة سلوقية وأغلقوا أبوابها دون الخصوم، وراحوا يعيدون قراءة المرسوم اللوقيانى ويوقعون عليه[٨٥]، ولذلك أعلن أكاكيوس احتجاجه على هذا الإجراء وارتيابه فى كل إجراء

(81) SOCRAT. Hist. eccl. II, 40

(82) Ibid. 39
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

(83) ATHANAS. De Syn. 12

(٨٤) تقول مقدمة الوثيقة : " بالأمس التقينا بناء على أوامر الإمبراطور فى سلوقية، قصبة ايزوريا فى السابع والعشرين من سبتمبر ، وسعينا الجهد كله بالاعتدال كله لنحفظ على الكنيسة السلام، ولنقيم المسألة العقيدية على أساس حجج رسولية إنجيلية من أجل أن لا نجيز شيئا فى المعتقد الكنسى على خلاف مع الكتب المقدسة، كما أمر بذلك مليكنا قسطنطيوس، محبوب الرب، ولكن لما كان بعض من فى المجمع قد أتوا ضدنا شيئا نكرا، فمنعوا بعضنا من إبداء آرائهم . وطردوا آخرين خارج المجمع على غير رغبة منهم، وأشركوا رجالا تم رسمهم خارج القانون الكنسى، ومن ثم ساد المجمع الشغب ولعبت به الفوضى على مرأى من القومس ليوناس السامى الأشهر ولوريكيوس القائد ، فقد وجدنا أنفسنا تحت إلحاح الضرورة نضع هذا الإعلان .
راجع SOCART. Hist. eccl. II, 40

(85) SOCRAT. Hist. eccl. IV, 22
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

يـــتم على هذا النحو من السرية[٨٦] كما تعتبر هذه الوثيقة اعترافا رسميا بالفوضى الـــتى سيطرت على أعمال المجمع السلوقى، وانقسام الآريوسيين على أنفسهم، وقد أردف الهومويـــون هذه المقدمة بنص صريح يوضح موقفهم تجاه الفرق المسيحية الأخرى المتصارعة ويبين قانون إيمانهم:

"نحن لا ننكر الإيمان الذى تم التصديق عليه عند تدشين كنيسة أنطاكية، لأنا أعطيـــناه من قبل الإيثار، فقد حاز رضى الآباء الذين التقوا هناك للنظر فى بعض مـــن نقط الجدل، ومع ذلك فإنه لما كانت مصطلحات (الهوموسية) و(الهومويوسية) قـــد سببت للعقول فيما مضى اضطرابا، ولا زالت تثير حتى الآن فيها القلق. ولما كـــان قد ظهر حاليا تعبير جديد يطلقه البعض ينكرون به "التشابه" مطلقا بين الآب والابـــن (الأنومويـــة) فأنـــا نـــرفض المصطلحين الأولين لكون الكتاب المقدس لم يحوهمـــا، ونلعن الأخير ونعتبر كل من يؤمن به، عن الكنيسة مارقا. نحن نعترف بيقيـــن بـــ "التشابه" بين الآب والابن تبعا لما حدث به عنه بولس الرسول "الذى هو صورة الله غير المنظور[٨٧]كولوسى ١/١٥".

عـــلى هـــذا الـــنحو أبان الهومويون عن عقيدتهم الأساسية، التى تتمثل فى "التشـــابه" Homoeas ورفضـــوا صـــراحة استخدام كلمة "جوهر" باشتقاقيها النيقى ونصـــف الآريوســـى، كما أنكروا تماما التطرف الآريوسى المتمثل فى الأنوموية. ويعـــد هذا المرسوم صورة أكثر تحديدا للمرسوم المؤرخ، وضربوا عرض الحائط بذلك التعبير الذى أصر باسل ورفاقه على إضافته إلى المرسوم المؤرخ وهو "كل شئ" وبذلك بدأت الهوموية تأخذ شكلها الواضح دون موارية.

انقضـــى اليـــوم الرابع (٣٠سبتمبر) من أيام المجمع فى جدال عنيف حول حـــدود معنى "التشابه" الذى يقصده الهومويون[٨٨]، وكان من الطبيعى أن لا يلتقى الطـــرفان مطـــلقا، وعـــندئذ تدخـــل الرقيب ليوناس وأصدر قراره بفض المجمع، وخـــاطب الأساقفة بقوله: "لقد فوضنى الإمبراطور لحضور مجمع كان من المتوقع

(86) SOCRAT. Hist. eccl. II, 40
(87) ATHANAS. De Syn. 29
وراجع أيضا .SOCRAT. Loc. cit
(88) SOCRAT. Hist. eccl. II, 40

أن يســوده الوئــام والإجماع، لكن لما كنتم قد وصلتم إلى هذا الحد من سوء الفهم المتــبادل، فإنــه لــم يعد باستطاعتى الحضور، اذهبوا إلى الكنيسة، وانقسموا دون جدوى على الثرثرة هناك والهذيان"(٨٩).

وهكــذا انــتهى مجمع سلوقية دون أن يصل إلى قرار واحد فى مسألة الإيمان، وهــو بهــذه الصورة لم يكن أحسن حالا مما حدث لقرينه فى ريمينى، ومن ثم أقدمت الأكــثرية الــتى يمثــلها أنصاف الآريوسيين، لتفعل ما فعلته الأغلبية فى ريمينى ضد الخصــوم، وقرروا عزل وحرم أكاكيوس القيسارى وجورج الكبادوكى وعدد آخر من زعمــاء الهومويــن(٩٠)، وبعــثوا برسائل إلى جميع كنائس هؤلاء الأساقفة ضمنوها قرارات العزل هذه والحرمان(٩١)، وبدت الصورة الآن وكأن النيقيين قد حققوا نصرهم فى الغرب، وساد الشرق أنصاف الآريوسيين(٩٢)، ولكن هذه النتيجة لم تكن تعبر مطلقا عــن رأى أســاقفة البلاط والإمبراطور، ولا ما هم يبتغون. لقد كانت الهوموسية لديهم مقيتة، أما الهومويوسية فلم تكن تلقى منهم الرضى، وتنفيذا لتعليمات الإمبراطور أرسل مجمــع ســلوقية مندوبيه العشرة للقاء قسطنطيوس ومندوبى الغرب، وفى الوقت ذاته ارتحل زعماء الهوموية قاصدين القسطنطينية(٩٣).

كان لابد أن ينظم أساقفة البلاط خطوهم قبل أن يلتقى رسل الشرق والغرب فى القســطنطينية، مخافــة أن يقــترب الــنيقيون وأنصــاف الآريوسيين ليعصفوا بخصــومهم الاريوســيين، أيــا كانت عقيدتهم، جملة واحدة. وكان هذا واضحا فى

---

(89) SOCRAT. Hist. eccl. II, 40

(٩٠) مــن بين هؤلاء الأساقفة أورانيوس الصورى، وثيودولوس Theodolus أسقف Chaerotapi فى فــريجيا، وثيودوســيوس Theodosius أســقف فلادلفيــا Philadelphia فى ليديا، وأفاجريوس Evagrius أســقف ميتليــنى Mytilene وليونــتيوس أسقف طرابلس، ويودكسيوس أسقف أنطاكية وباتروفيلوس أسقف بيسان .

(91) ATHANAS. De Syn. 12
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 40
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

(92) Kidd, op. cit. II. p. 170

(93) SVLp. SEV. Hist. sac. II, 42
وراجع .SOCRAT. Loc. cit
وأيضا SOZOM. op. cit. IV, 23

رفــض الفــريقين للمرسوم المؤرخ فى ريمينى أو صورته الهوموية الصريحة فى ســلوقية. ولذلــك كان من الضرورى تطويع هذه الأغلبية ممثلة فى مندوبيها قبل لقــائهم فى العاصــمة. وقــد بدأ فالنز وأورساكيوس جهودهما على الفور، وكانت السياســة التى اتبعها الإمبراطور فى استخدام العذاب النفسى ضد النيقيين قد بدأت تــؤتى ثمارهــا[٩٤] فقد ظل المندوبون الغربيون بأمر قسطنطيوس فى أدرنة فترة طويــلة، ثــم جاءتهم الأوامر الآن بالارتحال إلى نيقا Nice إحدى مدن تراقيا[٩٥]، ويجمع مؤرخو الكنيسة على إن هذه المدينة قد اختيرت بعناية بقصد خداع الجموع لتشابه اسمها مع مدينة المجمع المسكونى الأول، نيقية.

ذلك أنه فى ١٠أكتوبر ٣٥٩ تقدم فالنز وأورساكيوس إلى مندوبى الغرب، الذيــن أضحوا الآن فى نيقا، بمرسوم إيمان هو نفسه "المرسوم المؤرخ" مع حذف العــبارة الــتى كان أنصاف الآريوسيين قد أصروا على أضافتها وهى "كل شئ" ووردت كــلمة "التشــابه Homoeas" فقط على هذا النحو "... الابن يشبه الأب كما دعت الكتب المقدسة وعلمت[٩٦]، وقد وقع رسل الغرب النيقيون على هذا المرسوم وتخلوا بذلك عن كل ما أعلنوا تمسكهم به فى ريمينى، ويعزو مؤرخو الكنيسة هذا الســلوك مــن جــانب مــندوبى الغــرب إلى أسلوب الخداع الذى استخدمه فالنز وأورساكســيوس، بالإضــافة إلى الحالة النفسية السيئة التى كانوا يعانون منها من جــراء مكــثهم الطويل فى أدرنة ثم نيقا[٩٧]، وقد نشر الهومويون هذه الوثيقة بعد توقيــع المندوبين عليها وأعطوها اسم المجمع العام حتى تختلط على الأذهان حسب

(94) HILAR. Fragm. VIII, 4(p. L. X. 701)
(95) SOCRAT. hist, eccl. II, 37
وراجع SOZOM. hist, eccl. IV, 19
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 16
(96) ATHANAS. De Syn. 30
وراجع HILAR. Fragm. VIII, 5(p. L. X. 702)
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 16
(97) HILAR. Fragm. VIII, 4(p. L. X. 701)
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 19
وأنظر كذلك THEOD. Hist. eccl. II, 16
وأيضا SVLp. SEV. Hjist. Sac. II, 43

تعبير سقراط[٩٨]، وعندئذ سمح لمندوبي الغرب بالعودة إلى ريميني، وأرسلت الأوامر الإمبراطورية إلى طاوروس بعدم فض المجمع دون أن يتم الحصول على توقيع هؤلاء الأساقفة جميعا على ما سبق أن وافق عليه رسلهم في نيقا[٩٩].

غير أن أساقفة الغرب استنكروا ما أقدم عليه وفدهم ورفضوا قبولهم في شركة الكنيسة[١٠٠]. وعندما أقدم المندوب الإمبراطوري على تنفيذ تعليمات الإمبراطور وطلب إلى الأساقفة التوقيع على المرسوم، وقع الاضطراب في صفوف الجميع، ولكن النهاية أتت سريعا عندما اندفع الكثيرون – كما يقول سفروس– بصورة مخجلة إلى جانب الآريوسيين حتى لم يبق على الإيمان النيقي إلا عشرون رجلا[١٠١]. وهكذا بنصف الخوف، وبنصف الملل أذعن الأساقفة[١٠٢].

غير أن هذه القلة الباقية[١٠٣] سرعان ما وضعت هي الأخرى توقيعها على

(98) SOCRAT. Loc.cit.

(99) SVLP. SEV. Loc. cit.

(100) SVLP. SEV. Loc. cit.

(101) Id.

(102) HILAR. Fragm. IX (p. L. X. 703-705)

وراجع أيضا THEOD. Hist. eccl. II, 16

(١٠٣) كان على رأس هذه القلة فوبيايوس أسقف آجن، وسرفاتيو Servatio أسقف تونجرى Tungri والجميع من غالة، وقد راح النائب الإمبراطوري يبذل قصارى جهده، لإقناع هذه البقية واستمالتهم، عن طريق اللين والمداهنة تارة، التلميح بالعنف أخرى، مذكرا إياهم أنه مضى الآن سبعة شهور طوال دون أن يعود الأساقفة إلى بيعهم وديارهم، ورغم ذلك فلن يسمح لهم بالرجوع دون التوقيع على مرسوم نيقا، وساعده فالنز وأورساكيوس في هذا الجهد، إذ سعيا إلى الظهور أمام الجمع بأن المرسوم الذي يطلب إليهم التوقيع عليه قد وضع على أسس من العقيدة الكاثوليكية، وأنه قدم في حضرة الإمبراطور، فكيف يمكن رفضه الآن، ودار حوار طويل أمسك خيوطه موزنيوس Muzonius أسقف بيزاكينا Byzacena وكلوديوس Claudius أسقف بيكنوم Picenum. وقد ترك جيروم نص الحوار والأناثيما التي تقدم بها فالنز على كل من يقول "بخلق الابن أو أنه من العدم جاء" ولم ينس فالنز أن يضيف "إذا أنكر أحد أن الابن يشبه الأب، تبعا لما جاء في الكتاب المقدس فليكن أناثيما". وقد أعلن فالنز قبوله لكل ما قاله زعماء القلة المعارضة، وأرتضى الجميع منه ذلك، وأقدموا وفي طليعتهم فوبيايوس وسرفاتيو للتوقيع على المرسوم نيقا، لا يساورهم شك في أن مسألة الإيمان النيقي قد تم إقرارها. وإن كان فالنز وأورساكيوس قد عادا بعد ذلك ليعلنا تخليهما عن بعض الأناثيما التي وافقا عليها في ريميني.

راجع SVLp. SEV. Hist. asc. II, 44

وأنظر أيضا HIER. Dial C. Lucif 18, 19

المرسوم بعد أن قدم فالنز وأورساكيوس بعض التنازلات، ثم عادا فسحباها ثانية حتى لقد أصبح مرسوم نيقا يعرف بإيمان ريمينى بعد أن ارتضا جميع الحضور(١٠٤) ويعلق سفروس على ذلك بقوله: "لقد كانت نتيجة مشينة لبداية طيبة"(١٠٥).

أمـــا فى الشـــرق، فقد تسابق الوافدان، أنصاف الآريوسيين والهومويون فى الوصـــول إلى القســطنطينية، عــلى حين عاد معظم أساقفة مجمع سلوقية كل إلى بيعـــته (١٠٦) كـــان عـــلى رأس الهومويوسيين، باسيليوس ويوستاثيوس واليوزيوس وســيلفانوس(١٠٧) وصـــحب هيلارى أسقف بواتييه هذا الوفد إلى العاصمة، وكان عـــليه أن ينـــتظر بهـــا حتى تصدر الأوامر الإمبراطورية بشأن استمرار نفيه أو عودتـــه إلى غالـــة(١٠٨)، وعـــلى الفـــور دخل الفريقان فى صراع سافر، وحاول يوســـتانيوس إثـــارة غضب الإمبراطور على الهومويين، فاتهم يودوكسيوس أسقف إنطاكيـــة بالأنوموية (١٠٩)، وكانت قد أصبحت إلى نفس الإمبراطور مقيتة (١١٠)، ولكـــن يودوكســـيوس رفـــض الوثيقة التى قدمها يوستاثيوس لإدانته، ونسبها إلى آيـــتيوس(١١١)، وهـــنا يـــبدو واضـــحا أن يودوكسيوس قد سلك خطو زميليه فالنز وأورساكيوس، إذ ضحى ثلاثتهم بالأنوموية عقيدة حفاظا على مناصبهم الكهنوتية، ورضـــى الإمبراطور، والآن جاء دور الأسقف الأنطاكى ليتنكر لصديقه آيتيوس. وهكـــذا يتضـــح جـــليا كيـــف كان هؤلاء الثلاثة أشهر من يمثل جماعة الأساقفة السياسيين الذين تخرجوا من مدرسة يوسيبيوس النيقوميدى.

اســتدعى الإمـــبراطور إليه آيتيوس ليمثل أمامه، وقد اعترف الرجل دون

---

(104) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 100
وراجع Kidd. op. cit. II, p. 172
(105) SVLP. SEV. Hist. Sac. II. 44
(106) SOZOM. Hist. eccl. IV, 23
(107) THEOD. Hist. eccl. II, 23
(108) SVLP. SEV. Hist. Sac. II, 45
(109) THEOD. hist. eccl. II, 16.
(110) SOZOM. Loc. cit.
(111) THEOD. Hist. eccl. II, 16.

وعى عــلى حــد تعبير سوزومنوس ، بأن ما جاء فى الوثيقة صدق لا باطل فيه، فأصــدر قســطنطيوس أوامــره بــنفيه فــورا إلى فــريجيا [112]، وهلل أنصاف الآريوســيين لذلــك. وأراد يوســتاتيوس أن يوجه الضربة التالية إلى يودوكسيوس نفســه، فأعاد اتهامه بأنه يردد آراء آيتيوس، ولما راح يودوكسيوس يراوغ هروبا مــن هذا الموقف، هدده الإمبراطور بالنفى، ولهذا لم يجد الأسقف الأنطاكى بدا من إنكــار الأنومويــة[113] ، ولما سكت عن يوستاسيوس الغضب، بادله يودوكسيوس اتهامــه، فطلب إلى أنصاف الآريوسيين الإقلاع عن استخدام تعبير "الهومويوسية" باعتــبارها غير واردة فى الكتاب المقدس [114]، ودار جدال لاهوتى عنيف ضاق به الإمبراطور ذرعا، فأمر بنفيهم جميعا جزاء العناد[115] .

والآن، وصــل مــن الغرب فالنز وأورساكيوس يحملان مرسوم إيمان نيقا الــذى تم التوقيع عليه فى ريمينى من أساقفة المجمع، حيث وجدا مندوبى سلوقية فى انــتظارهما[116] ، فوصــلا بأكــاكيوس وأنصــاره صــفوفهما. وتقدمــوا إلى الإمــبراطور يعرضــون عــليه تقريرا مفصلا عن إجراءات ريمينى، وطلبوا إلى مــندوبى ســلوقية التوقيع على ما وقع عليه أساقفة الغرب[117] ، وقد احتج أنصاف الآريوســيين بأنــه لا يمكــن التخــلي عــن كلمة "جوهر" و"التشابه" فى الجوهر Homoiousius. ولكــن دون جدوى، إذ نجح الإمبراطور فى حمل مندوبى سلوقية أنصاف الآريوسيين على الموافقة على صيغة نيقا المصدق عليها فى ريمينى، وتم ذلك فى منتصف ليلة ٣١ديسمبر ٣٥٩[118] .

هكــذا غــدت الهوموية (التشابه بين الآب والابن) عقيدة الإمبراطورية دون مــنازع، وحتى يضفى أنصارها عليها الصفة الرسمية، فقد انتهزوا فرصة تدشين

(112) Id.
(113) Id.
(114) Id.
(115) Id.
(116) SVLP. SEV. Hist. Sac. II, 45
(117) SOZOM. Hist. eccl. IV, 25
(118) Id.

الكنيسة التى كان الإمبراطور قسطنطين قد أمر بإنشائها(119)، ودعوا الأساقفة إلى عقــد مجمع فى القسطنطينية فى يناير/فبراير ٣٦٠(120)، وقد تقاطر على العاصمة قــرابة خمســين أســقفا معظمهم من بيثينيا، وكان من بينهم ماريس Maris أسقف خلقيدونية، وأولفيلا Ulfilas أسقف القوط(121). وفى هذا المجمع تم إصدار مرسوم الإيمــان الــذى ارتــبط بمديــنة نيقــا مع بعض التعديلات الطفيفة التى لا تخل بجوهــره(122)، وتقرر التصديق على عزل آيتيوس، وتم عزل عدد كبير أيضا من أنصاف الآريوسيين(123)، ويقول سوزمنوس أنه على الرغم من أن هؤلاء يخالفون الهومويــن العقيــدة، إلا أن الأخيرين بنوا قرار عزلهم على أساس أنهم عكروا صفو السلام وخرقوا قوانين الكنيسة، وهو اتهام عام اشترك فيه كثيرون (124)، وتم شــغل هــذه الأســقفيات الشــاغرة بالهومويين، بل وبالأنومويين أنفسهم، فقد تسلم يودوكســيوس أســقفية القســطنطينية، ومليــتوس Meletius على سيواس بدلا من

(119) SOCRAT. Hist. eccl. II, 43

(120) SOCRAT. Hist. eccl. II, 42

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 24

وأيضا THROD. Hist. eccl. II, 24

وأنظر كذلك Hefele, op. cit. I, 2, pp. 956-959

(١٢١) وكــان أولفيلا قد تم رسمه أسقفا فى مجمع التدشين الذى عقد فى أنطاكية سنة٣٤١، ثم حضر مجمع القســطنطينية . ولعلنا ندرك الآن السبب الذى من أجله اعتنق القوط والجرمان عامة، عدا الفرنجة، المسيحية على العقيدة الآريوسية .

راجع SOCRAT. Hist. eccl. II,41

وانظر SOZOM. Loc. cit.

(122) ATHANAS. De Syn. 30

وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 41

(١٢٣) كــان من بين من لحقهم قرار العزل ماكيدونيوس أسقف القسطنطينية، واليوزيوس، وباسيليوس، وهوراس Heoratius أســقف ســارديس ودراكنتوس Dracontius أسقف برجامة، وفى الجلسة التالية للمجمع عــزل سيلفانوس الطرسوسى، وصفرنيوس أسقف بومبيوبوليس، والبيديوس Elpidius أسقف Satala فى مقدونيا، ونيوناس Nmeonas أسقف سلوقية وكيرلس الأورشليمى .

أنظر .SOZOM. Loc. cit

(124) SOCRAT. Hist. eccl. IV, 25

وراجع SOZOM. Hist. eccl. II, 42

يوســـتانتيوس [١٢٥] ، وبعـــث الهومويـــون برســـائل إلى مختلف الأسقفيات تدعوا اكليروســـها للـــتوقيع عـــلى مرســـوم العقيدة الهوموية، وإلا كان النفى لهم جزاء ومصـــيراً [١٢٦] ، وقد امتثل لذلك عدد كبير من الأساقفة من بينهم جريجورى الأب أســـقف نازيانـــزا، والـــد جريجورى النازيانزى اللاهوتى الكبادوكى الشهير[١٢٧] ، وديانيوس Dianius أسقف قيسارية الكبادوك سلف باسيليوس[١٢٨].

كـــان مجمـــع القســـطنطينية ســـنة ٣٦٠ تـــتمة طـــبيعية لمجمعى ريمينى وســـلوقية[١٢٩]، واســـتطاعت الآريوسية للمرة الأولى بعد خمسة وثلاثين عاما أن تحقـــق نصـــرها على النيقية، التى يصور حالتها ما جاء على لسان القديس جيروم حيـــن يقـــول: لقـــد اغتنم العالم وتملكته الدهشة أن وجد نفسه آريوسيا[١٣٠] وعلى الـــرغم مـــن أن هذا الانتصار جاء فى وقت كانت الآريوسية فيه قد انقسمت على نفســـها فـــرقا مـــتعددة متطاحـــنة، إلا أن هـــذه العقيدة أفلحت فى أن تسود كنائس الإمـــبراطورية فى صـــورتها المعتدلة المتمثلة فى الهوموية، حتى ولو من الناحية الرسمية فحسب، وقد رأى الإمبراطور فى هذا الشكل من أشكال الآريوسية طريقا إلى ضم الفرق المتنافرة إلى بعضها، باعتبارها صيغة وسطا بين التطرف المتضاد لدى النيقيين والأنومويين، واقترابا إلى حد من أنصاف الآريوسيين، كما أنها صيغة تسمح لأى فريق من هؤلاء أن يفسرها بمفهومه الخاص عن "التشابه".

ولمـــا كان أثناسيوس الأسقف السكندرى، هناك فى مكان اختفائه يقف وحده يتمســـك بالنيقية عقيدة بعد أن أضحى العالم كله آريوسيا، ويهيئ له مستقره الأمين فى صحراء مصر ووسط رهبانها قلعة يحتمى بها من مشيئة أساقفة البلاط وإرادة

(125) SOCRAT. Hist. eccl. 43
SOZOM. Hist. eccl. 25
(126) SOCRAT. Hist. eccl.
SOZOM. Hist. eccl.IV, 25, 26
(127) GREG. NAZ. Orat. XVIII, 18
(128) BASIL. Ep. LI.
(129) Kelly, op. cit. p. 293
(130) HIER. Dial. C. Lucif. 19

الإمـــبراطور، فقــد شـــاع ساعتها ذلك القول بأن العالم كله قد اختصم مع الأسقف السكندري، وأن أثناسيوس ضد العالم(١٣١).

ولكن هذا لا يعني أن الهوموية لم تلق معارضة من جانب عدد من الأساقفة وفي العاصـــمة ذاتهـــا، ذلـــك أن هيــــلاري أســـقف بواتييه، الذي صحب أنصاف الآريوســـيين إلى العاصـــمة كما أسلفنا، انتهز فرصة وجود الخصوم مجتمعين في القســـطنطينية، وتقـــدم إلى الإمـــبراطور بالتماس يرجوه فيه أن يسمح له بمناقشة مســـألة الإيمان مواجهة وفي حضرته (١٣٢)ويرثى هيلاري في ملتمسه لهذه "الحالة المهلهلة التي أمسى عليها اللاهوت المسيحي والعقيدة" ويقول:

"حقـــا إنـــه لشيء يرثى له وأثيم أن نرى عديدا من الإيمان فكرا بين الناس، عقـــائد كـــالأهواء، منابع الكفران والتجديف ماثلة حلول الخطايا فينا، نضع مراسيم الإيمـــان بهوس، ونفسرها بعصبية. تارة نرفض الهوموسية، وأخرى يرضى عنها، ثـــم نتـــناولها مـــن هنا وهناك أيدي المجامع. والتشابه الكامل أو الجزئي بين الآب والابـــن موضـــوع الجدال لزمان غير سعيد. في كل عام، بل مع كل فجر تخرج عقـــائد جـــدد ، نصف بها غوامض الكلم ، ونندم على ما فعلنا ، ونُدافع عن الذين تـــابوا، ثـــم نـــلعن أولـــئك الذيـــن من قبل عنهم دافعنا، وندين عقائد الآخرين في أشخاصنا، وعقائدنا في ذوات الآخرين ، ونمزق هذا أو ذاك ربا، ولدينا على الدوام للآخرين أنكالا وجحيما"(١٣٣) .

وكـــان هيلاري ما يزال يخلع على قسطنطيوس في حديثه إليه ألقاب التقوى والـــورع، ويصـــفه بالإمبراطور "الخير" "الرءوف"، ولعل مرد ذلك أنه ربما كان يعتقد في نفسه أو يحاول، أن الإمبراطور ما يزال على تواده وتعاطفه مع أنصـــاف

(131) Wand. op. cit. p. 165

وأنظر كذلك Latourette, A History of Christianity, p. 160

(132) HILAR, Ad. Const. II, 2. II, 8. (p. L. X. 565, 569)

(133) HILAR. C. Const. II, 4, 5 (p. L. X. 565-567)

الآريوسيين، وأن صداقته لباسيليوس لم تزل قائمة(١٣٤) ، وعلى الرغم من ذلك فإن الإمبراطور لم يقبل رجاء هيلارى، وإن كان فى الوقت ذاته سمح له بالعودة إلى غالة (١٣٥)ويعلل سفروس ذلك بقوله أن قسطنطيوس وأساقفة البلاط كانوا على يقين بأن هيلارى يقف من وراء هذا الشقاق الحادث فى الشرق، وأنه هو الذى ألب عليهم الأساقفة(١٣٦) .ولكن هيلارى ما أن وطأت قدمه أرض غالة، حتى أطلق لقلمه العنان فى قدح قسطنطيوس، فخلف لنا بذلك مصدرا تاريخيا هاما، وقطعة أدبية رائعة تمثلت فى عمله المسمى "ضد الإمبراطور قسطنطيوس"(١٣٧) Contra Constantium Imperatorem وهذا العمل يعد فى المقام الأول تعبيرا عن حالة هيلارى النفسية خاصة وقد آمن أن قسطنطيوس لن يغير من آرائه (١٣٨)وقد جاءت مقدمة هذا العمل دعوة صريحة للنيقيين فى الغرب وغالة خاصة بالتمرد على الإمبراطور ... قال:

"... جاء وقت النطق، وزمان الصمت راح. دعوا الرعاة يصرخون فقد شردت الخراف، دعونا نكرس حياتنا من أجل الرعية، فاللصوص قد تسللوا، والأسد النهم يزمجر من حول. مع كل كلمة من شفاهنا دعونا نستبق إلى الشهادة، لأن زبان الشيطان قد تمثل فى صورة ملاك النور" (١٣٩) .

ثم يتخلى هيلارى عن صفات التقوى التى عرّف بها من قبل قسطنطيوس، ويخاطبه الآن بنفس الأسلوب الذى يوجهه إلى نيرون ودكيوس، ويعتبره أشد منهم قساوة وأبعد سوء (١٤٠). ويحمل على الإمبراطور بعنف بالغ ، "الشيطان أبوه، لقد تعلم منه المهارة فى سوء الرشد"(١٤١) "إنه ذئب فى ثياب حمل، لقد حمل الكنيسة

(134) Watson. op. cit. p. 21
(135) SVL. SEV. Hist. Sac. II, 45
(136) Id.
(137) HILAR. Con. Const. (p. L. X. 571-606)
(138) Watson, op. cit. p. 25
(139) HILAR. Con. Const. (p. L. X. 577-578)
(140) HILAR. Con. Const. 4-7(p. L. X. 580-4)
(141) Ibid. 8 (p. L. X. 584-585)

بذهــب الدولـــة وأســـلاب المعابد، ولكنها القبلة التى سلم بها يهوذا سيده"(١٤٢)، لقد أصبح الأساقفة الثلاثمائة وثمانية عشر فى نيقية لديه ملعونين، وأبوه أيضا وقد كان يترأسهم. ألا ترى أن ذاك الذى يحتقر الماضى، لا يمكن أن يسود المستقبل"(١٤٣) . ثم يعلنها هيلارى صريحة ضد الإمبراطور فيقول "إن المرض الجديد سيحتاج إلى علاج جديد، إن الحرب شئ لا يمكن تجنبه ما دام الأعداء قد رفعوا رءوسهم"(١٤٤)

والآن وقــد جئــنا أخيــرا إلى نهاية هذا "التيه" كما يقول سقراط (١٤٥)يعنى مـــتاهات ذلك الجدل اللاهوتى العميق العقيم، آن لنا أن نقف على ما كان من أمر الأســـقف السكندرى أثناسيوس طيلة هذه الأحداث. ولقد علمنا أن أثناسيوس كان قد جـــاء إلى الإســـكندرية ســـنة ٣٥٨، ليختـــبئ فيها، فقد كان يدرك أن الإمبراطور وموظفيـــه لن يدور بخاطرهم أن أثناسيوس سوف يغامر بنفسه ويلوذ بالإسكندرية ذاتها بعد أن أفلت من قبضة سيريانوس وجنده، ولكن المسألة لم تبد للأسقف أكثر مـــن انـــتقال من مكان أمين إلى غيره آمن، وله فى كل خطو أنصاره والمريدون. وهـــو فى الإســـكندرية أكـــثر قربا إلى الأحداث فى مصر والخارج. وإن كانت الصحراء أيضا لا تباعد بينهما وبينه.

وكان طرد جورج من الإسكندرية وسيطرة أنصار أثناسيوس على الكنائس بهـــا عـــلى الصـــورة الـــتى عرضـــنا لها، ورغم استرداد الآريوسيين لها، قد آلم الإمـــبراطور، فأرســـل من لدنه النوتارى بولس، الذى وصل المدينة فى ٢٣ يونية ٣٥٩ وأذاع فى الـــناس الأوامـــر الإمـــبراطورية التى جاء بها فى صالح جورج، ووضـــع الكـــثيرين من أجله تحت طائلة العذاب (١٤٦) . وربما تهامس الناس عن وجود أثناسيوس فى الإسكندرية، ويبدو أن الهمس علا حتى تلقفته آذان فوسطينوس Faustinus النائب الإمبراطوري فى مصر، وقائد الحامية أرتيموس Artemius فقاما

(142) Ibid. 10 (p. L. X. 586-587)
(143) Ibid. 27 (p. L. X. 602-603)
(144) Ibid. 16 (p. L. X. 593-594)
(145) SOCRAT. Hist. eccl. II, 41
(146) HIST. ACEPH. V, 7

بمهاجمة أحد المنازل فى المدينة، وصومعة صغيرة بحثا عن الأسقف الهارب(١٤٧) وأدرك الأسـقف أن بقـاءه فى المدينة أصبح محفوفا بالمخاطر فامتطى الصحراء عائدا إلى ملاذه وسط جموع الرهبان والمتوحدين.

عـلى أن تـاريخ أثناسيوس خلال فترة نفيه الثالث هو تاريخ كتاباته، ولكنه بعيـون تحميه فى صوامع وادى النطرون وطيبة، أو فى خلوة عامرة فى مدينته، راح يتابع بنظر ثاقب واع سير الأحداث فى الخارج وتداعيها(١٤٨) . ولقد أسلفنا أن أو أعمال أثناسيوس فى هذه الفترة كانت "دفاع عن هرويه Apologia de fuga"، ثم كتب رسالتيه إلى الرهبان ورسالة إلى سرابيون الراهب أسقف تمى الأمديد. ولكن أثناسيوس شغل نفسه طيلة هذه السنوات (٣٥٦ - ٣٦٢) بوضع عدد من الأعمال، لم يكن يعنى بها مطلقا مجرد تسجيل للأحداث، وإنما قصد بها أساسا أن يأتلف من حولـه قلوب الجميع خاصة جماعات الرهبان العريضة، ويثيرهم ضد الإمبراطور وأساقفته. ومن ثم كانت جل أعماله موجهة إلى ساكنى الأديار والمتوحدين.

وفى عـام ٣٥٩ (١٤٩) انـتهى أثناسيوس من كتابة رسالته إلى الرهبان عن تاريخ الآريوسيين Historia Arianorum ad Monahos افتتحها بمجمع أورشليم سنة ٣٣٥. حيث تم قبول آريوس ثانية فى شركة الكنيسة(١٥٠) ، ووصل بها إلى توقيع أسـقف رومـا ليـبريوس على المرسوم السيرميومى(١٥١) وهو يعد عملا تاريخيا مـتكاملا، وامـتدادا لدفاعه ضد الآريوسيين. غير أنه بالإضافة إلى ذلك يعتبر فى الحقيقـة بيانا ضد قسطنطيوس (١٥٢) وقد تغيرت اللهجة التى يتحدث بها أثناسيوس فى هذا المؤلف عن الإمبراطور، ولقد قدمنا أن الأسقف السكندرى فى دفاعه عن

---

(147) FEST. IND. XXXII.
(148) Robertson, op. cit. 57
وراجع Gwatkin, The Arian controversy, p. 98
وأيضا Le Bachelet, Arianism, col. 1820
(149) Cavallera, S. Athanase. p. 13
وراجع أيضا Diehl. op. cit. p. 423
وأنظر كذلك Kidd. op. cit. II, pp. 140
(150) ATHANAS. Hist. Arian 1
(151) Ibid. 41
(152) Robertson, op. cit. p. 266

هروبه، قد عرج على الإمبراطور بكلمة "هرطوق" وقلنا أن هذه مرحلة انتقال بين ألفاظ التقوى والورع التى يخلعها على الإمبراطور من قبل، وبين السخرية اللاذعة واللغة العنيفة التى يخاطبه بها الآن. فهو "أوسع مكراً من شاول Saul وآحاب[١٥٣] Ahab ، وأشـد قساوة من بيلاطس[١٥٤] ، وأكثر شراسة من ماكسيميان"[١٥٥] وهو كذلك "إمبراطور الهرطقة وحامى ذمارها[١٥٦] يجهل الكتاب المقدس[١٥٧] ، ويتخذه الشـيطان وكيـلا[١٥٨]. لا يرعى لأبيه وأخواته، وعهود على نفسه قطعها إلا ولا ذمة[١٥٩]، عدو المسيح والسيف المصلت على رقاب المسيحيين [١٦٠].

ولا شك أن أثناسيوس قد خلع رداءه الكهنوتى وهو يحمل على قسطنطيوس بهـذه الصورة، ولعله أيضا أراد أن يرد على الإمبراطور ما جاء فى رسالتيه إلى السكندريين وملكى أكسوم قدحا فى أثناسيوس.

ويقـول روبرتسون "هناك فقرات كثيرة فى هذا التاريخ يتمنى المرء لو أن أثناسـيوس لـم يكتـبها، لقد هوى أثناسيوس بقلمه إلى دونية ذلك العصر، وخلط بصورة لا تغتفر بين مسائل القداسة وسلوك الناس". ويضيف "ولكن أثناسيوس كان بشرا، أثار سخطه غلظة الإمبراطور ونقض العهود"[١٦١]، ولكن هذا العمل يحتوى إلى جـانب ذلـك على روح الخيرية التى يظهرها الأسقف السكندرى عطفا على أولـئك الأناسى الذين نزل بهم العقاب فى الإسكندرية وباقى أنحاء مصر على يد جورج الكبادوكى [١٦٢].

---

(153) ATHANAS. Hist. Arian. 68
(154) Ibid. 32, 68
(155) Ibid. 40
(156) Ibid. 9, 30, 45, 54
(157) Ibid. 32
(158) Ibid. 33
(159) Ibid. 49-51, 70
(160) Ibid. 53, 74, 80
(161) Robertson, op. cit. p. 267
(162) ATHANAS. Hist. Arian. 58-68

وتقديـم الرسالة على هذه النحو إلى الرهبان سوف يزيدهم دون ريب، إلى جانب ولائهم الكامل لأثناسيوس، حنقا على الإمبراطور وسخطا، وعداء للآريوسية ومقـتا. وقـد ساعد أثناسيوس على ذلك صراحة عندما قال، "منذ متى كان قضاة الكنيسة يتلقون صلاحياتهم من الإمبراطور؟ منذ متى كان مرسومه معترفا به لدى الكنيسـة؟ هـناك مجـامع عديدة عقدت، وأحكام كثيرة صدرت عن الكنيسة، ولم يحـاول الآبـاء السـعى للحصـول عـلى موافقـة الإمبراطور، ولا حتى حاول الإمـبراطور أن يشـغل نفسه بشئون الكنيسة[١٦٣]، . . . الإمبراطور قسطنطيوس يجتمع مع الهراطقة حتى يمكنه بإدعاء سلطة الأساقفة، أن يمارس سلطانه فوق من يشاء[١٦٤].

وقـد يتـبادر للذهن أن أثناسيوس يضع بذلك نظرية فى العلاقة بين الدولة والكنيسـة، ولكـن ذلـك ليـس مـن الحقيقة فى شئ، بل يعد من المبالغة أيضا القـول أن هـذا كـان يمثل حتى فكر أثناسيوس عن تصور لمثل هذه العلاقة، فقد كـتب أثناسـيوس ذلك احتجاجا على ما أقدم عليه سيريانوس، والأسقف نفسه يعلم تمامـا أن عقيـدة نيقية التى يؤمن بها ويتعرض من أجلها لكل هذا الهوان، تدخل قسـطنطين ليضـيف إليها، ولو بوحى من غيره، ما لم تؤمن به الكنيسة قبلا، ثم هاهو الأسقف نفسه يترك مجمع الأساقفة فى صور سنة ٣٣٥ ويشخص بنفسه إلى العاصـمة ليحـتكم إلى قسـطنطين الـثانى، ويعود من نفيه الأول بناء على إرادة قسـطنطين الـثانى ويحـتمى بقنسـطانز أبـان فترة نفيه الثانى، ويتزود برسائل قسـطنطيوس عـند عودتـه سـنة ٣٤٦، ثم هو يرتحل قاصدا قسطنطيوس نفسه ليعـرض عليه شكايته سنة ٣٥٦. ومن ثم لا يعدو ذلك القول تعبيرا عن حالة من

(١٦٣) لاشـك أن أثناسـيوس يشـير هـنا إلى القـرون الـثلاثة الأولى من عمر المسيحية، عندما كانت الإمـبراطورية الـرومانية تدين بالوثنية، وكان الأباطرة الوثنيون ينظرون إلى الميسحية نظرة كلية، ولا يهمهم من أمر الخلافات العقيدية داخل المسيحية شيئا . وحقا فأن آراء عقيدية كثيرة ظهرت فى القرون الثلاثة، وعقدت مجامع عديدة . ولم يحاول الأباطرة التدخل فى شئونها أو أمور العقيدة .
راجع للمؤلف الدولة والكنيسة ج ٢ الفصل الأول .

(164) ATHANAS. Hist. Arian. 52

السـخط العـام انتابت الأسقف السكندرى بعد أن رأى الإمبراطور يضرب عرض الحائط بما أعطاه لأثناسيوس من عهود، ويتعقبه فى كل مكان.

قسـم أثناسيوس رسالته إلى ثمانية أجزاء، تحدث فيها عن فعال الآريوسيين مـذ تـم قـبول آريـوس ثانية فى شركة الكنيسة سنة ٣٣٥ فى أورشليم، وعودة أثناسـيوس إلى الإسـكندرية سنة ٣٣٧ (١٦٥) وما كان من أمر الاضطرابات التى واجهـه بهـا الآريوسيين، ومقدم جريجورى الكبادوكى، وارتحال أثناسيوس إلى رومـا، والتفكير فى دعوة الأساقفة لمجمع عام (١٦٦) ثم يعطينا وصفا دقيقا لاجتماع الأسـاقفة فى سـرديكا سـنة ٣٤٣، والإجـراءات الـتى تلت ذلك، وعودته إلى الإسـكندرية سـنة ٣٤٦، ويـزودنا بالوثـائق الهامـة التى صحبت تلك الأحداث وتبعـتها (١٦٧) ، ويعـرض أثناسيوس بعد ذلك للأحداث التى أعقبت مقتل قنسطانز وسيادة قسطنطيوس على الإمبراطورية وإخضاع الغرب فى مجمع ميلانو (١٦٨) أما أسقف روما ليبريوس وأبو المجامع هوسيوس القرطبى، فيعقد أثناسيوس لكل منهما فصـلا خاصـا، ويلتمس لكليهما عذر الإذعان لسلطان الإمبراطور ، ويحتفظ بتلك الرسـالة الهامة التى بعث بها هوسيوس إلى الإمبراطور (١٦٩) على حين يصف فى الفصـلين الأخيـرين تـلك الوقائع التى شهدتها الإسكندرية ومصر على يد جنود الإمبراطور، والأمور التى أتاها جورج الكبادوكى، ويصب اللعنة فى كل فقرة منها على رأس قسطنطيوس وأساقفته (١٧٠).

على أن أطول المؤلفات التى خطها يراع أثناسيوس بعامة، وكتبت فى فترة نفيـه الـثالث هذه، كان خطبة ضد الآريوسيين Orationes contra Arianos وهى أربـع، وقـد وجههـا أثناسـيوس أيضا إلى الرهبان، أو على الأقل الثلاث الأول

(165) ATHANAS. Hist. Arian. 1-8
وأيضا Robertson, op. cit. cit. Pp. 268-299
(166) ATHANAS. op. cit. 9-14
(167) Ibid. 15-27
(168) Ibid. 28- 34
(169) Ibid. 35-41, 52-46
(170) ATHANAS. Hist. Arian. 47-63, 64-81

منها [١٧١] ، وتعود أهمية هذا العمل إلى أنه وضع بين عامى ٣٥٦، ٣٦٠ [١٧٢] وهى الفترة التى شهدت خلاصة الأفكار العقيدية متمثلة فى الفرق المسيحية المختلفة التى عرضنا لها، ويقول Kidd أن أثناسيوس كتب خطبه هذه ساعة الأزمات التى شعر فيها أنه يجب أن يكون واضحا، وأن يوجه ضربة قاضية إلى الخصوم[١٧٣] ويضيف آخر أنها وضعت بغرض سلمى، ربما بقصد التراضى، ولكن فى الوقت ذاته بغرض جدلى، وأملى عليه هذا ذلك الوضع العام للجدال العقيدى بين عامى ٣٥٧، ٣٥٩[١٧٤].

ولعل أثناسيوس كان يرى فى أنصاف الآريوسيين الذين يتزعمهم باسيليوس أسقف أنقرة، عنصرا قريبا إلى الإيمان النيقى، لأنهم يعتمدون كلمة "جوهر" مع الخلاف فى استخدامها. ومما يلفت النظر أن أثناسيوس لم يستخدم كلمة "الهوموسية" فى خطبه الثلاث الأولى إلا مرة واحدة[١٧٥] ، بل إنه استخدم أحيانا كلمة "مشابه للأب فى الجوهر" [١٧٦] وإن لم يكن بالمعنى الذى قصد إليه أنصاف الآريوسيين [١٧٧]ولعل ما ذكرناه عن أصل كلمة "الهوموسية" وما صحب استخدامها، كان دافعا لأثناسيوس للإحجام عن استخدامه لها رغم ما عاناه دفاعا عنها.

وتعد رسالة أثناسيوس "عن المجامع" De Synodis التى خطها سنة٣٥٩[١٧٨]، استكمالا مدعما بالوثائق التاريخية لجداله ضد الآريوسيين، وهى تعتبر آخر عمل

(171) Kidd. op. cit. II, pp. 143- 144
وراجع أيضا pp. 267-303.Robertson, op. cit
(172) Cavallera, S Athanase, p. 13
وراجع p.303 .Robertson, op. cit
(173) Kidd, Loc. cit.
(174) Robertson, op. cit. p. 57
(175) ATHAMAS. Orat. C.Arian. I, 9
(176) Ibid. 20
(177) Kidd. op. cit. II, p. 144
(178) Cavallera, op. cit. p. 13
وراجع Kidd, op. cit. II, p. 448
وأيضا Robertson, Loc. cit

عظيم فى مجموعة كتاباته الهامة خلال نفيه الثالث [179] وتعود أهمية هذا العمل فى المقـــام الأول إلى أنه كتب فى نفس العام الذى شهد عقد مجمعى ريمينى وسلوقية، وإذا كانت خطبه ضد الآريوسيين محاولة لفتح باب اللقاء مع أنصاف الآريوسيين، فإن رسالته هذه عن المجامع تعد دعوة صريحة لهم فى هذا السبيل[180] ، حتى لقد قـــال عن أسقف أنقرة ورفاقه "إنهم إخوة"، يناقش وإياهم على هذا الاعتبار، يعنون ما يعنى. ولكن الجدال فقط حول الكلمة [181] .

هـــذا إلى أن الأحداث التى وقعت فى ريمينى وسلوقية قد زادت من تقريب المســـافة بيـــنهما، إذ أن الهومويـيـــن عملوا على كسر شوكة النيقية فى الغرب فى ريميـــنى، والقضـــاء عـــلى الهوموســـية فى سلوقية، وهذه المحاولة التى يقوم بها أثناسيوس، سبقه إليها أيضا أسقف الغرب هيلارى عندما كتب رسالته عن المجامع، ويعـــلق أحـــد الدارســـين "لقد كان هناك رجلان فى العصر أوتيا من المهارة قدرا يضـــعان به أصابع الطبيب على منبض العقيدة، هيلارى الغربي الذى تعلم ليتفهم ويتعاطف مع الشرق، وأثناسيوس الذى يمثل الفطرة اللاهوتية فى الغرب [182] .

اختص القسم الأول من رسالة أثناسيوس عن المجامع بالحديث عن مجمعى ريميـــنى وســـلوقية فى دراســـة مستفيضة يتخللها دفاع عن الإيمان النيقى، ويبدى أثناســـيوس العجـــب فى حديثه عن ضرورة عقد مثل هذين المجمعين، أو عقدهما عـــلى هذا النحو المنفصل[183]. أما الجزء الثانى فيعد سجلا كاملا لأهم وثائق هذه الفـــترة مـــن الـــناحية العقيدية، إذ أنه يشتمل على بيان بعقيدة آريوس كما ورد فى العمـــل الـــذى وضعه آريوس نفسه ويدعى Thalia، وهو الذى وقفنا من الشذرات الـــتى وردت منه فى كتابات أثناسيوس، على أصول العقيدة الآريوسية، ثم رسالة آريـــوس إلى اســـكندر أســـقف الإسكندرية فى بدء الخلاف بينهما. ويقدم بعد ذلك

(179) Robertson, Loc. cit.
(180) ATHANAS. De Syn. 41-54
(181) Ibid. 41
(182) Robertson, op. cit. p. 57
(183) ATHANAS. De Syn. 1-14

المراسيم الآريوسية العديدة التى صدرت منذ مجمع التدشين الأنطاكى وحتى مرسوم الأنومويين الأخير الذى نشر فى أنطاكية سنة ٣٦١ (١٨٤).

وتمثل هذه الوثائق قيمة تاريخية هامة، إذ هى ثبت تفصيلي دقيق للصراع العقلي المرير الذى شهدته ردهات المسيحية فى صورتها الآريوسية. وفوق هذا وذاك فإن وضع هذا العمل سنة ٣٥٩، وتقديم هذه الوثائق كلها خاصة التى تجرى أحداثها، يبين بما لا يدع مجالا للشك أن أنباء هذه المجامع العديدة ومراسيم الإيمان الأكثر عددا والأحداث بعينها كانت تصل إلى أثناسيوس حين وقوعها. ومن ثم ندرك أن الأسقف السكندرى لم يغب لحظة واحدة عن هذه التيارات العنيفة التى سادت الشرق والغرب فترة نفيه الثالث، وهذا يدل دلالة واضحة على ذلك الدور الكبير الذى قام به رهبان مصر فى حماية أثناسيوس وعونه، واطلاعه على مجريات الأمور، حتى لكأنه يشارك فيها فعلا، وإن كان بقلمه، بل ويحركها على النحو الذى شهدناه عندما قدم إلى الإسكندرية ليتخذ منها ملاذا.

من هنا نقف على القيمة الحقيقية لـ "حياة القديس أنطونيوس Vita S. Antoni التى كتبها أثناسيوس خلال هذه الفترة أيضا. فقد كان من الضرورى للأسقف السكندرى أن يسجل بالإعجاب والتقدير هذه الجهود الضخمة الذى بذلها له ومن أجله المتوحدون وجموع الرهبان، ويقول سميث Smith "ربما قصد أثناسيوس بسيرة أنطونيوس أن يدخل السرور إلى قلب الرهبان المصريين الذين وقفوا إلى جواره، أو ليفعلوا مزيدا من ذلك فى الوقت الذى كان فيه أثناسبوس مطاردا من الخصوم والإمبراطور(١٨٥). ولذلك اختار أثناسيوس شخصية واضع أسس الرهبنة فى مصر، ليتحدث من خلاله عن الراهب والجموع والنظام بأكمله ليضرب المثل بأبى الرهبان للرهبان، للأخذ بناصره عندما ارتحل أنطونيوس إلى الإسكندرية سنة ٣٢٨ ليقف إلى جوار أثناسيوس ضد خصومه الآريوسيين (١٨٦) وما جاء فى مقدمة

(184) ATHANAS. De Syn. 151-31
(185) Smith, The church in the Roman Empire, p. 82
(186) ATHANAS. Vita Ant. 69

الترجمة (١٨٧) ، وفى وداع الأسقف للراهب عند مغادرته العاصمة (١٨٨)دليل يقدمه أثناسيوس لساكني الأديار والمتوحدين على الصداقة القوية والاحترام المتبادل بين الرجلين، فلا أقل من أن يحذو هؤلاء حذو رائدهم تجاه الأسقف السكندرى.

ولقد عرضنا آنفاً للأهمية لـ "حياة القديس أنطونيوس"(١٨٩) وأثرها فى نقل نظام الرهبانية إلى العالم بعامة، ونضيف أنها جاءت فى الوقت الذى كان يجب أن تأتى فيه، فهذه هى أطول فترة قضاها أثناسيوس فى حماية الرهبان، بلغت ست سنوات وينيف، يحوطونه بالرعاية، ويصلون ما بينه وبين العالم ويقدمون إليه الوثائق الدالة على الأحداث ومجراها، كل ذلك يجرى فى وقت تتربص به عيون الإمبراطور وأساقفة البلاط، ويبحثون عنه بالمال والجنود. وهذا بلا ريب يرسم أمامنا صورة كاملة لتلك السرية التامة وذلك النظام الدقيق الذى تتبعه هذه الأعداد الغفيرة من الرهبان، وفوق هذا وذاك الولاء الكامل للأسقف السكندرى الذى يصور ماضيهم، ويجسد آمالهم وواقع معتقدهم.

هكذا نأتى إلى نهاية المنفى الثالث للأسقف السكندرى، وقد شاهدنا هذه السلسلة المتلاحقة من مراسيم الإيمان التى أصدرها الآريوسيون بمختلف فرقهم، وإن كان قد بقى هناك واحد سوف تشهده أنطاكية بعد قليل.

اطمأن قسطنطيوس إلى أن أمور العقيدة قد أقرت على النحو الذى انتهى إليه مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، واعتقد الإمبراطور أنه بذلك قد أرضى جميع الأطراف المسيحية المتصارعة. والحقيقة أن أحدا منها لم يكن كما اعتقدالإمبراطور. ولكن قسطنطيوس كان راضيا بما وصل إليه. فغادر العاصمة إلى إنطاكية عام ٣٦١ استعدادا للحرب الفارسية(١٩٠)، وكان كرسى أنطاكية الأسقفى قد شغر بانتقال يودوكسيوس إلى أسقفية القسطنطينية. وبحث الأساقفة

---

(187) Ibid. praef

(188) Ibid. 70

(١٨٩) راجع قبله .

(190) THEOD. Hist. eccl. II, 27

وشـــعب الكنيســـة عمن يخلفه، فوقع اختيارهم على ملتيوس Meletius الذى عين أســـقفا على سيواس بعد عزل يوستاثيوس، ثم انتقل منها إلى حلب (١٩١) Beroea. ولمـــا كـــان ملـــتيوس قد وقع على مرسوم سلوقية الذى وضعه أكاكيوس(١٩٢) فقد اعتـــبره الهومويون نصيرا لهم، ومن ثم ناشدوا الإمبراطور الموافقة على رسامته أسقفا على أنطاكية(١٩٣). ومن ناحية أخرى يذكر ثيودوريت أن النيقيين لم يعترضوا على سيامته لما يعلمونه عنه من تعلق بإيمانهم(١٩٤).

ويبدو أن الأسقف الجديد كان رجلا معتدلا يريد أن ينأى بنفسه عن المعترك اللاهـــوتى، فتجنب أول الأمر الخوض فى المسائل العقيدية، وخص بالموضوعات الأخلاقيـــة عظاتـــه(١٩٥). ولكنه أمام مضايقات جورج أسقف اللاذقية، وأكاكيوس القيســـارى، راح يبشـــر الجمـــوع بالعقيدة النيقية، وإن كان قد آثر إغفال مصطلح الهوموســـية(١٩٦). فلما حمل هذا النبأ إلى قسطنطيوس أمر لتوه بعزله ونفيه، وعين بدلا منه يوزيوس Euzoius رفيق آريوس منذ البداية فى دعوته، وزميله فى منفاه وعودتـــه(١٩٧). وهنا شهدت أنطاكية انقساما عقيديا خطيرا ظل يهددها فترة طويلة، ذلـــك أن أتـــباع ميليتيوس انفصلوا عن الجماعة الآريوسية التى يتزعمها الأسقف الجديد، وراحوا يعقدون اجتماعاتهم الدينية بمنأى عنهم (١٩٨) أما أولئك الذين كانوا يديـــنون أصـــلا بالهوموســـية، ويطـــلق عـــليهم ســـوزومنوس اليوســـتاثيين(١٩٩)

(191) SOCRAT. Hist. eccl. II, 44
(193) Id.
(193) THEOD. Loc. cit.
(194) THEOD. Hist. eccl. II, 27
(195) SOCRAT. Hist. eccl. II, 44
وراجع أيضا SOZOM. Hist. IV, 22
(196) SOCRAT. Loc. cit.
وراجع .THEOD. Loc. cit
وأيضا .SOZOM. Loc. cit
(197) SOCRAT. Loc. cit.
(198) Id.
(١٩٩) أنظـــر SOZOM. Loc. cit. وكانوا أتباع يوستاثيوس أسقف أنطاكية الذى عزل سنة ٣٣٠ بعد نزاعه مع يوسيبيوس القيسارى .

Eustathians فقد رفضوا الدخول فى شركة أتباع ملتيوس، محاجين بأنه رسم عل يد الآريوسيين وأن أتباعه عمدوا بواسطتهم(٢٠٠).

وقــد دعا يوزيوس إلى مجمع أنطاكية سنة ٣٦١ (٢٠١)وتجددت المناقشات حول مـــا قر عليه الرأى من قبل وخاصة تعبير "التشابه" Homoeas أساس العقيدة الهوموية، ورأوا أنـــه من الضرورى شجب هذا التعبير من مرسوم الإيمان، وأعلنوا أن الابن لا يشـــبه الآب Anomoean وأنـــه خــلق مـــن العـــدم، وهـــو ما دعا إليه آريوس فى الـــبداية (٢٠٢)، ولما كانت هذه الآراء أنوموية فى جوهرها، كان من الطبيعى أن ينضم إليها أنصار آيتيوس، فأضاف ذلك إلى الفوضى الحادثة فى أنطاكية بعداً جديداً.

وبينما المسيحيون فى داخل الإمبراطورية يدور بينهم صراع فكرى عنيف، ويشقى بهذا الجدال قسطنطيوس حتى هده الجهد وأعياه الشقاق، كان سابور الفرس يـــزحف بقواتـــه ليحـــتل أمـــد ويوقع بالحامية مذبحة مروعة ويصلب القادة ويبيع الآخـــرين فى سوق الرق عبيدا(٢٠٣)، لقد حسب الإمبراطور أنه جمع الإمبراطورية على الهوموية عقيدة، فإذا به فى أنطاكية يشهد حصاد السنين، ويحاول أن يتغاضى هربا من متاهات اللاهوت ولو قليلا، لينقذ كرامة الإمبراطورية وقد أثخنها الفرس جراحا. غير أن خطرا جديدا هدد قسطنطيوس فجأة، إذ أتته الأنباء بقيام الثورة فى غالة والمناداة بابن عمه جوليان إمبراطورا، ومن ثم كان عليه أن يخمد الفتنة فى الداخل قبل أن يتجه لحرب فارس.

---

(200) SOCRAT. Loc. cit.

(201) SOCRAT. Hist. eccl. II, 45

وأنظر أيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 28-29

(202) SOCRAT. Loc. cit.

(203) Sykes, op. cit. I, p. 417.

الفصل التاسع



صحوة الموت الوثنية

الفصل التاسع

صحوة الموت الوثنية

فى عـام ٣٦١ تعرضت الإمبراطورية لتغييرات سياسية وعقيدية، كان لها أكبر الأثر على السياسة العامة التى جرت عليها الدولة إزاء الكنيسة بعامة، وقادت المسـيحيين جميعـا على اختلاف آرائهم وفرقهم إلى أن يسلكوا سبيلا جديدا تجاه الإمـبراطور الجالس على العرش، وإن كانت هذه الصورة العامة لم تدم أكثر من سـنتين فقـط (٣٦١-٣٦٣) إلا أنهـا تركت بصماتها الواضحة على جهد الأسقف السكندرى أثناسيوس فى سبيل سعيه إلى توحيد الكنيسة، لتقف جبهة واحدة تتصدى لهـذا الخطـر الجديد الذى يتهددها ممثلا فى محاولة إعادة بعث الوثنية من جديد عـلى يد الإمبراطور جوليان Julianus، بل إن هذه الجهود التى قام بها أثناسيوس لم تتوقف بعد زوال هذا الخطر.

وتفصـيل ذلك فى إيجاز، أن الإمبراطور قسطنطيوس، كان قد استدعى إليه ابن عمه جوليان[1]، وجعل منه قيصرا على الغرب فى ٦ نوفمبر ٣٥٥، وعهد إليه حماية جبهة الراين ضد قبائل الفرنجة[2] وكانت هذه القبائل الجرمانية قد انتهزت

---

(١) شـاء القـدر أن يفـلت من المذبحة المروعة التى ذهب ضحيتها أفراد أسرة قسطنطين سنة ٣٣٧، عدا أولاده الـثلاثة، الأخوان جاللوس وجوليان ، فقد شفع المرض لأولهما، بينما وقفت براءة الطفولة تدفع عـن جوليـان. ولكـن ذلك لم يمنع قسطنطيوس أن يأخذ من البداية حذره، فأبعدهما إلى قلعة ماكللوم Macellum فى آسـيا الصـغرى، ثـم سمح لهما بمغادرة القلعة، فاتجه جاللوس إلى إفسوس، وجاء جوليان إلى القسطنطينية . فلما وقعت الحرب الأهلية سنة ٣٥٠ وارتحل قسطنطيوس إلى الغرب، عهد بأمر الشرق إلى جاللوس بعد أن خلع عليه مرتبة القيصر، وأوكل إليه مهمة الدفاع عن جبهة الفرات . غيـر أن جالـلوس اتبع سياسة عنيفة . مع الأهالي أودت بحياة الكثيرين خاصة فى أنطاكية، مما دفع قسطنطيوس إلى إعدامه عام ٣٥٠، ومن ثم لم يبق إلا جوليان .

انظر AMM. MARC. Res gest. XV, 2

وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 28, III, 1

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 4, V, 2

(2) SOZOM. Hist. eccl. III, 1

كذلك AMM. MARC. Res. gest. XV, 8

فرصة الفوضى التى حدثت فى الإمبراطورية، على أثر مقتل قنسطانز سنة ٣٥٠، وعــاثت فى غالـــة فسادا، وتقاعس القادة هناك عن التصدى لهذه الهجمات(٣)، فلما تــولى جوليـــان أمر هذه المنطقة عمل على اكتساب ولاء الجنود ومحبتهم، وأظهر مقــدرة عســكرية فائقــة، وأوقــع بالقــبائل الجــرمانية هــزيمة مــروعة عند Straseburg (Argentoratum) أدت إلى توقف هذه الاغارات سنوات طويلة(٤).

وتشــير المصـــادر أن قســطنطيوس، كـــان يضــمر الحقد على جوليان، للانتصارات التى أحرزها على جبهة الراين، لخوفه من منافسته على العرش، وأنه من أجل ذلك كتب إلى قبائل الفرنجة فيما وراء الراين رسالة يدعوها لمهاجمة غالة للدخول فى حرب مع جوليان قد يكون فيها القضاء عليه(٥).

والـــذى شـــك فيه أن قسطنطيوس كان يتوق حقا إلى الخلاص من جوليان، حــتى يضــمن عدم وجود منافس له على العرش، وهذا شىء نلمسه بوضوح من الشـــكوك الـــتى كانت تساوره طيلة حياته، والتى أملت عليه تصرفه ومسلكه إزاء جوليـــان(٦)، حـــتى أنـــه أحـــاط جوليان فى غالة بجماعة من الموظفين المدنيين

(3) SOCRAT. Hist . eccl. II, 28, III, 1
(4) AMM. MARC. Res gest XVI, 12
(5) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1
وكذلك SOZOM. Hist. eccl. V, 2
أيضا THEOD. Hist. eccl. II, 28

(٦) اتجــه جوليان منذ البداية إلى دراسة الآداب الإغريقية وبرع فيها حتى شاع بين الناس فى القسطنطينية أن لديــه القــدرة عــلى أن يديــر بنجاح دفة الحكم فى الإمبراطورية، ولما تناقلت أندية العاصمة هذه الشائعة، وبلغت آذان الإمبراطور، تملك عليه القلق كل سبيل، حسب تعبير المؤرخ سقراط، ولهذا أمره عــلى الفــور بمغادرة العاصمة إلى نيقوميديا، وحرم عليه فى الوقت ذاته التردد على مدرسة فيلسوف أنطاكيــة الوثـــنى الشـــهير ليبانيوس Libanius الذى كان يقيم فى نيقوميديا آنذاك، ولكن ذلك لم يمنع جوليـــان مـــن مدارسة الفلسفة سرا، وخاصة بعد أن جاء نيقوميديا فيلسوف إفسوس الشهير ماكسيموس Maximus وفى هـــذه الأثـــناء كـــان جالـــلوس قـــد أعدم وغدا جوليان بالتالى موضع الشكوك لدى الإمـــبراطور. فأمـــر بنقله إلى كومو Como بالقرب من ميلانو ليكون تحت سمعه وبصره ، وفرض عـــليه حراســـة مشددة. ثم سمح له بالذهاب إلى أثينا بعد أن تدخلت الإمبراطورة يوسيبيا Eusedia . حيث أمضى هناك ستة أشهر فقط ، استدعى على أثرها ليكون قيصرا فى الغرب .
راجع AMM. MARC. Res gest. XV, 2, 8
وأيضا SOCRAT. Hist. eccl. III, 1
وأنظر أيضا GREG. NAZ. Orat. IV, 55-56 (p G. XXXV, 578-579).

والعسـكريين جعـلهم عيونا له عليه، وجهدوا هم بكل الطرق ليعرقلوا جهوده فى إصـلاح أمور غالة، وهذا الأمر نقف عليه من الرسالة التى بعث بها جوليان إلى قسطنطيوس يشكو إليه هؤلاء الأعوان(٧)، وما كان أيسر على قسطنطيوس أن يفعل بقيصـر الغـرب ما فعله من قبل بأخيه قيصر الشرق، دون حاجة إلى أن يحمل الدولـة نفقـات حـرب باهظة من أجل التخلص من شخص واحد، كما تدعى هذه المصادر.

وليس من السهل تقبل رواية المصادر هكذا دون مناقشة، فالذى يبدو أن هذه الرسـالة لابد أن يكون قسطنطيوس قد بعث بها قبلا للاستعانة بقوات من الجرمان ضـد خصـمه ماجننتيوس، وذلك بعد هزيمة الأخير فى مورسا وفراره إلى غالة، مخافـة أن يسـتنجد هـذا المـتمرد بالجـرمان، فـلما قضى ماجننتيوس، أدرك الإمـبراطور أنه لم تعد به حاجة لمثل هذه المعونة، فى الوقت الذى كانت القوات الجـرمانية قد بدأت تتدفق بالفعل تجاه الراين، أو لعل هذه القوات انتهزت فرصة الحرب الأهلية لتحقق لنفسها مأربا فى غالة(٨) ومن ثم لم يتردد قسطنطيوس فى أن يتصـدى لها، وأن يقود قواته ضدها فى حملات متتابعة(٩) فلما رأوا بأس جوليان من بعد وقدرته على إنزال الهزائم بهم أرادوا أن يوغروا صدره على الإمبراطور، حـتى ينصرف عن قتالهم، فأطلعوه على هذه الرسالة، وإن كان جوليان لم يلق بالا لمـا أراده الجرمان، بل ألقى القبض على رسلهم وأودعهم السجن، وواصل الحرب ضدهم حتى أوقع بهم عند ستراسبورج.

إلا أن الأحـداث فى الشـرق هى التى عجلت بفتح باب الصراع سافرا بين جوليـان وقسـطنطيوس، ذلـك أن الإمبراطور كتب إلى قيصره فى الغرب أوائل سـنة ٣٦٠ يأمـره أن يمده بزهرة شباب الجيش العامل فى غالة حتى يتمكن من

---

(7) SOCART. Hist. eccl. III, 1
وراجع SOZOM. Hist. eccl. V, 2
(8) Jones, The decline of the Ancient World, p. 56
(9) Martin, op. cit. I, pp. 304-306

مواجهـــة قـــوات الفـــرس ويتصدى لزحفهم[١٠] ، غير أن الجنود تمردوا على هذه الأوامـــر ورفضـــوا الانـــتقال من أقصى غرب الإمبراطورية إلى أقصى شرقها، ورفعوا راية العصيان، ونادوا بجوليان إمبراطورا[١١] ، ولم يلبث هذا أن قاد قواته واتجـــه بهـــا ناحيـــة الشـــرق لملاقـــاة الإمـــبراطور الذى رفض قبول هذا الأمر الواقع [١٢]، ولكى يدعم موقفه فى أقاليم الغرب نشر فى الناس رسالة قسطنطيوس إلى الفرنجة، مما دفع الأهالى إلى شدة الحنق والسخط على قسطنطيوس، بالإضافة إلى مـــا عـــانوه على يديه من أجل العقيدة، ولهذا أضحى من السهل استمالتهم إلى جانب جوليان[١٣] .

أما قسطنطيوس فقد دعا إليه يوزيوس أسقف إنطاكية الآريوسى، حيث تناول مـــنه ســـر المعموديـــة، وأسرع يقود جيشه لملاقاة ابن عمه، فلما حط رحاله عند موبسوكرنى Mopsucrene على الحدود بين كيليكيا وكبادوكيا فى آسيا الصغرى أفرط فى إعمال الفكر حول هذه النوائب التى ألمت به، فمات فى الثالث من نوفمبر سنة ٣٦١[١٤] ، وعندما علم جوليان بذلك ارتحل لفوره إلى القسطنطينية التى فتحت

(10) AMM. MARC. Res gest. XX, 4

(11) Id.

(١٢) تختـــلف المصـــادر حـــول موقف جوليان من هذه الأحداث . . . فيلتزم مؤرخو الكنيسة الصمت التام إزاء الأســـباب الـــتى أدت إلى ثـــورة قوات غالة، ويذكرون أن جوليان لم يحاول الدخول مطلقا فى مفاوضات مع الإمـــبراطور حول هذا الوضع الجديد، وأنه لم يقدم له بعد ذلك أى قدر من الاحترام أو الولاء، بل راح يعين نوابـــا عنه فى الولايات الشاغرة التى تقع تحت سلطانه، بعد أن صرف الموظفين الموالين لقسطنطيوس، هذا عـــلى الرغم من أن أميانوس ماركللينوس يذكر أنه بعد أن تمت المناداة بجوليان إمبراطورا أرسل على الفور إلى قســـطنطيوس يخـــبره حقيقـــة الأمر ويعرض عليه الدخول فى مفاوضات لحسم هذا الخلاف. ولا يخفى علينا أن مؤرخى الكنيسة كانوا يكتبون عن إمبراطور أراد إحياء الوثنية من جديد .

راجع SOCRAT. Hist. eccl. III, 1

وكذلك SOZOM. Hist. eccl. V, 1

وأنظر AMM. MARC. Res gest. XX, 9

(13) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1

(14) Id.

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 1

وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 28

لــه أبوابهــا فى ١١ نوفمــبر مــن العام بوصفه إمبراطورا[١٥]. وقد شيع جيروم الإمــبراطور قسطنطيوس إلى قبره بقوله: "لقد هلك التنين وعاد السلام"[١٦]. ولعل القديــس قد عبر بذلك عما يجيش فى نفس الكنيسة الكاثوليكية من البغضاء والمقت لقســطنطيوس بســبب سياسته العقيدية. وإن كان قسطنطيوس قد باشر سياسته هذه حسـبما كــانت تقتضــى بــه الظروف السائدة فى ذلك الحين، والتى تفرض على الإمبراطور أن يسعى بالجهد كله لإقامة كنيسة واحدة[١٧].

وكـــان اعــتلاء جوليان العرش أمرا بالغ الدلالة بالنسبة للكنيسة والمسيحية، ذلــك أن جوليـــان أعلن على التو اعتناقه للوثنية. ورغم أن المسيحية لم تكن حتى ذلــك الحيــن قد أصبحت الدين الرسمى للإمبراطور، إلا أن أبناء قسطنطين كانوا عــلى المســيحية، ومن ثم لصقت بجوليان صفة "المرتد"، خاصة وأنه كان قد تلقى منذ صباه طقس العماد.

والحقيقــة أن قــلب جوليان لم يؤمن يوما بالمسيحية [١٨] ، فقد ارتبطت فى ذهــنه للوهــلة الأولى بالتناقض بين تعاليمها وواقعها، ولم يستطع أن يوفق بين ما لقــنه فى صغره عن التسامح فيها، والعنف والدم الذى رآه متمثلا فى تلك المذبحة المــروعة الــتى فقــد فيهــا كــل أفــراد أسرته، والتى ارتبطت فى مخيلته دائما بقســطنطيوس، ذلــك "الغطريس"، سفاح العائلة الملكية، كما كان يحلو له دائما أن

---

(15) AMM. MRAC. Res gest. XXII, 2

وراجع THEOD. Hist.eccl. III, 1

(16) HILER. Dial. C. Lucif. 19

(17) Jones, The decline of the Ancient World, p. 258

(١٨) عــن بواكيــر الوثنية عند جوليان نسجت أقلام الكتاب الكنسيين عددا من الروايات التى تصل إلى حد الأسطورة، فيذكر سوزومنوس أنه أثناء وجود الأخوين جاللوس وجوليان فى قلعة ماكللوم، أخذا على عاتقهمــا إعــادة بــناء قبر الشهيد ماماس Mammas، واقتسما العمل فيما بينهما، وبينما تقدم عمل جالــلوس، راح عمل جوليان يتهاوى ويتصدع، واعتبر الناس ذلك معجزة وراحوا يشكون فى صحة عقيــدة جوليان المسيحية وأنه لابد يخفى شيئا آخر، ولعل هذا ما يشير إليه المؤرخ ثيودوريت من أن القديس رفض تقدمة جوليان .

انظر SOCRAT. Hist. eccl. V, 2

وأيضا THEOD. Hist. eccl. III, 1

يدعـوه[١٩]. ولـم يكـن فى لحظـة ما آمنا على نفسه، فالإمبراطور يطارده من القسـطنطينية إلى كـبادوكيا فالعاصمة ثانية فنيقوميديا وبرجامة وكومو، فأثينا ثم غالـة، ويشـهد مقتل أخيه بيد قسطنطيوس، ويترقب دوره فى أى حين. لذا وضع جوليان على كتفه طيلة حياة قسطنطيوس، رداء المسيحية ولكنه كان إيمان الخوف حسـب تعـبير مـؤرخى الكنيسة أنفسهم[٢٠]، حتى لقد كان يتمثل دوما يوم عماده كابوسـا مـروعا يجـب تناسـيه[٢١]. وليس لمثل هذا الإيمان أن يقود النفس إلى السـكينة، ومن ثم راح يبحث عن هذه فى غير المسيحية، خاصة وقد تبدت له هذه العقيدة تارات أخرى فى أساقفتها، يلتفون حول العرش يسبحون بمجد الإمبراطور، ويحـنون الهام إجلالا، فعافت نفسه مهانة العقيدة من أجل السلطان، ومن قبل رأى المسيحية تفرض عليه فى نصوص لهم يدرك من كنهها شيئاً ، وطقوس لا يعلم ما تخبـئه وراءها من أسرار، ولم يكن جوليان يريد إيمانا على هذا النحو، ولا عقيدة بهـذه الشـاكلة، ولا معرفة دون عقل، ولا علما دون فكر، وهكذا تفتحت مداركه بفلسفة ماكسيموس وجداله ومنطق ليبانيوس وبيانه.

ويلخص جيبون ذلك كله فى عبارة واحدة بقوله: "لقد ارتبط اسم المسيح فى مخيلـته باسـم قسطنطيوس، واقترنت فكرة العبودية بفكرة الدين " ، ويضيف، لقد كـان جوليان يتمتع بروح الاستقلال التى ترفض التسليم بما يتطلبه رجال الكنيسة المـتعجرفون باسم الدين، من طاعة عمياء وانقياد سلبى ، وتأبى تلك القوانين التى يصـدرونها فى صـورة مقدسـة لا تقـبل الجدل، يحميها إرهاب العذاب الأبدى، وتضيق بتلك القوالب الجامدة التى يقدمونها له ليصوغ من خلالها فكره وحديثه، لذا كـان لابـد أن تدفعه عبقريته ، وهى تتيه بالمعرفة شوقا، إلى التمرد على سلطان معلميه الكنسيين[٢٢] .

---

(19) Kidd. op. cit. II, p. 183
(20) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1 وأيضا
SOZOM. Hist. eccl. V, 2
(21) Vasiliev, op. cit, I, p. 69
(22) Gibbon, op. cit. II, p. 457

وهـــذه حقيقة وقف عليها وسجلها جريجورى النازيانزى عندما التقى بالأمير جوليان فى أثينا وعرفه عن كثب، ورأى نفسه القلقة وروحه المتوثبة(٢٣)، وأفصح عـــنها أميـــانوس ماركللنيوس عندما قال: "لقد كان جوليان منذ نعومة أظافره يحنو عـــلى عبادة الأرباب، ولما تقدم به الزمان زاد بها تعلقا، غير أن المخاوف الكثيرة التى ملكت عليه حياته، جعلته يخفى فى نفسه ما لابد فى يوم مبديه(٢٤).

وقد استهل جوليان عهده بإصدار تصريح بأن تفتح المعابد أبوابها، وأن تقرب الأضحيات على المذابح للأرباب إرضاء(٢٥)، وشارك الإمبراطور بنفسه فى ممارسة الطقـــوس الوثنية المختلفة من تقريب الأضحيات(٢٦) والعرافة، وقراءة ما توصى به أكـــباد القـــرابين(٢٧)، وكان جوليان فى الوقت ذاته يدرك أن إحياء الوثنية على النحو الـــذى أمســـت عليه، يعد أمرا بالغ التعقيد، ولن تقدر بحالتها الراهنة، بعد أن أضحت ديـــنا باهـــتا، أن تبعث ثانية من الرقاد(٢٨). ولذا لم يجد غضاضة فى أن يستعير من العقيدة المسيحية التى يزدريها نظم الكنيسة فيها وشيئا من أخلاقياتها(٢٩).

(23) GREG. NAZ. Orat. IV, 55-56(p. G. XXXV, 578-579); V, 33-34(p. G. XXXV, 692-993)

(24) AMM. MRAC. Res gest. XXII, 6

(25) Id.

(٢٦) كان جوليان يقرب للأرباب بصورة تسترعى الانتباه، ويدعو الوثنيين إلى أن يسلكوا نهج سيدهم، فلما تفشـــى ذلـــك بين الناس، ظهرت من جديد تلك القالة التى شاعت من قبل زمن الإمبراطور الفيلسوف مـــاركوس أوريـــليوس Marcus Aurelius (١٢١=١٨٠) . . ."من المواشي البيض إلى القيصر ماركوس . تحية . . لو حالفكم النصر، فعلى قطيعنا السلام" .
انظر AMM. MARC. Res gest. XXV,4

(27) AMB. Ep. XVIII, 39
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 18

(28) Gibbon, op. cit. II, p. 472

(٢٩) ويتمـــثل ذلك فى رسم معلمين للمعابد وقارئين، ليعطى للعقيدة الوثنية حيوية وتجديدا، ورأى أن تؤدى الصلوات فى أيام محدده وساعات، كما كان يتوق إلى أن يرى هناك صوامع للرجال والنساء كل على حـــدة، تضم الذين يعشقون الفلسفة وحياتها، ويتمنى أن يرى للوثنية ملاجئ يأوي إليها الغرباء، ويلقى فيهـــا مرضى الفقراء علاجا ناجعا، ويريد الارتقاء بمستوى الكهنة خلقيا. ونقف على ذلك كله وغيره من الرسالة التى بعث بها إلى أرساكيوس Arsacius كاهن جالاتيا Galatis .
أنظر SOZOM. Hist. Eccl. V, 16

على أن الصفعة القوية التى وجهها جوليان للمسيحيين تمثلت فى الإصلاح التعليمى الذى أقدم عليه، فقد أصدر قرارا بمنع المسيحيين من دراسة الآداب الإغريقية(٣٠)، وحرم على المعلمين أن يقوموا بالتدريس إلا إذا دانوا بعبادتهم للأرباب، وأعلن أنه من السخف أن يتصدى المسيحيون لتعليم الآداب الكلاسيكية فى الوقت الذى يمتهنون فيه أرباب أعلامها(٣١) . ولا شك أن هذا القرار كان صادرا عن اقتناع جوليان بأن الكنيسة سوف تعود نتيجة لذلك إلى حالتها البدائية البسيطة فى غضون سنوات قلية، وأن رجال الدين الذين كانوا يملكون قدرا مناسبا من علم ذلك العصر، سوف يخلفهم جيل من المتعصبين الجهلاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن عقيدتهم أو التصدى لمفكرى الوثنية(٣٢). وقد أحجم فعلا جمهرة المسيحيين عن إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس التى أضحت وثنية، مخافة أن يتحول شباب المسيحية إلى عبادة الأرباب، وكان هذا فى حد ذاته يعنى دونية ثقافية إذا ما قورنوا بالوثنيين(٣٣) .

وكان كل ما يشغل ذهن المسيحيين الخلصاء أن الطبقة الأرستقراطية سوف تستمر فى إرسال بنيها إلى معاهد العلم سواء كان القائمون بها يقدسون أرباب البانثيون أو يعبدون إله المسيحية، ولا شك أن هذا الجيل من الأبناء سوف تبهره الدعائية الوثنية، وهذا ما كان يبتغيه جوليان(٣٤) . لقد كان يهدف أساسا إلى تجريد المسيحية من هيبتها، وإنزالها إلى مرتبة الخرافات، وذلك بأن يقطع كل علاقة لها بالتعليم والثقافة (٣٥) . وليس أدل على خطورة هذا القرار مما قاله الكاتب الوثنى

---

(30) SOCRAT. Hist. eccl. II, 46 وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 18

(31) AMM. MARC. Res gest. XXV, 4 وراجع AMB. Ep. XVIII, 39

(32) Gibbon, op. cit. II, p. 467

(33) Vasiliev, op. cit. I, p. 73

(34) Jones, Lat. Rom. Emp. I, p. 122

(35) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 109

أميانوس ماركللينوس نفسه: "إن حرمان المسيحيين من تلقى العلم على أيدى هؤلاء المعلمين، يعد أمرا بالغ القسوة يحتم علينا أن نتناساه"[٣٦] .

مــن أجــل هذا ندب اثنان من المسيحيين نفسيهما لإنقاذ الناشئة من هذه الجهالة الآتيــة، فقــام أبو لليناريس Apollinaris الأب، الذى كان متضلعا من النحو، بوضع الأجــرومية مــتفقة مع الإيمان المسيحي، وترجم الأسفار فى قصيد بطولى، وعرض للجانب التاريخى من العهد القديم بالشعر حينا يقلد هوميروس، وباختزالها حينا آخر فى صــورة تراجيديا روائية يحاكى بها يوربيدس[٣٧] Eurpides، واستخدم عمدا كل أنواع القــريض حتى لا تصبح التعبيرات الخاصة فى اللغة اليونانية خافية على المسيحيين[٣٨] أمــا أبو لليناريس الابن، وقد نهل من نبع البيان والبلاغة فقد وضع فى حوار أفلاطونى شــروح الإنجيــل وأعمال الرسل[٣٩] غير أن هذا الأثر الكلاسيكى الزائف لم يكتب له البقاء بعد موت جوليان، حيث عاد للمدرسين الحق فى تعليم التراث الكلاسيكى[٤٠].

كان طبيعيا أن يختلف رد الفعل عند الوثنيين والمسيحيين فى الإمبراطورية إزاء هــذه السياســة الجديــدة التى أعلن عنها جوليان فى أمر العقيدة. أما الجموع الوثــنية فقــد راحــت تعبر عن مشاعرها الحبيسة طيلة أربعين عاما، المضطرمة بــالحقد والكــره الدفين للمسيحية واتباعها ، فتعرض المسيحيون للعنت فى بعض المناطق مثل غزة وبعلبك والرستن[٤١] وفريجيا[٤٢] وقيسارية[٤٣] والإسكندرية[٤٤]

---

(36) AMM. MARC. Res gest. XXII, 10
وراجع Chadwic. op. cit. p. 157
(37) SOZOM. Hist. eccl. V, 18
(38) SOCRAT. Hist. eccl. III, 16
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 18
(39) SOZOM. Loc. cit.
وراجع أيضا SOCRAT. Loc. cit.
(40) Jones, Lat Rom. Emp. I, p. 122
(41) SOZOM. op. cit. V, 9-10
وأيضا THEOD. Hist. eccl. III, 3
(42) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3
وكذلك SOZOM. Hist. eccl. V, 7
(43) SOZOM. Hist. eccl. V, 4
(44) Ibid, V, 7
وأيضا SOCRAT, op. cit. III, 2

وقد لا يكون جوليان مسئولا عن معظم هذه الأحداث، ولكن الذى لا شك فيه أن جوليان لجأ إلى استخدام العنف بنفسه ضد المسيحيين فى أخريات أيام حكمه، ويعلل جيبون ذلك بقوله: "إن صخب المسيحيين وضجيجهم الأحمق أثار غضب مليكهم الذى كان عليهم أن يقدموا له الطاعة والولاء"[٤٥] . ولعل الإخفاق الذى منى به جوليان فى تحقيق الهدف الذى كان يسعى إليه[٤٦] ، وهو العودة بالإمبراطورية إلى العقيدة الوثنية ، كان من أهم الأسباب التى دفعته إلى أن يتغاضى تماما عن فضيلة الفيلسوف، ويترك لشخص الإمبراطور حرية السلوك[٤٧] .

أما المسيحيون فقد سيطر عليهم نوع من الرعب والفزع خوف الاضطهاد، ويصف مؤرخ الكنيسة سوزومنوس حالتهم آنذاك فى صورة دقيقة، يقول: "لقد قاسى المسيحيون من عذاب التوقع والانتظار لهذه الضائقة، أكثر من معاناتهم لها بالفعل، فقد مضى زمان ألفوا فيه الدعة والأمان بعد طول هوان، وطاف بخيالاتهم ويلات العذاب التى لقيها الآباء والأجداد من قبل زمن المضطهدين" [٤٨]. غير أن جوليان سلك فى سياسته أول الأمر جانب الاعتدال، فقد أظهر تجاههم شعور العطف والتسامح، "لا حبا لهم"، حسب تعبير سوزومنوس ولا رهبة منهم، ولكن كما وضح أمام عينيه ووعته ذاكرته من الأدلة الثابتة على أن اضطهاد الأباطرة الرومان الأسلاف لهذه الجماعة لم تزدهم إلا إصرارا وعنادا، وأصبح شهداؤهم غرس الكنيسة الأولى وقلاعا للعقيدة حصينة[٤٩] ، ولذا عزم جوليان على أن ينهج سبيلا آخر غير سبيل العنف والقهر، أطلق عليه سوزومنوس "الاضطهاد النبيل"[٥٠]،

---

(45) Gibbon, op. cit. II, p. 504
(46) Kidd. op. cit. II, p. 189
(47) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1
(48) SOZOM. Hist. eccl. V, 2
(49) Ibid. V, 4
(50) Id.
SOCRAT. Hist. eccl. III, 16 وراجع

حتى لقد كان يتقبل إساءة أساقفتهم إليه ويعفو عنهم(٥١). فلقد كان جوليان يسلك نهج الفلاسفة لا مسلك الإمبراطور، يبتغى اجتذاب المسيحيين إلى عقيدته بالتسامح والإقناع دون البطش والاضطهاد. ولم يجد سقراط بدا من الاعتراف بهذه الحقيقة، فيذكر أن جوليان تمكن من استمالة عدد من المسيحيين ليقربوا للأرباب، بعضهم أقنعه، وبعضهم أغراه(٥٢) . ويذكر سقراط نماذج لهؤلاء ولا يستطيع أن يكتم غيظه تجاهه(٥٣) .

وتمشيا مع هذه السياسة من "الاضطهاد النبيل" التى درج عليها جوليان تجاه المسيحيين، أصدر الإمبراطور مرسوما يستدعى به جميع أساقفة الكنيسة الذين كان قسطنطيوس قد أمر بنفيهم وأعاد إليهم أملاكهم المصادرة، وحذر الناس من القيام بأى عمل عدائى ضد المسيحيين أو إهانتهم، أو إكراههم على تقديم الأضحيات والقرابين للأرباب(٥٤) ، وتتفق المصادر التاريخية فيما بينها، المسيحية والوثنية،

---

(٥١) حدث ذات يوم أن كان جوليان يقدم للربة Fortuna فى معبدها بالقسطنطينية، واقتيد ماريس Maris أسقف خلقيدونية، وكان قد فقد ناظريه، إلى هناك وكان أيضا قد شن حملة عنيفة على الإمبراطور لإيمانه بالأرباب، وقد توجه إليه جوليان مخاطبا: " ها أنت أيها الشيخ قد فقدت بصرك، وربك ذلك الجليلى لن يبرئك أبدا " . فأجابه ماريس فى غلظة . . "أحمد الرب الذى سلبني نور عيني حتى لا أرى قبح وجه من تردى فى هاوية الإلحاد " . ويقول سقراط معلقا . "لقد ترك الإمبراطور هذا القول يمر دون تعليق، ولكنه أحتفظ لنفسه بلحظة الانتقام وحقه فيها " .

أنظر SOCRAT. Hist. eccl. III, 12

أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 3

(52) SOCRAT. op. cit. III, 15

وكذلك GREG. NAZ. Orat. VII, 11

(53) SOCRAT. Loc. cit.

ويقص جريجورى النازيانزى رواية عن أخيه فيقول : أن قيصر كان من رجال البلاط الشهيرين على عهد قسطنطيوس، وحظى بنفس القدر زمن جوليان الذى حاول استمالته إلى الوثنية . فلما أخفق جوليان فى ذلك دعا إلى عقد مناظرة، كان هو نفسه أحد طرفيها والثانى قيصر، ولكن هذا النقاش لم يؤد إلى نتيجة، وأعلن قيصر فى النهاية أنه باق على المسيحية .

راجع GREG. NAZ. Orat. VII, 12-13

(54) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1

على أن الهدف الأساسى من هذا المرسوم هو إشعال نيران العداء من جديد بين الفرق المسيحية المتصارعة، وبهذا الأسلوب سوف تغرق الكنيسة حتى آذانها مرة أخرى فى صراع لا نهاية له فتقوض من ثم نفسها بأيديها(٥٥).

لقد أدرك جوليان بفكره ورأى ذلك الجدل اللاهوتى العنيف من حول المسيح، تثيره فرق الكنيسة المختلفة المتباعدة، ولا شك أن هذه السياسة تتفق وخلق الإمبراطور الفلسفى وحرية الفكر التى يقدسها، واتجاهه فى معاملة الخصوم بقصد استمالتهم إلى عقيدته، ولكن علينا فى الوقت ذاته أن نعى أن جوليان لم يخرج فى ذلك عما سار عليه من قبل أباطرة الرومان الوثنيون، أعنى النظرة الكلية الشاملة للمسيحية دون اعتبار لفريق أو آخر، ولذلك فإنه على الرغم من أن القرون الأولى الثلاثة للمسيحية، شهدت ظهور فرق عديدة تجادل من حول المسيح، إلا أن هذه الخلافات لم تظهر على السطح، إلا بعد أن رفعت الدولة يد الاضطهاد عن المسيحيين. وحسب تعبير جواتكين فإنه من أسهل الأمور ضيقا للكنيسة أن تمنح عدالة مشتركة لكل طوائفها(٥٦). ولهذا فإن جوليان عندما صدق على عزل ساتورنينوس أسقف آرل الآريوسى(٥٧)، وأمر بإعادة بناء كنيسة النوفاتيين فى كيزيكوس، وفرض عقوبة مالية باهظة على اليوزيوس أسقف المدينة إذا فشل فى إكمال البناء على نفقته الخاصة فى مدى شهرين فقط(٥٨)، لم يكن يصدر فى ذلك عن تفضيل للنيقيين على خصومهم فى الغرب، ولا إيثارا للنوفاتيين على الآريوسيين فى الشرق. غير أن جوليان حقق فى هذا المجال فشلا ذريعا، ذلك أن الهوى عند الفرق المسيحية لم يصل بها إلى قمة المأساة(٥٩)، ولذا كان من اليسير أمام هذا الخطر الذى يتهدد المسيحية بعامة، أن يتناسى الخصوم أحقادهم

أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 5

(55) AMM. MARC. Res gest. XXII, 5

(56) Gwatkin. The Arian controversy. p. 110

(57) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 45

(58) SOCRAT. Hist. eccl. III, 11

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 2

(59) Neander, Christian religion and church, III, p. 74

ولو إلى حين[٦٠] .

وفى التاسع من فبراير ٣٦٢، أذيع فى الإسكندرية مرسوم الإمبراطور بالعفو عن الأساقفة[٦١]، ولم يمض على ذلك اثنا عشر يوما حتى دخل أثناسيوس المدينة على حين غفلة من أهلها، واعتلى كرسى الكنيسة فى نفس اليوم (٢١ فبراير ٣٦٢)[٦٢]. وقد تبع هذا على الفور أن قام أنصاره بطرد الآريوسيين من الكنائس وإعادتها إلى سيادة النيقيين[٦٣]، ولكن الآريوسيين راحوا يعقدون اجتماعاتهم فى الأبنية المهجورة، ورسموا لوقا Lucius خلفا لجورج الكبادوكى[٦٤].

وكان جورج قد عاد إلى الإسكندرية فى ٢٦ نوفمبر ٣٦١ بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات وينيف، مزهوا بسيادة الآريوسية[٦٥]، دون أن يدرى بموت الإمبراطور قسطنطيوس واعتلاء جوليان العرش، وكأنما عاد إلى قدره، ففى اليوم الرابع لدخوله الإسكندرية أعلن جيرونديوس Gerontius حاكم مصر نبأ وفاة قسطنطيوس وانتقال السلطة إلى جوليان[٦٦] ، وعلى الفور لدى سماع السكندريين لهذا النبأ، قبضوا على جورج ووضعوه تحت الحراسة المشددة[٦٧] ، وقد أمضى الأسقف الكبادوكى فى سجنه أربعة وعشرين يوما، وفى صبيحة ٢٤ ديسمبر ٣٦١، اقتيد جورج خارج السجن، واشترك كل أهالى المدينة فى هذه المظاهرة[٦٨]، وسحب فى شوارع الإسكندرية حتى إذا أشرف على الموت تم إحراقه، وشاركه نفس المصير دراكونتيوس Dracontius رئيس مصلحة سك النقود[٦٩].

---

(60) Gwatkin. The Arian controversy. p. 111
(61) HIST. ACEPH. VI, 10
(62) Id.; FIST. IND. XXXIV
(63) SOCRAT. Hist. eccl. III, 4
وكذلك SOZOM. Hist. eccl. V, 7
(64) SOCRAT. Loc. cit.
(65) HIST. ACEPH. V, 7
(66) Ibid. 40
(67) Id.
(68) Id.
(69) Id.

وما أن علم الإمبراطور بأحداث الإسكندرية المروعة، حتى بلغ منه الغضب مبلغا، واستبد به الحنق(٧٠)، وكتب إلى السكندريين رسالة جاء فيها:

"إذا لم تكونوا ترعون حرمة الإسكندر صاحب المدينة التى فيها تحيون، ولا لمن هو أكثر منه قدرا، العظيم المقدس سيرابيس الإله، أفلا يردعكم عن الغى دواعي الإنسانية ونظم الحياة؟! ثم أليس لنا من حق عليكم؟! نحن الذين اختارتنا الأرباب، خاصة المقتدر سيرابيس، لنضع فى أيدينا إمبراطورية العالم... وقد بدا عندما كان غضبكم أحيانا يقترب من الاعتدال، أنكم كنتم تزيدون خطاياكم بما تضيفونه من إساءات قبيحة وشائنة إلى تلك التى اقترفتموها تحت هياج الساعة، ولم يجللكم العار وأنتم تقدمون على ارتكاب هذه الآثام"(٧١).

ومقدمة هذه الرسالة تفصح فى جلاء لأهالى الإسكندرية عن اتجاهات جوليان العقائدية، واحترامه للأرباب وتقديره لرأس الثالوث الإغريقى السكندرى سيرابيس، ثم يقول جوليان فى حديثه إليهم عن الأسقف الكبادوكى.

"... أستحلفكم بسيرابيس أن تخبرونى أى عمل غير عادل أثار سخطكم على جورج؟! وربما سوف تقولون أنه أثار عليكم طيب الذكر قسطنطيوس، ولأنه أقحم الجنود إلى مدينتكم المقدسة ، وأنه نتيجة لذلك قام حاكم مصر بتجريد أعظم معبد للرب من الصور وقرابين الشكران، ومقدساته التى يحتويها، وتجاسر على أن يسلط عليكم فرقه المسلحة عندما لم تطيقوا صبرا على مشاهدة ذلك الدنس الذى ألحقه بالمعبد ذاك(٧٢) ، وحاولتم أن تدفعوا عن الإله الأيدى الرجسة، أو تأخير

وراجع SOCRAT. Hist. eccl. III, 2
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 7
وكذلك AMM. MARC. Res gest. XXII, 11

(70) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3

(71) Id.

(٧٢) يشير جوليان هنا إلى ما قام به أرتميوس حاكم مصر من مهاجمة أحد المعابد خلال احتفال الوثنيين بعيد لهم ، وقد اشترك جورج فى هذا الهجوم، ونهب الجنود الصور والنذور والزخارف، ونبشوا أرضية المعبد واستخرجوا عظام القرابين وعرضوها فى صور ساخرة ، مما ألهب شعور الجموع الوثنية، ويجعل مؤرخو الكنيسة من هذا الحادث السبب المباشر لمقتل جورج الكبادوكى =

عملية نهب كل ما يتعلق بطقوس الرب المقدسة، وأنه خالف العدالة والقانون والرحمة، لعله فعل ذلك لأنه ربما كان يخشى جورج أكثر من خشية قسطنطيوس. لكل هذه الفعال تملككم الغيظ والحنق على جورج باعتباره عدوا للأرباب".

"ايتونى بكتابى الذى بعثت به إليكم من قبل، وقارنوه بهذه ، كم من الثناء فيه أسبغته عليكم؟! أما الآن، فبحق الأرباب الخوالد لا زال لدى نفس الاستعداد لامتداحكم إلا أنى لا أقوى على ذلك إزاء إساءتكم المرذولة. لقد أوتى الناس من القحة ما جعلهم يمزقون الرجل إربا، كلاب هم، لم يعتريهم الخجل لما أقدموا عليه من عمل بهيمى، ولا هم رغبوا فى تطهير أيديهم من هذا الدنس، إذ كان يجب أن يبسطوها فى وجه الأرباب نقية من الدماء الطاهرة، إنكم بلا أدنى ريب على استعداد لأن تقولوا أن جورج يستحق هذا القصاص العادل وربما أبدينا أيضا موافقتنا على أنه يستوجب أشد عذابا، ولئن كنتم ترون وبالقطع على مسئولتيكم، أنه كان يجب أن يكابد كل هذه المعاناة، فنحن نخولكم الحق فيه، ومع هذا فقد كان لديكم من القوانين ما يحسن بكل منكم أن يخضع لها، بل ولابد من التدليل على احترامها فى السر والعلن(٧٣)".

وأسلوب الرسالة على هذا النحو لا يدع مجالا للشك فى أن جوليان أراد بخطابه إلى السكندريين أن يجىء بهذه الصورة المبهمة الغامضة، فهو لم يفصح صراحة عمن يقصد بالسكندريين، هل يعنى الوثنيين؟ أم يشير إلى المسيحيين؟. فالحديث عن الأرباب وغضب السكندريين لاقتحام معبدهم ونهب كنوزه ومقدساته، وما نتج عن ذلك من مقتل جورج، يعنى فعلا الوثنيين، والإشارة إلى الفظائع التى

= أنظر SOCRAT. Hist. eccl. III, 2

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 30

ويضيف ثيودوريت أن جوليان غضب على آرتميوس وأتهمه بممالأة جورج فى ذلك، وصادر أمواله وأعدمه، ولكن الحقيقية أن آرتميوس كان قد قام أيضا بتحطيم عدد كبير من تماثيل الأرباب .

راجع THEOD. Hist. eccl. III, 14

وأيضا AMM. MARC. Res gest. XXII, 11

(73) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3

ارتكبها جورج ضد النيقيين التى أفاض أثناسيوس فى وصفها، كما أسلفنا، يصرف الأذهان إلى المسيحيين، وما قاله عن مقتل جورج، وأولئك "الذين أوتوا نصيبا من القحة جعلهم يمزقون الأسقف إربا" يشمل الطائفتين معا.

ولقد كان هذا الغموض واضحا لدى مؤرخى الكنيسة، وألمحوا إلى أن الإمبراطور يلقى بتبعية هذه الأحداث على جمهور المسيحيين ويذكرون أن جوليان تلقى تقريرا يتضمن أن أنصار أثناسيوس هم الذين أقدموا على قتل جورج(٧٤) غير أنهم يؤكدون فى الوقت ذاته أن الوثنيين هم أصحاب المصلحة الحقيقية فى التخلص من الأسقف الكبادوكى(٧٥) .

والحقيقة أن جورج كان قد جلب على نفسه بسياسته سخط المدينة كلها، فيخبرنا سوزومنوس أنه كان مكروها من الجميع، المسيحيين والوثنيين على السواء، كما أن موظفى الإدارة الإمبراطورية فى مصر كانوا يمقتونه، حيث كان يتدخل فى شئونهم ويصدر الأوامر إليهم كما لو كان رئيسهم المباشر. أما الوثنيون فقد أضمروا له الحقد الدفين، ذلك أنه كان قد أصدر قرارا بمنعهم من تقديم الأضحيات، ومن ممارسة شعائرهم وطقوسهم أثناء الاحتفالات بأعياد الأرباب(٧٦) والأحداث التى شهدتها الإسكندرية عقب مجىء جورج إليها فى يونية ٣٥٦ أسقفا، والهجوم الذى قام به مدعما بقوات سباستيانوس القائد على كنائس الإسكندرية فى مايو ٣٥٧، والنقمة التى تعرض لها أنصار أثناسيوس فى الإسكندرية وبقية أنحاء مصر(٧٧) ' جعل النيقيين يتحينون الفرصة للخلاص من هذا الرجل، ولا شك أن المحاولة التى قاموا بها سنة ٣٥٨ وتمكنوا من طرده من خارج الإسكندرية، وسيطروا على الكنائس فى المدينة، فى الوقت الذى كان أثناسيوس قد آوى إليها،

---

(74) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3
وراجع SOZOM. Hist. eccl. V, 7

(75) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3
وراجع SOZOM. Hist. eccl. V, 7

(76) SOZOM. Hist. eccl. IV, 30

(77) ATHANAS. Apol. De fuga, 6, 7

تصور لنا مدى الكراهية التى يحملها أنصار أثناسيوس للأسقف الغريب. ويقول سقراط "لم يدع جورج فرصة لأحد فى الإسكندرية ليعطف عليه، فقد بدا لأعين كل طوائف المدينة مقيتا[٧٨]"، وزاد الأمر سوءا بالنسبة له أنه كان قد تقدم باقتراح إلى الإمبراطور قسطنطيوس بفرض ضريبة جديدة على المدينة، وربما كان ضجر الناس، كما يذكر أحد المؤرخين، أشد إيلاما عليهم بما يفوق العداء الدينى[٧٩] ، ومن ثم فليس من المستبعد أن يكون السكندريون جميعهم قد اشتركوا فعلا فى القضاء على جورج، وليس من المستبعد أيضا أن يكون جوليان بذكائه وفطنته قد قصد ذلك حقيقة عندما وجه خطابه إلى السكندريين عامة.

وتفيد رسالة جوليان أنه كان قد كتب إلى الإسكندرية قبل ذلك يمتدح مواطنيها، ويخلع عليهم الثناء والتقدير، وقد يكون وسيلة لاجتذابهم إليه وإلى دعوته العقيدية، على أية حال فقد اختتم جوليان رسالته هذه إلى السكندريين بقوله:

"... إذا ما تجاوز إنسان تلك التنظيمات الحكيمة التى وضعت أساسا من أجل صالح المجتمع، فهل يعفى ذلك الباقين من طاعته؟! إنه من حسن طالعكم، أنتم معشر السكندريين أن وقعت هذه الجريمة فى عهدنا نحن الذين احتراما للأرباب، ومن أجل جدى وخالى[٨٠] الذى نحمل اسمه، والذى حكم مصر ومدينتكم، لا نزال نكن تجاهكم شعور الأخوة. وبكل تأكيد فإن هذه السلطة التى لن تسمح لنفسها أن تمتهن، وتلك الحكومة التى تؤازرها القوة والأنظمة القويمة، كان لا يمكن أن نتواطأ مع هذا المجون الجامح ضد رعيتنا، ولا يمكن أن يفلت هذا الجرم وتلك العربدة من تطهير حاسم، وذلك بأن نطبق علاجا ناجحا ورادعا. ورغم كل هذا فإنه فى حالتكم هذه بالذات، ونظرا لما تقدم ذكره من أسباب سوف نكتفى بعلاج

---

(78) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3

(79) Milne, A history of Egypt under Roman rule p. 90

(٨٠) جد الإمبراطور هو قسطنطيوس كلورس الذى قيصرا للغرب على عهد دقلديانوس ثم أوغسطسا بعد اعتزاله، وهو والد قسطنطين الكبير، أما خاله فكان نائبا عن الإمبراطور من قبل فى الشرق ويحمل أسم جوليان، ويقول سوزومنوس أنه كان شديد المقت للمسيحيين، وأوقع بهم كثيرا من الاضطهاد على غير رغبة الإمبراطور .

راجع THEOD. Hist. eccl. III, 12, 31

وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 7, 8

معتدل لا يخرج عن هذا التنديد، والحث على أمل أن تستجيبوا لهذا النوع من العتاب، فنحن، يا أهل الإسكندرية الأغارقة الأصل، نعرف، ونحن على يقين أنكم لازلتم تحملون فى أعماقكم ملامح المجد الذى كان يتحلى به أسلافكم الأمجاد"(٨١).

وهكذا منح جوليان السكندريين عفوا عاما، وشفع لهم عنده أرباب الوثنية والإسكندر مؤسس المدينة، ونفر من أسرة الإمبراطور. ويبدو أن الدافع الحقيقى وراء هذا العفو، رغبة جوليان فى أن لا يصم عهده منذ البداية بالعنف والقسوة، وحتى يظهر لجميع الفرق العقيدية المختلفة التى تضمها الإسكندرية، تسامحا اتسمت به الفترة الأولى من حكمه القصير، وإن كان هذا لم يمنعه من أن يحمل فى رسالته على أهالى الإسكندرية، وينعتهم بأقذع الألفاظ، مبينا لهم أن هذا التسامح لم يأت لضعف من جانب السلطة المدنية أو تهاون وإنما لروح الاعتدال وشفاعة الأرباب.

والآن عاد أثناسيوس ليتربع على كرسى الإسكندرية الأسقفى مرة أخرى، بعد غياب امتد ستة أعوام وينيف، وليستعيد أنصاره الكنائس ثانية، وقد أدركنا أن الأسقف السكندرى طوال فترة نفيه الثالث لم يكن بعيدا عن الأحداث، بل لقد شارك فيها بنفسه حينا، وبقلمه أحايين كثيرة. وكانت كتاباته خلال هذه الفترة تعبيرا دقيقا عن واقع الجدل اللاهوتى، ومجرى الزمن تاريخا، ولم تكن هذه الكتابات تسجيلا معاصرا فقط لوقائع الأيام ساعتئذ، ولكنها كانت جزءا هاما وجوهريا من عمد فكر أثناسيوس وسياسته تجاه الدولة والعقيدة السائدة.

وكان أثناسيوس عندئذ يقترب من عامه السبعين، تتوق إلى الهدوء نفسه وتتوخى السلام، يريد أن يجمع على الوحدة الكنيسة التى طال انقسامها، وعصفت بها حمى الجدال، وكانت رسالته "عن المجامع" بداية هذه المرحلة الجديدة والأخيرة. وفى سبيل التطبيق العملى بدأ على الفور عقب عودته يتخذ السبل الكفيلة بتحقيق هذا السعى، فاشترك مع يوسيبيوس أسقف فرسالى فى الدعوة لعقد مجمع

(81) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3

كنسى التأم عقده فى الإسكندرية سنة ٣٦٢(٨٢) ، ويخبرنا سقراط أن لوكيفريوس أسقف كاليارى Cagliari ويوسيبيوس أسقف فرسالى تشاورا أثناء عودتهما من نفيهما فى الوسائل التى يمكن أن تحول دون إهمال القانون النيقى، وقد قر رأيهما على أن يذهب لوكيفريوس إلى إنطاكية مباشرة، للبحث عن حل الشقاق القائم فيها، وأن يأتى يوسيبيوس إلى الإسكندرية للقاء أثناسيوس، ومن ثم كانت فكرة عقد مجمع كنسى فى الإسكندرية(٨٣) .

وقد حضر هذا المجمع واحد وعشرون أسقفا، كان من بينهم عدد كبير من الأساقفة الذين شملهم قرار العفو الجوليانى، هذا بالإضافة إلى عدد ليس بالقليل من الأساقفة المصريين الذين قاسوا العذاب على يد جورج(٨٤) ، وعلى الرغم من أن مسائل العقيدة عادت تفرض نفسها على مجمع الإسكندرية، إلا أن الانشقاق الحادث فى إنطاكية كان المسألة الهامة فى جدول أعمال المجمع، وقد سيطر على الجميع منذ البداية روح الاعتدال، فقد رأى أثناسيوس أن النصر لا يمكن أن يتحقق وسط متاهات اللاهوت عن طريق إذلال أولئك الذين لديهم الاستعداد للسلام، وأن قضية المسيح لا يمكن أن تحقق رواجا بكسر الغابة المرضوضة(٨٥) .

تعرض مجمع الإسكندرية لمناقشة عدد من المشكلات التى تعترض الكنيسة والمسيحية، يأتى فى مقدمتها العمل على توحيد المليتيين واليوستاتيين فى أنطاكية، ويمثل الفريق الأول الأكثرية الأرثوذكسية التى كان يؤيدها باسيليوس الكبير، كما

---

(82) Hefele. op. cit. I, 2, pp. 963-966
وأنظر كذلك SOCRAT. Hist. eccl. III, 7
(83) THEOD. Hist. eccl. III, 2
وراجع SOZOM. Hist. eccl. V, 12
SOCRAT. Hist. eccl. III, 2-5
(84) ATHANAS. Tom. Ad Ant. I, 10
(85) Robertson, op. cit. p. 58

يتضح من رسائله العديدة إلى أثناسيوس[٨٦] ، وأيضا إلى مليتيوس زعيم هذا الفريق[٨٧]. أما اليوستاثيون فهم الأقلية النيقية ويرعاهم الآن باولينوس، ويرفضون المصالحة مع المليتيين على النحو الذى بينا آنفا. وهم الفريق الذى كان يتمسك به أثناسيوس ويميل إليه، وكان يعنى أثناسيوس والنيقيون فى المقام الأول أن يتم اللقاء بين الفريقين الأرثوذكسيين، حتى يشكلا بذلك جبهة واحدة تستطيع أن تتصدى للآريوسية التى تسيطر على إنطاكية متمثلة فى يوزيوس أسقف المدينة.

وقد حاول هذا الأخير أن يكسب صداقة اليوستانيين، أو على الأقل يضمن عدم اتحادهم مع أتباع مليتيوس أو بالأحرى يريد تعميق هوة الشقاق بينهما، ولهذا سمح لهذه الأقلية أن تمارس شعائرها فى إحدى الكنائس الصغيرة بالمدينة، أما مليتيوس وقد عاد من منفاه بناء على مرسوم جوليان، ووجد الصورة على هذه الشاكلة، فقد راح وجماعته يعقدون اجتماعاتهم خارج أسوار المدينة[٨٨]. وعليه فقد تضمنت رسالة المجمع، والتى بعث بها أثناسيوس إلى الأنطاكيين Toums ad Antiochenos والتى استقينا منها كل معلوماتنا عن أحداث المجمع، الدعوة الصريحة إلى المصالحة بين مليتيوس وباولينوس، وجاء فيها:

"... لما كان كثيرون يرغبون السلام وإيانا، خاصة أولئك الذين يجتمعون فى الكنيسة القديمة، وأولئك الذين انشقوا على الآريوسيين، فلتدعوهم إليكم، ولتستقبلونهم كآباء يلقون ولدانهم، معلمين أوصياء، أدخلوهم فى شركة باولينوس وشعبه. لا تطلبوا إليهم أكثر من لعن الآريوسية والاعتراف بالإيمان الذى أقره الآباء فى نيقية، وليلعنوا أيضا أولئك الذين يقولون أن الروح القدس مخلوق. نناشدكم أن يكون الوئام قائم على هذه الشروط. لا تطلبوا إليهم أكثر مما تحتمل منهم الطاقة"[٨٩].

ويتصل اتصالا وثيقا بأمر هذه المصالحة المسألة الثانية التى ناقشها المجمع،

(86) BASIL, Epp. LXI, LXVI, LXVII LXIX, LXXX, LXXXI
(87) BASIL. Epp. LVII, LXVII, LXXXIX, CXX, CXXX, CCXVI
(88) SOCRAT. Hist. eccl. III, 9
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 13
(89) ATHANAS. Tom. Ad Ant. 3, 4

وتتناول موقف الكنيسة من أولئك الآريوسيين الذين يرغبون فى العودة إلى الجانب النيقى. وقد كان الحزب المتطرف يصر على أن يمروا بمرحلة من العقوبة تمثل خطى الندامة والتوبة، بالإضافة إلى الحرمان من الوظائف الاكليروسية. والحقيقة إن هذه الجماعة تمثل نفرا من أساقفة مجمع ريمينى(٩٠)، الذين تبينوا بعد التوقيع على مرسوم نيقا أنهم ابتعدوا عن الإيمان النيقى، وقد جاء فى شأن هؤلاء:

"... لقد تلقفت مسامعنا أنباء تشير إلى أن جماعة من الذين من قبل اعتزلونا بدافع الحقد والغيرة يرغبون الآن فى السلام، بينما آخرون من الذين ذاقوا مرارة الوفاق مع الآريوسيين البلهاء، يتطلعون إلى شركتنا، لذا رأينا حسنا أن نكتب إلى نيافتكم ما تمخض عنه فكرنا، والأحبة يوسيبيوس وأستريوس، أنا لنتهلل طربا من هذه البشائر، رافعين أكف الضراعة ندعو أن كان لا يزال هناك منهم أحد عنا بعيد، وإذا كان منهم من يراوده الهوى من اتباع الآريوسيين، فليهجر الساعة ضلالهم"(٩١) .

وهكذا رحب المجمع بأولاء الأساقفة العائدين إلى الإيمان النيقى. وقبلهم بنفس الشروط التى وضعها أساسا للوحدة فى إنطاكية (٩٢) . وقد تضمنت الرسالة أيضا إقرار المجمع لقانون الإيمان النيقى، وشجبت "مسودة" المرسوم التى وضعت فى سرديكا على شكل تفسيرات وشروح لمرسوم نيقية، خشية أن يفتح ذلك الباب أمام محاولات جديدة لإثارة الشكوك من حوله(٩٣) . ومن خلال هذا الاعتدال الهادئ الذى يبدو من هذه الوثيقة، نلاحظ أن أثناسيوس لم يعد ذلك المحارب العنيد الذى يناضل من أجل النصر والفوز وإنما أصبح، حسب تعبير المؤرخ روبرتسون، وكأنه المنتصر الذى يمسح ميدان المعركة ويضع شروط السلام(٩٤)، وبهذا كان المجمع هو أولى الثمار الناضجة لعمل أثناسيوس "عن المجامع" وكان أيضا الخطوة الحاسمة التى وضع بها أثناسيوس نفسه على رأس القوى التى تجاهد من أجل

(90) Kidd. op. cit. II, p. 210
(91) ATHANAS. Tom. Ad Ant. 1
(92) RUFIN. Hist. eccl. I, 18(p. L. XXI 498)
(93) ATHANAS. Tom ad Ant. 5
(94) Robertson, op. cit. p. 58

وحدة الكنيسة فى النصف الشرقي من الإمبراطورية[٩٥]، وبهذه الخطوة أضحت النيقية قادرة على أن تتصدى للسلطة السياسية الباقية للآريوسية على عهد الإمبراطور فالنز من بعد.

والحقيقة أن مجمع الإسكندرية كان تتويجا لعمل وجهد أثناسيوس[٩٦]، وكان فى الوقت ذاته فرصة لالتقاء أولئك الذين يرغبون فى الوحدة مع العقيدة النيقية[٩٧] ولكن الذى لا شك فيه أيضا، أنه إذا كانت قرارات المجمع قد قوبلت بالارتياح العام من جانب جميع أعضائه بما يمثلونه من تطرف واعتدال، فإن ذلك كان راجعا، بالإضافة لما قام به أثناسيوس، إلى شعور الكنيسة المسيحية بضرورة التستر على خلافاتها أمام الخطر الواحد الذى يهددها متمثلا فى سياسة جوليان الوثنية[٩٨].

وكان أثناسيوس يصر دائما على أن يذكر الأساقفة بما تعرض له من ويلات النفى والتشريد على يد الخصوم، ولا يخفى علينا أن الهدف الأساسي من وراء ذلك، هو أن يضمن باستمرار تأييد هؤلاء الأساقفة وولاءهم، فيذكر سوزومنوس أن الأسقف السكندرى انتهز فرصة عقد هذا المجمع ليقرأ على شهوده ذلك الدفاع الذى كتبه يبرر فيه هروبه Apologia de fuga من قبضة قوات الإمبراطور الراحل قسطنطيوس[٩٩].

حمل مجمع الإسكندرية يوسيبيوس وأستريوس رسالته هذه إلى باولينوس الأنطاكى[١٠٠]، فلما أتيا إنطاكية وجدا أن هوة الشقاق قد ازدادت اتساعا، ذلك أن لوكيفريوس قد سبقهما إلى المدينة، ولما كان متطرفا فى نيقيته فقد رفض أى محاولة للتقارب مع مليتيوس، ولهذا قام لفوره ورسم باولينوس، زعيم اليوستاثيين،

(95) Id.
(96) Id.
(97) Ncander, Christ. Relig. And church, IV, p. 12
(98) Kidd, op. cit. II, p. 209
(99) SOZOM. Hist. eccl. V, 12
وأيضا SOCRAT. Hist. eccl. III, 8
(100) ATHANAS. Tom. Ad. Ant. 2

أسقفا على المدينة [١٠١] ، وهكذا أضحت إنطاكية تحمل فوق كرسيها الأسقفى ثلاثة رجـال، يوزيـوس الآريوسـى، ومليتيوس زعيم المعتدلين، وباولينوس اليوستاتى الـنيقى، وكـان هـذا فى حـد ذاتـه هدما لما جهد أثناسيوس لإقراره فى مجمع الإسكندرية من سياسة الاعتدال، وكان فى الوقت ذاته نكوصا من لوكيفريوس الذى أرسل مندوبا عنه لحضور هذا المجمع، وأعلن التزامه مسبقا بكل ما يتخذه المجمع مـن قرارات [١٠٢] وقد تملك يوسيبيوس الحزن لهذا الذى يرى فى إنطاكية نتيجة لهـذا الاخـتيار السـيئ وهو الذى أبدى امتعاضا إزاءه، غير أن احترامه لزميله لوكيفريوس دفعه إلى التزام الصمت تجاه ما حدث[١٠٣] . ولقد بذل يوسيبيوس جهدا فائقـا فى محاولة يائسة لرأب هذا الصدع ولكن دون جدوى، ومن ثم ارتحل عائدا إلى بيعـته، ورفض أن ينضم لأى من فريقي أنطاكية، وأبدى رأيه عند ارتحاله فى أن كل هذه الأمور يجب أن تعرض فى مجمع يدعى إليه الأساقفة[١٠٤] .

وعـندما أدرك لوكيفـريوس أن رسـامته لباوليـنوس قـد أضحت لعينى يوسـيبيوس شيئا غير مقبول، عد ذلك إهانة موجهة لشخصه، فتملكه الغيظ واستبد به الحنق، ولم يقتصر فقط على أن سحب نفسه من شركة يوسيبيوس، ولكنه راح فى سـورة الخصومة التى سيطرت عليه يدين كل قرارات مجمع الإسكندرية[١٠٥] ، ففصـل نفسه بذلك عن الكنيسة، وأضاف إلى أحزانها شجنا جديدا، حيث تبعه نفر مـن الأساقفة كونوا فريقا آخر حمل اسمه، ويعلق سقراط: "لقد أضاف لوكيفريوس إلى هذه الأحزان فصلا جديدا"[١٠٦] .

---

(101) SOCRAT. Hist. eccl. III, 6, 9
كذلك SOZOM. Loc. cit.
وأيضا THEOD. Hist. eccl. III, 2
(102) SOCRAT. Hist. eccl. III, 9
وأيضاً SOZOM. op. cit. V, 13
(103) SOCRAT. Hist. eccl. III, 9
أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 13
(104) SOCRAT. Loc. cit.
(105) Id.
(106) Id.

والحقيقة أن لوكيفريوس كان متعصبا فى نيقيته غير قادر على إدراك الخلافات اللاهوتية بين الفرق المتخاصمة، ولعل اعتراضاته على هيلارى ومجهوداته التى قام بها فى سبيل التوفيق بين الفرق المختلفة، تظهر عجزه الكامل وافتقاره إلى فهم المسائل اللاهوتية، وأنه كان يركز كل حنقه وسخطه على الأشخاص دون الفكر والعقيدة(١٠٧).

وفى رحلة العودة التقى يوسيبيوس الفرسالى فى إيطاليا بهيلارى أسقف بواتييه، وكان هذا الأخير قد عاد من منفاه قبل يوسيبيوس(١٠٨) ، ووحد الرجلان جهودهما لتثبيت الإيمان النيقى لدى أساقفة غالة وإيطاليا(١٠٩) ، وشهد نصف الإمبراطورية الغربى فى هذه الفترة عددا من المجامع الكنسية فى غالة وأسبانيا وإيطاليا وآخايا Achaia كان الهدف الأساسي الذى سعت إليه جميعها القضاء على كل ما يمت إلى مجمع ريمينى، والتخلص بالتالى من بقايا الآريوسية فى الغرب(١١٠).

أدرك جوليان أن سياسة التسامح التى انتهجها حيال الأساقفة قد آتت عكس ما كان يتوقع، وبدلا من أن يشهد بين تلك الفرق صراعا عنيفا كما كان يأمل، وجد أن أقاليم الغرب الإمبراطوري قد راحت تضمد جراحاتها التى أصيبت بها منذ ريمينى، وفى الشرق تسعى الإسكندرية جاهدة لتعيد السلام إلى الكنيسة، خاصة وقد أعطى باولينيوس الانطاكى توقيعه على قرارات مجمع الإسكندرية(١١١) والفرق الآريوسية تقترب وتتباعد سعيا وراء الاستقرار، أتباع أكاكيوس يقتربون من مليتيوس، وأنصاف الآريوسيين يقفون وسطا بين النيقيين والأنومويين(١١٢).

---

(107) Robertson, op. cit. p. 58
(108) SOZOM. Hist. eccl. V, 13
(109) Ibid. 41
وراجع كذلك SOCRAT. Hist. eccl. III, 10
(1!0) ATHANAS. Ep. Ad Afros, 1
أنظر له أيضا Ep. Ad Epict
وكذلك Ep. Ad Rufin
(111) ATHANAS. Tom. Ad Ant. 11
(112) Gwatkin The Arian controversy, p. 115

علـى أن الشـيء الـذى أحـدث فى نفـس جوليان ثورة عارمة، أن رأى أثناسـيوس يعتـلى كرسـى الإسكندرية الأسقفى ويعقد المجامع ويترأس الأساقفة ويبحث عن السلام فى أنطاكية، ولكن ما كان أشد إيلاما لنفس الإمبراطور أن يرى عـددا كـبيرا مـن الوثـنيين، خاصـة نساء الطبقة الأرستقراطية قد تحولن إلى المسيحية[113] ، ولذا أيقن أن مجرد وجود أثناسيوس آمنا طليقا، كفيل بالقضاء على كـل مشـروعات الإمبراطور العقيدية وآماله[114] ، ويقول جيبون أن جوليان الذى كان يحتقر المسيحيين قد خص أثناسيوس بكراهية خاصة وخالصة، ومن أجله سن تفرقة تعسفية تجافى على الأقل تلك الروح التى أملت عليه تصريحاته السابقة[115] ، فقـد كـتب جوليـان رسـالة إلى الإسـكندرية يعلن فيها أن القرار الذى أصدره بخصـوص عودة الأساقفة المنفيين، كان يعنى العودة إلى الديار فقط دون استعادة كراسـيهم الأسقفية[116] ، وهذا القرار يعنى فى حقيقة أمره تجريد الأساقفة من أية سـلطة يمكـن أن يـناوئوا بهـا الدولة، ويبدو أن هذا التفسير للقرار من جانب الإمـبراطور، قـد جاء نتيجة لما رآه جوليان من الاستقبالات الشعبية الحافلة التى أبدتها جموع الكنيسة ترحيبا بعودة الأساقفة المنفيين هؤلاء.

وقد شفع حاكم مصر ذلك بإذاعة مرسوم إمبراطوري جديد يأمر أثناسيوس بمغـادرة الإسـكندرية[117] . ويـبدو أن أهالي الإسكندرية قد قدموا احتجاجا إلى الإمبراطور ضد هذا الإجراء ولكن دون جدوى[118] بل إن جوليان كتب من جديد رسـالة فى أكـتوبر ٣٦٢ إلى نائـبه فى مصر أوليمبوس Olympus يهدده فيها

(113) SOZOM. Hist. eccl. V, 15
(114) THEOD. Hist. eccl. III, 5
(115) Gibbon. op. cit. II, 500
(116) SOZOM. Loc, cit.
(117) FEST. IND. XXXV
وراجع HIST. ACEPH. VII, 11
(118) Neander, Christ. Relig.and church, III, p.76

بغرامة مالية باهظة إذا لم يرحل أثناسيوس قبل أول ديسمبر، لا عن الإسكندرية فحسب، بل عن مصر كلها، وإن شيئا لا يمكن أن يرضى عنه الإمبراطور وينقذ أثناسيوس، إلا أن يغادر الأسقف مصر بأسرها[119]، وقد ذيل جوليان رسالته هذه بخطاب إلى السكندريين تتضمن إلى جانب امتداح سرابيس والأرباب طعنا فى المسيح وأثناسيوس[120].

ولا شك أن هذه اللهجة العنيفة التى تبدت فى رسائل جوليان، والإصرار على طرد أثناسيوس من مصر كلها، ولما يمضى على عودته إليها من رحلة النفى الطويلة إلا ثمانية أشهر فقط[121]، ليدل دلالة واضحة على مدى الكراهية التى يضمرها الإمبراطور فى نفسه للأسقف السكندرى[122]، الذى كان يمثل، فى نظره، فى مصر سلطة أقوى من سلطته نفسه فيها[123]، ويعلق نياندر Neander على ذلك بقوله، إن الإمبراطور عندما أصدر قراره السماح للأساقفة بالعودة، كان يرمى بقراره هذا إلى غرض محدد، أو ربما أعطى للمرسوم بعد ذلك تفسيرا معينا حتى يمنح نفسه الحق فى التصرف بحرية ضد أولئك الأساقفة الذين يبدو نفوذهم فى الجموع وتأثيرهم قويا، ربما يعادل نفوذ الإمبراطور شخصيا أو يفوقه، إلى هذه الطائفة من الاكليروس ينتمى الأسقف السكندرى أثناسيوس[124]، ويضيف أن جوليان برسالته الأخيرة يبدى بعض الدوافع السياسة وراء نفى أثناسيوس حيث يقول: "إنه لمنتهى الخطورة أن يكون على رأس الناس رجلا داهية متبرماً مثل أثناسيوس"[125]. وقد امتد قرار النفى ليشمل أنصار أثناسيوس أيضا، ولهذا

(119) SOCRAT, Hist. eccl. III, 13
(120) Gibbon, op. cit. II, p. 510
وراجع Kidd. op. cit. II, p. 208
(121) HIST. ACEPH. VII, 10
(122) GREG. NAZ. Orat. XXI, 32
(123) Robertson. op. cit. p.59
(124) Neander, Christ. Relig. And Church, III, p.75
(125) Neander,Christ. Relig. And Church, III, p. 77

صـــدرت الأوامـــر بإبعـــاد قسيســـي الكنيسة السكندرية بولس واستريقيوس[(١٢٦)] Astericius.

أمـــام هذا الإصرار من جانب الإمبراطور، أحنى أثناسيوس رأسه للعاصفة وغادر الإسكندرية فى ١٣ أكتوبر ٣٦٢[(١٢٧)] بعد أن عهد بأمور الكنيسة إلى أكثر أصـــدقائه حماســـة لـــه وحبا لشخصه[(١٢٨)] . ولما راح خلصاؤه ينتحبون من حوله التفت إليهم مودعا يطمئنهم. "أحبائى دعونا ننسحب بعض الزمن، إن هى إلا سحابة سرعان ما تمضى[(١٢٩)] . وعلى الفور ركب أثناسيوس النيل مصعدا يبتغى أصدقاءه المخلصـــين، رهـــبان مصر، ويروى مؤرخو الكنيسة قصة طريفة[(١٣٠)] عن رحلة أثناسيوس هذه، يبدو منها أن الإمبراطور جوليان لم يكتف بطرد أثناسيوس فقط، بل طـــلب القبض عليه حتى يأمن جانبه ويتخلص منه، ولعل الإمبراطور أدرك بفطنته مـــا يمكـــن أن يثيره أثناسيوس فى وجهه من المتاعب إن هو التجأ إلى هذا الجيش الضـــخم مـــن الرهـــبان، أولئك الذين يتعصبون لإيمانهم بشكل لا يعرف هوادة،

(126) HIST. ACEPH. VII, 11
(127) FEST. IND. XXXV; Id.
(128) SOZOM. Hist. eccl. 15
وراجع THEOD. Hist. eccl. III, 5
(129) SOCRAT. Hist. eccl.III, 14
وراجع أيضا SOZOM. Loc. cit.
وكذلك THEOD. Loc. cit.

(١٣٠) تقـــول هذه القصة أن أثناسيوس عندما أبحر فى النيل بقارب أعد له، جد جنود الإمبراطور فى أثره، فـــلما أدرك أنهـــم قـــاب قوسين أو أدنى منه، أمر رفاقه أن يديروا وجهة القارب ثانية إلى الشمال، وســـرعان ما التقى بالعيون التى تبحث عنه، وتقدم أحد الجنود ليسأل من فى القارب عن أثناسيوس، وأجاب الأسقف السكندرى بنفسه، أنه ليس بعيدا عنهم. وراح الجنود يضربون صفحة النيل ما واتتهم الـــريح والمجداف، بينما عاد أثناسيوس ثانية إلى الإسكندرية ليمضى فيها بضعة أيام حتى غفلت من حوله العيون، فانطلق مسرعا إلى طيبة ليبدأ بذلك فترة نفيه الرابع ...
انظر SOCRAT. Loc. cit.
وراجع THEOD. Loc. cit.
وأيضا FEST. IND. XXXV

وسوف يشعلونها بالتالى حربا على الوثنية وجوليان، خاصة وهم يعلمون أن أباطرة الوثن كانوا من بين العوامل الأساسية التى دفعت بهم إلى الصحراء.

وفى نفس الوقت الذى كان جوليان ينهج فيه هذا السبيل تجاه الأسقف السكندرى ، كان يحاول جاهدا التقرب إلى أحد رجال النيقية المعتدلة التى أخذت تظهر فى آسيا الصغرى، وفى كبادوكيا على وجه التحديد، ممثلة فى جريجورى النازيانزى، وباسيليوس القيسارى، رجلى كبادوكيا الشهيرين. وكان باسيليوس آنذاك أحد رجال كنيسة قيسارية الكبادوك، ولم يكن غريبا لدى جوليان، فقد كان رفيقا له فترة مكثه دارسا فى أثينا، وكلاهما يعرف الآخر عن قرب. ولكن يبدو أن باسيليوس أعلن صراحة امتعاضه من معاداة الإمبراطور للمسيحية وتمسكه بالأرباب، وضاق ذرعا بسياسة الاضطهاد المهذب الذى انتهجها جوليان، غير أن الإمبراطور لم يعدم وسيلة لضم باسيليوس إلى صفه، أو على الأقل لضمان سكوته، فكتب إليه رسالة(١٣١) تتسم بالود والاحترام، حدثه فيها عن الجهد المضنى الذى يتحمله فى إدارة الإمبراطورية، وأنه يختلس من وقته بضع لحظات يسيرة، يسرى عن نفسه فيها، ويبين أنه لا يعرف ولا يحب رياء البلاط والمداهنة، وفى نهاية الرسالة كتب يقول:

"... إننا لا نعاتب أو نؤنب إلا لداع دعا، ولكن إن أحببنا أعطينا الحب كله، على أنى أكتب لأبرهن لك عن سعادتي لرؤيتك، فرجل مثلك حكيم سوف يكون أكثر حبورا لأن يجعل منى خيرا، أكثر من أن يسبب أى ضيق، ومن ثم، فكما أخبرتك، لا تضيع وقتا، ولتسرع بالارتحال إلى، وبعد أن توفى هذه الزيارة لي، سوف تمضى فى رحلتك أنى شئت، مع أحلى الأمانى".

وعلى هذا النحو وجه الإمبراطور الدعوة إلى باسيليوس لزيارته، بعد أن راح يمتدح خلاله والسجايا، وهذا السلوك يشكل جزءا طبيعيا من سياسة جوليان تجاه خصومه المسيحيين، غير أن باسيليوس لم يدخر وسعا فى إطلاق العنان

(131) IUL. Ep. Ad Bas. (BASIL ep. XXXIX)

للســانه قدحــا فى الإمــبراطور، ضاربا عرض الحائط بتسامح جوليان، ولما كان جوليــان كما يحدث عنه جريجورى النازيانزى "سريع الغضب شديد الانفعال"(١٣٢) فقــد أثاره مسلك باسيليوس، ووجه إليه فى يونية ٣٦٣ رسالة ثانية(١٣٣) كتبها من سخطه، جاء فيها.

"بيـنا أنــا أظهر للزمان دماثة خلق ولين جانب، طباعا لازمتنى منذ جئت إلى الحيــاة، فانى قد صيرت كل من تظلهم الشمس طوع أمري. أنظر هذى قبائل البرابرة جميعــا قــد أتــت تضــع عند قدمي كل عطاياهم والمنح، وهؤلاء هم الساجاداريون Sagadarae، القاطــنون خــلف الدانــواب، الــتائهون عجبا بوشمهم البراق وخيلاء، ويدانــون الأناسي من بعيد، وحوش هم وغرائب كائنات، هم الآن يحبون ذلا عند قدميّ يودعــون أنفسهم رهائن طاعة مشيئتى وعليهم أفرض السلطان. ولكن لدى ما هو أهم، إذ يجــب أن أسير لتوى إلى فارس لأدحر ذلك "السابور" وأقهر سليل داريوس على أن يقــدم لي الجزية عن يد وهو صاغر. لأقحلن أرض الهنود والسراكنة، وليعرفن الجميع سلطانى، وليمسين الكل لى عبيدا".

والمغــزى من هذا الحديث واضح، فجوليان يستعرض أمام باسيليوس قوته وقواتــه، حــتى يدرك أنه لن يحول بينه وبين نقمة الإمبراطور حائل، وهو تعبير صــارخ عن المرارة التى اعتملت فى نفس الإمبراطور نتيجة الإساءة التى ألحقها بها رجل كبادوكيا، هذا بالإضافة إلى أن الرسالة تفصح عن الطموح الذى تمتلئ به نفــس الإمــبراطور، ومــدى ما يدور بخلده من السيادة على أقاليم جديدة يضمها للإمــبراطورية، ولعله مما يؤكد هذا أيضا ما يذكره سقراط أن جوليان كان يؤمن تمامــا بما لقنه إياه ماكسيموس الفيلسوف حول المجد والعظمة(١٣٤)، غير أن القسم الأخيــر من الرسالة توجه به الإمبراطور إلى باسيليوس مباشرة وأفصح عن خبئ نفسه، فقال:

---

(132) GREG. NAZ. Orat. IV, 55-56(p. G. XXXV, 578-579)

(133) IUL. Ep. Ad Bas. (BASIL. Ep. XL)

(134) SOCRAT. Hist. eccl. III, 21

ويضــيف سـقراط " أنه تبعا لما يؤمن به جوليان عن فيثاغورس وأفلاطون من تناسخ الأرواح، جعله يعتقد يقينا أن روح الإسكندر المقدوني حالة فيه، أو أنه هو نفسه الإسكندر فى جسد ثان " .

"... ومع ذلك فأنت تعرف الحكمة وراء هذا، إنك تتدثر بالتقوى، ولكنها فى الحــق رداء الحمــقى، فأنت فى كل مكان تخرج لسانك ضدى افتراء على، بأنى لست بالأرجوان جديرا، ألا تدرى أنى حفيد قسطنطين؟ ألا فلأعرفك ذلك ولكن مع هذا لن أغير شعورا حملته لك يوما، ولا ما أكننته لى أنت فى الأيام الخوالي ونحن بعد فى الصبا. ولقد شاءت إرادتنا الرحيمة أن تأمرك بإعداد ألف جنيه ذهبا، وأن تقدمهــا لى عــند مروري بقيسيارية فى طريقي إلى الحرب الفارسية التى استحث خطــوى لها الآن، فإن أبيت فلأدمرن قيسارية ولأمحون كل تلك المنشآت التى منذ القــدم زانتها، ولأقيمن على أطلالها معابد للأرباب وأربابا، ولأرغمن الجموع، كل الجمــوع عــلى أن تذل لإمبراطور الرومان، أوصيك حقا أن ترسل على يد بعض رســلك الصــدوقين الذهب المشار إليه، بعد أن تقوم بعده وميزانه وختمه بخاتمك، فــإذا مــا فعلت ذلك غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، بادر إذن بالرضى وإلا فلن يفيد الندم إذا الوقت مضى، لقد تعلمت أن أعرف وأن أدين ما لأول مرة أطالعه".

جــاء هــذا الجزء الأخير من الرسالة تهديدا مباشرا لباسيليوس وقيسارية، وتمثل أيضا لرجل كبادوكيا إهانة شخصية، ومن ثم أمسك باسيليوس قلمه ليكتب إلى الإمبراطور ردا على رسالته، حمل فيه على جوليان قدر ما وسعته الطاقة جاء فيه:

"أعمــالك البطولية لحاضرك الزاهر دنية، وهجومك على، أو بالأحرى على نفسك، تافه حقير، وعندما يأخذني التفكير فيك وأنت تتدثر بالعباءة الإمبراطورية، والتاج على مفرق رأسك الذى تجلل بالعار، والدين يتوارى، وإمبراطوريتك تظللها لفضيحة، وتمجها النعماء، تتملكني رعدة. وأنت وقد علوت وبلغت المرتقى أسلمت نفسك لشياطين الغدر ومردة الدناءة، فأوردتك هذا المورد ورحت تسمو بنفسك فوق كل بنى البشر، بل ضد الله، وتمتهن كنيسته، أم الجميع والمرضعة، بأن ترسل إلى أشــد الناس حقارة، ليأمروني أن أقدم لك هذا الذهب، ولم تتملكني الدهشة لمقداره، وإن كــان ذلــك شــئ عسير، بل جعلني أذرف الدمع السخين عليك وأنت تهرول صــوب الضياع. إن نفسي تحدثني كيف كنا نتلقى سويا دروس الخيرية والقداسة،

كلانـــا تعمـــق فى الكتاب المقدس ولم يغب عنك شيء، أما الآن فقد أمسيت ضالا وضــيقت على نفسك بهذا الكبر، سموك هذا الرصين لم يكتشف للوهلة الأولى أنى لــم أكــن أعيــش وسط ثروة وارفة، حتى تجئ اليوم لتطلب منى أن أقدم لك هذا الذهــب ... أنى لا أمــلك فى الواقــع ما يقيم أودى. فن الطهى تحت سقفى مات، وســكين خــادمى لــم تلمس أبدا ذبيحة، أنا نقتات أوراق الشجر مع القديد ورديء الخمور. ومن ثم لم تتبلد بالشراهة عقولنا ولا كان الإفراط كل همنا".

"... إنــه لشـــيء خطير لشخص مثلى أن يخاطب الإمبراطور، ولكن الأمر سوف يكون أكثر خطورة عندما تخاطب الإله وليس هناك وسيط. إن كل ما قرأته يبدو أنك لم تدركه، وإذا فهمت تدان"(١٣٥) .

لا شــك أن الإمبراطور قد استبد به الغضب لما جاء فى هذه الرسالة، وزاد مـــن ســـخطه أن أهـــالى قيســـارية الكبادوك، أقدموا على تدمير معبد آلهة الحظ Fortuna، ولكـــن يبدو أن ضرورات الحرب الفارسية العاجلة التى كانت تستدعى ارتحال جوليان سريعا، لم تترك له الفرصة للتوقف فى قيسارية ومعاقبة باسيليوس، فـــاندفع جوليـــان مسرعا قاصدا الشرق، وفى ١٨ يوليو ٣٦٢ وصل أنطاكية(١٣٦) وهـــناك كـــانت تحدوه الرغبة فى أن يقف على شعور الأهلين نحوه والعقيدة التى يؤمن بها(١٣٧)، وربما كان جوليان يعلق على إنطاكية بالذات آمالا كبارا، ذلك أنها كـــانت، كمـــا يقول داونى Downey المركز القديم للهللينية بمعابدها الشهيرة فى دافـــنى، والألعـــاب الأوليمبية المحلية، كما أن صديق جوليان، الفيلسوف ليبانيوس، كان قد استقر آنذاك فى أنطاكية. ولما كان برنامج عمله يضمن التقرب إلى اليهود، وكانت المدينة تضم جالية كبيرة منهم، فقد عمل على تقريب زعمائهم، هذا إلى أن ليـــبانيوس كان قريبا إلى جماليل Gamaliel ابن حاخام اليهود، ولذا كانت إنطاكية

(135) BASIL. Ep. LXI
(136) AMM. MARC. Res gest. XXII, 14
(137) SOCRAT. Hist. eccl. III, 17

تمثل لجوليان نقطة هامة وأخيرة فى سبيل إحياء الوثنية (١٣٨)، وعلى الفور أصدر جوليـــان أوامره بأن تفتح جميع المعابد الوثنية فى أنطاكية، وأن تقدم على مذابحها الأضحيات إرضاء للأرباب(١٣٩).

غير أن جوليان أصيب فى إنطاكية بخيبة أمل بالغة، وأصابه القنوط بعد أن رأى انصـــراف الناس عن عبادة الأرباب إلى المسيحية، ثم زاد الأمر سوءا ذلك الحريق الذى اندلع فجأة فى معبد الإله أبوللو فى ضاحية دافنى بأنطاكية(١٤٠)، وقد أيقن جوليان أن سياسته فى إعادة الوثنية قد أضحت سرابا.

وقـــرب نهايـــة عـــام ٣٦٢ وفد على جوليان فى إنطاكية رسل ملك فارس، تطـــلب إنهـــاء الحـــرب والدخـــول فى مفاوضـــات لإنهـــاء هذا النزاع، غير أن الإمبراطور طرد هذه السفارة بفظاظة قائلا: "عما قليل سترونى ومن ثم فليس هناك

(138) Downey. Ancient Antioch, pp. 162-164
وراجع كذلك للمؤلف نفسه A history of Antioch, pp. 381-382
(139) SOCRAT. op. cit. III, 18
(١٤٠) يروى مؤرخو الكنيسة قصة لا تخلو من طرافة حول هذه الحادثة، فيذكرون أن الإمبراطور رأى أن يســتلم وحى الإله أبوللو فى دافنى Daphne ضاحية أنطاكية، قبل أن يخرج لحرب فارس، وأعلن كاهن المعبد وناطق الوحى للإله أبوللو أن الإله لا ينطق بشيء قبل أن يتم تطهير المعبد من الدنس، ولمـــا راح يتساءل عما يعنيه ذلك، أجابه الكاهن أن الإله غاضب لأن المقبرة تضم رفات أحد رجال الكنيســة المســيحية، وكان القيصر جاللوس عندما ولى أمر المشرق واتخذ من إنطاكية مقاما، أقام داخـــل معـــبد أبولـــلو مكانـــا للصلاة ونقل إليه جثمان القديس بابيلاس Babylas، الذى كان أسقفا لإنطاكيـــة ونـــال الشهادة وزمن الاضطهاد سنة ٢٥٠ على عهد الإمبراطور دكيوس، وقد قيل، كما يعـــبر مؤرخـــو الكنيســـة، أنه منذ ذلك الزمن وصوت الوحى لأبوللو قد خرس ، وعلى الفور أمر الإمبراطور بنقل الجثمان خارج المعبد، وتجمع المسيحيون فى أنطاكية وأنضم إليهم النساء والأطفال وحملوا جثمان القديس بابيلاس فى مظاهرة ضخمة من الضاحية حتى المدينة وهم ينشدون المزامير، وقد تبع ذلك حريق المعبد .
راجع SOCRAT. Hist. eccl. III, 17-18
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 19
وكذلك THEOD. Hist. eccl. III, 6
وأنظر EVSEB. Hist. eccl. VI, 39

حاجــة لقدومكــم[١٤١] "، وقبل أن ينتهى عام ٣٦٣ كان جوليان قد ساق قواته تجاه الفرس، فقد كان يوقن أن الفرس لا يحبون الحرب فى فصل البرودة، لأنهم يفقدون فيــه روح القــتال، حــتى لقد شاع ذلك القول: "أن الميدى لا يسحب يده من تحت معطفــه"[١٤٢]، فــتقدم وعبر الرها ثم وصل إلى كاراى Caarae، وكان بها معبد الإلــه جوبيــتر فقرب إليه جوليان[١٤٣]، ثم كتب إلى أرساكيوس Arsacius ملك أرميــنيا المسيحى يطلب مساعدته ويهدده إذا لم يمتثل بأشد الانتقام، ولن ينجيه من عذابه إلهه الذى يعبده[١٤٤].

وليــس لــنا أن نخوض هنا فى الوقائع العسكرية وتفصيلات الأحداث التى تعــرض لهــا جوليــان فى حملــته هذه، ويكفى أن نقرأ ما كتبه المؤرخ أميانوس ماركلليــنوس عــن هذه الحرب. ولكن كل ما يمكن أن نذكره، هو أن الإمبراطور رغــم الــنجاح فى بعض المعارك، لم يكن موفقا فيما انتهى إليه، ووقع فى بعض الأحيــان فريســة لنفر من الأدلاء فى أرض لا يعلم عن طبوغرافيتها شيئا، حتى أصــبح فى مــأزق عســكرى حيــث أحاطت به جيوش أعدائه، مما سهل القضاء عليه[١٤٥].

ولقــد اختــلفت الآراء حول مقتل جوليان، فيعتقد بعض أنه قتل على يد أحد جــنود الفرس، ويقول ثان أنه رومانى دفعه الحنق على الإمبراطور لتهوره وعدم

---

(141) SOCRAT. Hist. eccl. III, 19

(142) Ibid. III, 21

(143) SOZOM. Hist. enccl. VI, 1

(144) Id.

(١٤٥) يضــيف سوزومنوس نهاية جوليان فى صورة أدبية رائعة بقوله : " ... وحمى وطيس القتال، وزاد من أواره ريح عاتية، وغطى ظلماء السحاب وجه الشمس وزرقة السماء، وترددت فى الهواء أنفاس الــتراب، وســط دياجيــر الضحى، وشق فارس برمحه ذلك السكون الجلب، ورمى به الإمبراطور فأرداه جريحا . وأختفى وسط السكون".

وراجع SOZOM. Loc. cit.

وأنظر أيضا عن موت جوليان: AMM. ARC. Res gest. XXIV, 1-8. XXV,1-2:

وكذلك III, 21 . cit. THEOD. Hist. eccl. III, 20; SOCRAT. op

إصغائه إلى دعوة السلام التى جاءت من فارس، فأورد الجيش موارد التهلكة(١٤٦) ويذكر سقراط أن كاالليستوس Callistus أحد حرس الإمبراطور والذى خلد أعماله فى ملحمة شعرية، ذكر أن الجرح الذى مات به الإمبراطور إنما ابتلاه به شيطان، ويعلق سقراط على ذلك قائلا: "من الممكن أن يكون هذا مجرد خيال شعرى، وربما كان حقا هو الواقع، فكثيرا ما مات كثيرون على أيدى آلهات الانتقام الحقودة عند الإغريق، فليكن الأمر كيف كان، ولكن الشيء المؤكد أن حماسة طبع جبل عليها الإمبراطور جعلته عديم الحذر، فتقدم دون درع يحميه، لقد قادته فلسفته إلى اللامبالاة(١٤٧)، ويجب أن ندخل فى اعتبارنا أن هذا التعليق كتبه أحد مؤرخى الكنيسة(١٤٨).

أما ليبانيوس الفيلسوف الوثنى، صديق جوليان فقد كتب يقول: "لعلكم تتساءلون عمن قتل الإمبراطور؟ أنى لا أعرف اسمه، ولكنا مع ذلك نملك الدليل على أنه لم يكن واحدا من أعدائنا، لأن أحدا لم يتقدم لينال المكافأة التى أعدها ملك الفرس، ونحن نشكر أولئك الأعداء على أنهم لم يدعوا لأنفسهم فخار الجريمة، وتركوا لنا أن نبحث عن القاتل بين ظهرانينا. إن الذين يرجون موته هم الذين تآمروا عليه، وهم الذين أقدموا على هذه الجريمة لما سنحت لهم الفرصة يدفعهم إلى ذلك الرغبة فى الحصول على أكبر قدر من التحرر من كل سلطان، يفوق ما نالوه تحت سيادته، وربما حرضهم على ذلك أيضا حقدهم والغضب لتعلق الإمبراطور بالأرباب الذين كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين(١٤٩).

ويعلق سوزومنوس على ذلك بقوله: "لا شك أن ليبانيوس يشير صراحة فى قوله هذا إلى أن الإمبراطور سقط قتيلا على يد واحد من المسيحيين وليس بعيدا

(146) SOCRAT. Hist. eccl. III, 21
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. VI, 1

(147) SOCRAT. Loc. cit.

(148) SOZOM. Hist. eccl. VI, 1.
وراجع للمؤلف "مصرع جوليان – الفيلسوف الإمبراطور"، بحث منشور فى كتاب "قطوف دانية"، جـ ص

(149) Ibid. VI, 2

عـن الاحـتمال أن بعـض الجنود منهم الذين يخدمون فى الجيش الرومانى كانوا يحمـلون هـذا الخاطر، ومنذ زمن الإغريق وحتى أيامنا هذه، فإن الناس يمتدحون قـتل الطغـاة ويمجـدون القاتلين لأنهم يعرضون أنفسهم للموت فى سبيل الحرية، ويـرفعهم الأهل والوطن والرفاق مكانا عليا، وكيف إذن نوجه اللوم إلى ذلك الذى من أجل الله والعقيدة أتم عملا جسورا[١٥٠].

ودفاع سوزومنوس عن قاتل جوليان على هذا النحو، وما يرويه لنا بعد ذلك عـن الـرؤى الـتى تبدت لنفر من أصدقاء جوليان ورجال الكنيسة، تحملنا على الاعتقاد بأنه ربما كان بعض المسيحيين العاملين فى الجيش وراء هذا الحادث، وقد آلمهـم ما تعرض له المسيحيون فى الإمبراطورية من حرمان من الامتيازات التى نعمـوا بها على عهد قسطنطين وأبنائه، ودار بمخيلتهم بعد الانتصارات التى حققها جوليان فى أول حملته منتصرا، مدى الهوان الذى سوف تتعرض له المسيحية ثانية بعد أن أفاقت من اضطهاد ثقيل كابدته طيلة قرون ثلاثة[١٥١]. وربما يقوى من هذا الاحـتمال ما يذكره المؤرخ الكنسى سوزومنوس نفسه عندما يقول إن جوليان كان يعرف تماماً من أين ستأتيه الضربة القاتلة ، ومن ثم فإنه عندما تهيأ للموت من يده إلى جـرحه وتناول حفنة من دمائه نثرها فى الهواء كما لو كان يريد أن يدنسه به يضـيف مؤرخ للكنيسة آخر هو ثيودوريت قائلا: "أن جوليان عندما نثر فى الهواء حفـنة مـن دماء صاح، ها قد انتصرت أيها الجليلى[١٥٢] ويقول جيبون: "لابد أن نعـترف أن الحمـاس الديـنى والأهـواء البشرية ضخما آمال المسيحيين وزادها حدة[١٥٣].

---

(١٥٠) يذكـر سـوزومنوس مـا حدث لأحد رجالات الكنيسة عندما كان جوليان يستعد للقيام بحملته ضد الفرس، أنه توعد المسيحيين بعذاب أليم ومصير بئيس عقب عودته منتصرا من هذه الحرب، وقال " أن ابن النجار لن يكون قادرا على أن يمد المساعدة لهم، فأجابه رجل الكنيسة ذاك " " أن أبن النجار هذا يعد تابوتا لموت جوليان : SOZOM. Hist. eccl. VI, 2

(151) SOZOM. Hist. eccl. VI, 2

(152) THEOD. Hist. eccl. III, 20

(153) Gibbon, op. cit. II, p. 502

ولا يعنيــنا من أمر هذه الرؤى[١٥٤] التى قصها علينا سوزومنوس سوى ما يتصــل مــنها بالإسكندرية وفيلسوف مدرستها الضرير ديديموس Didymus لأنه يتصــل بهــذا الجزء من الوثيقة التى حفظها لنا الزمن[١٥٥]، تحدث عن أثناسيوس فترة نفيه الرابع، وصداقته الحميمة للرهبان، وولاء هؤلاء لشخصه، وهى مصدرنا الوحيد عن حياة الأسقف السكندرى، وهى جزء من تقرير عن الراهب ثيودور أعد من أجل ثيوفيلوس Theophilus أسقف الإسكندرية (٣٧٥-٤١٢) وتعتبر بقية من قصــة رواهــا أثناســيوس نفســه عــلى مسامع اثنين من الرهبان هما آمونيوس Ammonius الــذى اخــتير فى الفــترة مــا بين ٣٥٧، ٣٦٢ أسقفا على الياركيا Elearchie (شــمال الدلــتا)، وهــرمون Hermon أســقف مديــنة بوبســطس (Bubastis) Bumastica وتقــدم لــنا عرضــا شــائقا للمرحلة الأخيرة من نفى أثناسيوس، ولندع الحديث الآن للأسقف السكندرى نفسه.

"لقــد رأيــت آنــذاك رجلا عظيما من رجال الله مات مؤخرا، إنه ثيودور رئيــس الرهــبان الطــبانيين Tabennesian وأب الرهــبان حــول أنطيــنوى

(١٥٤) يــروى ســوزومنوس أن واحــدا من أصدقاء جوليان إذ هو مرتحل ينوى اللحاق بالإمبراطور فى الحمــلة الفارســية، جــن عــليه الليل فأوى إلى أحد الكنائس، فرأى فيما يرى النائم أن كل الرسل والأنــبياء قــد اجــتمعوا يتشــاكون من الضرار التى ألحقها جوليان بالكنيسة، ويتشاورون فى خير الوســائل بوقف ذلك، وتملكتهم الحيرة، وسرعان ما هب أثنان من وسط الجماعة طلبا إلى الآخرين أن يقروا عينا، وتركا الأخوة مسرعين كما لو كانا قد ذهبا لتجريد جوليان من سلطته الإمبراطورية، فلما أفاق الرجل خشى أن يتم رحلته وظل يترقب، حتى إذا آوى إلى فراشه بعد ذلك رأى من جديد الجماعة وقد التقت، وإذا بهذين يعودان ويعلنان للجميع أن جوليان قد مات .
أنظر SOZOM. Hist. eccl. VI, 2

(١٥٥) أمــا القصة التى يرويها سوزومنوس عن ديديموس فتقول أن الفيلسوف المسيحى تملكه الغم والحزن لخطايــا جوليــان، واضطهاده للكنيسة، فاعتكف الرجل وراح يقدم الصلوات والضراعة للرب دواما حــتى يبصر هذه الفعال !! وفى إحدى الأمسيات وكان الهزال قد اعتراه والأرق، غالبه النعاس فوق كرسيه فغلبه، فأخذته غيبوبة وشملته حالة من الانجذاب الروحى، فرأى جيادا بيضا تمرق فى الهواء وســمع صــوتا يهتف بأولئك الذين يمتطون صهواتها " أذهبوا إلى ديديموس وأخبروه أن جوليان قد مات الساعة، ودعوه ينقل هذا الخبر إلى أثناسيوس الأسقف ودعوه ينهض ويطعم "
راجع SOZOM. Loc. cit.

Antinoopolis (الشـيخ عـبادة)، ويـدعى بأمون Abbas Pammon ذلك أنى عـندما طـوردت على يد جوليان، وكان متوقعا أن أذبح بأوامره، لأن هذه الأنباء كـانت تصـل إلىّ، عن طريق أصدقاء حميمين، أتى إلى هذان الرجلان فى نفس اليـوم فى "أنطيـنوى" وقررا أن أختفي مع ثيودور، ومن ثم نزلت إلى قاربه الذى كـان مغـطى تماما، وصحبنا رئيس الرهبان بآمون، ولكن الريح لم تكن مواتية، فرحت أضرع وأصلى، على حين قطر الرهبان مع ثيودور القارب، أما بآمون فقد أخذ يهدئ من روعى ويسرى عنى، قلت له.. أرجوك صدقنى عندما أقول لك أن قلبى لم يعرف السلام أبدا كما عرفه أثناء الاضطهاد، ذلك أنى أعلم أن معاناتى من أجـل المسـيح، ومـن رحمته استمد قوتى والعزيمة حتى ولو قدت روحى ذبيحة فسـوف ألـقى جميـل رحماه. وبينما أنا ماض فى حديثى ثبت ثيودور عينيه على بآمون، وافتر عن ابتسامة ثغره، بينما علا الضحك وجوه الآخرين، ورحت أحملق مشـدوها، وخاطبتهم فيم تضحكون؟ أتظنون بى جبنا؟ فلم يلتفت إلى ثيودور، وقال لـبامون: "خبره علام تضحك" فأجاب بل أخبره أنت. قال ثيودور "الآن قتل جوليان فى فـارس"، لأن الرب قد أعلن أمامه الرجل متكبر، الذى قد وسع نفسه كالهاوية (حـبقوق ٢/٥). ولقـد امـتلأت يقينا أن كثيرين من أولئك الذين يسرون بالرب، يعيشون عن الأنظار بعيدين خاصة بين الرهبان(١٥٦) .

وتكشـف لـنا هذه الشذرة جزءا هاما من حياة الأسقف السكندرى وصلاته الوثيقـة بساكنى الأديار، ومنها نعلم أن أثناسيوس قد وصل فى فترة نفيه هذه إلى إقـليم طيـبة، واستقبل بالمودة والرعاية من جماعات الرهبان المختلفة على طول الطـريق مـن وادى الـنطرون إلى أنطينوى (الشيخ عبادة)(١٥٧)، ومدى حرص هـؤلاء الأصدقاء الحميمين على حياته، والتعلق به، مما تبدى فى تنقله من مكان لآخـر عـلى أيديهم، وظهر فى هذه الأنباء التى تحمل إليه فور وقوعها. ولو يكن هـناك غير هذه الوثيقة يكشف عن العلاقة الوثيقة بين الأسقف السكندرى والرهبان

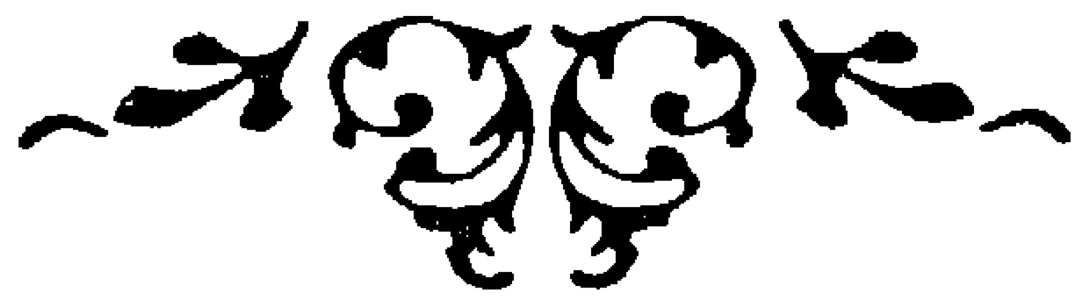
(156) ATHANAS. Narr. Ad Ammon
(157) HIST. ACEPH. VIII, 13

ودورهم في صراعه ضد الإمبراطورية، لكفى. وليس يعنينا في شئ صدق رؤية ديديموس أو خلاف ذلك، ولكن الذى يهمنا هو أن ديديموس نفسه، بمركزه المرموق، كان على رأس أنصار أثناسيوس في الإسكندرية، ينقل إليه صورة الأحداث كاملة. وإذا علمنا أن جوليان قد لقى حتفه في ٢٦ يونية ٣٦٣، وأن هذا النبأ قد أذيع في الإسكندرية يوم ٢٠ أغسطس[١٥٨] ، وأن أثناسيوس قد عاد إلى الإسكندرية قبل أول سبتمبر، أدركنا مدى السرعة والتنظيم الدقيق الذى حرص الرهبان على توفرهما في علاقتهم بالأسقف، وأيقنا في الوقت ذاته مدى الثقة التى كان أثناسيوس يضعها في هؤلاء الرهبان، والأهمية الكبرى التى يعلقها عليهم في نزاعه ضد الإمبراطورية.

على أية حال فإنه عندما حانت لحظة وفاة جوليان تزاحم من حوله قواد جيشه وأخلص أصدقائه، وراح الإمبراطور المسجى وسط الآلام ينتظر الرحيل، يلقى عليهم نظرة وداع أخيرة ويحدثهم حديث من "يلقى الموت في هدوء الفلاسفة[١٥٩]" فلما أبصر العبرات في أعين الرجال تترقرق، لامهم وكأنه في عنفوان قوته: "من العار أن تنتحبوا على إمبراطور يفنى في ذات النجوم والسماء"[١٦٠] .

(158) HIST. ACEPH. VIII, 12
(159) AMM. MARC. Res gest. XXV, 3
(160) Id.

الفصل العاشر



ربيع الآريوسية وخريف أثناسيوس

الفصل العاشر

ربيع الآريوسية وخريف أثناسيوس

أحدث موت جوليان المفاجئ ارتباكا شديدا فى صفوف الجند، إذ كان جوليان أخر أفراد أسر ة قسطنطين، ولم يكن هناك وريث للعرش، فتنازع الأمر أنصار قسطنطيوس وأصدقاء جوليان، وتفاقمت الأزمة بينهما، الا أن اقترحا ظن أنه يرضى الطرفين قال بتنصيب سالوتيوس سكوندس Salutius Secondus أكبر ولاة الشرق سنا، ولكن الرجل فضل المهرب على المنصب، فاشتدت بابائه حمى الخلاف وهوت إلى اختيار جوفيان[1] Jovianus ، وكان رجلا لا سيرة له ولا سمعة[2]، مسيحيا لطيفا يخالط العامة، انتابته حاله من القلق لدى سماع نبأ رفعه مكانا عليا[3]، يتعجل الأمور للحفاظ على لقبه الجديد وتثبيت سلطانه، فارتضى أن يوقع مع الفرس معاهدة مهينة أفقد بها إمبراطوريته جزءا كبيرا من الأراضى التى كان دقلديانوس قد ضمها فى حربه ضد الساسانيين، ومدينتى سنجار ونصيبين، واتفقا على أن يدوم السلام بينهما ثلاثين عاما[4].

ما كاد جوفيان يعتلى العرش حتى أصدر مرسوما باستدعاء الأساقفة ورجال الأكليروس الذين كانوا يعانون الآم النفى، وإعادة الباقين إلى كنائسهم بعد أن عادوا إلى الديار فقط فى عهد جوليان دون الكنائس، ويرد عليهم امتيازاتهم التى حرمهم إياها سلفة الوثنى[5]، وعندئذ عادت المسيحية سيرتها الأولى، ويصف المؤرخ

---

(1) AMM. MARC. Res get. XXV,5
وأيضا SOCRAT. Hist. Eccl. III, 22
وكذلك SOZOM. Hist. Eccl. VI, 3
(2) THEOD. Hist. Eccl. III,1
(3) SOCRAT. Loc. cit.
(4) AMM. MARC. Res gest. XXV, 7
وراجع أيضا THEOD. Hist. Eccl. VI, 4
(5) SOCRAT. Hist. Eccl . III, 24
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI, 3

الكنسي سوزومنوس الحال بقوله:

" راح الأساقفة يؤججون ثانية نيران الشقاق، وحمى مرة أخرى وطيس الجدال. لقد ظللهم صمت رهيب طيلة عهد جوليان، وغلفهم الهدوء القلق، وأخذوا يبسطون أكف الضرعة من أجل رحمة الرب، فلما كشف عنهم الهوان، إذا هم ينكثون. ذلك دأب أولاء الرجال "(٦)، ويضيف سقراط :

" إن الأساقفة يتحلقون من حول العرش، كل يريد أن يجتذب إلى معتقده جوفيان، ذلك أنه ما أن عاد جوفيان من فارس حتى قامت الكنيسة تغرق نفسها فى مشاكلها العقيدية من جديد "(٧).

غير أن جوفيان كان يدرك أنه لا قبل له مطلقا بمتاهات الجدل اللاهوتى، وكان عارفا بقدره راضيا بقدرته، ولم يكن له عقل جوليان الفيلسوف ولا طموح قسطنطيوس الإمبراطور، ولا ذكاء قسطنطين الكبير، فأعلن منذ البداية أنه " لن يضار أحد من أجل العقيدة، وأنه يقدم الحب لمن يسعى صادقا من أجل وحدة الكنيسة والسلام"(٨)، وقد امتدح الفيلسوف المعاصر والخطيب ثميستوس Themistus سلوك الإمبراطور الذى أعطى لكل الأناسى الحرية أن يعبدوا الإله حسبما يرضى، منهم الفؤاد(٩).

كان أول من سعى إلى الإمبراطور يخطب وده جماعة الماكيدونيين(١٠)، أتباع ماكيدونيوس أسقف القسطنطينية السابق، الذى أسلفنا أنه عزل سنة ٣٥٩ ليحل محله يودوكسيوس الآريوسى المتطرف، وكان ماكيدونيوس قد أدلى بدلوه فى المسألة العقيدية أيضا، واستلهم وحى الآريوسية الأولى فى القول بخلق المسيح،

وأنظر كذلك HIST. ACEPH. VIII, 12, THEOD. Loc. Cit

(6) SOZOM. op. cit. VI,4

(7) SOCRAT. Loc. cit.

(8) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 25

(9) Id.

(10) Id.

وأذاع أن الـــروح القــدس مخلوق شأن سائر الخلائق(١١)، ولما تم عزله راح يوحد جهــوده وجماعته مع أنصاف الآريوسيين. ولقد ازداد أتباعه بدرجة كبيرة وخاصة في آســيا الصغرى(١٢)، وتقدموا إلى الإمبراطور جوفيان يلتمسون منه عزل أساقفة الأنومويـــة الذين لا يزالون يسيطرون على الكنائس، وحمل هذا الملتمس باسيليوس أسقف أنقرة، وغيره من زعماء الهومويوسية(١٣)، غير أن الإمبراطور رفض إجابة التحالف الماكيدونى الهومويوسى إلى طلبه، وأعلن أنه يمقت كلية هذه الصورة من الشقاق فى الكنيسة(١٤).

والآن جـاء دور الأســاقفة السياســيين، ويمــثل هؤلاء كما نعلم أكاكيوس وأنصاره، فقد أيقن هذا الفريق أن عليه أن يعمل بسرعة ليتلاءم مع الموقف الجديد الذى خلقه وجود إمبراطور على العرش أعلن منذ البداية سياسة التسامح مع تأييده للــنيقية(١٥)، ويقــول ســقراط" إن الــروح الحقيقية للأكاكيين واستعدادهم الفطرى لمواءمـــة آرائهم وعقيدتهم مع أولئك الذين يقتربون من السلطة، أضحت الآن بادية لــلعيان أكــثر مــن ذى قــبل، ذلــك أنهم جمعوا أنفسهم فى أنطاكية، ودخلوا فى مفاوضات مع مليتيوس، الذى انفصل عنهم من قبل، وقبلوا اصطلاح " الهوموسية " ولقد فعلوا ذلك لأنهم رأوا مليتيوس قد أصبح مقربا عند الإمبراطور الذى كان يقيم آنذاك فى أنطاكية(١٦)، ولم يعد سقراط الحقيقية فى شيء.

ويجــب أن نــدرك أن هذه الفترة قد أخذت تشهد تقاربا بين الفرق المسيحية المتنافرة، فالماكيدونيون ضموا صفوفهم إلى أنصاف الآريوسيين، والهومويون فى الشرق أوالأكاكيون دخلوا فى شركة النيقيين المعتدلين، وبقى الأنومويون والنيقيون

(11) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 25
SOZOM. Hist. Eccl. IV, 72 وراجع أيضا
وراجع للمؤلف ، والدولة و الكنيسة ، الجزء الرابع .
(12) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 45
(13) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 25
(14) Id.
(15) SOCRAT. Hist eccl. III, 24
(16) Ibid. III, 25

الأصـــليون بعيدا خارج دائرة التقارب هذه. وحتى يثبت الأكاكيون صدق نيتهم فيما أقدمـــوا عليه، عقدوا مجمعا في أنطاكية في أوائل عام ٣٦٤ حضره ما يقرب من ثلاثيـــن أســـقفا(١٧) ممن ينتمون إلى هذا الفريق، وكان على رأسهم مليتيوس أسقف مديـــنة المجمع، ويوسيبيوس أسقف قيسارية، وأورانيوس Uranius أسقف أفامية Apamia وضـــعوا جميعا توقيعاتهم على وثيقة في شكل رسالة إلى الإمبراطور، يعلنون فيها عقيدتهم ورأيهم في بعض الفرق الأخرى(١٨).

وعلى الرغم من أن الأكاكيين ألحقوا فعلا برسالتهم هذه نص مرسوم الإيمان الـــنيقى، وذيـــلوه بـــتوقيعاتهم، إلا أنهم راحوا يفسرون، كما جاء في الوثيقة كلمة "الهوموســـية " بأنها تعادل " من جوهر مشابهة أو التشابه في الجوهر " أي أنهم لم يتخلوا عن المصطلح الرئيسى الذى بنوا عليه عقيدتهم وهو " التشابه Homoeas وإن كانوا قد حددوه الآن في " الجوهر" وهم يعدلون في ذلك أنصاف الآريوسيين، ولكنهم سبقوا هؤلاء الأخيرين خطوة عندما اعترفوا بقانون الإيمان النيقى، ولم يبد لأعيـــنهم عجبا أن يطلقوا الآن كل ما أعلنوه قبل في مراسيمهم حول كلمة "جوهر" ورفضـــهم الكـــامل لهـــا من قبل. ويخبرنا سوزومنوس أنهم قد بعثوا برسالة إلى الإمـــبراطور يؤكدون رغبتهم في تجنب أي شقاق يقود الكنيسة إلى ما حدث على

(17) SOCRAT. Hist. Eccl. III 24 .

(١٨) جـــاء في هذه الوثيقة : " المجمع الأسقفى المنعقد في أنطاكية ضاما من مختلف الولايات رجال الله ، إلى الـــتقى محبوب الرب سيدنا جوفيان أوغسطس المنتصر . نعلم اليقين "إمبراطورنا الدين" رغبتكم الســـامية في أن تضعوا سلام الكنيسة والوئام فوق كل اعتبار، ولسنا فاقدى الوعي، جامدى الإحساس إزاء عدالـــتكم الحكيمة، كي ندرك أن الإيمان القويم هو دعامة هذه الوحدة والعماد ومن ثم فأننا خشية أن نـــدرج ضمن أولاء الذين أفسدوا الإيمان الحق ، نعلن لعطفكم أننا ندين ونقر بإيمان المجمع المقدس الـــذى التأم من قبل في نيقية، خاصة وأن تعبير الهوموسية الذى تبدى لبعض محدثا وبدعاً من القول، قد تم تفسيره بفطنة من جانب الآباء، بما يدل على أن الابن ولد من جوهر مشابه لجوهر الآب أو أنه يشبه الآب في الجوهر ... كما أن هرطقة الانومويين التي فاحت مؤخرا ولا تزال بقحة سادرة، تبغى عدم وحدة الكنيسة، من أجل ذلك فأننا .. نرفق باعلاننا هذا صورة من الإيمان الذى ارتضاه الآباء في نيقية، والذى نحن عنه كل الرضا راضون "

انظر SOCRAT. Hist. Eccl. III, 25

وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI,4

عهـد قسطنطيوس، وأنهم لا يريدون أن تعود من جديد هذه السلسلة التى لا تنتهى مـن المجـامع ومراسـيم الإيمـان " وقـرروا فى رسـالتهم أنهم لن يذهبوا إلى الإمـبراطور مـن تـلقاء أنفسهم حتى لا يفرضوا أنفسهم عليه، فإذا رغب هو فى استدعائهم لبوا[١٩].

لـم يبق إذن إلا الآريوسيين فى الإسكندرية يؤيدهم يوزيوس أسقف أنطاكية، وعـليهم أن يبحثوا أيضا عن قدرهم عند الإمبراطور، فعمل يوزيوس على استمالة بـروباتيوس Probatius خصـى القصـر ليكـون لـه عونـا وزلفى يقربه إلى الإمـبراطور[٢٠]، وقام بالدور الأكبر لوقا، الذى ذكرنا أنه رشح ليخلف أثناسيوس فى منصـبه بعـد نفيـه فى عهد جوليان، فتقدم إلى الإمبراطور بالتماسات أربعة حفظهـا لـنا الـتاريخ فى شكل حوار بين جوفيان ولوقا وأنصاره[٢١]، وتدور هذه الالتماسـات حـول رفـض الآريوسيين فى الإسكندرية عودة أثناسيوس ثانية إلى عرشـه الأسـقفى، وتقديم اتهامات جديدة ضده بغية إثارة غضب جوفيان عليه، بل لقد أعلنوا فى سبيل ذلك أن الإسكندرية سوف تتعرض للتدمير والخراب إذا ما عاد أثناسـيوس وبلغ بهم الإلحاف إلى الضراعة لدى الإمبراطور كى يولى على أسقفية الإسكندرية أى رجل عدا أثناسيوس " .

غيـر أن جوفيـان أبـدى إصرارا تاما على أن يعود أثناسيوس إلى كرسيه الأسـقفى فى الإسـكندرية[٢٢]. والحقيقـة أن الإمبراطور كان يدرك ذلك المركز الممـتاز والمكانة التى يتمتع بها أثناسيوس فى مصر، ويعلم يقينا أن سنوات النفى الطويـلة التى أمضاها الأسقف السكندرى خارج البيعة، قد زادته صلابة وعنادا، وزادت مـن تعلق شعب الكنيسة فى مصر والرهبان به، ولم يكن الإمبراطور فى موقـف يسمح له بأن يثير على نفسه عداء جزء كبير من الإمبراطورية كان يتعلق

(19) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 4
(20) Ibid. VI, 5

(٢١) أنظر ملحق رقم (٢) .

(22) ATHANAS. Ad Imp. Iov. (ep. 1-4)

بأثناسيوس رغم كل هذه الأحداث التى شهدتها الكنيسة، فى وقت يحتاج فيه إلى تأييد الجميع، خاصة وأنه لم يكن من بيت قسطنطين الكبير الذى تكن له الكنيسة الولاء والتقديس، ولا يتمتع بمقدرة عسكرية فائقة، ولا موهبة إدارية يحسده عليها أحد، ومن ثم رأيناه يختط لنفسه طريقا وسط متاهات العقيدة، حتى لا يسترضى فريقا دون الآخرين أو على حسابهم.

ويروى أثناسيوس فى الجزء الأخير من "الشذرة" Narratio ad Ammonem التى عرضنا لها، أن الراهب بعد أن نقل إليه نبأ وفاة جوليان، أخبره كذلك أن إمبراطوراً مسيحيا ورعا سوف يرتقى العرش خلفا، وأن عليه أن يسرع فى لقائه دون توان[٢٣]. ولئن كانت صيغة الحديث قد صدرت عن ثيودور فى شكل تنبؤ بما سيحدث، الا أن الحقيقة أن اختيار جوفيان قد أعقب وفاة جوليان مباشرة، ومن ثم فلابد أن يكون كلا النبأين قد نقلا مرة واحدة إلى الرهبان وبالتالى إلى أثناسيوس.

ويخبرنا سقراط أن الإمبراطور جوفيان كتب إلى أثناسيوس عددا من الرسائل يبدد كل خوف[٢٤] ويضيف سوزومنوس أنه أرسل فى طلبه ليقف منه على أمر العقيدة، وإن كان سوزومنوس يقدم هذا القول منسوبا إلى " آخرين " دون أن يذكر رأيه[٢٥]. ولكن ليست لدينا صورة من هذه الرسائل التى يتحدث عنها سقراط، وكل ما تبقى فقط هى رسالة واحدة حملها أثناسيوس فى عودته بعد لقاء الإمبراطور.

غير أن الأسقف السكندرى لم يكن فى حاجة إلى استدعاء من قبل الإمبراطور فقد كان لديه من الأسباب ما يدعوه إلى الإسراع بلقائه. وقد ذكر سوزومنوس ذلك صراحة بقوله " إن أثناسيوس اعتقد هو ونفر من صحبه أن من الأفضل، بل من الضرورى أن يسرعوا للقاء الإمبراطور بعد أن علموا بأمر

(23) THANAS. Narr. Ad Ammon.
(24) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 24
(25) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 5

سياسته العقيدية[٢٦]وكلمة " بل من الضرورى " هنا تؤكد مدى حرص أسقف الإسكندرية على إتمام هذا اللقاء، فقد كان على ثقة أن خصومه لن يدعوا لحظة تمر دون أن يلتفوا فيها من حول جوفيان ليدسوا للأسقف السكندرى عنده، وقد رأينا كيف استحث لوقا خطاه إلى أنطاكية ليعرض على الإمبراطور ملتمسه بشأن كرسى الإسكندرية الأسقفى، ولا شك أن أثناسيوس قد أفاد كثيرا من تجاربه السابقة مع الآريوسيين على عهد قسطنطين وولده قسطنطيوس، عندما استأثروا بالإمبراطورين وخاصة الأخيرين، ولم يتركوا لأثناسيوس سبيلا للاتصال به، ومن ثم أراد أثناسيوس أن لا يحدث له جوفيان مثلما حدث له مع سلفه الأسبق، من أجل هذا فأن الأسقف السكندرى بعد أن قدم من عند أصدقائه الرهبان، دخل الإسكندرية، ولم يذهب إلى الكنيسة، ولم يحاول أن يخبر أحدا بمقدمه إلا الخاصة، ثم لم يلبث فى ٦ سبتمبر ٣٦٣ أن اتخذ سبيله فى البحر سفرا قاصدا جوفيان[٢٧] ولم ينتظر الأسقف قدوم الإمبراطور إلى أنطاكية بل توجه تلقاء منبج Hierapolis حيث رحب به الإمبراطور وتقبله قبولا حسنا[٢٨]. وهكذا كان أثناسيوس أسبق الأساقفة جميعا فى اجتذاب جوفيان إلى النيقية، ولعلنا ندرك الآن السبب فى موقف الإمبراطور من الفرق المسيحية المتصارعة التى وفدت عليه فى أنطاكية، كما قدمنا.

ويبدو أن الوفاق قد عرف سبيله بين الرجلين للوهلة الأولى، فطلب الإمبراطور من الأسقف أن يوقفه على حقيقة إيمان الكنيسة الكاثوليكية[٢٩]، فكتب أثناسيوس، إبان وجوده فى أنطاكية، تقريرا عن الإيمان، حمل فيه بعنف على الآريوسية، وأشار إلى شيء من مبادئها، وعرج على مجمع نيقية وأدانته لها[٣٠]وألحق بالتقرير صيغة الإيمان النيقى[٣١] وراح من طرف خفى يلقى اللوم

---

(26) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 5

(27) HIST. ACEPH. VIII, 13
وراجع كذلك FEST. IND.XXXV

(28) FEST. IND. XXXV

(29) ATHANAS. Ad. Imp. Jov. 1

(30) Id.

على الأكاكيين ومليتوس واتباعه بسبب مرسوم الإيمان الذى أصدروه والذى يفسر " الهوموسـية " بأنها تعدل " التشابه فى الجوهر " ثم أخذ يلعن صراحة الأنومويين، ويزين للإمبراطور طريق النيقية وحدها[٣٢].

وقـد انتهز أثناسيوس فرصة وجوده فى أنطاكية وحاول أن يخلص الكنيسة فيهـا مـن ذلـك الشقاق القديم الذى يتهددها، ويذكر شاهد عيان أنه رتب الأمور هـناك[٣٣]، ولكن سوزومنوس أضاف إلى ذلك قوله " فى حدود الممكن "[٣٤]، وهذه العـبارة لهـا مغـزاها، ذلك أن أثناسيوس لم يكن يستطيع أن يتخلى عن صداقته لليوسـتاتيين وزعيمهـم باولينوس، حقيقية حرص أثناسيوس فى مجمع الإسكندرية وفى رسالته إلى الأنطاكيين على أن يدعو الفريقين إلى نبذ دواعى الخلاف، وطلب إلى باولينوس أن يقبل فى شركته الأرثوذكس الآخرين، يعنى أتباع مليتيوس، ولكن هـذا لـم يكـن ليخفى ميله الواضح تجاه باولينوس وجماعته، على أن باولينوس عصف بفرصة السلام هذه، ذلك أنه اعتمادا على سيامته أسقفا بيد ليوكيفريوس، قام هو الآخر برسم أسقف لكنيسة صور يدعى ديودور[٣٥] Diodorus .

ولاشـك أن مليـتيوس قد نظر إلى ذلك بشىء من الضيق حيث يعتبر نفسه الأسـقف الشرعى الذى له حق اختيار أساقفة المنطقة، هذا من ناحية، والأخرى أن مليـتيوس بقبوله التوقيع على مرسوم المجمع الانطاكى الذى وضعه الأكاكيون فى سـنة ٣٦٤، قـد فقد أيضا ثقة أثناسيوس، وبهذه الصورة لم يستطع أثناسيوس أن يكمل فى أنطاكيـة الجهـد الذى بذله من أجلها فى مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢، خاصة وأن الآريوسية كان لها السيادة من الناحية الرسمية فى أنطاكية ممثلة فى يوزيوس.

---

(31) Ibid.
وراجع كذلك GREG. NAZ. Orat. XXI, 33
(32) ATHANAS. Loc. cit.
(33) HIST. ACEPH. VIII,13
(34) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 5
(35) RUFIN. Hist. Eccl. II, 21 (p. L. XXI 517)
وراجع كذلك ATHANAS. Ep. Ad Diod

والآن تهيأ أثناسيوس للعودة إلى الإسكندرية بعد أن ضمن تأييد الإمبراطور، وعـدم تسـلط الخصـوم عليه، وعندئذ شيعه جوفيان برسالة، على الرغم من أنها جـاءت مقتضـبة، إلا أنهـا كـانت بالغـة الدلالة(٣٦)، حملت فى طياتها سياسة الإمـبراطور المتسامحة، وإعجابه بشخص الأسقف السكندرى، وهى لا تخرج عن كونها قصيدة نظمها الإمبراطور فى مدح أثناسيوس، وتعد تصريحا رسميا للأسقف بالعودة إلى كرسيه، جاء فيها :

" ... لشـد ما بهرنا جهادك ملء الحياة، وحبك للإله رب الكل، وانجذابك إلى مخلصـنا المسيح، ولقد ارتضيناك أسقفا ممجدا، ولما كنت لم تتقلب على عقـبيك مدبـرا، ولا مـن مضطهديك خائفا، ونظرت المهالك والوعيد غير عـابئ، وتعـلقت بدفـة الإيمـان القويم، وهو إليك عزيز، تناضل من أجل الحـق، ولا زلت تبدى نفسك للرعية أنموذجا ... من أجل ذلك قرر عظمتنا اسـتدعاءك، وأبدينا رغبتنا فى أن تعود إلى ذلك المكان الذى تعلم فيه طريق الخـلاص. عد إذن إلى الكنيسة المقدسة، واجتذب إلى الله شعبه. وأرسل إلى الله ضراعتك من أجل خيرنا "(٣٧).

ولـم يلبث أثناسيوس أن انطلق عائدا إلى الإسكندرية، حتى إذا كان يوم ١٤ فبراير ٣٦٤ (٣٨)، دخل الأسقف المدينة واعتلى كرسيه، وعادت الكنائس إلى أيدى أنصـاره، واطمأن إلى أن الإيمان النيقى قد غدا مستقرا رغم كل هذه العثرات التى تعرض لها(٣٩).

غيـر أن الأحداث خيبت فأل أثناسيوس فجأة، فقد ارتحل الإمبراطور قاصدا القسـطنطينية، ولكـنه لم يصلها أبدا، فعند دادستانا Dadastans على الحدود بين

(36) Robertson, op. cit. p. 90
(37) IOV. Ep. Ad ATHANAS. (ATHANAS, ep. LVI)
(38) HIST. ACEPH. VIII, 13
(39) SOZOM. Hist. Eccl. Vi, 5

غلاطيــة وبيثيــنيا، وفى ١٧فبراير ٣٦٤، مات جوفيان[٤٠] بعد أن قضى فى حكم الإمــبراطورية قــرابة أشــهر ثمانية، وطوال عشرة أيام آتية، قطعها الجيش فى مســيرته حــتى نيقية، خلا عرش الإمبراطورية من حاكم يعتليه، وفى ٢٦فبراير شهدت مدينة نيقية اجتماعات ضمت كبار الموظفين والقادة العسكريين، أسفرت فى النهاية عن المناداة بفالنتينيان Valentinianus إمبراطوراً[٤١]. وهو أحد مواطنى بانونيــا Pannonia يــتميز بكفاءة إدارية فذة ومقدرة عسكرية[٤٢]، ينتمى لأسرة ريفيــة رقيقــة الحال، حاد المزاج، لم يهتم بتثقيف نفسه ولا يحترم المثقفين، يمقت جميــل الهــندام ويــبغض الثقافة، يزدرى الثروة ويحتقر طيب المنبت، كما وصفه أميانوس ماركللينوس، ولكنه مع ذلك كان حى الضمير إداريا، يحنو الحنو كله على الطبقات الفقيرة قرينة أصله، ولكن سوء قدره قضى على حسن نواياه باختياره غير الموفــق لــوزراء دولته[٤٣]. وكان مسيحياً متحمسا للعقيدة دون فريق بعينه، جلب عــلى نفســه بمســيحيته غضب جوليان يوم كان قائدا فى جيشه، ولم يشفع له إلا كفاءته العسكرية واحتياج جوليان لخبرته[٤٤].

ويبدو أن الجنود كانوا قد سئموا وجود إمبراطور فرد على عرش الإمبراطورية

---

(40) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 6
وكذلك AMM. MARC. Res gest. XXV, 10
وراجع SOCRAT. Hist. Eccl. III, 16

(41) AMM. MARC. Res gest. XXVI, 1, 2
SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 1
وأيضا SOZOM. Loc.cit.
وراجع كذلك THEOD. Hist. Eccl. III, 12

(42) SOZOM Loc. cit.
وراجع أيضا SOCRAT. Loc. Cit
وكذلك THEOD. Loc. cit.

(43) AMM. MARC. Res gest. XXVII, 7, XXX, 6
وراجع كذلك Jones, Later Roman empire, 1, p. 139

(44) SOCRAT. Hist, eccl. IV, 1
وأيضا SOZOM. Hist eccl. VI, 6
وراجع أيضا THEOD. Hist. Eccl. III, 12

فـتقدموا إلى فالنتيـنيان يطالبونه باختيار رجل آخر إمبراطوراً شريكا[٤٥]، ولا شك أن قيـامهم بتنصـيب ثلاثة أباطرة على التوالى، جوليان وجوفيان وفالنتينيان، قد أعاد إلى أذهـانهم ذكـرى نفوذهـم فى النصف الثانى من القرن الثالث، قبل أن يلى دقلديانوس عـرش الإمبراطورية، وقد أجابهم فالنتينيان بقوله : "جنودى، إذا كان من حقكم إعلانى إمـبراطورا، فقد فعلتم ، أما ما تريدون فمن حقى وحدى، ألزموا الهدوء، رعية طيبة، ودعـونى أديـر أمـور الدولـة إمبراطورا "[٤٦] ثم ولى وجهه بعد ذلك مباشرة شطر القسـطنطينية، فلما دخلها، وكان قد مضى على اعتلائه العرش ثلاثون يوما، آوى إليه أخـاه فالـنز Valens وكـان فى بانونيا فاستدعاه وأعلنه إمبراطور شريكا[٤٧]، وقد شـارك فالـنز أخاه حدبه على الطبقات الدنيا[٤٨] وقلة ثقافته[٤٩]، وغيرته المسيحية[٥٠] واقـترب عـلى اسـتيحاء مـن حسن ادارته، وافتقد كفاءته العسكرية[٥١]، شغل عهده بمؤامـرات محمومة مريبة، وعقاب وحشى صارم أنزله بأناس ادعى للوطن خيانتهم، حـتى تسربت قساواته إلى حب للعذاب[٥٢].ويعلق ثيودوريت[٥٣]، على اختيار فالنتينيان له قائلا : " ليته لم يفعل ذلك أبدا".

الـتقى الأخـوان فى نيـش Naissus ليقتسما فيما بينهما حكم الإمبراطورية، فذهـب فالنتيـنيان بالـليريا وإيطاليـا وأفريقيا وغالة وبريطانيا، واتخذ من ميلانو له

(45) SOZOM. Loc. Cit
(46) Id.
وأيضاً THEOD. Hist. Eccl. IV, 5
(47) AMM. Marc. Res gest. XXVI, 4
وراجع أيضا .SOCRAT. Loc. cit
وأيضا SOZOM. Loc. cit.
وراجع THEOD. Loc. cit.
(48) AMM. MARC. Res gest XXIX, 1
(49) Id.
(50) SOCRAT. Loc. cit.
(51) AMM. MARC. Loc. cit.
(52) Id.
(53) THEOD. Hist. Eccl. IV, 5

عاصـــمة، وعـــاد فالنز بولايات الشرق، وجعل القسطنطينية حاضرته(٥٤)، ولا شك أن فالنتيـــنيان أراد بهـــذا التقســـيم، وقـــد آثر الغرب أن ينأى بنفسه عن الشرق بخلافاته العقيديـــة، ومشاكله اللاهوتية التى لم يكن على استعداد أو مقدرة للخوض فيها، وسوف توضـــح الأحـــداث صـــدق هـــذا القـــول، ولكـــن الذى نريد أن نؤكده هنا ثانية، أن الإمـــبراطورية قد عادت لما كانت عليه عقب وفاة قسطنطين الكبير، حيث دان الملوك بديـــن رعيـــتهم، فقد مالأ فالنتينيان النيقية، كما فعل من قبل ولدا قسطنطين، قسطنطين الـــثانى وقنســـطانز. واعتنق فالنز الآريوسية، على نهج قسطنطيوس. وفى الوقت الذى فيـــه كـــان فالينتـــنيان متســـامحا، جهـــد فالنز ليحمل الخارجين على عقيدته إلى فناء الآريوسية.

علمـــنا مـــن قـــبل تـــلك الحال التى كانت عليها الفرق المسيحية المختلفة، الأنومويـــون يشـــكلون طائفـــة مستقلة ترفض التقارب مع أى من الفرق الأخرى، ويقـــود خطوهـــم الآن يونوميوس تلميذ ايتيوس ، والهومويون ويتزعمهم بوزيوس أســـقف أنطاكيـــة، وإن كـــان قـــد مال إلى الأنوموية فى نهاية عهد قسطنطيوس، ويودوكســـيوس أسقف القسطنطينية الذى أظهر هجرانه للأنوموية فى سبيل الحفاظ عـــلى كرسى الأسقفية، ومثله فعل رفيقاه فالنز وأورساكيوس، ثم أيضا أوكسنتيوس Auxentius أســـقف ميلانـــو، وهؤلاء جميعا مات قسطنطيوس وتركهم أصحاب الســـيادة العقيديـــة فى الإمبراطورية، وهم الآن وإن كان عدد كبير منهم قد انشق عـــليهم تحـــت رئاســـة أكاكيوس أسقف قيسارية لينضم إلى الأرثوذكسية المعتدلة برئاســـة مليـــتيوس فى أنطاكية، الا أنهم ظلوا يحتلون مراكز هامة فى الاسقفيات الإمبراطورية.

أمـــا الـــنيقيون فقد فشلوا فى توحيد صفوفهم، وكانت أنطاكية أوضح الأمثلة عـــلى ذلـــك. وجيل النيقية الجديد الذى يمثل جانب الاعتدال، ويتمثل فى لاهوتيى كبادوكيا وخاصة باسيليوس، لم يستطع أن يصل بأثناسيوس صفوفه ، وكان انحياز أثناســـيوس الكـــامل إلى جانب باولينوس اليوستاتى فى أنطاكية، وتأييد باسيليوس

---

(54) AMM. MARC. Loc. cit.

لمليـــتيوس، عـــاملا هامــــا فى هذا الاخفاق، وإن كان هذا لم يمنع رجال كبادوكيا وخاصة باسيليوس من إعلان احترامهم التام للأسقف السكندرى، كما يظهر واضحا من رسائل باسيليوس العديدة إلى أثناسيوس.

أمـــا الماكيدونيون وأنصاف الآريوسيين فقد تآلفوا من أجل جبهة واحدة قوية حـــتى أضحوا يشكلون الأغلبية فى الشرق، وأصبحوا قادرين على العمل منتهزين فرصــــة هذا الشتات الذى تتعرض له كل الفرق الأخرى، وإذا كانوا قد فشلوا مرة فى التأثير على جوفيان، فليحاولوا من جديد مع الإمبراطور فالنتينيان.

وأثـــناء وجود فالنتينيان فى تراقيا فى طريقه إلى الغرب(٥٥) تقدموا إليه عن طـــريق هيباتيانوس Hypatianus أسقف هرقلية Heraclea يطلبون السماح لهم بـــالدعوة لعقـــد مجمـــع للـــبحث فى أمر العقيدة(٥٦)، ولكن فالنتينيان أجابه : " بين العـــلمانيين مكـــانى وليس من حقى أن أتدخل فى مثل هذه الأمور، اذهب وليجتمع رجـــال الكنيســـة، أولـــئك الذيـــن يخصهم الأمر ذاك، إذا شاءوا "(٥٧)، وقد اعتبر الأســـاقفة ذلك تصريحا من الإمبراطور فدعوا إلى عقد مجمع فى مدينة لامساكوس Lampsacus عـــلى الهللسبونت، وذلك فى خريف عام ٣٦٤، واستمرت جلساته طيـــلة شهرين(٥٨)، وقرر فى النهاية إلغاء كل ما سبق أن تقرر من أمر العقيدة فى القسطنطينية سنة ٣٦٠، وأعلنوا أن صيغة الإيمان التى أقرت فى ريمينى من قبل، وأذيع أنها من وضع أساقفة الغرب، محض زيف وضلال وأكدوا من جديد تمسكهم بعـــبارة "التشـــابه فى الجوهر"، والتى أقرت من قبل فى أنقرة سنة ٣٥٨ وسلوقية

---

(٥٥) يذكر سقراط خطأ أنه الإمبراطور فالنز .
راجع SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 2

(56) SOCRAT. Loc. cit.
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI,7

(57) SOZOM. Hist. Eccl. VI,7
وراجع أيضا AMB. Ep. XXI, 2

(58) SOZOM. Loc. cit.
وكذلك SOCRAT Hist. Eccl. IV, 2
Hefle, op. cit. I, 22pp. 973 ,BASIL, Ep. CCXXIII, 5

٣٥٩، وقـــرروا وجـــوب عودة كل أساقفتهم الذين تم عزلهم على يد الهومويين، وضرورة عزلهم يودوكسيوس أسقف القسطنطينية ورفاقه.

ولمـــا كـــان هـــؤلاء الأساقفة يدركون أن هذه القرارات لا قيمة لها دون أن تساندها سلطة الدولة، فقد قرروا السعى لدى الإمبراطور فالنز هذه المرة، ولما كانوا عـــلى يقيـــن أن يودوكســـيوس يواصل جهوده لاستمالة الإمبراطور إلى صفه، فقد صـــمموا على أن يسبقوه إلى العمل(٥٩)، ومن ثم قدموا إلى الإمبراطور قرارات هذا المجمـــع الأخير وهو فى طريق عودته إلى القسطنطينية بعد اجتماعه مع أخيه(٦٠) الا أن يودوكســـيوس، حســـب تعبير سوزومنوس، كان قد سبق الجميع فى كسب جانب الإمـــبراطور وبلاطـــه(٦١)، فـــلما مثل مندوبو لامساكوس بين يديه، دعاهم فالنز إلى الدخول فى شركة أسقف العاصمة، ولما راح هؤلاء يحاجون بفعال يودوكسيوس منذ عام ٣٥٩، أمر الإمبراطور بنفيهم وتحويل كنائسهم إلى أنصار أسقفه(٦٢).

ولاشك أن الإمبراطور فالنز، بغض النظر عن تعاطفه الشخصى مع أسقف عاصـــمته، كـــان يعـــلم الكـــثير عن أقاليم سيادته، ففيما عدا مصر، هناك مدعون متنافســـون عـــلى الكرســـى الأسقفى فى كل بيعة(٦٣)، والسماح لأحد من هؤلاء أو أولاء بـــتحقيق أغراضه، يعنى انغماس الإمبراطور فى متاهات الجدل العقيدى، ثم هـــناك المذهـــب الرســـمى الحكومى(٦٤)، الذى أقره المجمع المزدوج فى ريمينى وســـلوقية، وصادق عليه مجمع القسطنطينية، ومات قسطنطيوس وهو عنه راض، يتمـــثل فى العقيـــدة الهومويـــة، ويرتـــبط بالسلام فى ذهنه، ويرى زعيمى الطائفة يحـــتلان أسقفيتى الشرق، يودوكسيوس فى العاصمة، ويوزيوس فى أنطاكية. وكان فالـــنز شـــأن سلفه جوليان يشعر أنه لم يرفعه للعرش موهبة معينة، وليس له من

(59) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 7
(60) Id.
(61) Id.
(62) SOCRAT. Hist. Eccl. VI,7
(63) Kidd. op. cit. II, p. 228
(64) Id.
وانظر أيضا Gwathin, The Arian Controversy, p. 127

مؤهــل لذلك سوى فالنتينيان، ولا ثقافة عنده ولا خبرة، ولا حتى كانت له سيطرة عــلى الجند كافية، ووسط هذه الظروف كلها لم يجد معينا الا الهومويين وليس فى مقدرته أحسن مما هو كائن(٦٥)، وربما يضاف إلى ذلك أيضا ما يذكره ثيودوريت، مــن أن زوجته الإمبراطورة دومينيكا Dominca كانت متحمسة لهذه العقيدة(٦٦)، ومن ثم ارتضى الهوموية عقيدة للإمبراطورية، وظلت كذلك حتى هلك فالنز بسيف القوط(٦٧)، وذلك فى معركة أدرنة سنة ٣٧٨.

ومــن أجــل ذلك فإن الإمبراطور ما لبث أن ارتحل إلى أنطاكية خشية أن يحــاول الفــرس نقــض الهدنة بعد وفاة جوفيان(٦٨)، فلما أمن جانبهم تفرغ لتنفيذ سياســته، فــرأى أن باوليــنوس يتمتع بقدر كبير من الورع فتركه، حسبما يروى ســقراط دون إيــذاء(٦٩)، ولكن الحقيقة أن باولينوس كان يمثل الأقلية فى أنطاكية وهى الأقــلية الــتى طال اضطهادها منذ عام ٣٣٠، وهى لا تشكل أى خطر على سياسته إلا من ناحية تحالفها مع الأسقف السكندرى أثناسيوس، وهذه سوف يحاول أزالــتها من ناحية أخرى، هذا فى الوقت الذى رأى فيه أن مليتيوس، أسقف النيقية المعــتدلة، يمــثل الأغلــبية، خاصــة بعد أن انضم إليه الأكاكيون، ولما كان بهذه الصــورة يــنافس أسقف معتقده يوزيوس، فقد أصدر قراره بنفى مليتيوس، وأوقع أنصاره الذين رفضوا الدخول فى شركة يوزيوس تحت طائلة العذاب(٧٠).

وفى أنطاكيــة، وبالقــرب مــن يوزيوس ازداد فالنز يقينا أن سيادة العقيدة الهومويــة، وبالــتالى ســيادته، لــن تكــتمل مــا دام هــناك فى الإسكندرية من ينافســه-حسب اعتقاده- السلطان، حقيقية كان الإمبراطور يمتلك اكليروسا هومويا

(65) Gwatkin, Loc. Cit
(66) THEOD. Hist. Eccl. IV, II
(67) Encycl. Of relig. And ethics, Arianism Vol. 1. p. 781
(68) SOZOM. Hist. Eccl. VI,7
(69) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 2
(70) SOCRAT. Loc. cit.
وراجع .SOZOM. Loc. cit
وأيضا THEOD. Hist. Eccl. IV, 12

ولكن نفوذ يودوكسيوس أو يوزيوس لم يكن يستطيع منافسة شخصية أثناسيوس القوية أو حتى باسيليوس الكبادوكى[71]، وبالحقد على أثناسيوس، وبالكراهية للنيقية أصدر فالنز مرسوما يقضى بطرد كل الأساقفة الذين كانوا قد تعرضوا للنفى على عهد الإمبراطور قسطنطيوس وأعيدوا بناء على مرسوم جوليان، وتهدد موظفى الإمبراطورية بفرض غرامات مالية باهظة إذا تهاونوا فى تنفيذ هذا القرار[72].

وقد نشر هذا المرسوم في الإسكندرية فى ٥ مايو ٣٦٥[73]، وعلى الفور عمت الفوضى المدينة بأسرها، ويقدم شاهد عيان[74] وصفا دقيقا لأحداث الإسكندرية عقب نشر هذا المرسوم، حيث يذكر أن الاضطرابات شملت الكنائس كلها، وزاد الأمر سوءا أن قوات الحامية التى كانت تحت إمرة الحاكم فلافيانوس Flavianus الاليرى، كانت غير كافية للسيطرة على هذا الهياج، مما دفع الجموع إلى التمادى فى سخطها، كما أن موظفى الإدارة الإمبراطورية كانوا حريصين على تنفيذ أوامر الإمبراطور حتى لا يضعوا أنفسهم تحت طائلة العقاب البدنى أو الجزاء المادى، ويضيف أن جموع النيقيين فى المدينة أعلنت رفضها للمرسوم الإمبراطورى وراحت تحتج بأن أثناسيوس لا يقع ضمن دائرة هذا القرار، وعللوا ذلك بأن قسطنطيوس استدعاه إلى الكنيسة، يشيرون بذلك إلى ما وقع بعد مجمع سرديكا. أما جوليان ففى الوقت الذى سمح فيه بعودة الأساقفة المنفيين جميعا، أمر بنفى أثناسيوس وظل فى منفاه حتى عاد به جوفيان، ومن ثم أعلنوا أن قرار النفى الأخير لا ينطبق على الأسقف السكندرى.

استمرت هذه الثورة فى المدينة طيلة شهر كامل[75] ويخبرنا سوزومنوس أن

(71) Gwatkin, The Arian Controversy. p. 122

(72) HIST. ACEPH. X, 15
وراجع SOZOM. Hist. Eccl. VI, 21

(73) HIST. ACEPH. X, 15

(74) Id.

(75) Id.

الحاكم كبح جماح نفسه ولم يحاول استخدام القوة العسكرية(٧٦)، ويبدو أن ما ذكرناه عـن قلة عدد هذه القوات كان سببا فى هذا الموقف، ولاشك أن هذه الأحداث التى وقعـت فى المديـنة تـبين غاية الجهد الذى بذله أثناسيوس خلال رحلته الأسقفية الطويـلة، وكـان النفى المتتابع الذى عاناه فى صالحه على غير ما أراد الأباطرة وتوقعـوا، فمـن خلاله كسب غرب الإمبراطورية كله، وبه جند من ورائه الآلاف العديـدة مـن رهـبان مصـر الغيورين، وقد رأوا فى أثناسيوس تجسيدا لآمالهم وعقيدتهم ، ولاشك أن أثناسيوس بعد هذه السنين الطوال، وأنصاره يسيطرون على كـل الكـنائس فى مصر والمدن الخمس وليبيا، ونفوذ كنيسته يمتد عبر طيبة إلى ممـلكة أكسوم، وشعب الكنيسة فى مصر كلها يقف من خلفه يؤيده، قد أضحى فى مركـز القوة والمنعة التى يستطيع بها أن يتحدى السلطة الإمبراطورية، لا بل يقف موقف المعارضة والرفض لقرارات الإمبراطور.

وكـانت ثـورة الإسـكندرية سنة ٣٦٥ خير تعبير عن هذه الناحية، بل إن الثورة لم تقتصر على الإسكندرية وحدها بل امتدت إلى أنحاء مصر كلها، إذ يذكر سـوزومنوس أن عدداً كبيرا من أنحاء مصر وصحاريها، قد شارك فى هذه الثورة وتدافعـت الجمـوع مـن كـل مكان إلى الإسكندرية وأصبحت المدنية على وشك الانفجار(٧٧).

اقتنع فلافيانوس أن لا قبل له بمواجهة غضب أهالى الإسكندرية، فأعلن أنه قـد بعث بتقرير إلى الإمبراطور يعرض عليه الحجج التى قدمها الأهلون باستثناء الأسقف السكندرى من قرار النفى الأخير، ودعا الناس إلى التزام الهدوء حتى يأتى رد الإمـبراطور(٧٨) ولابد أن تقرير حاكم مصر إلى الإمبراطور قد تضمن عرضا وافيـا عن هذا الاضطراب الحادث فى المدينة(٧٩)، ولكن يبدو أن هذه الأحداث قد

(76) HIST. ACEPH. X, 15
(77) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12
(78) HIST. ACEPH. X, 15
(79) SOZOM. Hist. eccl. VI, 12.

زادت الإمبراطور إصراراً على موقفه تجاه أثناسيوس، ذلك أنه فى ٥ أكتوبر ٣٦٥ كان رد فالنز قد وصل الإسكندرية وتولى فلافيانوس تنفيذه على الفور، فقام بصحبة القائد العسكرى فكتورينوس Victorinus على رأس قوة من الحامية، وهاجموا كنيسة ديونيسيوس Dionysius التى كان أثناسيوس قد اعتاد أن يسكن إليها فى الفقرة الأخيرة، بغية القبض على الأسقف السكندرى(٨٠)، غير أنهم لم يعثروا له على أثر، ذلك أن أثناسيوس كان قد أخذ حذره ولم ينتظر حتى يحيط به الجنود كما حدث سنة٣٥٦ على يد سيريانوس، بل هرب من الكنيسة قبل أن تتعرض لهذا الهجوم(٨١) وانسحب إلى بيت يقع عند فرع النيل الذى يفصل الإسكندرية عن ضاحيتها الغربية ليختبئ فيه عن أعين جنود الإمبراطور(٨٢) وبهذا بدأ الأسقف نفيه الخامس.

ولابد أن أنباء مهاجمة الكنيسة قد تلقاها أثناسيوس فى الوقت المناسب ومن ثم أعد للأمر عدته، إذا لا ريب أنه كانت للأسقف عيونه وسط هذا الجو العدائى الذى يسيطر على العلاقات بينه وبين الأباطرة، وكانت المدينة، كما أخبرنا سوزومنوس، تمتلئ بمن تقاطر عليها من مختلف الأماكن، وكلهم أعوانه وجنده . وإذا كانت أنباء الأحداث خارج مصر تصل إليه فور وقوعها مدعمة بالوثائق، فمن الحرى أن يعلمها فى الإسكندرية قبل حدوثها، لقد آتت جهود أثناسيوس طيلة هذه السنوات، الآن، أكلها.

أدرك اتحاد أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين أن الضربة القادمة ستوجه إليهم، فقد قام فالنز بنفى مندوبيهم، بل وحتى المعتدلين من رجالهم مثل مليتيوس أسقف أنطاكية، ولذا كان عليهم أن يبحثوا، حسب تعبير المؤرخ Kidd عن وسيلة يهربون بها من الفناء الذى سوف يحتويهم(٨٣)وذلك نتجه للضيق الذى حل بهم على

(80) HIST. ACEPH. VI, 16
(81) Id.
(82) Id.
(83) Kidd, op. Cit, II, p. 229

يـد يودوكسـيوس أسقف القسطنطينية[٨٤]، فحاولوا من جديد اللجوء إلى إمبراطور الغـرب وأيقـنوا أنهم لو أفلحوا هذه المرة فى استمالته إلى صفهم، لعاد إليهم شيء من نفوذ يتطلعون إليه، وقد أستقر رأيهم على تشكيل وفد للقاء الإمبراطور[٨٥] ضم يوستاتيوس أسقف سيواس، وسيلفانوس أسقف طرسوس[٨٦]، وزودوا الوفد بنصائح تدعوه للجوء إلى أسقف روما ليبيريوس إذا دعت الضرورة إلى ذلك، والدخول فى شـركته إذا لزم الأمر[٨٧] إذ كانوا يرون فى أسقف روما لين جانب، بعد إذ وضة توقيعـه من قبل على مرسوم سيرميوم، ولكنه منذ عاد من منفاه، وخاصة بعد وفاة قسطنطيوس، أعلن جهارا ندمه على ما قدمت يداه، وتمسكه بالإيمان النيقى[٨٨].

لـم يتمكن الوفد من لقاء الإمبراطور فالنتينيان، إذ كان قد غادر ميلانو إلى الغـرب فى أكـتوبر ٣٦٥، ليبحث عن حل للمسألة الجرمانية عند الراين[٨٩]، ولم يضع مندوبو الشرق وقتا، فاتجهوا لفورهم إلى روما حيث التقوا بأسقفها وعرضوا عليه رغبتهم فى الدخول فى شركته، غير أنَّ ليبريوس توجس فى نفسه خفية خشية أن يقـع فيما أقدم عليه من قبل، فرفض قبولهم وأعلن أن عقيدتهم الآريوسية تقف حـائلا بيـنهم وبيـن ما يشتهون[٩٠]، وعند ذلك أعلن الوفد أنهم رفضوا منذ زمن طويل العقيدة الأنوموية، وجاهروا بالاعتراف بأن الابن فى كل شيء " يشبه الآب

---

(84) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 10

(٨٥) تـم تشكيل هذا الوفد بعد مراسلات عديدة دارت بينهم من مدينة لأخرى خاصة فى الهللسبونت، وعقد مجـامع عديـدة للوصـول إلى اتفـاق فى وجهة النظر، شهدتها مناطق سميرنا Smyrna وبيسيديا Bisidia وايزوريا Isuria وبامفيليا Pamphilia وليكيا Lycia .
انظر SOCRAT. Hist. Eccl. VI, 12

(86) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12

(87) Id.
SOZOM. Loc. cit.

(88) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 19
وأيضاً SOCRT. op. cit. II, 37

(89) AMM. MARC. Res gest. XXVI, 5 XXVII, 8
وراجع كذلك SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12

(90) SOCRAT. Loc. cit.

" وفسـروا مصـطلح الهومويوسية" بأنه لا يختلف فى شىء عن " الهوموسية"[٩١] رغم ما نعلمه عن الفارق الكبير بينهما، ولأن ليبريوس كان قد تلقى من قبل درسا عمـليا، فقد طلب إليهم أن يقدموا هذا الاعتراف ان كانوا صادقين[٩٢]، وعلى الفور أبرز المندوبون وثيقة إيمانهم، وكانوا قد جاءوا بها نتاجا للمجامع التى عقدوها من قـبل، اعـترفوا فيهـا بصراحة بالإيمان النيقى، وأعلنوا رفضهم لما تم إقراره فى ريمينى، وما تنادى به الفرق الآريوسية الأخرى[٩٣].

هكـذا أفـنى أنصاف الآريوسيين والماكيدونيون أنفسهم بأيديهم لا بيد فالنز الإمبراطور، فخوفا من أن يبطش بهم ويخضعهم قهرا لبنى عمومتهم الألداء، آثروا أن يلقوا بأنفسهم فى أحضان النيقية . على أن نفرا من الماكدونيين بقى على ولائه لعقيدتـه إلى أن أدنيـت الماكيدونيـة فى المجمـع المسكونى الثانى الذى عقد فى القسطنطينية سنة ٣٨١، زمن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٨-٣٩٥)[٩٤].

وكـم كان أسقف روما سعيدا وهو يرى رسل جماعة من أساقفة الشرق تفد إلى رومـا لتعرض الدخول فى شركته، ولم يتمالك ليبريوس نفسه من الفرحة التى

(91) Id.

(92) SOCRAT. Hist. eccl

(٩٣) جـاء فى هذه الوثيقة : ولما كان الخبل قد تملك فكر الهراطقة، والعته، وساقهم فى كل حين ولازال إلى تدنيـس الكنيسـة الكاثوليكية، وحدتنا الحمية إلى أن نتصدى لمسلكهم ذاك. جئنا نعرض الرضى بـالعقيدة الـتى أقرتها مجامع أساقفة قويمى الإيمان تلاقى عقدها فى لامساكوس وسميرنا وديار أخر، من تلك المجامع أتيناك رسلاً ، نحمل كتاباً إلى جنابكم الورع وكل أساقفه الغرب وإيطاليا، نعترف فيه أنـا نديـن بالإيمان الكاثوليكى الذى أقره المجمع المقدس فى نيقية على عهد قسطنطين صاحب الذكر العطر، بفكر ثلاثمائة أسقف وثمانية عشر، ولا يزال تاما غير ذى عوج، فى الإيمان ذاك، الهوموسية بقداسة استعملت تتحدى عقيدة أريوس وضررها، ومن ثم فالنا مع أولاء الذين نمثلهم معترف بمحض إرادتـنا أنا نقر دوما نفس الإيمان، ولعن تلك الصيغة التى تليت فى ريمينى، باعتبارها مضادة لإيمان المجمـع المقدس فى نقية. تلعن أولئك الذين يؤكدون أن "هناك زمن الابن فيه لم يكن " وأنه " قبل أن يولـد لـم يكن " وأنه " خلق من العدم " وأولاء الذين يقولون إن الابن الله " من جوهر أخر " أو أنه " متغير وعرضة للتغاير " .

وراجع SOZOM. Hist. Eccl. VI, II

(٩٤) للمزيد من التفاصيل راجع للمؤلف. الدولة والكنيسة . الجزء الرابع ، الفصل الثالث .

انتابــته، فكتب رسالة إلى زعماء اتحاد أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين يخبرهم أن مــا جــاء بــه رسلهم " قد أدخل البشر والسرور على قلبه "، " ومحا أى شائبة انطــباع بالشك بعد أن شهدوا على أنفسهم، لا بالكلمة وحدها بل والكتابة "، ويحمل فيها بعنف على صيغة الإيمان التى أقرها الأساقفة فى ريمينى والتى تابعها نفر من الاكــليروس كبير، على أن ما يعنينا فى هذه الرسالة هو ما أعلنه أسقف روما من أن أساقفة إيطاليا والغرب جميعا قد عادوا إلى حظيرة الإيمان النيقى ثانية وهجروا مرسوم ريمينى الذى وقعوه " بالخديعة أو بيد السلطة كرها "(٩٥).

والذى لاشك فيه أن أساقفة الغرب جلهم، كانوا بعد ريمينى، وحتى قبل موت قسطنطيوس، قد أخذوا يتراجعون عما وقعوا عليه فى ريمينى، فقد أسلفا أن الغرب قــد قــبل مــنذ الــبداية مرسوم الإيمان النيقى، وزاد تعلقهم به بعد أن وفد عليهم أثناســيوس منفيا ثم لائذا، خاصة وأن القانون يتفق وطبيعتهم وضآلة ثقافتهم، وعلى ذلك فإن أى محاولة لأعمال الفكر كان لها الفشل حليفا، ومن ثم لم تحظ الآريوسية بنصــيب ما فى دنيا الغرب تلك. ويذكر بعض المؤرخين أن وجود جوليان قيصرا لغالة وانصراف قسطنطيوس إلى الأعداد للحرب الفارسية فى السنوات الأخيرة من حكمــه قد شجع أساقفة الغرب على الارتداد ثانية إلى الإيمان النيقى بعد ما أقروه فى ريمينى(٩٦)، وقد يكون ذلك عاملا مساعدا، فلم يكن جوليان آنذاك قد أفصح عن عقيدتــه، كما أنه لم يهتم بمذهب ما فى المسيحية، ولا بالمسيحية ذاتها كعقيدة، وإذا كــان الغـــرب قــد أمن إلى النيقية عقيدة، فقد كانت أسقفية ميلانو لا تزال خاضعة لأوكسنتيوس الآريوسى(٩٧).

وكان أوكسنتيوس فى معزل عن الهجوم طيلة عهد قسطنطيوس، فلما قضى هــذا نحبه، وكان هيلارى أسقف بواتييه قد عاد إلى غالة، وراح يشن هجوم عنيفا على الآريوسية بعامة فى غالة وإيطاليا، ويخص أسقف ميلانو باللعنة، وقد شاركه

---

(95) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12
(96) Watson, op. cit. pp. 14, 38
(97) AMB. Semo C. AUX. 1-37

جهـــده هذا يوسيبيوس أسقف فرسالى[٩٨]، فلما كانت سنة٣٦٤ وولى فالنتينيان أمر الغــــرب وقـــبل العقيدة السائدة بين رعيته[٩٩]، وشعر الأسقفان أن بقاء أوكسنتيوس عـــلى أســـقفية هامة لها فى الغرب شأنها[١٠٠]، لابد أن يوقع الضرر بالنيقية، ولهذا عـــولا، وهيلارى بالذات، على طرده من ميلانو، وقد سعيا فى ذلك لدى فالنتينيان فى ميلانو سنة ٣٦٤، وراحا يثيران الأساقفة والجموع ضد أوكسنتيوس، فشكا هذا الأمر للإمبراطور، وقد تقرر عقد مناظرة بين الطرفين.

وإذا كـــان هيـــلارى، كما تقول المصادر، قد كسب المناقشة، إلا أنه خسر القضـــية[١٠١]، ذلك أن الإمبراطور لم يكن على استعداد لأن يثير فى منطقة نفوذه نوعـــا مـــن الفوضـــى العقيديـــة الحادثة فى الشرق، ولهذا كان يؤثر الاعتقاد بأن أوكســـنتيوس صـــاحب الحق الشرعى فى أسقفية ميلانو، خاصة بعد أن مات سلفه ديونيســـيوس، وقـــد رفعـــت اللجـــنة التى شكلت للتحقيق تقريرها إلى الإمبراطور وأقـــرت هـــذه الحقيقة الأخيرة، وعليه أصدر فالنتينيان قراره ببقاء أوكسنتيوس فى منصـــبه، ولـــم يـــلق بـــالا لجهود هيلارى الذى أطلق على قرار الإمبراطور اسم "مرسوم الأحزان "[١٠٢].

تحصـــن رســـل الشـــرق برسالة ليبريوس أسقف روما، واتجهوا جنوبا إلى صـــقلية، حيـــث عقـــدوا مجمعـــا ضـــم أساقفة الجزيرة، واعترفوا فى حضرتهم بالهوموســـية وأعلـــنوا تمســـكهم بالإيمان النيقى، وحصلوا منهم على رسالة تؤيد مســـلكهم وتمـــتدح[١٠٣] ثـــم عادوا أدراجهم إلى الشرق ثانية، وكان اتحاد أنصاف

---

(98) SOCRAT. Hist. Eccl.III. 10

(99) Watson, op. cit. p. 49

(100) F. Jackson, Arianism, p. 781

(101) HILAR. Con. Aux.7 (p. l. x. 613)

(102) Ibid. 8 (P. L. X. 614), 14 (P. L. X. 617)
وراجع Watson, op. cit. pp. 50, 51

(103) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12

الآريوســيين والماكيدونيين قد تلقى صورة من رسالة ليبريوس، فعقدوا مجمعا سنة ٣٦٦ فى مديــنة الطوانة[١٠٤] Tyana ، حضره أثناسيوس أسقف أنقرة الذى خلف باســيليوس، وبلاجيوس Pelagius أسقف اللاذقية، وزينون Zeno أسقف صور، وجــريجورى أســقف نازيانـــزا وآخرون، وأعادوا الاعتراف بالهوموسية، بعد أن قــرئت الرســائل الــتى بعث بها ليبريوس وأساقفة مجمع صقلية ، وكتبوا بدورهم رســائل بعثوا بها إلى مختلف الأساقفة يدعونهم فيها إلى اتباع خطوهم، والاهتداء بما كتبه ليبريوس، وفى النهاية وجهت الدعوة لعقد مجمع قبل نهاية ربيع عام ٣٦٧ فى مدينة طرسوس[١٠٥].

وهكــذا جــاءت النهاية سريعة، ففى عام ٣٥٨ ظهر على مسرح اللاهوت فــريق أنصـــاف الآريوســيين، ليحيى ثمانى حجج، ثم اختفى من سجل الزمن هذا الاســم Semi-Arians بــرقوا فجــأة فى أنقرة ذلك العام، وصعدوا للسيادة فى ســيرميوم العام التالى، وكان هذا الفريق منذ اليوم الأول لظهوره قريبا من النيقية قــدر انتســابه للآريوســية، فلما لفظه الآريوسيون ألقى بنفسه فى أحضان أعدائه الأقربين.

وكــان هــناك جماعة من أساقفة آسيا يرفضون هذا الاتجاه من جانب اتحاد أنصـــاف الآريوسيين والماكيدونيين، وهؤلاء يكونون متطرفى الفريقين، من ثم فانه لـــلرد عــلى مجمـــع الطوانة، وتحديا للمجمع المقترح فى طرسوس، أسرع أربعة وثلاثــون أســقفا من هؤلاء، وعقدوا مجمعا فى كاريا Caria أعلنوا معارضتهم الكامــلة لمصطلح " الهوموسية " وأقروا المرسوم اللوقيانى، الذى صدر عن مجمع أنطاكية سنة ٣٤١، معتبرين إياه قانون الإيمان الحق الوحيد فى الكنيسة، وله وحده أن يعــلو عــلى كل قوانين الإيمان المسيحية الأخرى[١٠٦]. وفى الوقت ذاته شعر

---

(104) BASIL. Ep. CCXXVI, 3

وكذلك .SOZOM. Loc. cit

(105) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12

(106) Id.

يودوكســيوس بالأخطار التى تتهدد الهوموية نتيجة لهذا التحالف الجديد الذى يشكل فى الإمبراطورية أغلبية لا يستهان بها، بين أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين من ناحيــة والــنيقيين مــن ناحية أخرى ، ولذا فقد كتب إلى الإمبراطور فالنز يخبره بحقيقــة الأمــر، ولما كان الإمبراطور قد خرج لتوه من أزمة داخلية طاحنة كادت تــؤدى بعرشـــه، ويستعد فى الوقت ذاته لتأديب جماعات القوط التى أخذت تتهدد الإمبراطورية عند الدانوب، تلقى العماد على يد يودوكسيوس(١٠٧)، وأصدر أوامره بعدم عقد مجمع طرسوس المقترح(١٠٨).

ذلــك أنــه قــرب نهاية ٣٦٥، انتهز بروكوبيوس Procopius ، أحد قادة الجيــش، فرصــة خــلو العاصــمة مــن فالنز لانشغاله فى الشرق، وأعلن نفسه إمــبراطورا، مدعيــا أن الإمبراطور الراحل قد اختاره خلفا له عندما أهداه العباءة الإمــبراطورية(١٠٩)، وتمكن بروكوبيوس من أن يجمع حوله قوات كبيرة فى فترة قصــيرة(١١٠)، فــلما علم فالنز بذلك أصيب بحالة من " الهلع " قادته إلى " خبل فى تفكيــره " كمــا يــروى سقراط(١١١)، وقد أمضى الإمبراطور فالنز وقتا طويلا فى الاســتعداد لملاقــاة هــذا الدعى، ولم تبدأ الحرب بينهما إلا فى السنة التالية، حيث خــرج بــروكوبيوس مــن القسطنطينية متجها ناحية الشرق، وغادر فالنز أنطاكية لمواجهة منافسه، وعند ناقوليا Nacolia فى فريجيا التقى الجمعان، ولعبت الخيانة دورهــا، إذ أن قــائدى بــروكوبيوس، أجيلو Agilo، وجوموريوس(١١٢) Gom

(107) THEOD. Hist. Eccl. IV, 11

(108) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12

أيضا SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12

(109) AMM. MARC. Res gest. XXVI, 6

(110) SOCRAT. Hist. eccl. IV, 3

(111) Id.

(١١٢) يذكر أميانوس ماركللينوس اسميها على نحو آخر، إذ يقول انهما فلورنتيوس Florentius وباركالبا Barchalba .

انظر AMM. MARC. op. cit. XXVI, 10

orius غــدرا بسيدهما وسلماه حيا إلى فالنز الذى أمر بإعدامه، وما لبث القائدان أن لقيا نفس المصير(١١٣) وتخلص فالنز بذلك من فتنة خطيرة تتهدد سلطانه.

إلا أن فتــنة بروكوبيوس هذه كان لها أثرها المباشر على الإسكندرية، ذلك أنــه في هذا الوقت الحرج، تلقت مسامع فالنز أنباء تشير إلى أن شعب الكنيسة فى الإســكندرية يتحفز للثورة، منتهزا فرصة هذه الفوضى الداخلية فى الإمبراطورية، وذلــك تعــبيرا عن السخط الكامل لنفى أسقفه للمرة الخامسة، بل ربما بدأت بوادر الثورة فعلا فى المدينة كما ينبئنا بذلك سقراط(١١٤)، وأدرك الإمبراطور حرج موقفه ولــم يكــن عــلى اســتعداد لــلمغامرة بإرسال جزء من قواته لإخماد الثورة فى الإســكندرية فى الوقــت الذى يستحث فيه بروكوبيوس خطوه لمهاجمته، والفرس يــتحفزون للقفز على أرمينيا، كما أنه لابد وأن يكون قد دار بذهنه ما وقع من قبل عــلى عهد قسطنطيوس، عندما أرسل ماجننتيوس ورسله إلى الإسكندرية لاستمالة أثناسيوس، لأن الأسقف كان لا يزال على ولائه لقسطنطيوس، أما الآن فالحالة أشد خطــورة بعــد أن فقــد الإمبراطور كل ولاء له من جانب أثناسيوس، بعد إعلانه الصــريح الإيمان بالآريوسية، ولم يغب عن ذهن فالنز أبدا تلك الأهمية التى تمثلها مصر بموقعها واقتصادياتها فى صراع قد يطول أمده بينه وبين منافسه. وإذ وضع الإمــبراطور أمام ناظريه كل هذه الاعتبارات، أصدر أوامره على الفور باستدعاء أثناســيوس إلى أسقفيته(١١٥)، وأعلن ذلك فى الإسكندرية فى أول فبراير سنة ٣٦٦، بل أن الإمبراطور أمر أحد موظفيه فى مصر بأن يخف لاستقبال أثناسيوس، ومن ثــم قــام المــندوب إلى ذلك المكان الذى ظهر فيه الأسقف، تحيط به جموع شعب

---

(113) AMM. MARC. Res gest. XXVI, 6
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI, 5
وكذلك SOZOM. Hist. Eccl. VI, 8
(114) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 13
(115) SOCRAT. Loc. cit.
وكذلك HIST. ACEPH. XI, 16

الكنيسة لإعادة أثناسيوس إلى بيعته وحمايته حتى دخوله الكنيسة(١١٦). ووسط مظاهر الحفاوة هذه عاد أثناسيوس إلى أسقفيته، وانتهى بذلك نفيه الخامس الذى لم يستمر هذه المرة أكثر من شهور أربعة، وكان أقصر مرات نفيه زمانا.

ويعلق سوزومنوس على ذلك فى صراحة مفرطة بقوله: "لابد أن تساور الإنسان الشكوك فى الدافع الذى حدا بفالنز إلى التصريح لأثناسيوس بالعودة إلى أسقفيته. لا ريب أن ذلك لم يكن بناء على رغبته الخاصة، ولكن لابد أن يكون فالنز قد أقدم على ذلك خوفا من إثارة غضب فالنتينيان، الذى كان معروفا عنه ميله للنيقية، ولابد أيضا أنه كان يخشى حدوث الفتنة من جانب أولئك المتعلقين بالأسقف، وهم كثيرون، مخافة أن يؤدى ذلك إلى الأضرار بشئون الإمبراطورية العامة(١١٧).

ثم يضيف " وإنى لعلى يقين " أن هذه الأسباب وحدها هى التى أبقت أثناسيوس على أسقفيته فى الوقت الذى لقى فيه العنت عدد كبير من الأساقفة الآخرين(١١٨).

وإذا كان سوزمين قد ابتعد عن الصواب فى اقحام " غضب فالنتينيان " على أسباب عودة أثناسيوس ، ولعله كان متأثرا فى رأيه هذا بما أقدم عليه قسطنطيوس سنة ٣٤٦ عندما سمح بعودة الأسقف السكندرى اتقاء غضب أخيه قنسطانز ، إلا أنه أصاب كبد الحقيقة بعينها فى الجزء الأخير من تبريره ، والقول " بالخوف من الأضرار بشئون الإمبراطورية العامة " إشارة صريحة إلى فتنة بروكوبيوس ، وما أصاب فالنز من جرائها خشية أن تنضم مصر إلى جانب عدوه، ويقول سقراط " لقد عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية، وحرص الإمبراطور بعد ذلك على أن لا يعكر صفو سلام كنيسته، فقد كان يعلم تماما قوة تلك الجموع التى تؤيد أثناسيوس وتتعلق

(116) HIST. ACEPH. XI, 16

(117) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12

(118) Id.

بـــه، فلم يحاول أن يستثير غضبهم مخافة أن تتعرض أمور الدولة العامة للأخطار على يد السكندريين الذين كانوا بطبعهم جنسا غاضبا(١١٩).

الحقيقـــة الـــتى يذكرها سوزومنوس لا مراء فيها، فبينما عاد أثناسيوس إلى بيعته، بدأ فالنز اضطهادا عنيفا ضد كل الأساقفة الخارجين عن شركة يودوكسيوس أسقف العاصمة، وكان أشد تغيظا من أولئك الذين هجروا الآن آريوسيتهم وانضموا إلى النيقين، أعنى أنصاف الاريوسيين والماكيدونيين، ولذلك كان اليوزيوس أسقف كيزيكوس أول من تعرض ليد العذاب(١٢٠) فصدر قرار بعزله وتم رسم يونوميوس الآريوســـى المـــتطرف، تـــلميذ أيتيوس، أسقفا على المدينة(١٢١)، وأوقع الاضطهاد بالأســـقف النوفاتى آجيليوس Agelius الذى كان يتولى رعاية النوفاتيين منذ عهد قســـطنطين الكبير، ويقول سقراط، الذى كان يميل إلى هذه الطائفة، إن الاريوسيين كـــانوا يحمـــلون الكـــره الدفين للنوفاتيين، بسبب تعاطف هؤلاء مع الهوموسيين، واتفاقهم مؤخرا معهم فى العقيدة(١٢٢).

وفى عـــام ٣٧٠ مات يودوكسيوس أسقف القسطنطينية، فأسرع الهومويون باخـــتيار ديموفيلوس Demophilus أسقفا خلفا. غير أن الهوموسيين نظروا إلى وفـــاة يودكسيوس باعتبارها فرصة مواتية، فرسموا ايفاجريوس Evagrius أسقفا منافســـا(١٢٣)، وقد علم الإمبراطور بهذه الأحداث وهو فى نيقوميديا فى طريقه إلى الشرق، فخشى أن تمتد أيدى التخريب إلى المدينة نتيجة لما يمكن أن يؤدى إليه هذا الصراع العقيدى، فسارع إلى إرسال بعض كتائبه إلى العاصمة وأمر بالقبض على

(119) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 20
(120) Ibid. VI, 6
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV,8
(121) SOCRAT. Hist. Eccl. VI,7
وكذلك THEOD. Hist. Eccl. II, 37-39
(122) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 9
وأيضا SOCRAT. Hist . eccl. IV, 14
(123) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 13

ايفاجـــريوس[١٢٤]، واشتدت عملية الاضطهاد من جديد ضد النيقيين، ورسم مؤرخو الكنيســـة صورا عديدة عن هذا الاضطهاد[١٢٥]، لا نرى داعيا لذكرها فربما داخلها شئ أو كثير من المبالغة، ولكن كل ما يعنينا منها أن الإمبراطور وأسقف العاصمة الجديــد، كانـــا جـــادين فى تحقيـــق السيادة للآريوسية، وكانت الهوموية هى أمل الآريوسية الوحيد فى البقاء[١٢٦].

ومـــن رســـالة بعـــث بهـــا باسيليوس، الذى اعتلى كرسى الأسقفية فى قيسارية كـــبادوكيا ســـنة ٣٧٠[١٢٧]، إلى أســـاقفة إيطاليا وغالة نعلم مدى ما تعرض له خصوم الهومويـــة على عهد فالنز، ويقول إن هناك تفاصيل رأى أن لا يكتبها فى هذه الرسالة، وســـوف يوضـــحها لهـــم شماسة سابينوس Sabinus الذى يحمل رسالته إليهم[١٢٨]، ويذكـــر أنه لا توجد كنيسة واحدة لم تتعرض لهذه العاصفة التى هبت على الكنائس من الـــليريا إلى طيـــبة[١٢٩]، وينوح باسيليوس على أن خطورة العاصفة تتمثل بصورة أشد وقعـــا فى هذا الانقسام الداخلى الذى يهلك النيقية[١٣٠]، ثم يناشد أساقفة الغرب أن يمدوا يـــد العـــون إلى إخوانهم فى الشرق وذلك عن طريق اتجاه عدد كبير منهم إلى النصف الشـــرقى مـــن الإمبراطورية، وعقد مجمع كنسى لوضع حد لهذا الاضطهاد[١٣١]، وفى رسالة أخرى إلى أساقفة الغرب ردد باسيليوس نفس المعنى[١٣٢].

---

(124) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 15
(125) Ibid. IV, 15-17
وكذلك SOZOM. op. cit. 13-18
وراجع أيضا GREG. NAZ. Orat. XLIII, 46,XXXIII,4
(126) Gwatkin. The Arian Controversy, p. 130
(127) SOCRAT. Hist. Eccl. IV,26
وكذلك SOZOM. Hist. Eccl. VI,16
(128) BASIL. Ep. XCII, 1
(129) BASIL. Ep. XCII, 2
(130) Ibid. 3
(131) Ibid. 1, 3
(132) BASIL. Ep. XC

وكـــان باســـيليوس نفسه أكثر هؤلاء الأساقفة تعرضا لغضب الإمبراطور، حـــتي قبل أن يصبح أسقفا على قيسارية، فعندما كان فالنز فى طريقه إلى أنطاكية لـــلمرة الأولى، عمـــل عـــلى إثارة الشقاق بين باسيليوس وأسقفه يوسيبيوس(١٣٣)، وارتحـــل باســـيليوس بـــالفعل إلى أديرة بونطس، وأدى ذلك إلى ازورار كثير من اكـــليروس المـــنطقة عن يوسيبيوس، ونفخ فالنز وأساقفته، كما يقول سوزمين، من روحهم فى هذا الشقاق(١٣٤)، غير أن باسيليوس فطن إلى هذه الوقعية، فما أن غادر فالـــنز كـــبادوكيا قاصدا إنطاكية، حتى عاد باسيليوس إلى قيسارية(١٣٥). وفى عام ٣٧٢ زار فالنز كبادوكيا للمرة الثانية، وكان باسيليوس قد أصبح أسقفا لها، فأرسل إليه الإمبراطور حاكم الولاية يدعوه إلى الدخول فى شركة ديموفيلوس وإلا تعرض برفضـــه للإعـــدام(١٣٦)، وقد أجاب باسيليوس " أنى لا أملك شيئا أخاف عليه، ليس لـــدى سوى معطفى وبعض كتب، أفترش الأرض كغريب، والجسد عضه الهزال، ولن يستغرق أكثر من ضربة واحدة(١٣٧)، وقد ذكر لنا مؤرخو الكنيسة(١٣٨) روايات عديـــدة عمـــا حـــدث بين الإمبراطور وباسيليوس، كلها لاشك، نسجها خيال أولئك الكـــتاب، ولعـــبت فيهـــا الأســـطورة دورا، ولكنها تفصح فى النهاية عن إصرار باسيليوس على موقفه، وعدم رضوخه لتهديدات فالنز الإمبراطور.

أمـــا أثناسيوس فمنذ عاد من نفيه الخامس، وطوال سبع سنوات آتية، أمضى هذه الفترة سيدا على كنيسته بلا منازع، وتاريخ أثناسيوس خلال هذه الفترة الأخيرة

---

(133) SOZOM. Hist. Eccl. VIL, 15
(134) Id.
(135) Id.
(136) Ibid, 16
(137) SOZOM.Hist. eccl. VI,16
(138) GREG. NAZ Orat. XIII, 44-57
وأيضا GREG. NYSS. Con. Eunom. II, 290-205;
SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 26;
SOZOM.Loc.cit.;
THEOD. Hist. Eccl. IV, 16.

من حياته، هو تاريخ نفوذ أسقفية الإسكندرية ومكانتها فى عالم المسيحية، ورغم أن الآريوسـية الحكومية، أعنى الهوموية، قد شاء لها فالنز أن تصبح سيدة العقائد فى الدولة، وخاض فى سبيل ذلك صراعا مريرا مع مختلف الفرق المسيحية الأخرى، إلا أن الإمـبراطور لـم يستطع، بل لم يحاول أن يقترب من قلعة النيقية الحصينة، الإسـكندرية، فقـد كان يعلم يقينا أن وراء الأسقف يقف الأكليروس جندا، وجيش الرهـبان وزحوف شعب الكنيسة، ولم يفرغ فالنز من فتنة بروكوبيرس إلا ليواجه غـزو الجـرمان، ولا يكـاد هذا تخف حدته، حتى يسرع ليدفع عن حدوده جيش فـارس، ومـن بعد القوط الذين خر بسيوفهم صريعا عام ٣٧٨، لذا بقى أثناسيوس على كرسيه الأسقفى آمنا مطمئنا يجنى ثمار غرسه طيلة هذه السنين.

ولقـد سـعى الآريوسـيون ذات مرة للوقوف على قوة أثناسيوس، ففى ٢٤ سـبتمبر ٣٦٧، قدم لوقا الأسقف الآريوسى، الذى علمنا أن جوفيان رفض من قبل التصديق على رسامته بدلا من أثناسيوس، ودخل الإسكندرية ليلا[١٣٩] عله يفلح فى اقتسام الأسقفية مع أثناسيوس، متخذا من أنطاكية أنموذجا يحتذى.

غيـر أن نـبأ وصـوله فى الإسكندرية سرى مسرى البرق، فأقبلت جموع المسـيحيين[١٤٠] من كل حدب وصوب معلنة سخطها على اقتحام لوقا المدينة وفيها أسـقفها الشـرعى[١٤١] بل لقد امتد السخط مشوبا بالقلق إلى تراجان Trajanus القائد العسكرى، وتاطيانوس Tatianus الحاكم، فأرسلا من لدنهما بعض موظفى الإدارة لاصـطحابه خـارج المديـنة[١٤٢]. إلا أن هؤلاء الموظفين راعهم غضب العامـة وقد غصت بهم شوارع الإسكندرية ودروبها، وخشوا إن هم أخرجوا لوقا خارج المكان الذى يختبئ فيه، أن تفتك به هذه الجموع[١٤٣] بل إن حوليات رسائل

(139) HIST. ACEPH. XIII, 18
(140) Id.
(141) Id.
(142) Id.
(143) FEST. IND. XXXIX

أثناســيوس الفصـــحية تؤكــد أنهم حاولوا قتله فعلا[١٤٤]. ولابد أن ذكرى ما وقع لجــريجورى الكــبادوكى كانت ماثلة فى أذهان الجميع، ومن ثم رفعوا الأمر إلى رؤسائهم، فأقبل الحاكم وبرفقته القائد العسكرى ومعه بعض قواته واصطحبوا لوقا إلى قصـــر القــائد[١٤٥] حيــث أمضـــى ليلته ثم رافقه القائد إلى ضاحية " النصر" Nicopolis حيث سلمه إلى بعض الجنود ليذهبوا به خارج مصر كلها[١٤٦].

وهكــذا فشلت المحاولة التى يبذلها الآريوسيون لاختبار مدى قوة أثناسيوس فى الإســكندرية، ولا يــبعد أن يكـــون يوزيوس أسقف أنطاكية وراء هذه الواقعة، فهـــناك كـــان لوقـــا، وعلى يديه رسم، ولكن مسلك القائد العسكرى والحاكم يرسم صورة كاملة لسياسة الإمبراطور فالنز تجاه الإسكندرية وأسقفها، فلم يكن فى حالة تسمح له، أن يدخل فى حرب مع أثناسيوس.

وكـــانت هذه هى الحادثة الوحيدة التى شغلت بال أثناسيوس قليلا فى مصر طيـــلة هذه السنوات الأخيرة، وانطلاقا من السلام الذى كانت تعيشه كنيسته آنذاك، راح يشـــارك من جديد فى أحداث الكنيسة خارج مصر، وعاد مرة أخرى يصل ما كـــانت الدولـــة قـــد قطعـــته مـــن علاقـــات مـــع الغرب. لقد كان هذا الجزء من الإمـــبراطورية قريـــباً إلى قلب الأسقف السكندرى ، فقد كان يشكل فترة هامة من حياتـــه، وأحـــد ســـلاحى نـــزاعه مع الإمبراطورية، والغرب آنذاك يسعى جاهدا لـــلخلاص من الأثر الباقى للآريوسية ممثلا فى أوكسنتيوس أسقف ميلانو. وقد بذل هيـــلارى جهدا فائقا من أجل هذا، ولكنه مات سنة ٣٦٧ دون أن ينجح فى مسعاه. وكان ليبريوس الأسقف الرومانى قد سبقه إلى الموت بعام (٣٦٦) وخلفه الآن على

---

(١٤٤) يصـــف شاهد عيان تلك المظاهرة الضخمة التى تبعت لوقا من مكمنه إلى قصر القائد، وهم ينادون بصـــوت واحـــد " اقذفوا به خارج المدينة " . ويقول صاحب الرواية أن الوثنيين شاركوا المسيحيين هـــذه المظاهرة ولا ندرى ما جريرة لوقا تجاه الوثنيين .. ويبدو أن الكاتب أراد أن يشبهها بما حدث لجورج الكبادوكى من قبل .

راجع HIST. ACEPH. XIII, 18

(145) HIST. ACEPH. XIII, 18

(146) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 23

كرسى كنيسة روما داماسوس الأول[١٤٧] Damasus (٣٦٦-٣٨٤) الذى واجه فى بـدء أسـقفيته اضـطرابات دمويـة، نتجت عن منافسة واحد من الشمامسة يدعى أورسـيكيوس Ursicius ، وانتهت بتدخل حاكم المدينة وانتصار داماسوس[١٤٨]، ونـتيجة لهـذه الأحداث لم يستطع أسقف روما فى أول الأمر أن يواصل حملات هيلارى ضد أوكسنتيوس.

غيـر أنـه فى ٣٦٩ تقريبا، التقى فى روما تسعون أسقفا أدانوا أوكسنتيوس ورفاقه، وطلبوا من الإمبراطور فالنتينيان عزله من منصبه[١٤٩]. ومن رسالة بعث بها داماسوس إلى أساقفة الليريا نقف على حقيقة مجمع روما هذا وما تم فيه، حيث أعـلن الحضـور تمسكهم بالإيمان النيقى ورفض ما تم إقراره فى ريمينى، وتخلع الرسـالة على كرسى روما شيئاً من المكانة ، إذ تعتبر قرارات مجمع ريمينى عبثا حيـث أن أسقف روما لم يصدق عليها[١٥٠]. ولما كان موقف الإمبراطور واضحا فى هـذه المسـألة، فقد عزم داماسوس على توجيه الدعوة لعقد مجمع عام لاتخاذ قـرار يمثل وجهه نظر الكنيسة الجامعة فى مشكله أوكسنتيوس وبقائه على عرش أسقفية ميلانو[١٥١].

ويـبدو أن خطورة أو أوكسنتيوس بالنسبة للغرب لم تكن متجسدة فى مجرد وجـوده أسـقفا لميلانـو، بل لأن جهودا، لابد أن يكون هو من ورائها، بذلت فى الغـرب وأفريقيا لاعتبار ما تم فى مجمع ريمينى أساس الإيمان فى الكنيسة، وأنه بما ضم من أساقفة نيقية، يصبح أكثر شرعية من المجمع النيقى[١٥٢]. من أجل هذا، دفاعـا عن نيقية، وتضامنا من الغرب، واعترافا بحق الغرب على أثناسيوس، كتب الأسـقف السـكندرى سـنة ٣٦٩ رسالة مجمعية إلى أساقفة أفريقيا Ad Afros

(147) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 23.
(148) Id.
(149) Id.
(150) ATHANAS. Ep. Ad. Afros, 1-3
(151) ATHANAS. Ep. Ad. Afros, 1
(152) Robertson, op. cit. p. 488

Synodica epistola أشـــار فيها إلى الرسائل " العديدة والرائعة " التى بعث بها إليه داماسوس وأساقفة الغرب الذين عقدوا مجامع فى غالة وإيطاليا لإعلان ولائهم للإيمـــان الـــنيقى[١٥٣]، وحمـــل بعنف على أولئك الذين يسعون جاهدين لاستئصال مجمع نيقية وإعلاء شأن مجمع ريمينى، وأفصح عن زعماء هذا الفريق ومقته لهم، وهـــم أوكسنتيوس وفالنز الأسقف وأورساكيوس[١٥٤]، ودافع بحماسة بالغة عن آباء نيقيـــة، وأعلن سخطه الكامل على أساقفة ريمينى[١٥٥]، ودعا إلى عدم التسامح مع من لا يزال يتمسك بقراراته ونبذهم خارج الكنيسة[١٥٦].

عـــلى أن أهـــم ما نقف عليه فى رسالة أثناسيوس هذه، تلك السيادة الكاملة لأسقفية الإسكندرية على مصر وليبيا، فأثناسيوس يذكر فى نهاية رسالته أنه " ليس وحده الذى يكتب، بل كل أساقفة مصر وليبيا " ويقول " نحن جميعا على عقل رجل واحـــد "[١٥٧]. وهـــذه العـــبارة الأخيرة دليل واضح على مدى ما وصل إليه نفوذ أثناســـيوس وسيادته على كنائس أسقفيته. وقد التقى هؤلاء الأساقفة جميعا، وقد بلغ عددهم تسعين أسقفا، فى مجمع عقد بالإسكندرية[١٥٨]، وكتبوا رسالة إلى داماسوس ردا عـــلى رســـالته إلى أثناســـيوس ، أدانـــوا فيهـــا أسقف ميلانو وأيدوا دهشتهم واســـتياءهم لـــبقائه فى منصبه حتى الآن[١٥٩] وتحمل الرسالة أيضا شكر الأساقفة لداماســـوس والأخـــوة فى الغرب، الذين اجتمعوا فى روما وأعلنوا طردهم لفالنز وأورســـاكيوس من أسقفيتيهما،[١٦٠] وتطلب الرسالة إلى الجميع فى النهاية الحفاظ

---

(153) ATHANAS. Ep. Ad. Afros, 1.
(154) Ibid. 2
(155) Ibid. 3
(156) Ibid. 10
(157) Id.
(158) Id.
(159) Id.
(160) Id.

على الإيمان النيقى[١٦١]. على أن هذه الجهود التى بذلها أساقفة الغرب وشارك فيها أثناسيوس وأساقفته بهدف طرد أوكسنتيوس فشلت وظل على أسقفيته حتى مات سنة ٣٧٤.

وقد شهد العامان التاليان لهذه الرسالة المجمعية(٣٧٠-٣٧١) نشاطا فائقا من جانب أسقف الإسكندرية ليشكل فى الشرق للمرة الأولى منذ المجمع النيقى، جبهة نيقية واحدة تتصدى للأريوسية، سواء فى شكلها الحكومى، الهوموية، أو فرقها الأخرى، ولاشك أن أثناسيوس قد شملته سعادة غامرة وهو يرى علاقاته مع الغرب تعود سيرتها الأولى، وبدا ذلك واضحا من ختام رسالته إلى الأفريقيين[١٦٢]، فهاهو الآن يقف فى مصر يستند إلى قاعدة صلبة، ومن ورائه جيش الرهبان، والإمبراطور أقنع نفسه ضجرا بقبول السلام معه، ولم يتبق إلا أن يبحث عن حلفاء فى الشرق يقيم معهم هذه الجبهة الجديدة.

وكان الجيل الجديد للنيقية، والذى بحث عنه أثناسيوس يتمثل فى باسيليوس الكبير أسقف قيسارية الكبادوك، وأحد الكبادوكيين الثلاثة الإشهار فى اللاهوت، الذين يمثلون النيقية فى ثوبها الجديد الذى يتسم بالاعتدال والفكر[١٦٣]، والذى كان مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢ خطوة من أثناسيوس بلوغا إليه، وبين الرجلين دارت مراسلات عديدة، بقى منها رسائل باسيليوس، وهى ست رسائل تتناول بشكل عام أوضاع الكنيسة بحثا عن سبيل للحفاظ على كيانها الواحد دون شقاق، ومن رسالة بعث بها باسيليوس إلى أهالى قيسارية الجديدة Neocaesaria نقف على مدى الإعجاب الذى يكنه الأسقف الكبادوكى لأثناسيوس ، وتكشف عن روح الاعتدال التى تملكت الأسقف فى أخريات أيامه منذ عام ٣٦٢، إذ ينصحه- أثناسيوس بقبول أتباع الفرق الأخرى الذين يرغبون فى العودة إلى العقيدة النيقية دون تردد أو عراقيل[١٦٤].

(161) ATHANAS. Ep. Ad Afros, 10.
(162) Neander. Christ. Relig. And church, IV, Pp. 77, 78
(163) BASIL. Ep. CCIV, 6
(164) BASIL. Ep. LXI

وقد كتب أثناسيوس إلى باسيليوس يخبره أنه قد أصدر قرار الحرم الكنسى ضد حاكم ليبيا نتيجة لأعمال العنف و القسوة التى ارتكبها ضد أهالى المنطقة(١٦٥)، ورغم أن أثناسيوس هنا أعلن صراحة تحديه للسلطة- الإمبراطورية، إلا أن فالنز الإمبراطور لم يكن فى حاجة مطلقا إلى أن يثير من جديد غضب الإسكندرية ومصر بعقاب الأسقف الذى أهان نائبه فى ليبيا، وقد رد باسيليوس على رسالة أثناسيوس هذه، وأعلن أسفه للفظائع التى ارتكبت فى ليبيا، وتأييده الكامل للأسقف السكندرى فى موقفه(١٦٦). وهكذا أنفتح باب الصداقة بين رجلى النيقية، وجاءت رسالة باسيليوس الثانية إلى أثناسيوس تصفه بـ"الأب الممجد" وترجوه أن يترك ذكرى عطرة جديرة بحياته، يتوج فيها جهوده العديدة من أجل الكنيسة "(١٦٧)، وباسيليوس يشير هنا إلى الصراع الحادث فى أنطاكية ويدعو أثناسيوس إلى التدخل " لأنه ليس هناك أقدر منه على علاج هذه الحال "(١٦٨).

وعلى الرغم من أن هذه الرسائل وغيرها تدل على مدى الصداقة بين الرجلين إلا أنه كان من الصعب أن يلتقيا على فكر واحد فيما يختص بالشقاق الانطاكى، فقد كان أثناسيوس، كما علمنا، يؤيد كلية باولينوس أسقف النيقيين اليوستاتيين، على حين كان باسيليوس، كما أفصح عن ذلك صراحة فى رسالته الثالثة إلى أثناسيوس يأخذ جانب مليتيوس أسقف الأغلبية النيقية المعتدلة(١٦٩)،حيث يذكر أن خير علاج لهذا الصدع أن تتحد كل هذه الفرق تحت رعاية مليتيوس . على أن الرسالة تدلنا على شئ فى غاية الأهمية أيضا، فباسيليوس يدعو أثناسيوس فيها إلى التدخل لدى باولنيوس لإقناعه بالدخول فى شركة مليتيوس، ثم يقول : " ولاشك أن هذا سوف يرضى أساقفة الغرب الذين يقفون صفا واحدا وراء رأى أثناسيوس بتأييد باولينوس،

(165) BASIL. Ep. LXI
(166) BASIL. Ep. LXVI
(167) BASIL. Ep.LXVI
(168) BASIL. Ep. LXVII
(169) Id.

فإذا ما أقدم الأسقف السكندرى على ذلك تبعه الغرب دون عناء"(١٧٠).

وهــذه دلاله واضحة على ما كان يتمتع به الأسقف السكندرى من مكانة فى الغرب، وهى فى الوقت ذاته تأكيد جديد، لما رددناه كثيرا، من أن الغرب ظل على إيمانـــه التقـــليدى بعيدا عن الجدل اللاهوتى، والفكر العقيدى الذى يتسم به الشرق، ورأى فى أثناسيوس، تجسيدا لهذا الإيمان، ومن ثم كان من البديهى أن يؤيد الغرب كلـــه باوليـــنوس، تلميذ يوستاتيوس، صديق أثناسيوس، والنيقى السلفى كذلك، وهذه المسألة تتضح بجلاء من رسالة الأسقف الكبادوكى الرابعة إلى أثناسيوس(١٧١)، فهو يطـــلب إليـــه أن يكتب إلى أسقف روما يخبره بهذه الأحداث التى تقع فى الشرق، يعـــنى بذلك العنت الذى يتعرض له الخارجون عن الهوموية، وكذا الشقاق الحادث فى إنطاكيـــة، وهو يعلن بهذا ثقة الغرب فى الأسقف السكندرى ويدعم ذلك برسالة بعث بها أيضا إلى أساقفة الغرب(١٧٢)، نعلم منها أن أثناسيوس سلمه كل الخطابات الـــتى أرسلها هؤلاء الأساقفة إليه، ومن هنا ندرك أن الأسقف السكندرى كان يمثل حلقة الاتصال الوثيقة بين باسيليوس والغرب.

ولقد ازدادت المودة بين الرجلين، الآن، فارتفعت إلى مستوى السفراء، ذلك إن أثناســـيوس أرســـل من لدنه إلى باسيليوس أحد رجال اكليروسه يدعى بطرس، حيـــث استقبله الأسقف الكبادوكى بما يليق بمكانة سيده(١٧٣). وبادله باسيليوس ذلك فبعث إليه الشماس الأنطاكى دوروثوس Dorotheus ليعرض عليه حقيقة النزاع فى إنطاكية(١٧٤).

وفى عـــام ٣٧٢ كـــان فالـــنز قد ضيق على باسيليوس، بعد أن أطلق لسانه يهجـــو عقيـــدة الإمـــبراطور، فلما اشتدت به الضائقة كتب إلى أثناسيوس رسالته

(170) BASIL. Ep. LXIX
(171) BASIL. Ep. XCI
(172) BASIL. Ep. LXIX
(173) Id.
(174) BASIL. Ep. LXXX

الخامسة[١٧٥] يبث إليه فيها أحزانه وما نزل بساحته على يد الإمبراطور، ويصل به الوجد إلى القول :

"...ألا أستطيع فقط، بعون صلواتك، أن أكون جديرا برؤيتك، وبأن أحوز حسن سجاياك، وأن أضيف إلى قصة حياتى لقاء مع روحك الحقه الرسولية . عندها سوف أومن حقا أنى تلقيت من رحمة الله العزاء الذى يسرى عنى كل كرب حياتى " . ولكن أثناسيوس كان قد تقدم به العمر كثيرا، وحتى لو استطاع أن يلبى نداء باسيليوس، فمن المؤكد أن الإمبراطور لم يكن ليسمح بمثل هذا اللقاء. ويبدو أن باسيليوس أدرك هذه الحقيقية فكتب إلى أثناسيوس آخر رسائله[١٧٦] يستميحه عذرا إن هو أبطأ فى الكتابة إليه، ويقول :

" عندما أقلب ناظرى فى العالم حوالى، ،أدرك هذه الصعاب التى تحطمت على صخورها كل تلك الجهود، أصبح كمن يمشى فى الأغلال مصفدا، يتملكنى اليأس وينقطع عندى الرجاء، فإذا ما رددت بصرى تجاه وقارك، أتذكر أن الرب قد جعلك لكل هاتيك العلل فى الكنائس، واسترد روحى، وأسمو من غياهب القنوط إلى الأمل فى عليين، فحكمتك بادية، لم تجد بمثلها البيع" .

ومع أن الزمن لم يحفظ لنا رسائل أثناسيوس إلى باسيليوس، إلا أن شعور الأسقف السكندرى تجاه رجل اللاهوت الكبادوكى يتبدى من رسائل باسيليوس ذاتها، بالإضافة إلى أن هناك رسالة كتبها أثناسيوس فى ٣٧٢ إلى شخص يدعى باللاديوس Palladius يبدو أنه أحد مواطنى قيسارية كبادوكيا[١٧٧]، وأخرى بعث بها فى نفس العام إلى اثنين من رجال الأكليروس خارج مصر، لا نعلم عنهما شيئا، هما يوحنا Ioannes وأنطيوخس[١٧٨] Antiochus يصف فيها باسيليوس بأنه " الصديق المحبوب " والأخ الذى تتمنى كل الكنائس أن يكون راعيا لها " ،

(175) BASIL. Ep. LXXXII
(176) ATHANAS. Ad palladium.
(177) ATHANAS. Ad Ioan. Et Ant.
(178) BASIL. Ep. LXIX

ويعلن فيها عدم رضائه عن أولئك الذين يضعون العراقيل فى وجه الأسقف الكبادوكى، وهو يشير بذلك إلى خصوم باسيليوس.

وعلى الرغم من هذه العلاقة الوثيقة التى كانت تربط الرجلين والمودة الظاهرة، إلا أن اختلاف وجهتى النظر بينهما كان لاشك يباعد بينهما، وكان وقوف كل منهما فى جانب واحد من قطبى النزاع فى أنطاكية عاملا حاسما فى فشل أى جهد من أجل إعادة السلام إلى المنطقة. وهذا واضح من رسائل باسيليوس. يضاف إلى هذا أن أثناسيوس كان لا يزال يحتفظ بصداقته لماركللوس العجوز، أسقف أنقرة القديم، على الرغم من إدانته على يد عدد من المجامع، ولقد أعلن باسيليوس معارضته الكاملة لماركللوس وآرائه فى رسالته الرابعة إلى أثناسيوس(١٧٩)، وأبدى فيها أسفه على أن الأسقف السكندرى لم يعلن حتى الآن استنكاره لآراء ماركللوس. وكان هذا فى الحقيقة عنادا من أثناسيوس، أو ربما خجلا فى سحب صداقته لشخص أجمعت على إدانته جميع الأطراف، ويقول روبرتسون، إذا كان أثناسيوس قد أظهر المحاباة تجاه صديقه القديم، فإن ذلك كان يمثل الكرم الخاطئ(١٨٠). وكان هذا بلا ريب من بين الأسباب التى أدت إلى عدم تحقيق النجاح الذى كان يؤمله كل من الرجلين من أجل الكنيسة.

وفى عام ٣٧٢ كتب أثناسيوس رسالة إلى ابكتاتوس Epictetus أسقف كورنث(١٨١)، تبين أن الأسقف السكندرى ظل حتى السنة السابقة على وفاته نشيطا، يلقى بآرائه فى مختلف المشاكل التى تعن للكنيسة، فمن هذه الرسالة نعلم أن الحديث حول الطبيعة البشرية للمسيح، والآراء الآريوسية حول هذا الموضوع قد بدأت تتجدد ثانية وبشكل واضح. خاصة بعد أن جهر يونوميوس أسقف كيزيكوس بآرائه الأنوموية، ويشير أثناسيوس فى رسالته هذه أيضا إلى المجامع العديدة التى عقدت فى غالة وأسبانيا وروما ، والتى أدانت زعماء الآريوسية مثل فالنز الأسقف

(179) Robertson, op. cit. p. 63
(180) ATHANAS. Ep. Ad Epict.
(181) BASIL. Ep. CLIV

وأورســـاكيوس وأوكســـنتيوس . ومـــن رســـالة كتبها باسيليوس إلى أسخوليوس Ascholious أســـقف ســـالونيك يتبين مدى ما يحمله الأسقف اليونانى من تقدير لأثناسيوس واعجاب، وقد كتب هذه الرسالة حوالى سنة٣٧٣(١٨٢) مما يدل على أن مكانة الأسقف السكندرى ظلت تحتفظ بسمتها حتى سنة وفاته.

وفى الثانى من مايو ٣٧٣ مات أثناسيوس. وكان الأسقف قبل أن يودع دنياه بخمسة أيام، قد حرص على أن يسلم الكنيسة من بعده لواحد من مريديه، فاستدعى إليـــه قسيســـه الأثير بطرس ورسمه أسقفا خلفا، وأوصاه بالنيقية خيرا(١٨٣)، ولكن الإمـــبراطور فالـــنز كـــان يبحث عن موت أثناسيوس، بحثه للآريوسية عن حياة، وتـــلقفت آذانـــه نبأ الوفاة، فأدرك لفوره أن قلعة نيقية الحصينة فى الإسكندرية قد هـــوت، وأن عـــليه أن يغتنم ما واتاه به القدر، وتقدم يوزيوس أسقف أنطاكية إلى الإمبراطور الذى كان يقيم آنذاك فى المدينة، أن يأذن له بالارتحال إلى الإسكندرية لإقـــرار الأمـــور هـــناك(١٨٤)، ولم يسمح له الإمبراطور فحسب، بل استحثه على الإســـراع. وجـــاء يوزيـــوس وبصحبته لوقا طريد الإسكندرية، تحرسهما القوات العســـكرية، ويصـــحبها ماجنوس Magnus رئيس الخزانة(١٨٥). وكتب فالنز إلى نائـــبه فى مصر بالاديوس Palladius يأمره بتقديم العون العسكرى اللازم لرفع لوقـــا(١٨٦)، وقـــد أفـــلت بطـــرس من أيدى جنود الإمبراطور، كما أفلت من قبله أثناسيوس مرارا، وهرب خارج مصر يبحث عن أنصار سلفه وأستاذه(١٨٧)، وسلك نفـــس الســـبيل الذى رسمه من قبل أثناسيوس، فقد اتجه إلى الغرب أولا، وظل فى

---

(182) HIST. ACEPH. XIII, 19
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI, 19
وكذلك THEOD. Hist. Eccl. IV, 17
(183) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 20
(184) Id.
(185) Id.
(186) Ibid. 22
(187) Id.

ضـيافة داماسوس أسقف روما خمس سنوات (٣٧٣-٣٧٨)[188] حتى أذن له مقتل الإمـبراطور فالنز على يد القوط بالعودة إلى الديار. ويقول سقراط أنه على الرغم من أن عدد الآريوسيين فى الإسكندرية كان قليلا، إلا أنهم استطاعوا السيطرة على الكنائس فى المدينة[189]، وما أن حصلوا على مراسيم من الإمبراطور بأمر الحاكم بطرد كل أتباع الهوموسية من بيعهم والسيطرة عليها، حتى انطلقوا لا يلوون على شئ يسـيطرون عـلى كـل الكـنائس، لا فى الإسكندرية وحدها، بل فى مصر قاطبة[190].

وحـانت اللحظة الحاسمة للانتقام من أولئك الذين أعطوا أثناسيوس كل هذه القـوى ليتحدى بها الأباطرة والآريوسية، فاندفعوا إلى الصحراء يهاجمون الأديرة ويقذفـون بالرهبان إلى المنفى وبعضا إلى العذاب[191]. ويقول سوزمنوس أن لوقا هـو الذى قاد الجند والآريوسيين ضد الرهبان، فقد كان على يقين من أنه إذا تمكن من القضاء على معارضة هؤلاء، دانت له كنائس مصر كلها، ذلك أن هذه الأديار العديدة كان كل ساكنيها يحملون المقت كله والبغضاء لآريوس وعقيدته، وكان لوقا يؤمـن تمامـا أنه إذا ظل هؤلاء الرهبان بعيدين عن عقيدته وإرادته، فلن يستطيع مطلقا أن يفرض سيادته والآريوسية على الكنيسة، ومن ثم عزم على استخدام القوة لاستمالتهم أو قهرهم بعد أن فشلت سبل الإغراء[192].

وتنـتاب باسـيليوس حالة من الكآبة وهو يفقد صديق العقيدة، ويرى صرح الـنيقية وقد هوى، وأيدى الآريوسيين والإمبراطور تمتد لتنال من والاه، فيكتب فى نفـس العام رسالة إلى الإسكندريين يؤكد فيها مدى تأثره لما نزل بساحتهم، ويبدى أسـفه على عدم مقدرته مشاركتهم قدرهم، فقد أقعده المرض، ويهيب بهم أن يظلوا

---

(188) Id.
(189) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 20
(190) Id.
(191) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 20
(192) BASIL. Ep. CXXXIX

على الإيمان النيقى مقيمين(١٩٣).

وهكــذا قــدر للآريوســية فى صــيغتها الهوموية أن تظل سيدة العقائد فى الإمــبراطورية، مــن الــناحية الرســمية، طيــلة عهد فالنز، وأن تشهد خضوع الإســكندرية، قــلعة الــنيقية ولو إلى حين. ورغم أن الاريوسية عانت الكثير من خصــمها الــلدود، الــنيقية، إلا أن معاناتها مع نفسها كانت أشد وأقسى. ولم تصل الهوموية إلى السيادة إلا على أشلاء فرق آريوسية غيرها.

لاشــك أن أثناسيوس، قد استطاع بفكره وسياسته أن يحقق لأسقفيته بخاصة والكنيســة بعامة. نجاحا منقطع النظير، ولولا بقية من عناد لوصل بهما إلى النجاح كلــه. وكان هذا العناد يتمثل فى الوقوف عند صيغة الإيمان النيقى. فقد ظل أثناسيوس طيــلة حياتــه الأســقفية الــتى بلغت ستة وأربعين عاما (٣٢٨-٣٧٣) محافظا على " الهوموســية "، وتعرض فى سبيل ذلك للنفى خمس مرات، ورغم اقتناعه مع نفسه أن هذه الصيغة للإيمان ليست كاملة، وأنها وضعت أساسا للرد على العقيدة الآريوسية .

ولعل خير دليل على ذلك أن كتابات أثناسيوس كلها، وأسفاره الضخمة التى خــلفها وخاصة خطبه ضد الآريوسيين، التى يمكن أن نعدها تجاوزا عملا عقائديا. خــلت إلا مــن مــرة واحــدة من هذا المصطلح وهو " الهوموسية "، ولاشك أن أثناســيوس كــان يــدرك أن هذا التعبير كان السبب الرئيسى الذى فتح باب الجدل اللاهــوتى مــن حول المسيح على مصراعيه لزمن طويل، وكان تمسكه به راجعا أساسا، كما ورد فى رسالته إلى الأنطاكيين، إلى الخوف من أن يفتح باب الشك من حوله إذا حاول اتباع هذه العقيدة النيقية وضع تفسيرات أو شروح لها قد تؤدى إلى صــيغ جديدة، على النحو الذى حاوله هوسيوس القرطبى ونفر من رفاقه فى مجمع ســرديكا . وتصــدى له أثناســيوس ، خشية أن يصير حال النيقية إلى النحو الذى أمست عليه الآريوسية.

مــن أجــل هــذا كان من الصعب حقا، بل من العسير أن يلتقى رجل مثل

(193) BASIL. Ep. CXXXIX

أثناسيوس مع اللاهوتى الكبادوكى باسيليوس، حقيقية لقد أحب باسيليوس وقدّره، ولكنه خاف اعتدال فكره فلم يلتقيا، وكان شقاق أنطاكية فرصة لقاء، ولكنها الرغبة فيه وحدها دون الواقع، فأضاعت جهد الرجلين ميولهما، وكان إصرار أثناسيوس على صداقة ماركللوس، وقد سئمت من قضيته الكنيسة، مجاملة فى غير موضعها، أسرها باسيليوس فى نفسه ثم أبدها فى رسائله، لقد كان لقاء الرجلين مستحيلا وكان لابد أن يباعد بينهما، ويضيع منهما الجهود، أثناسيوس يحمل الفكر التقليدى وعقيدة الأسلاف وإيمان الجموع، وباسيليوس يمثل الجيل الجديد للنيقية، ويعتمد الفكر الحر، ويخرج بالتراث عقلانية جيل فى اللاهوت جديد.

ومن هنا كان نجاح أثناسيوس فى الغرب، حتى إن باسيليوس أعلنها صراحة فى رسائله بقوله أن الغرب كله يقف وراء فكر أثناسيوس، حقيقة لقد آمن الغرب بالأسقف السكندرى، ورأى فيه بعدا عن فلسفات الشرق الهلنستى وجداله، ولم يعمل الغرب فكره أبدا من أجل العقيدة، فقد كان دون متاهات لاهوتها ثقافة ومقدرة، ولذا تعلق بأثناسيوس، وجعل من قضيته له قضية وربطها بإيمانه، وظل وفيا له حتى مات . لكن هذه الشخصية العنيدة كانت بين حناياها فى بعض الأحيان، هنات الخوف والتردد الذى يصل إلى حد الخور. فعندما أصدر مجمع سرديكا قراراته بعودة أساقفة النيقية الذين نفاهم قسطنطيوس إلى كراسيهم الأسقفية، وأبدى الإمبراطور استعداده لرجوعهم، وجدنا بولس أسقف القسطنطينية يسرع بالعودة إلى بيعته فى الوقت الذى ظل فيه أثناسيوس يحتمى ببلاط قنسطانز، ولم يعد إلى الإسكندرية إلا بعد أن كتب إليه قسطنطيوس ثلاث رسائل، وأوصى إلى قواده أن يكاتبوه حتى يطمئن قلبه، وليس هذا حرصا أو حذرا من جانب الأسقف السكندرى، لأنه ظل طيلة عشر سنوات آتية يعتقد أن الإمبراطور لا يعلم شيئا عن الأحداث التى يدبرها الآريوسيين ضده، كما جرى بذلك قلمه فى دفاعه إلى الإمبراطور.

ويؤكد ذلك أيضا تلك الشذرة التى أوردناها آنفا، والتى تصف حالة أثناسيوس وهو فى القارب مع نفر من الرهبان قبيل أن يخبروه بمقتل الإمبراطور

جوليان، فقد أخذ بأمون " يهدئ من روعه ويسرى عنه " حسب تعبيره .

ولـــم يكن أثناسيوس بقادر أحيانا أن يصل بمجريات الأحداث إلى مصدرها الحقيقى، ولا أن يربط الوقائع ببعضها حتى يصل إلى الاستنتاج الصحيح. فرغم أن كـــل الأحـــداث التى وقعت فى الإسكندرية عقب انتهاء الحرب الأهلية التى شهدتها الإمبراطورية أثر مقتل قنسطانز، وانفراد قسطنطيوس بعرش الإمبراطورية، كانت تشـــير صـــراحة إلى أن أصابع الإمبراطور وراءها، إلا أن الأسقف السكندرى لم يستطع أن يدرك ذلك، ولم يلفت نظره أن هؤلاء الموظفين الذين قدموا الإسكندرية ورحـــلوا عنها لا لشيء إلا لإثارة الاضطراب والقلق فى نفس أثناسيوس ما هم إلا رســـل قســـطنطيوس، ونسى أيضا أن الإمبراطور لا يمكن أن يكون قد غفر له ما حسبه تحريضا لأخيه قنسطانز ضده عقب مجمع سرديكا، ولا تلك الرسائل الثلاث الـــتى بعث بها إليه يرجوه العودة إلى كرسيه الأسقفى، ولا ذلك الرد الجريء الذى قابلــه به فى أنطاكية عندما طلب منه تخصيص كنيسة للآريوسيين فى الإسكندرية. لم يدر بخلد أثناسيوس شئ من هذا كله، وراح يؤكد فى دفاعه إلى الإمبراطور أن الآريوسيين من وراء هذه الاضطرابات التى تثار ضده وأن الإمبراطور لا علم له بما يجرى، وأنه لو علم الحقيقة لأنصف أثناسيوس، ولاشك أن هذا يعد قصورا فى نظرة الأسقف السكندرى إلى الأحداث من حوله والربط بينهما وتحليلها ولعل ذكاء أثناسيوس قد خانه آنذاك .

لقـــد كان أثناسيوس حقيقة يتمتع بقدر كبير من الإصرار . وقوة الشخصية، والصـــلابة فى الرأي إلى حد العناد، والنفس الطويل إن صح هذا التعبير، والرجل بذلـــك يحمـــل أهـــم خصائص الشخصيتين المصرية واليونانية، طبعته بهما نشأته وثقافته، وتمثل هذا فى الإصرار الكامل على العقيدة التى آمن بها أسلافه، وخاصة أنموذجـــه الذى يحتذيه ديونيسيوس السكندرى، إلى الحد الذى وقف فيه يجابه بهما العـــالم أجمـــع بعد أن أصبح كله آريوسيا، وبعد أن خضع للإغراء أو الخديعة أو وهنت منه القوى هوسيوس القرطبى أبو المجامع وهان على نفسه ليبيريوس أسقف روما، وتعرض بسببها للطرد من أسقفيته خمس مرات.

وكـــان أثناســـيوس يفكـــر بصورة عملية عندما أقدم على الفرار بنفسه إلى الغـــرب عـــام ٣٣٩، ولـــم يذهب إلى صحارى مصر كما فعل فى المرات الثلاث التالية. ذلك أن الأسقف السكندرى كان قد عاد منذ فترة قصيرة جدا من الغرب بعد نفيـــه الأول الذى استطاع خلاله أن يكسب محبة وصداقة رجال الأكليروس هناك، ولـــذا أسرع بالالتجاء إلى هذه المنطقة ليرعى غرساً وضعه منذ قليل ولم يغب عن ذهـــن أثناســـيوس وهـــو يهـــرب إلى الغـــرب أن وجود أباطرة ثلاثة على عرش الإمـــبراطورية يحقق له ما يبتغى، وقد لمس ذلك عن قرب فى الرسالة التى شيعه بهـــا قسطنطين الثانى إلى أهل الإسكندرية سنة ٣٣٧، وعرف أثناسيوس جيدا كيف يســـتغل هـــذه الناحية، وتلك التيارات السياسية التى تجرى فى الإمبراطورية لبلوغ غايته إلى الحد الذى هدد فيه إمبراطور الغرب قنسطانز بأن يشهر السيف فى وجه أخيه قسطنطيوس سيد الشرق من أجل إعادة أثناسيوس إلى الإسكندرية .

يضاف إلى هذا أن أثناسيوس جعل من مشكلة النيقية قضية عالمية، فبعد أن كـــان للغرب فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ثمانية أساقفة فقط، وصل عددهم إلى المائة فى سرديكا عام ٣٤٣. ولاشك أن طبيعة فكر الغرب التى أهلته للبعد عن التعقيدات الفلســـفية الـــتى اصـــطبغ بها الشرق اليونانى، هى التى ساعدت أثناسيوس فى هذا سبيل. ويعبر جيبون عن هذه الحالة بقوله : إن ولايتى مصر وآسيا اللتين اصطبغتا بالـــثقافة اليونانية، عانتا كثيرا من جراء الجدل الآريوسى. ذلك أن الدراسة الجادة لـــلفكر الأفلاطونى والتأويلات الجدلية العابثة، والاصطلاحات الغزيرة، أمدت كلها إكليروس الشرق وجموعه بمعين لا ينضب من التعبير الفياض والتأويلات.

ووســـط جدلهـــم المـــتقد سرعان ما ينسى الأساقفة الشك الذى تنصح به الفلسفة وتمتدحه، والخضوع الذى يفترضه الدين ويحتمه، أما شعب الكنيسة فى الغرب فكان ذا روح أقل فضولية، ذلك أن عواطفهم لم تكن تثيرها الموضوعات الغامضة، وعقولهم لم تعـــتد عـــلى ممارســـة الجـــدل، ولغتهم الوطنية قاحلة، غير قادرة على أن تقترب من مســـتوى اليونانيـــة. وهكذا كان الجهل السعيد لكنيسة غالة، يتمثل فى أن هيلارى نفسه ظل لمدة ثلاثين سنة يعد المجمع المسكونى الأول غريبا عن العقيدة النيقية " .

وهيلارى نفسه يعترف بذلك صراحة عندما يذكر أنه قبل نفيه إلى الشرق لم يكن قد سمع عن الهوموسية. وإذا كان غريبا أن يتعرض هيلارى للنفى من أجل قضية أثناسيوس، رغم أن الرجلين لم يلتقيا أبدا، فإن ما يدعوا إلى الدهشة أنه فى الوقت الذى يتحدث فيها أسقف غالة عن رجل الإسكندرية فى تقدير واجلال، ويهاجم الإمبراطور دفاعا عن حق أثناسيوس، لم يذكر الأسقف السكندرى فى كل أسفاره الضخمة التى أورثنا إياها كلمة واحدة عن الأسقف الغالى، وأن كان هذا بدوره يضيف دليلا جديدا على مدى المكانة التى ارتقاها أثناسيوس فى الغرب.

وبنفس القدر من الفطنة أدرك أثناسيوس أن الغرب الآن(٣٥٦) قد أصبح تحت سيادة الإمبراطور قسطنطيوس الذى ظهرت عداوته له سافرة، ومن ثم لم يرتحل أثناسيوس إلى الغرب، وإنما احتمى فى هذه المرة وما تبعها بأصدقائه المخلصين رهبان مصر، وكان قد استطاع خلال أسقفيته الأولى والثانية أن يحظى بثقتهم واحترامهم، وبادلهم هو هذه الثقة والإجلال. فلما كانت أسقفيته الثالثة عمل أثناسيوس ما وسعته الطاقة على أن يدعم هذه الثقة، وأن يزيد من أواصر تلك الصداقة، حتى أصبح له الرهبان نعم المولى ونعم النصير، وتجلى ذلك فى انقاذه من أيدى جند الإمبراطور قسطنطيوس عندما هاجموا كنيسة ثيوناس سنة ٣٥٦، وفى إخفائه عن أعين السلطة الإمبراطورية طوال مراحل هروبه الثلاث الأخيرة.

ولم يخف على أثناسيوس القيمة الحقيقية التى يمثلها أولئك الرهبان، بمصريتهم الخالصة، وإيمانهم العميق البعيد عن إعمال الفكر وكراهيتهم للسلطة الرومانية، ومن ثم لم يكن غريبا أن يتخذ منهم ركيزة نضاله.

لقد كان أثناسيوس يعبر عن الشخصية السكندرية أصدق تعبير، وهى شخصية تميل بطبيعتها - كما وصفها تاكيتوس- إلى الشغب، أو كما يقول ديون كاسيوس بالجنوح إلى الثورة ، أو كما يصفهم المؤرخ الكنسى سقراط، بأنهم كانوا بطبيعهم جنسيا غاضبا. وهذه سمات زادها تأصلا فى أثناسيوس إدراكه التام لمكانه الإسكندرية مدينة وكنيسة؛ فالإسكندرية لم تنس فى يوم من الأيام أنها كانت

عاصمة لإمبراطورية عريضة قاعدتها مصر هى إمبراطورية البطالمة، ولم يغب عن ذهن مثقفيها أن مدارسهم الفلسفية كانت تضارع أثينا، فلما جاءتها المسيحية أضافت إليها بعدا جديدا، وأخرجت الإسكندرية للعالم المسيحى أشهر آباء اللاهوت. ولاشك أن أثناسيوس كان يتمثل كل ذلك أمام ناظريه، ويتراءى له أيضا وفود الكنائس الأخرى، والرسولية من بينها، تسعى إلى الإسكندرية تسأل أساقفتها الرأى فى كل ما يثار حول طبيعة المسيح.

ولا ريب أن موقف أثناسيوس على هذا النحو من الدولة، ما كان ليدور بخلد قسطنطين عندما رسم لخلفائه طريقا جديدا فى العلاقة بين الدولة والكنيسة ، وإذا كانت كفتا الدولة والكنيسة قد خرجتا متعادلتين هذه الجولة، فإن الميزان لن يلبث أن ينقلب فى صالح الدولة طيلة عمرها الآتى.

لقد احتوت الدولة والكنيسة فى الشرق تماما حتى أمست الكنيسة الشرقية دائرة من دوائر الحكومة، وأسقفها موظفا كبيرا لدى الإمبراطور.

الملاحق

ملحق رقم (١)

الحوار الذى دار بين الإمبراطور قسطنطيوس وليبريوس أسقف روما[1]

قسطنطيوس : رأيناه حقا ... باعتبارك مسيحى .. وأسقف مدينتنا، أن نرسل لك نحذرك كى تقلع عن أى اتصال مع حماقة ورعونة ذلك الملحد أثناسيوس، ذلك إنه قطع من شركة الكنيسة على يد المجمع، فإن العالم بأسره قد ارتضى هذا القرار.

ليبريوس : أيها الملك .. إن أحكام الكنيسة لابد أن تشرع بعدالة صارمة . لهذا .. إذا كان فى ذلك ما يدخل البهجة عليك .. ادع البلاط للاجتماع .. ولتنظر إذا كان أثناسيوس يستحق الإدانة .. ثم دع الحكم ينطبق عليه طبقا للتقاليد الكنسية ، لأنه ليس فى قدرتنا أن ندين رجلا .. لم يسمع ولم يحاكم .

قسطنطيوس : العالم كله أدان كفرانه . ولكنه كعادته منذ البداية سخر من الخطر.

ليبريوس : أولئك الذين وقعوا قرار الإدانة لم يكونوا شهود عيان لأى شئ وقع .. ولكنهم استحثوا بدافع العظمة .. والخوف من العار بين يديك .

الإمبراطور : ماذا تعنى بالعظمة والخوف من العار ؟

ليبريوس : أولئك الذين لا يحبون مجد الإله، أولئك الذين يعلقون كبير الفائدة على هباتك .. قد أدانوا رجلا لم يروه ولم يحاكموه .. ذلك شئ يخالف تماما كل مبادئ الرعية المسيحية .

الإمبراطور : لقد حوكم أثناسيوس حضوريا فى مجمع صور .. وأدانه فى المجمع كل أساقفة العالم .

---

(1) THEOD. Hist. Eccl. II,13

ليبريوس : لم يصدر ضده حكم حضورى ، فقد أدانه أولئك الذين التقوا هناك بعد انسحابه .

يوسيبيوس الخصى : " مقاطعا بغباء " .. لقد ثبت فى مجمع نيقية أنه يتبنى آراء تخالف تماما الإيمان الكاثوليكى .

ليبريوس : من بين كل أولئك الذين أبحروا إلى مريوط، وأولئك الذين أرسلوا لكتابة تقرير رسمى عن هذا المتهم، لم يوافق على الحكم الا خمسة فقط . مات منهم اثنان هما ثيوجنس وثيودور .. أما الثلاثة الآخرون الذين لازالوا أحياء فهم ماريس وفالنز وأورساكيوس وقد صدر حكم فى سرديكا ضد كل أولاء الذين ذهبوا إلى مريوط، ولقد قدموا التماسا إلى المجمع يطلبون الصفح عنهم لما سجلوه فى مريوط ضد أثناسيوس يمتلئ زيفا وتضليلا من جانب فريق واحد ، وهذا الالتماس لا يزال بين أيدينا .. والآن .. أى قضية إذن أيها الإمبراطور نؤيد ؟ مع من نقيم شركتنا ؟ مع أولئك الذين أدنوا فى البدء أثناسيوس ثم عادوا يطلبون الصلح عما قدمت أيديهم والغفران ؟! .. أم مع الذين أدانوا أولاء النفر؟

ابيكتاتوس : Epictetus الأسقف[٢]. سيدى الإمبراطور .. ليس هذا من أجل الإيمان .. ولا دفاعا عن القضاء الكنسى أن يترافع ليبريوس ، ولكن فقط ليتباهى أمام مجلس السناتو أنه أفحم الإمبراطور جدالا.

الإمبراطور : (مخاطبا ليبريوس) .. أى نصيب نظمته للعالم .. بكونك وحدك تتآلف مع رجل مارق ، وتحطم سلام الإمبراطورية بل والدنيا بأسرها ؟

ليبريوس : إن وقوفى وحدى لا يجعل الحق ضعيفا، وتبعا، لما تقوله القصة القديمة، فإن هناك ثلاثة رجال تحدوا القرار.

---

(٢) أسقف (Civita Vecchia) Conyunmcellae . يصفه أثناسيوس بأنه تابع وقح ، على استعداد لأى أذى ، صنيعة جورج الكبادوكى ، آريوسى من أسوا طراز ، لعب دورا بارزا فى استبدال فليكس بالبابا ليبريوس فى أسقفية روما بوسائل غير شرعية أو شريفة .
راجع ATHANAS. Hist. Arian. 75

يوسيبيوس الخصى : إنك بهذا القول جعلت من إمبراطورنا نبوخذنصر.

ليبريوس : لقد أدنت رجلا دون أية محاكمة و كل ما أبتغيه الآن .. أن يكون هناك فى المقام الأول إقرار عام للإيمان الذى تقرر فى مجمع نيقية، وأن يستدعى ثانية كل الأخوة الذين تم نفيهم وأن يُعودوا إلى بيعهم، فإذا ما تم ذلك، أمكننا أن نرى أن مراسيم الإيمان لكل أولئك الذين يملأون الكنائس الآن بالمتاعب تتفق مع الإيمان الرسولى... والمدعين، وبعد فحص القضية سوف نصدر حكما فيهم .

ابيكتاتوس : لن تكون هناك وسائل نقل كافية لحمل عدد كبير من الأساقفة.

ليبريوس : إن المسائل الكنسية يمكن أن تتم دون وسائل نقل ، والكنائس على استعداد لأن تقدم كل الوسائل لنقل الأساقفة الموقرين إلى شاطئ البحر.

الإمبراطور : إن الحكم الذى صدر مرة يجب أن لا ينقض، والقرار الذى أصدره جمع الأساقفة حاشد، لزمت سيادته . أنت وحدك تحافظ على الصداقة مع ذلك الرجل المارق .

ليبريوس : أيها الإمبراطور .. ذلك شئ لم نسمع به من قبل، أن يتهم القاضى ذلك الغائب بالمروق كما لو كان عدوه الشخصى .

الإمبراطور : لقد تعرض الكل بلا استثناء لأذاه وضراره ، ولكن أحد لم يلق ما لاقيته أنا .. لم يقنع بموت أخى الأكبر ولم يتوقف عن إثارة قنسطانز طيب الذكر، عداوة لى .. ولكنى .. بكل الاعتدال حاولت أن أوقف سورة الغضب بين المحرض والضحية. وليس هناك نصر واحد من الذى تحقق لى ، ولا حتى الذى لم يكن متوقعاً على ماجننتيوس وسيلفانوس ، يعادل طرد هذا الوغد من هيئة الكنيسة.

ليبريوس : لا تبرر مقتك وغضبك أيها الإمبراطور بالأساقفة .. فهؤلاء لا ترفع أيديهم الا للتطهر والنقاء، وإذا كان يرضيك فلتأمر الأساقفة بالعودة إلى ديارهم، وإذا ظهر أنهم على عقل رجل واحد معه، ذلك الذى يحمل اليوم مراسيم

الإيمان الحق التى تم التوقيع عليها فى نيقية، فلتدعهم يأتوا سويا وليهتموا بسلام العالم ، ذلك أن رجلا بريئا، لا يجب أن يكابد الضرار كما لو كان مستهدفا للعار.

الإمبراطور : شئ واحد فقط مطلوب منك .. أود أن تدخل فى شركة مع الكنائس .. ولتصغ لنداء السلام ..*ولتعط توقيع موافقتك، بعدها سوف تعود إلى روما .

ليبريوس : لقد ودعت من قبل الأخوة فى المدينة. إن إيمان الكنيسة أعظم بكثير من البقاء فى روما .

الإمبراطور : أمامك ثلاثة أيام لتعطى توقيعك على الوثيقة وتعود إلى روما، فإذا رفضت فاختر لنفسك مكانا قصيا .

ليبريوس : لا ثلاثة أيام ولا حتى ثلاثة شهور سوف تغير عقيدتى ..

ملحق رقم (٢)

بعض الالتماسات التى قدمها الآريوسيون فى الإسكندرية للإمبراطور جوفيان وهو فى أنطاكية من جانب لوقا Lucius (الأسقف الآريوسي فى الإسكندرية) وبرنيقيانوس Bernicianus وأخرين من الآريوسيين ضد أثناسيوس[٣].

الالتماس الأول

الذى قدموه والإمبراطور راحل إلى المعسكر عند البوابة الرومانية ..

الآريوسيون ــ ألا يتفضل معاليكم وعظمتكم ورحمتكم بسماعنا ؟!

الإمبراطور ــ من تكونون .. ومن أين جئتم ؟

الآريوسيون ــ مسيحيون أيها السيد .

الإمبراطور ــ من أى بقعة .. وأية مدينة ؟

الآريوسيون ــ الإسكندرية .

الإمبراطور ــ وماذا تريدون ؟

الآريوسيون ــ نطمع أن يتفضل عظمتكم بأن يجعل علينا أسقفا .

الإمبراطور ــ لقد قررت أن يكون أثناسيوس أسقفا علُى كرسى الإسكندرية.

الآريوسيون ــ لو تفضلتم .. لقد أمضىَ فى المنفى سنين عددا .. ولصقت به اتهامات عديدة .

---

(٣) انظر ATHANAS. Ep. Ad Iov. (Appendix. Nicene and P. N. F. IV, P. 567).

وفجأة .. تقدم أحد الجنود ليقول فى حنق وغيظ .. " إذا سمح لى عظمتكم .. اسألهم عمن يكونون ومن أين جاءوا .. لأن هؤلاء فضلات ونبذ كبادوكيا .. بقايا ذلك الدنس جورج الذى أقحل المدينة والدنيا .. وعندما سمع الإمبراطور ذلك . لوى عنان فرسه .. وارتحل إلى المعسكر .

الالتماس الثانى

" لدينا اتهامات وأدلة ضد أثناسيوس .. ففى خلال هذه السنين الثلاثين طرد من طيبى الذكر قسطنطين وقسطنطيوس ، وجلب على نفسه النفى على عهد الإمبراطور الدين والفيلسوف .. المبارك جوليان" .

الإمبراطور : كل هذه الاتهامات على كر هذه السنين.. أضحت الآن مبتذلة. لا تتكلموا أمامى عن أثناسيوس، لأنى أعرف تماما لماذا اتهم .. وكيف كان يتم نفيه .

الالتماس الثالث

الآريوسيون : والآن .. لدينا اتهامات أخرى ضد أثناسيوس .

الإمبراطور : إن صدق القضية لن يتضح عن طريق هذه الكوكبة من الرجال ولا الجلبة ، اختاروا اثنين من بينكم .. ومن حزب الأغلبية مثلهما .. لأنى لا أستطيع أن أجيب كلا على حدة ..

ممثلو الأغلبية : هؤلاء فضلات الدنس جورج .. الذى أجدب أقاليمنا، والذي لم يسمح لناصح أن يقيم بيننا .

الآريوسيون : إذا تفضلتم عظمتكم .. فلتختر أى رجل عدا أثناسيوس .

. **الإمبراطور** : لقد أخبرتكم أن مسألة أثناسيوس قد أصبحت منتهية تماما (ثم أشار إليهم بغضب أن يصمتوا) .

الآريوسيون : ولكن ليعلم عظمتكم أنكم إذا أرسلتم أثناسيوس فإن مدينتنا سوف تدمر .. ولن يدخل فى شركته أحد .

الإمبراطور : لقد بذلت الجهد .. وتأكد لدى أن الحق هو ما يؤمن به .. وأنه أرثوذكسى وأن تعاليمه الصواب .

الآريوسيون : الحق فى فمه .. وفى روحه الخبث .

الإمبراطور : هذا ما سوف يكون .. الحق فى فمه .. لقد شهدتم بذلك وتعاليمه الصواب .. فإذا ما كان يعلم وينطق الصدق بلسانه والحق .. ونفسه على الدنس مطوية .. فسوف يجئ بذلك أمام الرب .. فنحن بشر .. نسمع ما يقال .. ولكن الله عليم بذات الصدور .

الآريوسيون : فلتجعلنا إذن فى الشركة سويا .

الإمبراطور :" لماذا .. وما الذى يمنعكم ؟

الآريوسيون : لقد أعلنا منشقين .. مستبدين .

الإمبراطور : هذا واجبه .. واجب الذين يعلمون الحق ..

الآريوسيون : إنا لن نستطيع معه صبرا .. ولقد استولى على كل أراضى الكنيسة.

الإمبراطور : الآن فقط .. لقد جئتم من أجل الملكية .. ولم تأتوا من أجل الإيمان .. إذن فلتخرجوا .. ولتحفظوا السلام .

وأضاف مخاطبا الآريوسيين .. اذهبوا إلى الكنيسة غدا .. فهناك فى الغد اجتماع .. ستجدون هناك أساقفة .. وستجدون أيضا رئيس دار المحفوظات Nemesins .. وسوف يوقع كل منكم حسب عقيدته .. ستجدون هناك أيضا أثناسيوس وكل من لا يدرى عن الإيمان شيئا، فليأخذ عن أثناسيوس . أمامكم يومان .. وبعدهما فأنى مرتحل إلى المعسكر .

الالتماس الرابع

قدم من جانب لوقا الأسقف الآريوسى على باب القصر .

لوقا : إذا تفضلتم .. هلا أصغيتم لى ؟

هنا توقف الإمبراطور وقال ــ خبرنى لوقا .. كيف جئت إلى هنا .

بالبر أم بحرا ؟

لوقا : بالبحر .

الإمبراطور : حسنا .. لوقا .. ألا يكون رب العالمين .. والشمس والقمر غاضبين على أولئك الذين صحبوك فى الرحلة، لأنهم لم يقذفوا بك فى اليم ؟ ربما تجد هذه السفينة من بعد ريحا مواتية ، وربما أيضا لن تجد بمن عليها مرفأ آمنة عندما تعترضها العاصفة .

ولقد سأل الآريوسيون بروباتيوس Probatius عن طريق يوزيوس وأتباعه.. خلفاء يوسيبيوس وبارديو Bardio الخصيين .. من أنهم يجب أن يتلقوا العون والتأييد .. ولقد علم الإمبراطور بذلك فأنزل بالخصيين العقاب، قائلا : إذا سولت لأحد نفسه أن يقدّم التماسا ضد المسيحيين .. فليكن ذلك قدره، وطردهم الإمبراطور.

ملحق رقم (٣)
المجامع الكنسية التى جاء ذكرها فى الكتاب

مجمع أنطاكية سنة ٢٦٢ : عقد لمناقشة آراء بولس أسقف سميسطاء، الذى نادى بأن المسيح مجرد إنسان وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى، وأنكر أقنومى الابن والروح القدس، معتبرا إياهما مجرد قوتين فى الله كقوتى العقل والتفكير فى الإنسان. وقد أصدر المجمع قراره بإدانة بولس وعزله من منصبه ولعن آرائه واعتبارها هرطقة . وقد وجهت الدعوة إلى ديونيسيوس أسقف الإسكندرية لحضور هذا المجمع، ولكن تقدم العمر به حال دون ذلك، وإن كان قد أرسل إلى المجمع رأيه كتابة.

مجمع روما سنة ٣١٣ : دعا الإمبراطور قسطنطين العظيم لمناقشة الانشقاق الكنسى الحادث فى كنيسة قرطاجة، والذى عرف فيما بعد بالانشقاق الدوناتى وقد أدان المجمع الدوناتيين، لأنهم أعلنوا رفضهم قبول المارقين زمن الاضطهاد فى شركة الكنيسة ثانية .

مجمع آرل سنة ٣١٤ : وهو الذى كان يمثل، حسب تعبير القديس أوغسطين، عالمية عالم قسطنطين، حيث ضم أساقفة الجزء الغربى من الإمبراطورية، والذى كان يسيطر عليه قسطنطين آنذاك ، وقد التأم عقد هذا المجمع بعد أن رفض الدوناتيون قرارات مجمع روما ، وقد صدق هذا المجمع الجديد على إدانة الدوناتيين.

مجمع الإسكندرية سنة ٣١٩ : دعا إليه اسكندر أسقف الإسكندرية لبحث آراء آريوس القس السكندرى، الذى نادى بخلق المسيح وجعله فى مرتبة تالية للاله، وضم هذا المجمع الأكليروس السكندرى وأصدر قراره بإدانة آريوس وتحريم تعاليمه واعتبارها هرطقة.

مجمع الإسكندرية سنة ٣٢١ : وقد ضم أساقفة مصر وليبيا، صدق على قرارات المجمع السابق .

مجمع الإسكندرية سنة ٣٢٤ : ترأسه هوسيوس أسقف قرطبة الذى أوفده الإمبراطور قسطنطين العظيم إلى الإسكندرية، وحمله رسالة إلى اسكندر وآريوس بهدف فض هذا النزاع اللاهوتى ، فلما فشل هوسيوس فى مهمته دعا إلى عقد هذا المجمع وأصدر من جديد قرار الأدانة ضد آريوس .

مجمع أنطاكية سنة ٣٢٤ : عقد أيضا برئاسة هوسيوس فى طريق عودته إلى الإمبراطور قادما من الإسكندرية، وتقرر فيه إدانة آريوس ، كما تم أيضا رسامة يوستاتيوس أسقفا لأنطاكية، وهو الذى غدا من بعد ألد أعداء العقيدة الآريوسية.

مجمع نيقية سنة ٣٢٥ : وهو أول المجامع المسكونية فى تاريخ الكنيسة، وقد دعا إليه الإمبراطور قسطنطين العظيم، وضم ٣١٨ أسقفا يمثلون كنائس الإمبراطورية بعامة، وكان الهدف الأساسى من عقده، إصدار قرار حاسم فى مسألة العقيدة الآريوسية التى أدت إلى وقوع الانقسام فى الكنيسة، وقد أصدر المجمع قراره بإدانة آريوس ولعن تعاليمه، وتمخض المجمع عن صيغة للعقيدة عرفت بقانون الإيمان النيقى، تعد قاعدة الإيمان الأرثوذكسى، وتضمنت تلك العبارة الشهيرة التى شغلت الفكر اللاهوتى طوال القرن الرابع الميلادى، وهى أن الابن " مساو للآب فى الجوهر" أو ما عرف بـــ" الهوموسية " .

مجمع أنطاكية سنة ٣٣٠ : للفصل فى النزاع بين يوسيبيوس أسقف قيسارية فلسطين ويوستاتيوس الأسقف الأنطاكى، بعد أن أتهم كل منهما زميله بالمروق عن الإيمان النيقى ، وتم فيه عزل يوستاتيوس من منصبه وإدانته ونفيه .

مجمع قيسارية سنة ٣٣٣ : وكان الهدف الأساسى من وراء الدعوة إليه، أن يقوم الأسقف السكندرى أثناسيوس بتبرئة نفسه من الاتهامات التى وجهت إليه

من جانب خصومه الآريوسيين والمليتيين، غير أن المجمع انفض بقرار من الإمبراطور بنقل جلساته إلى صور، وقد رفض أثناسيوس حضور هذا المجمع .

مجمع صور سنة ٣٣٥ : يعد استكمالا لمجمع قيسارية ، وكانت السيادة فيه لأساقفة الآريوسية، بزعامة يوسيبيوس أسقف نيقوميديا ، وقد أرغم أثناسيوس على حضور هذا المجمع، وأن كان قد ارتحل إلى القسطنطينية قبل أن ينفض المجمع . وقد أصدر الأساقفة قرارهم بإدانة أثناسيوس وعزله من أسقفية .

مجمع أورشليم سنة ٣٣٥ : وهو تتمة طبيعية لمجمعى قيسارية وصور، وعقد بمناسبة تدشين الكنيسة التى كان قسطنطين قد أمر ببنائها هناك، وفى الوقت ذاته الاحتفال بالعيد الثلاثينى لاعتلاء قسطنطين العرش، وقد صدق المجمع على قرارات مجمع صور، وأضاف إليها تبرئة آريوس، وقبولة فى شركة الكنيسة ثانية، والسماح له بالعودة إلى الإسكندرية.

مجمع الإسكندرية سنة ٣٣٩/٣٣٨ : دعا إليه أثناسيوس بعد عودته من منفاه فى غالة، وذلك للتصدى لمحاولات الآريوسيين الجديدة التى تستهدف التخلص منه، وقد حضره أساقفة مصر والمدن الخمس الغربية (بنتابوليس) وليبيا، وأصدروا رسالة مجمعية أعلنوا فيها تبرئة أثناسيوس من كل ما نسب إليه .

مجمع أنطاكية سنة ٣٣٩/٣٣٨ : وقد دعا إليه اليوسابيون، خصوم أثناسيوس، حيث تقرر فيه اختيار جريجورى الكبادوكى الآريوسى، ليعتلى كرسى الإسكندرية الأسقفى بدلا من أثناسيوس .

مجمع روما سنة ٣٤٠ : ترأسه أسقف روما، وضم أساقفة إيطاليا، عقد بعد فرار أثناسيوس من الإسكندرية والتجائه إلى روما، وجاءت قرارات المجمع كلها مؤيدة لأثناسيوس وغيره من الأساقفة الآخرين الذين تم عزلهم على يد الآريوسيين وتأييد إمبراطور الشرق قسطنطيوس، ومنهم ماركللوس أسقف أنقرة ، وبولس أسقف القسطنطينية، وأسكلبيوس أسقف غزة .

مجمع أنطاكية سنة ٣٤١ : وهو الذى عرف باسم " مجمع التدشين "، نسبة إلى افتتاح الكنيسة المثمنة التى كان قسطنطين قد بدأ فى بنائها وأكملها من بعده ولده قسطنطيوس ، وقد ضم أساقفة الشرق الآريوسيين وأصدر عددا من المراسيم العقيدية، وكان أهمها على الإطلاق المرسوم الثانى أو ما شاع باسم " المرسوم اللوقيانى"، وهو الذى حمل اسم المجمع فيما بعد وعرف بمرسوم التدشين .

مجمع سرديكا سنة ٣٤٣ : كانت الفكرة الأساسية من وراء عقده أن يضم أساقفة شطرى الإمبراطورية للوصول إلى صيغة ملائمة للعقيدة المسيحية، غير أن الانقسام وقع منذ اللحظة الأولى بين أساقفة الشرق والغرب ، فعقد الأساقفة الغربيون مجمعهم فى سرديكا، وأعلنوا تمسكهم بقانون الإيمان النيقى، وأعطوا تأييدهم الكامل لأثناسيوس ورفاقه وأدانوا أساقفة الشرق .

مجمع فيليبوبوليس سنة ٣٤٣ : وهو الشق الثانى من مجمع سرديكا، وضم أساقفة الجزء الشرقى من الإمبراطورية، وهم الآريوسيون، وقد أعلنوا إيمانهم بالمرسوم الأنطاكى الرابع، مع بعض إضافات يسيرة ، وأدانوا أساقفة الغرب بالإضافة إلى الإدانة التقليدية للأسقف السكندرى أثناسيوس.

مجمع أنطاكية سنة ٣٤٤ : وقد دعا إليه الإمبراطور قسطنطيوس بعد أن جاءته رسل أساقفة الغرب يحملون إليه قرارات المجمع السرديكى وتهديدات أخيه قنسطانز إمبراطور الغرب ، وقد صدق المجمع على عزل اسطفانوس أسقف أنطاكية واختيار ليونتيوس بدلا منه ، كما أصدر مرسوماً جديداً عرف بالمرسوم المطول، يعد صورة جديدة للمرسوم الأنطاكى الرابع وما لحق به فى فيليبوبوليس. كما أدان المجمع فوطين أسقف سيرميوم الذى يقول بأن المسيح محض إنسان، وأنكر وجوده قبل كل الدهور خلافا لما تؤمن به الكنيسة .

مجمع أورشليم سنة ٣٤٦ : ترأسه ماكسيموس أسقف المدينة وضم عددا من أساقفة فلسطين، وأعلن ترحيبه بعودة أثناسيوس من نفيه الثانى، وتأييده للأسقف السكندرى، وزوده برسالة إطراء إلى شعب الكنيسة السكندرى .

مجمع سيرميوم الأول سنة ٣٤٧ : عقد بهدف إدانة فوطين أسقف سيرميوم لآرائه فى المسيح، وإن كان فوطين رغم ذلك قد ظل أسقفا لمدينته .

مجمع سيرميوم الثانى سنة ٣٥١ : دعا إليه الإمبراطور قسطنطيوس بعد هزيمة منافسه ماجننتيوس فى موقعة مورسا، وتقرر فيه ثانية إدانة فوطين، وعزله من كرسيه الأسقفى. كما أصدر المجمع وثيقة إيمان عرفت بمرسوم سيرميوم الأول يعد تكراراً للمرسوم الأنطاكى الرابع وإضافات فليليبوليس، وأضيفت إليه سبع وعشرون أناثيما ضد فوطين وأستاذه ماركللوس أسقف أنقرة .

مجمع آرل سنة ٣٥٣ : ضم أساقفة غالة بناء على دعوة الإمبراطور قسطنطينوس الذى أصبح الإمبراطور الفرد للإمبراطورية بعد انتحار ماجننتيوس. وقد رأس المجمع ساتورنينوس أسقف آرل الآريوسى، وحضره مندوبون عن البابا، ووافق الجميع فيه على إدانة أثناسيوس .

مجمع ميلانو سنة ٣٥٥ : يعتبر امتدادا لمجمع آرل ، وقد رأسه الإمبراطور بنفسه، وشهده أساقفة الغرب الإمبراطورى، وأعطوا فيه توقيعهم على إدانة أثناسيوس ، وقد شذ عن هذا الجمع ديونيسيوس أسقف ميلانو، ويوسيبيوس أسقف فرسالى فى إيطاليا، ولوكيفريوس أسقف كاليارى فى سردينيا ، فتم نفيهم .

مجمع بيتراى سنة ٣٥٦ : فى غالة .. وقد دعا إليه ساتورتينوس أسقف آرل بوحى من الإمبراطور، وتم فيه إدانة هيلارى أسقف بواتييه بعد أن أعلن تأييده أثناسيوس .

مجمع سيرميوم الثالث سنة ٣٥٧ : كان من أبرز زعمائه جرمينيوس أسقف مدينة المجمع، وفالنز أسقف مورسا، وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم ، وقد صدر عنه ما عرف بمرسوم سيرميوم الثانى وهو ينكر تماماً ألوهية الابن التى تقرها المراسيم الأخرى ، ويعلن أن الآب أعظم من الابن فى المجد والكرامة ، وقد عرفت هذه الجماعة بـــ " الأنومويين "

مجمع أنطاكية سنة ٣٥٨ : دعا إليه أسقفها يودوكسيوس للتصديق على مرسوم سيرميوم الخاص بالعقبدة الأنوموية .

مجمع أنقرة سنة ٣٥٨ : عقده نفر من أساقفة آسيا الصغرى برئاسة باسيليوس أسقف أنقرة، وأصدروا صيغة جديدة للإيمان عرفت بالهومويوسية وهى تعنى أن الابن مشابه للآب فى الجوهر، وهم بذلك يقفون وسطا بين النيقيين الآريوسيين الأصليين، ومن ثم أصبحوا يعرفون باسم أنصاف الآريوسيين .

مجمع سيرميوم الرابع سنة ٣٥٨ : دعا إليه الإمبراطور قسطنطيوس، وضم عددا من الأساقفة بينهم فالنز أسقف مورسا وأورساكيوس وجرمينيوس للتوقيع على مرسوم الهومويوسية الذى أتى به أنصاف الآريوسيين من أنقرة .

مجمع ريمينى سنة ٣٥٩ : حضره أربعمائة من أساقفة الغرب بناء على دعوة الإمبراطور، وتزعمه فالنز أسقف مورسا وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم. وظهر فيه منذ البداية الانقسام واضحا بين الأغلبية النيقية والاريوسية، وتمسك النيقيون بعقيدتهم، بينما أصر الآريوسيين على أن يرتضى الجميع صيغة " المرسوم المؤرخ " الذى صدر فى سيرميوم فى ٢٢مايو سنة ٣٥٩، وأرسل الفريقان مندوبيهم إلى الإمبراطور، وأقدم النيقيون على إدانة زعماء خصومهم . وفشل المجمع فى الوصول إلى اتفاق . غير أن الأساقفة جميعا أقتيدوا بعد ذلك، بناء على أوامر الإمبراطور إلى التوقيع على مرسوم مجمع نيقا، الذى يبرز " التشابه " بين الابن والآب دون تحديد لنوعيته، وهو ما عرف بالعقيدة " الهوموية " وأصبح مرسوم نيقا يعرف فيما بعد باسم مرسوم ريمينى .

مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ : ويعتبر الشق الثانى لمجمع ريمينى، حتى أنه يطلق عليهما معا " المجمع المزدوج " حيث كانت النية متجهة أولا لعقد مجمع واحد، ثم انتهى الأمر بانقسامه على هذا النحو . حضر مجمع سلوقية مائة وستون أسقفا كلهم من الآريوسيين، الأنومويون، الهومويون يمثلون الأقلية ولكنهم يشكلون القوة الحقيقية فى المجمع وأبرز زعمائهم أكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين.

وأنصاف الآريوسيين وهم الأغلبية وعلى رأسهم باسيليوس أسقف أنقرة . وقد اتخذ كل منهم موقفا معارضا فى مسألة الإيمان . أنصاف الآريوسيين أعلنوا تمسكهم بالمرسوم اللوقيانى ، والهومويون أصروا على " الشبهية " . وأرسل كل منهم مندوبيه إلى القسطنطينية بعد أن أدان أنصاف الآريوسيين خصومهم . وهكذا أخفق المجمع فى الوصول إلى التوقيع على مرسوم إيمان نيقا الذى يبرز العقيدة الهوموية.

مجمع نيقا سنة ٣٥٩ : ضم مندوبى أساقفة ريمينى النيقيين، وكانوا قد انتقلوا إلى هذه المدينة بناء على أوامر الإمبراطور، وقد اختيرت هذه المدينة بالذات بعناية حتى يختلط مرسوم الإيمان الصادر فيها بمرسوم الإيمان الصادر سنة ٣٢٥ عن مجمع نيقية . وقد تم استمالة مندوبى الغرب إلى التوقيع على " المرسوم المؤرخ " – المشار إليه سابقا – بعد أن حذفت منه عبارة " كل شئ " (أى الابن يشبه الآب فى كل شئ). وكان هذا تأكيدا واضحا للعقيدة الهوموية ، وهو المرسوم الذى وقعه أساقفة ريمينى وسلوقية .

مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠ : وفيه تقرر التصديق النهائى على مرسوم إيمان نيقا، الموقع عليه فى ريمينى وسلوقية، وهو الخاص بالعقيدة الهوموية . وهذا المجمع يعد تتمة طبيعية لمجامع ريمينى وسلوقية ونيقا.

مجمع أنطاكية سنة ٣٦١ : دعا إليه يوزيوس أسقف أنطاكية الآريوسى، منتهزا فرصة وجود الإمبراطور فى المدينة، وانشغاله تماما بالأعداد للحرب الفارسية، محاولا إحياء الأنوموية ثانية ، وأصدر المجمع مرسوم إيمان جديد يعلن التخلى عن " الهوموية " والعودة إلى الأنوموية ثانية .

مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢ : عقد بعد عودة أثناسيوس من نفيه الثالث، وكانت أهم المسائل التى شغلت فكر الأسقف السكندرى فيه محاولة توحيد الكنيسة ضد خطر الوثنية ممثلا فى الإمبراطور جوليان ، ولهذا كانت أهم المسائل التى تعرض لها المجمع إصلاح الشقاق الحادث فى كنيسة أنطاكية بين اليوستاثيين

والمليتيين ، هذا بالإضافة إلى مسألة قبول الآريوسيين، أولئك الذين صدقوا على قرارات مجمع ريمينى، ويريدون الآن العودة إلى شركة الكنيسة الكاثوليكية ثانية .

مجمع أنطاكية سنة ٣٦٤ : عقده الاكاكيون، أتباع أكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين، وهم الهومويون فى الشرق، ورأس المجمع مليتيوس أسقف أنطاكية، وأكاكيوس . ووقع الجميع وثيقة فى شكل رسالة إلى الإمبراطور جوفيان أعلنوا فيها اعترافهم بالإيمان النيقي، غير أنهم فسروا مصطلح " الهوموية " بأنه يعنى " التشابه فى الجوهر " أى أنهم تمسكوا بكلمة " التشابه" أصل عقيدتهم، وأن كانوا قد حددوه الآن فى الجوهر.

مجمع لامساكوس سنة ٣٦٤ : على الهللسبونت، ضم اتحاد أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين، وقرر رفض قانون الإيمان الذى تم التصديق عليه فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، وأكدوا تمسكهم بمرسوم الإيمان الصادر فى أنقرة سنة ٣٥٨ أى " الهومويوسية " (التشابه فى الجوهر)، وطالبوا بضرورة عزل يودوكسيوس أسقف القسطنطينية ورفاقه .

مجمع صقلية سنة ٣٦٥ (أو ٣٦٦) : ضم أساقفة الجزيرة ومعهم رسل اتحاد أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين، الذين جاءوا إلى روما سنة ٣٦٥، وقدموا إلى أسقفها ليبريوس وثيقة إيمان يعلنون فيها إنكارهم لقرارات مجمع ريمينى فى أمر العقيدة ، وفسروا مصطلح " الهومويوسية " بأنه لا بختلف كثيرا عن " الهوموسية " وأنهم من أجل ذلك يصدقون على قانون الإيمان النيقى، وقد أعلن هؤلاء المندوبين من جديد فى صقلية إيمانهم بالهوموسية .

مجمع الطوانة سنة ٣٦٦ : التقى فيه أنصاف الآريوسيين والماكيدونيون وفى مقدمتهم أثناسيوس أسقف أنقرة الذى خلف باسيليوس وبلاطيوس أسقف اللاذقية وغيرها، وأعادوا الاعتراف بالهوموسية، بعد أن تلقوا رسالة من ليبريوس أسقف روما وأخرى من مندوبيهم فى صقلية .

مجمع كاريا سنة ٣٦٧ : دعا إليه المتطرفون من أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين الذين رفضوا الاتجاه الجديد الذى سار فيه الفريقان، وأعلنوا معارضتهم الكاملة لمصطلح " الهوموسية " وأقروا المرسوم اللوقيانى (الأنطاكى الثانى) معتبرين إياه قانون الإيمان الحق الوحيد فى الكنيسة .

مجمع روما سنة ٣٦٩ : شهده تسعون أسقفا من أنحاء إيطاليا والغرب وترأسه داماسوس الأول أسقف روما، وأعلن المجمع إدانته لأوكسنتيوس الآريوسى أسقف ميلانو، وأرسل إلى الإمبراطور فالنتينيان يطلب إليه الموافقة على عزله، وأعلن تمسكه بالإيمان النيقى ورفض مرسوم ريمينى .

مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٩ : دعا إليه الأسقف السكندرى أثناسيوس، وضم تسعين أسقفا يمثلون كنائس مصر والمدن الخمس الغربية وليبيا، وذلك لتأييد أسقف روما داماسوس فى جهوده لعزل أوكسنتيوس الآريوسى من أسقفية ميلانو. وهذا المجمع فى حد ذاته دليل واضح على مدى نفوذه أثناسيوس ودوره خارج مصر حتى سنى عمره الأخيرة .

ملحق رقم (٤)
الأباطرة الذين عاصرهم أثناسيوس قبل أن يتولى الأسقفية

دقلديانوس – (٢٨٤-٣٠٥)

ماكسيميانوس – فى الغرب – (٢٨٦-٣٠٥)

جاليريوس (٣٠٥ – ٣١١)

قسطنطيوس كلوروس – فى الغرب – (٣٠٥ – ٣٠٦)

ماكسيمين دازا (٣٠٨ – ٣١٣)

ليكينيوس – فى بانونيا – (٣٠٧ – ٣١٣)

قسطنطين – فى الغرب – (٣٠٦ – ٣٢٣)

ليكينيوس – فى الغرب – (٣١٣ – ٣٢٣)

بعد توليه الأسقفية

قسطنطين (٣٢٣ – ٣٣٧)

قسطنطيوس – فى الشرق – (٣٣٧ – ٣٥٠)

قسطنطين الثانى – فى الغرب (٣٣٧ –٣٤٠)

قنسطانز – فى الغرب (٣٣٧ – ٣٥٠)

قسطنطيوس منفردا – (٣٥٠ – ٣٦١)

جوليان – (٣٦١ – ٣٦٣)

جوفيان – (٣٦٣ – ٣٦٤)

فالنز – (٣٦٤ – ٣٧٨)

فالنتينيان الأول – فى الغرب – (٣٦٤ – ٣٧٥)

ملحق رقم (٥)
أشهر أساقفة الآريوسية الذين عاصروا أثناسيوس

١- أكاكيوس - أسقف قيسارية فلسطين، خليفة يوسيبيوس القيسارى فى منصبه، يعتبر زعيما للعقيدة الهوموية فى الشرق، ويعد الجناح الأخر لأساقفة البلاط فى هذا الجزء من الإمبراطورية، قدم وثيقة إيمان الهوموية فى مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ وهى التى تتفق إلى حد كبير مع مرسوم ريمينى، وهى العقيدة التى ارتضاها الإمبراطور قسطنطيوس ثم الإمبراطور فالنز بعد ذلك إيمانا للإمبراطورية، تخلى فى النهاية عن عقيدته الهوموية ، بل والآريوسية كلها ليصل بالنيقيين المعتدلين فى أنطاكية صفوفه .

٢- أوكسنتيوس - أسقف ميلانو، وهو من الآريوسيين الأنومويين، ومن جماعة الأساقفة السياسيين، يعتبر الجزيرة الآريوسية الوحيدة وسط محيط النيقية فى الغرب، ومن ثم تعرض للهجوم من جانب أتباع نيقية أكثر مما تعرض غيره، وكان على رأس الأساقفة الخصوم فى الغرب هيلارى أسقف بواتييه وليبريوس وداماسوس أسقفا روما، غير أن أوكسنتيوس ظل فى أسقفيته بفضل حماية الأباطرة له حتى مات سنة ٣٧٤، ولكن ذلك لم يعفه بعد من النقد اللاذع من جانب القديس أمبروز أسقف ميلانو الشهير .

٣- باسيليوس - أسقف أنقرة، الذى خلف ماركللوس النيقى، زعيم فريق أنصاف الاريوسيين، أو الهومويوسيين القائلين بالتشابه بين الابن والأب فى الجوهر، وهى العقيدة التى ظهرت فى مجمع أنقرة سنة ٣٥٨ . تمكن من استمالة الإمبراطور قسطنطيوس إلى جانبه بعض حين لما كان يحمله له من احترام، ولم يستطع أن يتصدى لهجوم الهومويين فوحد صفوفه مع الماكيدونيين أتباع ماكيدونيوس القائل بخلق الروح القدس، ورغم ذلك لم يتمكن من مجابهة قوة خصومه وعلى رأسهم فالنز وأورساكيوس ، ولهذا انضم فريقه فى النهاية إلى

النيقيين، أعداء الآريوسيين التقليديين، عندما أعلن رسل الفريق أمام ليبريوس أسقف روما اعترافهم بالهوموسية .

٤- ثيوجنس – أسقف نيقية، من أشد المتحمسين للعقيدة الآريوسية، صحب يوسيبيوس النيقوميدى فى نفيه سنة ٣٢٥ وعاد معه بعد ثلاث سنوات ، شارك بدور إيجابى فى الأحداث التى أدت إلى عقد مجمع صور سنة ٣٣٥ ونفى أثناسيوس إلى غالة .

٥- فالنز – أسقف مورسا فى بانونيا ، أحد رجال لجنةمريوط المنبثقة عن مجمع صور، والتى جاءت إلى الإسكندرية للتحقيق فى الاتهامات التى وجهت إلى أثناسيوس . يمثل هو وزميله أورساكيوس أسقف سينجيدونوم أشهر تلاميذ يوسيبيوس النيقوميدى، وأبرز زعماء أساقفة البلاط، لم يحافظ على آريوسيته عندما غدت السيادة مؤقتا للنقية بعد مجمع سرديكا سنة ٣٤٣ ، ظهر نفوذه واضحا عقب انتصار الإمبراطور قسطنطيوس فى معركة مورسا وأصبح من أشد المقربين إلى الإمبراطور، تقلب بين الأنوموية والهومويوسية والهوموية فى سبيل الحفاظ على علاقته ونفوذه لدى الإمبراطور، قام بدور بارز فى سبيل فصل أساقفة الشرق عن أساقفة الغرب فى ريمينى وسلوقية سنة ٣٥٩ ، وكان له أكبر الأثر فى حمل أساقفة ريمينى ومندوبيهم فى نيقا على التوقيع على مرسوم الهوموية ، وقد شاركه رفيقه أورساكيوس معظم هذه الجهود .

٦- يودوكسيوس – أسقف أنطاكية ، ثم أسقف القسطنطينية من بعد . من أشد المتحمسين للعقيدة الأنوموية، ومن أبرز زعماء أساقفة البلاط ، وفى سبيل ذلك اضطر إلى التخلى عن الأنوموية أمام تهديدات الإمبراطور والاعتراف بالهوموية شأن زميليه فالنز وأورساكيوس .

٧- يوزيوس – أسقف أنطاكية بعد يودوكسيوس . رفيق آريوس فى دعوته منذ كان فى الإسكندرية، ورفيقه فى منفاه، واشترك معه فى تقديم وثيقة الإيمان إلى الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٢٨ عند العفو عنهما . ثم اختفى من مسرح الأحداث

تماما ليظهر بعد ذلك فى نهاية عهد قسطنطيوس وليصبح أسقفا لأنطاكية . كان ينتمى إلى فريق الأنومويين ولم يتخل عن عقيدته هذه، بل حصل من الإمبراطور على الاعتراف بها فى مجمع أنطاكية سنة ٣٦١ . قدم كثيرا من التأييد للآريوسيين فى الإسكندرية ضد أثناسيوس، وشارك فى رسم لوقا أسقفا بعد موت أثناسيوس، حيث جاء إلى الإسكندرية وحث الآريوسيين على مهاجمة الرهبان أنصار أثناسيوس .

٨- يوسيبيوس النيقوميدى - أسقف نيقوميديا ثم القسطنطينية، عرف بطموحه، كان رائدا لأساقفة البلاط أو الأساقفة السياسيين، تعرض للنفى بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥، ثم أعيد بقرار الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٢٨، وتزعم العقيدة الآريوسية وخلع على أصحابها المحافظين اسمه فأصبحوا يعرفون باليوسابيين، لعب دورا كبيرا فى نشر الآريوسية فى الشرق الرومانى، وكان من ألد أعداء أثناسيوس، وأفلح فى نفيه مرتين على يد قسطنطين العظيم، ثم قسطنطيوس من بعده .

٩- يونوميوس - أسقف كيزيكوس على عهد الإمبراطور فالنز، وهو تلميذ آيتيوس السورى، يعد المؤسس الحقيقى للعقيدة الأنوموية، التى حملت اسمه فيما بعد وعرفت باليونومية، وهى التى تنكر أى تشابه بين الابن والأب، وكان آيتيوس قد جهر بهذه العقيدة على عهد قسطنطيوس، وأيده فى ذلك كل من فالنز وأورساكيوس أسقف أنطاكية وأوكسنتيوس أسقف ميلانو .. ثم سار يونوميوس بهذه العقيدة حتى بلغ بها أقصاها ، وهو الإنكار الكامل لألوهية المسيح خلافا لما تؤمن به الكنيسة الكاثوليكية .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأصلية

AMBROSIVS, De Fide ad Gratianum Augustum : Nicene X 2, 199 – 314 (=P. L. XVI 527 – 698) – Sermo contra Auxentium : Nicene X2, 430 – 435 (=P. L. XVI 1007 – 1018). Valentiniano Imperatori, ep. XVII : Nicene X2, 411- 414 (= P. L. XVI 961- 971) – Valentiniano Imperatori, ep. XVII : Nicene X2, 417 – 422 (=P. L. XVI 971 – 982) – Valentinono Imperatori, ep. XXI: Nicene X2, 427 – 429 (=P. L. XVI 1002 – 1007) – Vercellensi ecclesiae, ep. LXIII : Nicene X2, 457 – 473 (=P. L. XVI 1188 – 1220).

AMMIANVS MARCELLNVS, Res Gestae, trans. By John C. Rolfe in 3 vols. London 1935.

Ante- Nicene Fathers. Ed. By A. Robets – J. Dona Idson. Michigan 1892 sqq.

ATHANASIUS, Adversus Gentes Libri duo (oratio contra Gentes : Nicene IV, 2, 1- 30 (=P. G. XXV 4 – 96)- (oratio de incarnatione Verbi : Nicene IV 2, 31- 67 (= P. G. XXV 96 – 197) – Epiatola encyclica : Nicene IV 2 : 92 – 96 (= P. G. XXV 221 – 223) – De Sententia Dionysii : Nicene IV

2, 176 – 186 (= P. G. XXV 480 – 521) – Apologia Contra Arianos : Nicene IV 2, 100 – 147 (= P. G. XXV 248 – 409) – Vita S. Antoni : Nicene IV 2, 195 – 221 (=P. G. XXVI 836 – 976) – Ad episcopos Aegypti et Libyae : Nicene IV 2, 223 – 235 (=P.G. XXV 537 – 593) – Apologia ad imporatorem Constantium : Nicene IV 2, 238 – 253 (=P. G. XXV 596 – 641) – Apologia de fuga sua : Nicene IV 2, 255 – 263 (=P. G. XXV 644 – 680) – Historia Arianorum ad Monachos : Nicene IV 2, 270 – 302 (=P. G. XXV 696 – 796) – Orationes contra Arianos : Nicene IV 2, 306 – 447 (=P.G. XXVI 12 – 525) – Epistola de Synodis Arimini in Italia et Seleuciaie Isauria celebratis : Nicene IV 2, 451- 480 (=P. G. XXVI 681-793) – Tomus ad Antiohenos : Nicene IV 2, 483 – 486 (=P. G. XXVI 796 – 809) – Ad Afros episcopos : Nicene IV 2, 489 – 494 (=P.G.XXVI 1029 – 1084) – Narratio Athanasii ad Ammonium episcopum. Nicene IV 2, 487 (=P. G. XXVI 980 – 981)Epistolae duae ad Amunem monachum: Nicene IV 2, 556-557 (= P.G. XXVI 1169 – 1180) – Ad Dracontium: Nicene IV 2, 557-560 (=P.G. XXV 524-526 Ad Luciferum epistolae duae. Nicene IV 2, 561-562 (= P.G.

XXVI 1181 – 1184) – Ad Monachos epistolae duae: Nicene IV 2, 563 – 564 (= P.G. XXV 692-693, XXVI 1185-1190) – Ad Serapionem de morte Arii: Nicene IV 2, 564-566 (=P.G. XXVI 885-889) - Ad Rufinianum: Nicene IV 2, 566-567 (= P.G. XXVI 1180-1181) –Ad Iovianum imperatorem: Nicene IV 2, 567-568 (=P.G. XXVI 813-824) – Epistola duae ad Orisium: Nicene IV 2, 569-570 (=P.G. XXVI 977-980 – Ad Epictetum: Nicene IV 2, 570-574 (=P.G. XXVI 1049-1069) – Ad Adelphium episcopum : Nicene IV 2, 575-578 (=P.G. XXVI 1072-1084) - Ad Maximum philosophum: Nicene IV 2, 578-579 (=P.G. XXVI 1085-1089) – Ad Palladium: Nicene IV 2, 580-Ad Diodorum: Nicene IV 2, 580 – Ad Ioannem et Antiochum: Nicene IV 2, 579-580.

Historia Acephala: Nicene IV 2, 494-499.

Chronicon Athanasianum (The Festal Letters and their index: Nicene IV 2, 500-553 – Depositio Arii: Nicene IV 2, 69-71 (= P.G. XXVI, 691-695) – Epistola "de decreties Nicaenae Snodi contra Arianos": Nicene IV 2, 150-172 (=P.G. XXVI , 415-476).

AVGVSTINVS, Contra Cresconium grammaticum Donatistam: P.L. XLIII 445-594- De baptismo contra Donatistas: Nicene IV 1, 407-514 (= P.L. XLIII 107-244).

BASILIVS, De Spiritu Sancto: Nicene VIII 2, 1-50 (=P.G. XXXII 68-217 – Iulianus Basilius epistolae duas, epp. XXXIX, XL: Nicene VIII 2, 141-142 (=P.G. XXXII 339-343 – Basilius ad haec luliano, ep. XLI. Nicene VIII 2, 142-143 (=P.G. XXXII 344-348)- Athanasio Alexanriae episcopo, epp. LXI, LXVI, LXVII, LXIX, LXXX, LXXXII: Nicene VIII 2, 161-163,164 171-173 (=P.G. XXXIII 416-417, 424-425, 425- 428, 429-433, 456, 457-460) – Meletio episcopo Antiochiae. Epp. LVII, LXVIII, LXXXIX, CXX, CXXIX, CCXIV: Nicene VIII 2, 159, 164, 175, 192, 197, 255, (=P.G.XXXII 406-408, 428-429, 469-472, 537-540, 557-561, 791-794) Ad episcopos Italos et Gallus, epp. XCII, CCXLIII: Nicene VIII 2, 177-179, 283-285, (=P.G. XXXII 477-484, 901-912) – Sanctissimis fratrubus ac episcopis Occidentalibus, epp, XC, CCXLII, CCLXIII: Nicene VIII 2, 176, 282, 301 (=P.G. XXXII 472-476, 899-902, 973-982) – Petro episcopo Alexandria. Ep. CCLXVI: Nicene VIII 2, 305-

306 (=P.G. XXXII 991-996) – Eusebio episcopo Samosatorum, epp. XLVIII, XCVIII, C. CXXVII, CXLI: Nicene VIII 2, 153-182, 184, 196, 204 (=P.G. XXXII 384-385, 496-497, 501-505, 553, 589-592).

GYRILLVS, Catecheses. Nicene VII 2, 1-151 (=P.G. XXXIII, 331-1000).

EVSEBIVS, Historia ecclesiastica; Nicene I, 2, 73-387 (=P.G. XX, 45-906-Vita Constantini: Nicene I. 2, 473-580 (=P.G. XX 905-1232).

GENNADIVS, De viris illustribus: Nicene III 2, 385-402.

GREGORIVS NAZIANZENVS, Orationes contra Iulianum IV, V (=P.G. XXXV 531-720 – Oratio VII: Funebris in Laudem Caesarii oratio: Nicene VII 2, 229-238 (=P P.G. XXXV 755-788)- Funebris oratio in patrem. Oratio XVIII : Nicene VII 2, 254-269 (=P.G. XXXV 985-1044) – In Laudem magni Athanasii episcopi Alexandrini, oratio XXI: Nicene VII 2, 269-280 (=P.G. XXXV 1081-1128) – Adversus Arianos, oratio XXXIII: Nicene VII 2, 328-334 (=P.G. 213-238) – Funebris oratio in Laudem Basilii Magni Caesareoe in Cappadocia episcopi. Oratio XLIII: Nicene VII 2, 395-422 (= P.G. XXXVI 493-606).

GREGORIVS NYSAEVS, Contra Eunomoium: Nicene V 33-248 (=P.G. XLV 243-1122).

HIERONIMVS, De viris illustribus: Nicene III 2, 359-384 (= P.L. XXIII 2, 601-720) – Dialogus contra Luciferianos: Nicene VI 2, 319-334 (=P.L. XXIII 29-54). Vita S. Pauli primi eremitae: Nicene VI 2, 299-303 (=P.L. XXIII 17-28).

HILARIVS, De Synodis seu fide Orientalum: Nicene IX 2, 4-29 (P.L. 441-456) – Contra Constantium Imperatorem: (=P.L. X. 609-624) – Quindecim Fragmenta ex opere historico: (P.L.X. 619-724) – Libri duo ad Constanitium Augustum: (P.L.X. 557-572).

LACTANTIVS, De mortibus persecutorum: Ante Nicene VIII 301-322 (=P.L. VII 2, 189-276).

Nicene and post Nicene Fathers of the christian church. Ed by Philip Schaff; Henry wade. Michigan 1891 et sqq.

PALLADIVS, Historia Lausiaca. Trans. Budge (in stories of the Holy Fathers) London 1934.

Patrologiae, Cursus Completus Series Graeca. Ed. Migne. Paris 1854 et eqq.

Patrologiae, Cusus Completus Series Latina. Ed. Migne. Paris, 1844 et Sqq.

RVFINVS, Historia Ecclesiastica: P.L. XXI 467-538-Historia Monachorum: P.L. XXI 391-462

SOCRATES, Historia Ecclesiastica, Nicene II 2, 1-178 (=P.G. LXVII 29-842).

SOZOMENOS, Historia Ecclesiastica: Nicene II 2, 239-427 (=P.G. LXVII 843-1630).

SVLPECIVS SEVERVS, Historia Sacra: Nicene XI 2, 71-122 (=P.L. XX 95 – 160).

Vita S. Matrini: Nicene XI 2, 3-17.

THEODORETVS, Historia Ecclessiastica: Nicene III 2, 33-159 (=P.G. LXXXII 3, 881-1280).

ثانياً: المخطوطات

سير قديسين: مخطوط رقم ٤٤٠ بالمراقبة الفنية بآداب الاسكندرية، (سيناء ـ عربى).

سير قديسين: مخطوط رقم ٨٠٦ / تاريخ. بمكتبة بطريركية الاقباط الأرثوذكس بالقاهرة.

فرق الهراطقة (لابيفانوس)، مخطوط رقم ١٧٨ ـ ١٧٩ / ١٨٠ / لاهوت بمكتبة البطريركية بالقاهرة.

قليل من سير آبائنا القديسين وأقوالهم، مخطوط رقم ١٠٤/١٠١٤ تاريخ بمكتبة البطريركية بالقاهرة.

قوانين الرسل، مخطوط رقم ١٥٠ بالمراقبة الفنية بآداب الاسكندرية (سيناء – عربى).

قوانين المجامع والملوك، مخطوط رقم ٣ / قانون. بمكتبة البطريركية بالقاهرة.

القوانين المقدسة والمجامع الطاهرة، مخطوط رقم ٣٩٠ بالمراقبة الفنية بآداب الاسكندرية (سيناء – عربى).

ثالثاً: المراجع الأوربية

Allard (P.), La christianisme et L'Empire Romain, de Néron à Theodose. Paris, 1925.

- S. Basil. Dict. De théol. Cath., III, Col. 441-459.

Artz (F.B.), The mind of the Middle Ages,200-1500, an histoircal survey. New York 1953.

Atiya (A.S.), History of Eastern christianity. London 1958.

Aymarp (A.), Auboyer (S).

Historie Générale des civilisation. 7 tomes, Paris 1962.

Ball (S.), Egypt in the classical Georgraphers. Cairo 1942.

Bardenhewer (O.), Les Pérs de l'église, Leur vie et leurs ouvres, 3 tomes. Paris 1899.

Baynes. (N.H.), Byzantium, An introduction to East Roman civilisation, ed. By N.H. Baynes and Moss Oxford, 1969. –Constantine (C.A.H. vol. XII).

Boak. (A.E.R.), A history of Rome to 565 A.D. New York 1960.

Browne (CH. G.), Prolegomena (GREGORIVS NAZIANZENVS, orationes et epistolae): Nicene VII 2, 187-202.

Budge (E.A.W.), Stories of the Holy Fathers, London 1934.

Bullough (S.), Roman Catholicism. London, 1963.

Burckharde (J.), The age of Constantine the Great. Transl. By Moses Hadas. U.S.A. 1949.

Burkitt (F.C.), The christian church in the East. (Cam. Anc. Hist. XII) pp. 476-593.

Butcher (E.L.), The story of the church of Egypt. 2 vol. London, 1897.

Cadbury (E.), Schism in the early church, London, 1953.

Cambridge Ancient History. Ed. By J.B. Bury; S.A. Cook; F. E. Adcock, 12 vols. Cambridge, 1939.

Cambridge Medieval History. Planned by J.B. Bury. 8 vols. Cambridge, 1936.

Cantor (N.), Medieval history: the life and death of a civilization. New York 1963.

Catholocisme, heir. Aujourd'hui et deman: Encyclopédie en sept volumes. Paris, 1948.

The Catholic Encyclopedia. 15 vols. New York, 1913.

Cavallera (F.), Saint Athanase. Paris, 1908.

Chadwik (H.), The Early church. London, 1974.

Cochrane (C.N.), Christianity and classical culture: a study of thought and action from Augustus to Augustine. Oxford, 1940.

Copleston (f.), A history of Philosophy, vol. 2, p. 1 New York, 1962.

Coxe (C.), Introductory note to the Clement of Alexandria : Ante Nicene II 165-169.

Creed (J.M.) Egypt and the christian church , in (Legacy of the Egypt) . Oxford 1947 .

Crombie (F.), Introductory note to the works of Origan of Alexandria: Ante Nicene VI 221-234.

Davis (R.H.C.), A history of Medievel Europe from Constantine to Saint Louis. London, 1957.

De Romestin (H.), Prolegomena (AMB. Select works): Nicenc X2, 11-22.

Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclesiastiques, 25 tomes. Paris.

Ditcionnaire de théologie Catholique 15 tomes Paris 1923 et sqq.

Diehl (Ch.), L'Egypte Chrétienne et Byzantine (Histoire de la Nation Egyptienne. 6 tomes) Paris 1931.

Downey (G.), A history of Antioch in Syria from Seleucus to The Arab conquest. New Jersey 1961.

Ancient Antioch. New Jersey 1963.

Duchesne (M. L.), Early history of the christian church from its foundation to the fifth century. Trans. In 3 vols. London 1950.

Dudley (D. R.), The civilisation of Rome, New York 1962.

Encyclopaedia Britannica. London 1958.

Encyclopaedia of Religion and Ethics 12 vols. London 1925. et Sqq.

Evetts (B.), History of the Patriarchs of the Coptic church of Alexandria. Paris 1904.

Fliche (A.), - Martin (V.), Histoire de l'église dépuis les origines jusqu'à nos jours 21 tomes. Paris 1936 et Sqq.

French (R.M.) The Eastern Orthodx church. London, 1951.

Gibbon (E.), The decline and Fall of the Roman Empire, ed . J. B. Bury in 7 vols. London 1929.

Gibbon (E.H.), Introduction (CYRIL. Catech) : Nicene VII 2, 1-58.

Gwatkin (H.M.), The Arian Controversy. London 1914. - Arianism (C.M.H.) vol. 1.

Hardy (E.R.), Christian Egypt : church and people, Chistianity and nationalism in the Patiarchate of Alexandria, New York 1952.

Hefele (C.S.), Histoire des Conciles. 3 tomes, Paris 1907 et sqq.

Hemmer, Histoire de L'église 2 tomes. Paris 1899.

Hulme (E.M.), The Middle Ages. New York 1938.

Hyatt (A.T.), Church and State. London.

Jackson (B.), Prolgomena (BASIL. Opera omnia) : Nicene VIII 2, 13-77.

Jackson (F.), The History of the christian church from the earlist times to the death of S. Leo the Great A.D. 461 London 1909.

Johnson (A.CH.), West (L.C.), Byzantine Egypt : economic studies. Princeton 1949.

Jones (A.H.M.), The later Roman empire 284-602. 3 vols. Oxfords 1964.

Constantine and the conversion of Europe. London 1948.

-Egypt and Rome (Legacy of Egypt) Oxford 1947. The cities of the Eastern Roman provinces. Oxford 1937. -The decline of the Ancient world. London 1966.

Jones (H.S.), The Roman empire. London 1903.

Kelly (J.N.D.), Early christian creeds. London 1950.

Khs-Burmester, The Egyptian or Coptic church. Cairo 1967.

Kidd (B.J.), A history of the church to A.D. 461. 2 vols. Oxford 1922.

Kuhner (H.), Encyclopedia of the Papacy. London 1959.

Labourt (J.), Le christianisme dans L'empire Perse sous la dynastic Sassandie 224-632. Paris 1904.

Lampert (W.), The canons of the first four general Councils of the church and those of the early Local Greek Synonds. London.

Latourette (K.S.), A history of Christianity. London 1955.

-A history of the expansion of Christianity. 7 vols New York 1937 et sqq.

Lebreton (J.), Zeller (J.), The history of the primitive church. Trans. In 2 vols by Ernest C.Messenger. New York 1947.

Lietzmann (H.), Histoire de L'église. 3 tomes Paris ,1936-1941.

Lot (F.), The end of the Ancient world and the beginnings of the Middle Ages. London 1933.

Lot (F.), Pfaster (C.), Histoire du Moyen Age. 3 tomes. Paris 1928.

Macaire (G.), Histoire de L'église d'Alexandrie. Le Caire. 1894.

Martin (H.), Histoire de France. 8 tomes. Paris 1849 et Sqq.

McGiffert (A.C.), Prolegomena and notes (EVSEB. Hist. Eccl.) : Nicene I 2, 3 – 73.

Milne (J.G.), A history of Egypt under Roman rule. London 1924.

Moore (W.), Prolegomena (GREG. NYS. Scelect works.) : NiceneV 2, 1-23.

Mourret (F.), Histoire general de l'église. 9 tomes. Parius 1936.

Musset (P.H.), Histoire du Christianisme. Specialement en Orient. 2 tomes. Liban 1948.

Neal (J.M.),A history of the holy Eastern church. The Patriarchate of Alexandria, 2 vols. London 1847. -A history of the holy Eastern church, together with memories of the Patrirachs of Antioch by Constantius Patriarch of Constantinople. Trans. From the Greek by williams G. London.

Neander (A.), Lectures on the history of Christian Dogmas. 2 vols. London 1882.

- General history of the christian Religion and Church,trans from the German by Joseph Tarrey. 9 vols. London 1851-1858.

The New Schaff – Herzog encylopedia of Religious Knowledge. 13 vols. Michigan 1957 et Sqq.

Nock (A.D.), The development of Paganism in the Roman empire (Cam. Anc. Hist. Vol. XII).

O'Leary (De L.), The Coptic church and Egyptian monasticism (Legacy of Egypt).

Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine state. Trans by Joan Hussey. Oxford 1956.

Painter (S.), History of the Middle Ages 284-1500. New York 1954.

Paulcheneau. Les Saints D' Egypte. 2 tomes. Jerusalem 1923.

Percival (H.R.), The seven Ecumenical Councils : Nicene vol. XIV. Michigan 1899.

Richardson (Ch.), The church throug the centuries. New York 1938.

Richardson (E.C.), Introduction (EVSEB. Vita Const.) : Nicene I, 2, 411 – 469.

Roberts (A.), Preface and notes (SVLP.SEV. opera omnia) : Nicene XI 2.

Robertson (A.), Prolegomena (ATHANAS. Opera omnia) : Nicene IV 2, 11-87.

Rogier (L.J. – Aubert (R.) – Knowles (M.D.), Nouvell histoire de L'église. 4 tomes. Paris 1963. Premiére partie, des origines à la fin du troisieme siécel par Jean Daniélou.

Roncaglia (M.), Histoire de L'église. Copt. 2 tomes. Liban 1966.

Rostovtzeff (M.), A history of the Ancient world, trans. from the Russain in 2 vols. By J. D. Duff. Oxford 1933.

Sansterre (J.M.), Eusébe de Cèsarée et la naissance de la théorie "Céasropapiste" (Byzantion. Tome XLII – 1, 2) 1972.

Schaff (Ph.), History of the chrstian church. 8 vols. Michagan 1956 et Sqq.

Smith (P.G.), The church in the Roman empire. Cambridge 1932.

Sourcus Chretiennes, ed par Lubac (S.J.) – Daniélou (S.), tomes 15, 18, 56, Athanase d'Alexandrie, Tom 15, Lettres a Serapion , introd . par Josep. Labon. Paris 1947.

- Tome 18, contre Les Paiens et l'encarnation du Verbe introd. Par Camelot. Paris 1946.

- Tome 56, Apologia a l'Empereur Constance, et Apologie pour sa Juite , introd par , Jan M. Szymusiak , Paris 1958.

Stanley (R.J.), Lectures on the history of the Eastern church. London 1864.

Stephenson (C.), Mediaeaval history : Eprope from the Second to the sixteenth century. New York 1962.

Sykes (P.), A history of Persia. 2 vols. London 1930.

Tarn (W.), Hellemistic Civilisation. London 1966.

Thompson (J.), - Johnson (E.), introduction to Medival Europe 300-1500. New York 1965.

Tixeront (J.), Histoire des dogmas dans L'antiquité chrétienne 3 tomes , Paris 1931.

Turner (C.H.), Studies in early church history. Oxford 1912.

Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine empire 324 – 1435 2 vols. Madison and Milwaukee 1964.

Waddell (H.), The desert Fathers. London 1946.

Wand (J. W. C.), A history of the early church to a A. D. 500. London 1937.

Ware (T.), The Orthodox church. London 1967.

Watson (E. W.), Introduction (HILAR. Select works) : Nicene IX 2, 1 – 96.

Zananiri (G.), Histoire de L'église Byzantine. Paris 1954.

Zenos (A. C.), Introduction (SOCRAT Hist. Eccl.) : Nicene II 2, 7 – 17.

رابعا : مؤلفات عربية ومترجمة

● إبراهيم نصحى (دكتور) ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة . الجزءان الأول والثانى القاهرة ١٩٦٠ .

● أسد رستم (دكتور) ، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب ، جزءان ، بيروت ١٩٥٥.

● كنيسة أنطاكية مدينة الله العظمى — ٣ أجزاء ، بيروت ١٩٥٧.

● ج . كرامب ، أ / جاكوب ، تراث العصور الوسطى جزءان . ترجمة مجموعة من الأساتذة وراجعه محمد بدران ودكتور محمد مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٦٥.

● جلانفيل دوانى ، أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس الكبير ، ترجمة ألبرت بطرس. بيروت ١٩٦٨.

● جورج سارتون ، تاريخ العلم (٦ أجزاء) ، الجزءان الرابع والخامس ترجمة مجموعة من الأساتذة بإشراف الدكتور محمد مصطفى وآخرين . القاهرة ١٩٦٣ وما بعدها .

● رأفت عبد الحميد (دكتور) ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى . القاهرة، دار المعارف ١٩٨٢.

● عبد اللطيف أحمد على (دكتور) ، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية . القاهرة ١٩٦٧.

● القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ١٤ جزء القاهرة ١٩٦٣.

● كريستوفر دوسن ، تكوين أوربا. ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ودكتور سعيد عبد الفتاح عاشور . القاهرة ١٩٦٧.

● مصطفى العبادى (دكتور) ، مصر من الإسكندر إلى الفتح العربى ، القاهرة ١٩٦٦.

● نورمان بينز ، الإمبراطور البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمد زايد ، القاهرة ١٩٥٧.

● ول ديورنت ، قصة الحضارة . المجلد الثالث ترجمة محمد بدران . القاهرة ١٩٦٤.

● يوحنا موسهيم ، تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة الحديثة . ترجمة القس هنرى هس . بيروت ١٨٧٥.

فهرس

الموضوع | الصفحة



الفصل الأول



الفصل الثانى



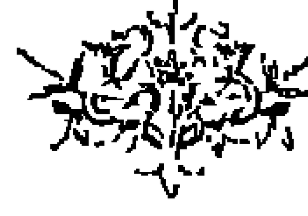
الفصل الثالث



الفصل الرابع



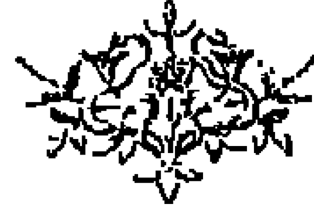
الفصل الخامس



الفصل السادس



الفصل السابع



الفصل الثامن



الفصل التاسع



الفصل العاشر



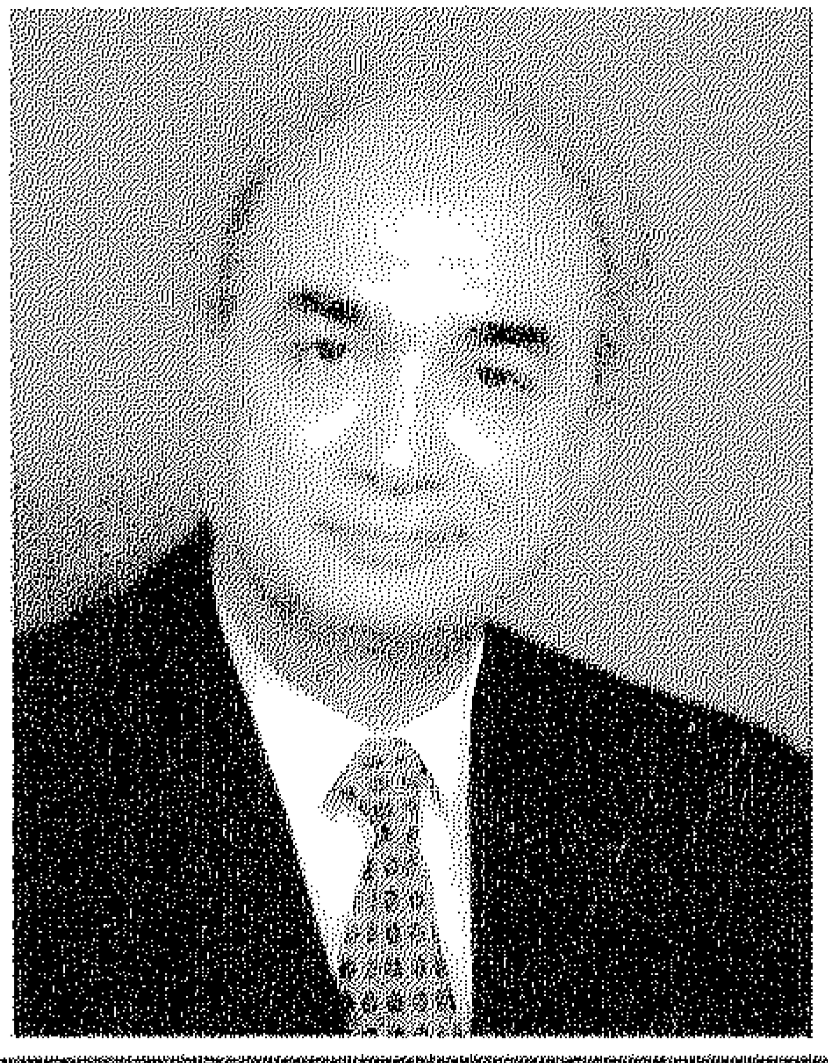


دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

☎ ٦٣٧٤٠٣٨ / ٦٣٦٢٥٦٢



هذا الكتاب

لم يكن الفكر السياسى الرومانى يقبل مطلقاً بوجود دولة داخل الدولة، مهما كان شكل هذه الدولة "الداخلة" وماهيتها، حتى وإن غدت الإمبراطورية الرومانية مسيحية، والإمبراطور الرومانى هو "نائب المسيح" على الأرض، والكنيسة هى هذا الكيان الجديد.

وكان طبيعيا أن تدخل هذه العلاقة فى تجربة بعد أن مالت الدولة إلى المسيحية فى أوائل القرن الرابع الميلادى، وبعد أن سمحت لأتباعها بممارسة طقوسهم، وإن لم تكن قد أصبحت بعد ديانة رسمية، لأن هذا حدث فى أخريات سنى القرن ذاته. وكان أسقفا روما والاسكندرية بصفة خاصة آنذاك يقودان هذا الاتجاه فى مواجهة الدولة، وإن كان كل منهما يعالج الأمر من وجهة نظره الخاصة، وطبيعة المنطقة التى يحياها، فالأسقف الرومانى كان يضع إرهاصات نظرية السمو البابوى التى أضحت سمة الغرب المسيحى فى العصور الوسطى، بينما كان الأسقف السكندرى ينافح عن مكانة مرموقة تحتلها مصر فى عالم الامبراطورية، وسموا فكريا بلغته الاسكندرية بمدرستها اللاهوتية.

أحمد غريب